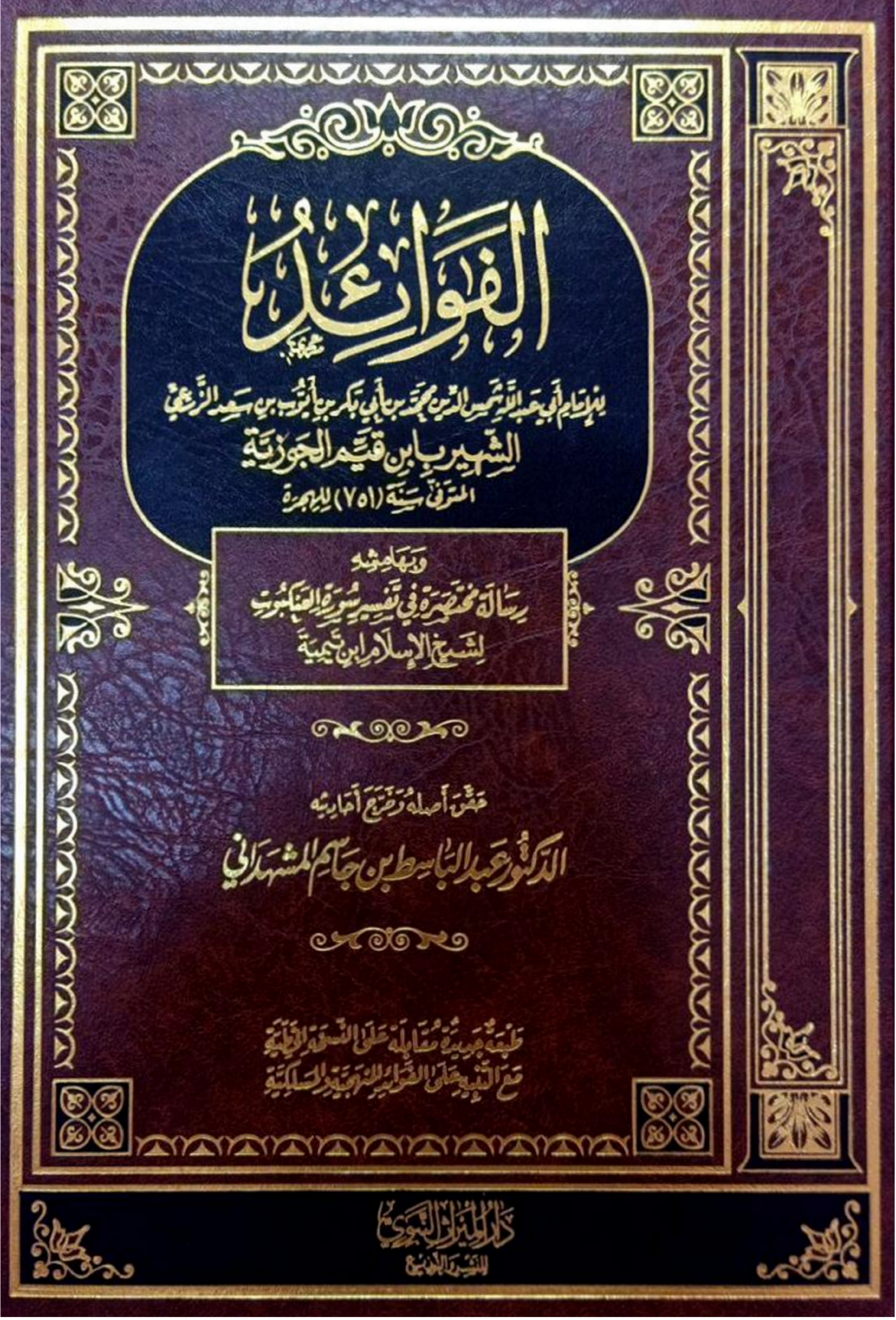

الفوائد
للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي
الشهير بابن قيم الجوزية
المتوفى سنة (٧٥١) للهجرة
وبهامشه
رسالة مختصرة في تفسير سورة العنكبوت
لشيخ الإسلام ابن تيمية
حقق أصله وخرج أحاديثه
الدكتور عبد الباسط بن جاسم المشهداني
طبعة جديدة مقابلة على النسخة الخطية
مع التنبيه على الفوائد المنهجية السلوكية
دار الميراث النبوي
للنشر والتوزيع



الفوائد

للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي

الشهير بابن قيم الجوزية

المتوفى سنة (٧٥١) للهجرة



العلمُ ميراثُ النبيِّ كذا أتى	في النّص والعلماء هم وُرّاثه
ما خلّف المختارُ غيرَ حديثه	فينا فذاك متاعُه وأثاثُه

التوزيع في المملكة العربية السعودية

: مكتبة ميراث الأنبياء

جدة – حي الجامعة – مسجد الأمير متعب

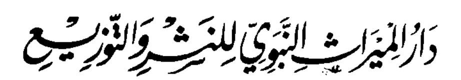
ت : 00966562737777

مكتبة دار النصيحة

المدينة النبوية – حي الفيصلية- أمام الباب الجنوبي للجامعة الإسلامية

ت : 00966595982046





الصنوبر البحري - المحمدية - الجزائر العاصمة

الإدارة : 554250098 (00213) المبيعات:550471594(00213)



@mirathennabawi



للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي

الشهير بابن قيم الجوزية

المتوفى سنة (٧٥١) للهجرة

وبهامشه

رسالة مختصرة في تفسير سورة العنكبوت

لشيخ الإسلام ابن تيمية

حقق أصله وخرج أحاديثه

الدكتور عبد الباسط بن جاسم المشهداني

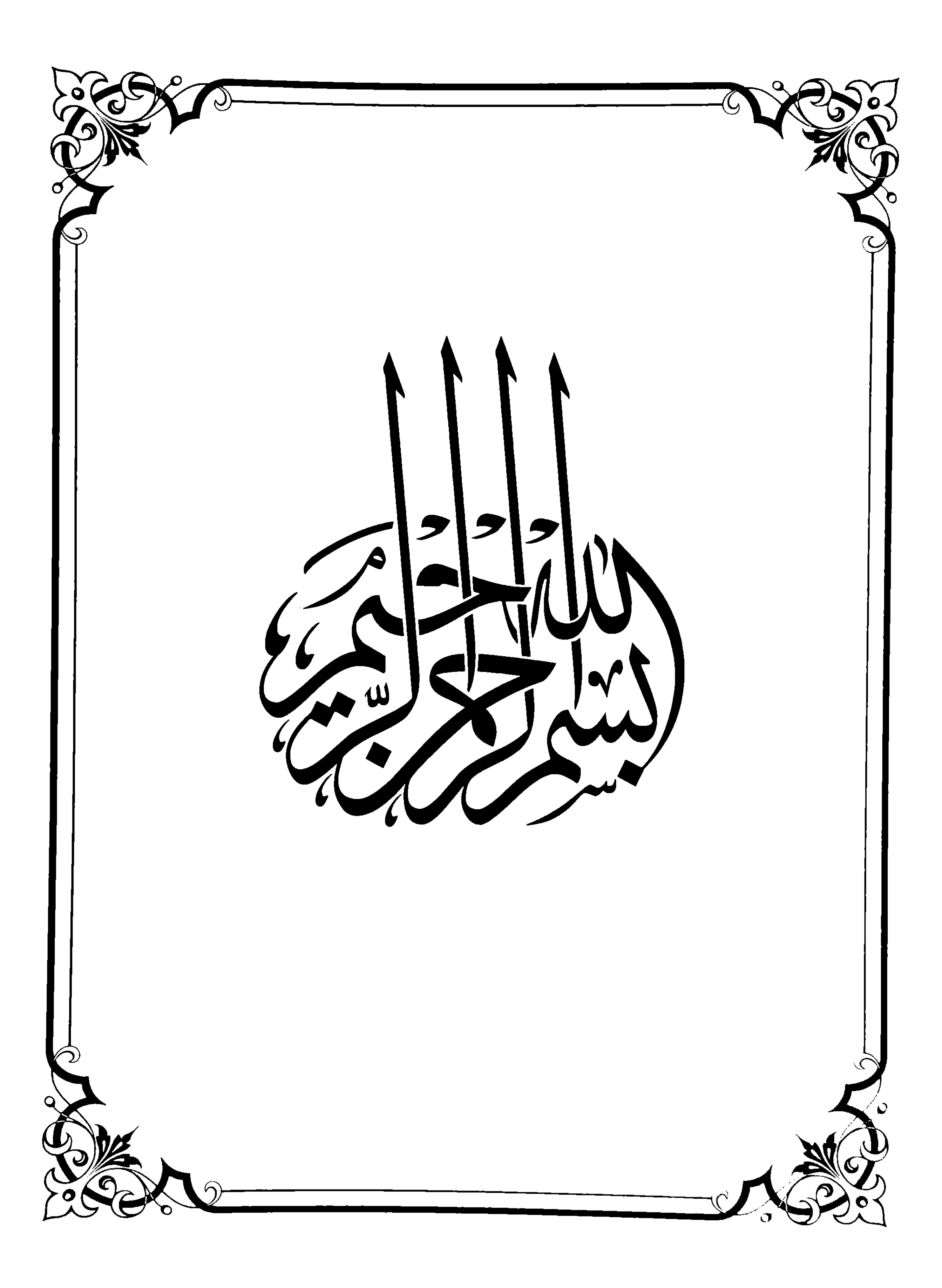
الطبعة الأولى

طبعة جديدة مقابلة على النسخة الخطية

مع التنبيه على الفوائد المنهجية والمسلكية

دار الميراث النبوي

للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه ﷺ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النَّار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أمَّا بعد:

فإنَّ كتاب الفوائد للإمام ابن قيِّم الجوزية مِن أهمِّ الكتب؛ حيث إنَّه ذكر فيه فوائد متعدِّدة في بيان أمور التَّوحيد العلميِّ والعمليِّ، وما يجب على العباد تجاه دين الله تعالى من تعلُّمه وتعليمه، حيث إنَّ الله تعالى أبان لهم دينه وأمرهم باتِّباعه.

والمقصود: أنَّ هذا الكتابَ القيِّمَ احتوى على فوائد عظيمة، لا غنًى لطالب الدَّار الآخرة عنها، بأسلوب رائع ومدلَّل بالأدلَّة الكثيرة من كتاب الله تعالى، وسنَّة رسوله ﷺ، ومنهج سلف الأمَّة من الصَّحابة والتَّابعين وتابعيهم رضي الله عنهم.

ولهذا فإنَّ ابنَ عُروة الحنبلي عنون هذا الكتابَ بقوله:

فوائدُ شتَّى ونكتٌ حسانٌ من تفسير آية أو حديث أو أثر سلفيٍّ تتعلَّق بعلم التَّوحيد القوليِّ العلميِّ، والعمليِّ الإراديِّ.

وهـذا العنـوان في الحقيقة يمثِّل موضوعَ الكتـاب؛ وهو التَّوحيـد بنوعيه؛ العلميِّ القوليِّ، والإراديِّ الطَّلبيِّ.

ومع ذلك فقد اشـتمل الكتـاب على فوائد أخرى متنوعة متعلِّقة بسـلوك الصِّراط المستقيم، وأسباب الهداية له والثَّبات عليه، وكذلك اشتمل الكتاب فوائدَ أخرى علميَّة: كتفسـير آية أو حديث أو أثرٍ عن أحد الصَّحابة أو التَّابعين، كما أنَّه اشـتمل على التَّرغيب في الدَّار الآخرة، والتَّزهيد من الانشغال بالحياة الدُّنيا.

وذكـر آثارًا عظيمةً من كلام الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وخصَّص فصلًا من كلام عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ذكر خلاله آثارًا له لا يُستغنى عنها.

وكذلـك اشـتمل الكتاب على فوائـد منهجيَّة علميَّـة لخَّصتُها في عشـر فوائدَ، كما سيأتي أثناء المقدِّمة.

وكذلك ذكر ابن القيم مسألة عظيمة النَّفع ألا وهي: أنَّ جنس فعل المأمورات أفضلُ عند الله تَعَالَىٰ من جنس ترك المنهيَّات، وحققَّها تحقيقًا بديعًا، وذكر ضمنَها مسألةَ: هل الأمر بالشَّيء نهيٌ عن ضدِّه أم لا.

ولذلـك جاء الكتـاب جامعًا لعلوم نافعـة، وأعمال صالحة، وأخـلاق زاكية، كلُّها مستنبطةٌ من الكتاب والسُّنَّة.

❀ ❀ ❀

ابن القيّم وكتابه «الفوائد»

ذكـر ابن عروة الحنبلي[١] هـذا الكتاب ضمن كتابه الكبـير (الكواكب الدراري في ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاري)[٢] وسمَّاه:

فوائـد شتَّى ونكـتٌ حسـانٌ من تفسـير آية أو حديـث أو أثر سـلفيٍّ تتعلَّـق بعلم التَّوحيـد القوليّ العلميّ، والعمليِّ الإراديِّ، وهي مِن كلام الشَّـيخ الإمام العالم العلَّامة، مفتـي المسـلمين، بحر العلـوم؛ أبي عبد الله شـمس الدِّين محمَّد بن أبي بكـر بن أيُّوب بن سعد الزُّرعي الشَّهير بابن قيم الجوزيَّة، وهي غير بدائع الفوائد له، وهي: إمَّا فائدة تعود إلى معرفةٍ أو سلوكٍ أو تحذيرٍ من قاطع أو تنبيه على مقصود[٣].

فذكر ابن عُروة الحنبليُّ اسـمَ الكتاب ومؤلِّفه وموضوعَه وأشـار إلى أنَّه غير كتاب (بدائع الفوائد) لابن القيِّم أيضًا.

وكلامُ ابن عُروة صريحٌ بأنَّ هذا الكتاب لابن القيِّم، وليس لأحدٍ غيرِه، وصرَّح في أكثر مِن موضعٍ من الكتاب بقوله: وقال ابن القيِّم.

---

(١) هـو: عليُّ بن حسـين بن عُروة، أبو الحسـن المشرقـي، ويقال له: ابن زكنون، المتـوفى (٨٣٧ هـ). قال الزركليُّ: فقيهٌ حنبليٌّ، عالمٌ بالحديث وأسـانيده. وفاته في دمشـق. أشهرُ تصانيفه: «الكواكب الدَّراري في ترتيب مسـند الإمام أحمد على أبواب البخاري - خ» كبير جدًّا، و«السِّـيرة النَّبويَّة - خ» منتزعة من (الكواكب). «الأعلام».(٤/ ٢٨٠-٢٨١).
وذكر السَّخاويُّ شيئًا من ترجمته في كتابه «الضَّوء اللَّامع» (٣/ ٥٧).

(٢) ذكره السَّخاويُّ في «الضَّوء اللَّامع» (٣/ ٥٧)، فقال: حتَّى إنّه رتَّب المسند على أبواب البخاري وسمَّاه: الكواكب الدَّراري في ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاري، وشرحه في مائة وعشرين مجلدًا، طريقتـه فيـه أنَّه إذا جاء لحديث الإفك مثلاً يأخذ نسـخةً من شرحه للقـاضي عياض فيضعها بتمامها، وإذا مرَّت به مسألة فيها تصنيف مفرد لابن القيِّم أو شيخه ابن تيمية أو غيرهما وضعه بتمامه، ويستوفي ذاك الباب من «المغني» لابن قُدامة ونحوه.

(٣) وسمَّاه محمَّد منير الدِّمشقي بـ (الفوائد) مختصرًا هذا الاسم من قول ابن عُروة، ثمَّ اشتهر الكتاب بهذا الاسم.

وممَّا يدلُّ على ذلك أيضًا أنَّه ذكر كتبًا من كتب ابن القيِّم أثناء الكتاب مثل كتاب: (اجتماع الجيوش الإسلاميَّة)، و(إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين)، و(شفاء العليل).

قال ابن القيِّم: «وقد ذكرنا مَا تضمَّنت هذه الآية من الأسرار والعِبَرِ في كتاب: (اجتماع الجيوش الإسلاميَّة على غزو المعطلة والجهميَّة)، فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن فيجدُها كأنَّها قد كُتِبَت فيه، فهو يقرأُها عن ظَهْرِ قلبٍ».

وقال: «وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة في القرآن في كتابنا «المعالم»، وبيَّنَّا بعضَ ما فيها من الأسرار والعبر».

وقال: «وقد استوفينا الكلام في هذا في كتابنا الكبير في القضاء والقدر».

وكذلك كان يصرِّح في أكثر من موضع في الكتَاب بذكر شيخ الإسلام ابن تيمية، ويصرِّح بقول: شيخنا.

قال ابن القيِّم: «فسألت شيخنا هل يدخل في ذلك قضاء الذَّنب، فقال: نعم؛ بشرطه».

وقال: «وقال لي شيخُنا مرَّة في وصف هؤلاء: إنَّهم طافوا على أرباب المذاهب، ففازوا بأخسِّ المطالب، ويكفيك دليلًا على أنَّ هذا الَّذي عندهم ليس من عند الله ما ترى فيه من التَّناقض والاختلاف، ومصادمة بعضه لبعض.

وأيضًا فإنَّ من عرف أسلوب ابن القيِّم في كتبه يجزم بأنَّ هذا الكتاب من تأليفه ووضعه.

مع أنِّي لم أجد أحَدا ذكر أنَّ لابن القيِّم كتابًا اسمُه: (الفوائد)، والظَّاهر أنَّه لم يُعرَف عنه، أو أنَّه لم ينتشر عنه.

والسَّبب - والله أعلم - أنَّ ابنَ القيِّم أَلَّف كتابَه (الفوائد) خلال فترة طويلة، يكتب فيه ما يخطر له من الفوائد الجليلة، والنُّكت البديعة.

وأَلحق ابن عُروة الحنبلي في آخر كتاب (الفوائد) بعد أنْ ذكر تفسير سورة (القصص)، رسالةً لشيخ الإسلام ابن تيمية في تفسير سورة (العنكبوت)، ولم يفصل بينهما بشيء سوى أنَّه قال: «قال شيخ الإسلام بحر العلوم مفتي الفِرق أبو العبَّاس أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وممَّا يدلُّ على أنَّ هذه الرِّسالة ليست من كتاب (الفوائد) أمران:

الأوَّل: أنَّ ابن عُروة ذكر رسالة شيخ الإسلام لـمَّا جاء عند تفسير سورة (العنكبوت)، ذكر شيئًا منها، ثمَّ أعقبها بذكره لرسالة شيخ الإسلام في تفسيرها.

الثَّاني: أنَّه فصل بين كتاب (الفوائد) وبين رسالة شيخ الإسلام بتفسير سورة (القصص) وشيءٍ من سورة (العنكبوت).

وهذا الجزء من كلام شيخ الإسلام موجود في (جامع الرَّسائل والمسائل) (٣/ ٢٥٣) كما بينته هناك.

وأمَّا عبارة: «تمَّ الكتاب، والحمد لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّى الله على رسولِنا محمَّدٍ النَّبيِّ الأمِّيِّ، وعلى آله وصحبه وتابعيه والمقتدين بآثارهم إلى يوم الدِّين، وآخرُ دعوانا أنْ الحمدُ لله ربِّ العالمين» التي أُضيفت في آخر الكتاب؛ فهي ليست من كلام ابن عُروة الحنبليِّ، وإنَّما هي من كلام بعض المحققِّين - والله أعلم -.

ورأيتُ أنْ أُبقيَ كلام شيخ الإسلام ابن تيمية مع كتاب (الفوائد)، مع بيان أنَّه ملحق والله تَعَالَىٰ أعلم.

طبعات الكتاب:

طبع الكتاب عدَّة طبعات؛ من أهمِّها:

طبعة الشَّيخ محمَّد منير الدِّمشقي في مطبعة المنيريَّة بالقاهرة سنة (١٣٤٤هـ)، وهي أوَّل تلك الطَّبعات، وسمَّاه بـ (الفوائد)، وهو أوَّل مَن سمَّاه بهذا الاسم، ثمَّ اشتهر بعدَه به.

ثمَّ طُبع الكتاب طبعات أخرى، وأفضل تلك الطَّبعات:

طبعةُ مجمع الفقه الإسلامي بجدَّة، بتحقيق: محمَّد عزير شمس، وبإشراف الشيخ الدُّكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، ونشر في دار عالم الفوائد سنة (١٤٢٩ هـ).

وراجعه كلٌّ من: جديع بن محمّد الجديع، ومحمّد أجمل الإصلاحي، وعليُّ بن محمَّد العمران.

فمع عملهم الكبير إلَّا أنَّهم وقعوا في بعض الأخطاء، وهذه الأخطاء عبارة عن سقطٍ أو زيادةٍ أو تغييرٍ حصل في عبارة أو كلمة أو غير ذلك، وهي كالآتي:

القسم الأوَّل: سقوط عبارة أو كلمة مع وجودها في الأصل:

١- سقطتْ عبارةُ: «مَن خلقهُ اللهُ للجنَّةِ لم تَزَلْ هداياها تأتيه من المكارهِ، ومَن خلقهُ للنّارِ لم تَزَلْ هداياها تأتيهِ من الشهوات». من طبعة (المجمع) مع وجودها في الأصل كما في (ص: ٧٨) من هذا الكتاب.

٢- سقطت الواو مِن (وهؤلاء) من طبعة (المجمع) عند عبارة (وهؤلاء يقال لهم) مع وجودها في الأصل كما في (ص: ٩٦).

٣- سقطت كلمة (الثقة) من طبعة (المجمع) عند عبارة (فيه الحَياةُ والثِّقةُ)، مع وجودها في الأصل كما في (ص: ١٧٢).

٤- سقطت كلمة (مطلقًا) من طبعة (المجمع) عند عبارة: (أنَّ مَن فعلَ المأموراتِ والمنهيَّاتِ؛ فهو: إمَّا ناجٍ مطلقًا) مع وجودها في الأصل كما في (ص: ٢٢٣).

٥- سقطت الواو من طبعة (المجمع) عند عبارة: (وإمَّا في باطل) مع وجودها في الأصل كما في (ص: ٣٢٢).

٦- سقطت كلمة (نِعْمَ) من طبعة (المجمع) في عبارة: (فنِعْمَ السَّاكن ونِعْمَ المسكن) مع وجودها في الأصل كما في (ص: ٣٢٦).

٧- سقطت كلمة (إلَّا) من عبارة: (وإلَّا فهو مُضمَحِلٌ مُنقَطِعٌ) مع وجودها في الأصل كما في (ص: ٣٧٢).

القسم الثَّاني: زيادة عبارة أو كلمة غير موجودة في الأصل:

١- في (ص: ٨١): زيادة عبارة (حِرْصُكَ عليه) عند عبارة: (والغيرة على المحبوب) مع أنَّه ذكر محقِّق طبعة (المجمع) أنَّها من المطبوع كما في (ص: ٤٨) من طبعة (المجمع).

٢- في (ص: ٩٠): زيادة كلمة (قد) عند عبارة (وزالَ ودُّهُ) في البيت مع أنَّه جعلها بين معكوفتين للدّلالة على زيادتها كما في (ص: ٥٦) من طبعة (المجمع).

٣- في (ص: ١٣٨): زيادة كلمة (همَّة) في عبارة: (الهِمَّةُ العلية همةُ منْ استعدَّ) مع أنَّه جعلها بين معكوفتين أيضًا كما في (ص: ٩٧) من طبعة (المجمع).

٤- في(ص: ١٥٨): زيادة كلمة (قامَ) في قولِه: (كقولِكَ: يَشْتمُني)، وكذلك جعلها بين معكوفتين كما في (ص: ١١٦) من طبعة (المجمع).

٥- في (ص: ٢٣٤): زيادة كلمة (به) في عبارة (والمأمورُ محبوبُه والمنهيُّ مكروهُه)، مع أنَّه لم يجعله بين معكوفتين كما في(ص: ١٨٥) من طبعة (المجمع).

٦- في (ص: ٣٢٨): زيادة كلمة (فصل) عند قوله: (وسُئِلَ سَهْلٌ التَستُري)، كما في (ص: ٢٦١) من طبعة (المجمع).

القسم الثَّالث: تغيير بعض العبارات وبعض الكلمات مع أنَّ المحقِّق ذكر ما في الأصل:

١ - في (ص: ٦٢) تغيير كلمة (التحقيق) إلى (التحقق) في عبارة: (وفي التحقيق بمعنى قوله).

٢ - في (ص: ٦٤) تغيير كلمة: (نافذة) إلى (نافذان)، وكلمة (ماضية) إلى كلمة (ماضيان)، في عبارة: (والنَّوعان نافذة في العبد ماضية)، كما في (ص: ٣٣) من طبعة (المجمع).

٣ - في (ص: ١٠٤) تغيير كلمة (بأطوار) إلى كلمة (ناطور) في عبارة: (ثمَّ أقام عليه بأطوار المراقبة) كما في (ص: ٦٩) من طبعة (المجمع).

القسم الرَّابع: تغيير عبارة أو كلمة مع أنَّ المحقِّق لم يذكر ما في الأصل:

١ - في (ص: ١٠٣) تغيير كلمة (ثدييها) إلى كلمة (بثدييها) في عبارة: (تجوع الحرَّة ولا تأكل ثدييها)، كما في (٦٨) من طبعة (المجمع).

٢ - في (ص١١٣): تغيير كلمة (يُصلح) إلى كلمة (تصلح) في عبارة: (لأنَّ تقوى الله يُصلح ما بين العبد وبين ربه).

٣ - في (ص: ١٣٥) تغيير كلمة (المجرة) إلى كلمة (المعرة) في عبارة: (لمن أصرَّ ولَزِم المجرة) كما في (ص: ٩٤) من طبعة (المجمع).

٤ - في (ص١٨٢): تغيير كلمة (حاضر) إلى كلمة (حاصر) في عبارة: (وهذا تقسيم حاصر).

٥ - في (ص: ١٩٧) تغيير كلمة (أتباع) إلى كلمة (تلاميذ) في عبارة: (ولقد أخبرني بعض أصحابنا عن بعض أتباع أتباع هؤلاء) كما في (ص: ١٥٢) من طبعة (المجمع).

٦- في (ص: ٢٢٨) تغيير كلمة (بالضدين) إلى كلمة (بالضد) في عبارة: (فإن المقصود عدم الفعل والتلبس بالضِّدَّين).

٧- في (ص: ٣٦٦) تغيير كلمة (قاعدة) إلى كلمة (فصل) عند عبارة: (الطَّلب لقاح الإيمان) كما في (ص: ٢٨٩) من طبعة (المجمع).

٨- في (ص: ٣٧٧) تغيير عبارة (يقبل ما لا يقبله البهيم) إلى عبارة (لا يقبل ما يقبله البهيم)، كما في (ص: ٢٩٧) من طبعة (المجمع).

وهناك أمثلة أخرى سأذكرها؛ ليراجعها من أراد مراجعتها:

١- في (ص: ٣٧) تغيير كلمة (معها) إلى كلمة (معه).

٢- في (ص: ٤٥) تغيير كلمة (سورتي) إلى كلمة (سورة).

٣- في (ص: ٥٥) تغيير كلمة (وهو) إلى كلمة (وهي).

٤- في (ص: ٥٧) تغيير كلمة (تحصل) إلى كلمة (يحصل).

٥- في (ص: ٧٧) تغيير كلمة (تشغل) إلى كلمة (تشتغل).

٦- في (ص: ٧٩) تغيير كلمة (تتولد) في موضعين إلى كلمة (يتولد).

٧- في (ص: ١٠١) تغيير كلمة (فيها) إلى كلمة (فيه).

٨- في (ص: ١٢١) تغيير كلمة (ونعيمها) إلى كلمة (فنعيمها).

٩- في (ص: ١٣٣) تغيير كلمة (كان إبليس) إلى كلمة (وكان إبليس).

١٠- في (ص: ١٤١) تغير كلمة (بصفة) إلى كلمة (بصفات) في عبارة: (وإذا تجلى بصفة).

١١- في (ص: ١٤٣) تغيير عبارة (وأرسل حمامتين) إلى عبارة (وأرسل الله حمامتين).

١٢- في (ص: ١٤٧) تغيير عبارة (ما قيل أين الحنفية) إلى عبارة (ما قبل ابن الحنفية).

١٣- في (ص: ١٥١) تغيير كلمة (صبري) إلى كلمة (ضري).

١٤- في (ص: ١٥٢) تغيير كلمة (اطلبني) إلى كلمة (واطلبني).

١٥- في (ص: ١٥٣) تغيير كلمة (لا تنفق) إلى كلمة (لا ينفق).

١٦- في (ص: ١٦١) تغيير عبارة (وما أريد به) إلى عبارة (وهل أريد به).

١٧- في (ص: ١٦٦) تغيير كلمة (علمية) إلى كلمة (عملية).

١٨- في (ص: ٢١٠) تغيير كلمة (إن تخلى) إلى كلمة (إذا تخلى).

١٩- في (ص: ٢١١) تغيير كلمة (المحامد) إلى كلمة (المحاميد).

٢٠- في (ص: ٢١٦) تغيير عبارة (فإن اتخذت إليها) إلى عبارة (فإن اتخذت منها).

٢١- في (ص: ٢٢٨) تغيير كلمة (ويجب) إلى كلمة (ويحمد).

٢٢- في (ص: ٢٥٣) تغيير كلمة (عن) إلى كلمة (على) في عبارة: (الصَّبر عن الشَّهوة).

٢٣- في (ص: ٢٦١) تغيير كلمة (ونحو ذلك) إلى كلمة (فكلها) في عبارة: (ونحو ذلك من المهانة).

٢٤- في (ص: ٣٠٠) تغيير كلمة (سائر) إلى كلمة (سرائر) في عبارة: (والله يعلم من سائر العباد).

٢٥- في (ص: ٣٢٠) تغيير كلمة (فإن) إلى كلمة (فإذا) في عبارة: (فإن وضع فيها حب طحنته).

٢٦- في (ص: ٣٤٦) تغيير كلمة (الفرصة) إلى كلمة (الفرص) عند عبارة: (واغتنام الفرصة).

٢٧- في (ص: ٣٦٠) تغيير كلمة (مع) إلى كلمة (من) في عبارة: (يرى الفقر غنىً مع الله).

٢٨- في (ص: ٣٦٤) تغيير كلمة (كالفكر) إلى كلمة (فالفكر) في عبارة: (كالفكر فيما لم يكلف).

عملي في هذه الطبعة:

وقد قمت بعدَّة أعمال من أهمِّها:

١- تخريج الآيات القرآنيَّة.
٢- تخريج الآحاديث النَّبويَّة تخريجًا مفصَّلًا، وبيان اختلاف الألفاظ إن وُجدت.
٣- بيان درجة الأحاديث من صحَّة وضعف، مع ذكر كلام الشَّيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حكمه على الأحاديث.
٤- تخريج آثار الصَّحابة.
٥- قمتُ بتخريج الأشعار الَّتي ذكرها ابن القيِّم، وإرجاعها إلى قائليها إن وجدوا على حسب المصادر التي بين يدي.
٦- بيان بعض الألفاظ الغريبة الَّتي تحتاج إلى بيان.
٧- التَّرجمة لبعض الأعلام الوارد ذكرهم.
٨- قابلت بين المخطوط وبين طبعة (المجمع)، وأشرتُ إلى مواطن السَّقط والاختلاف الَّتي حصلت بينهما.
٩- وضعت فهارسَ علميَّة للآيات القرآنيَّة والآحاديث النَّبويَّة ولمواضيع الكتاب.
١٠- ذكرتُ في أثناء المقدِّمة بعضَ الفوائد المنهجيَّة من كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وصف النسخة الخطية:

ذكرتُ أنَّ نسخةَ كتاب (الفوائد) هي نسخة فريدة، ضمن كتاب: (الكواكب الدَّراري في ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاري)، (جزء: ٣٩)، وهو موجود في مكتبة الظَّاهريَّة بدمشق برقم (٥٦٧).

وذكر الشَّيخ الألباني في فهرسه للمكتبة الظَّاهريَّة الجزء الأوَّل من الكتاب فقط.

والنُّسخة الخطيَّة واضحة، وحالتها جيِّدة ومصحَّحة، ليس فيها خلل من شطب أو حكٍّ أو تلف.

ويبدأ كتاب (الفوائد) بقول ابن عُروة: «فوائد شتَّى ونكتٌ حسان من تفسير آية أو حديث أو أثر سلفيٍّ تتعلَّق بعلم التَّوحيد؛ القولي العلميّ، والعملي الإرادي، وهي من كلام الشَّيخ الإمام العالم العلَّامة مفتي المسلمين بحر العلوم أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرعي الشَّهير بابن قيم الجوزيَّة، وهي غير (بدائع الفوائد) له، وهي: إمَّا فائدة تعود إلى معرفة أو سلوك أو تحذير من قاطع أو تنبيه على مقصود».

وينتهي بقول ابن القيِّم: «وخلق الأرواح الطَّيبة قابلة لذكره وشكره وحجَّته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضدِّه وهو الحكيم العليم».

ومخطوطة كتاب (الفوائد) عبارة عن (٥٣) ورقة، وتحتوي كلُّ ورقة على (٢٧) سطرًا في الغالب.

وقد أوضح النَّاسخ بداية كلِّ فصل أو قاعدة أو فائدة حيث يكتبها بخطٍّ واضحٍ وكبيرٍ، يميِّز فيها بدايتها.

والمقصود أنَّ النُّسخة جيِّدة ومقروءة بشكل واضح، كما سيظهر من خلال بعض صور المخطوطة - والله المستعان-.

❁❁❁

الفوائد المنهجية المستفادة من كلام ابن القيّم

أوّلا: الانتفاع بالوحي:

ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ أصل الخير هو الانتفاع بالوحي من الكتاب والسُّنَّة، وأنَّ أصل كلِّ شرٍّ بالإعراض عن الوحي.

ولذلك فإنَّه جعل موضوع الانتفاع بالقرآن أوَّل فائدة في هذا الكتاب، وبين فيه الشُّروط اللَّازمة لتحقيق الانتفاع، والموانع الَّتي تمنع منه.

قال ابن القيم: «إذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآن فاجمعْ قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضَرْ حضور مَن يخاطبه به مَن تكلم به سُبۡحَانَهُ منه إليه، فإنَّه خطاب منه لك على لسان رسوله: قال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [قٓ: ٣٧]، وذلك أنَّ تمام التَّأثير لما كان موقوفًا على مؤثِّرٍ مقتضٍ، ومحلٍّ قابلٍ، وشرطٍ لحصولِ الأثَرِ، وانتفاءِ المانعِ الّذي يمنعُ منه تضمنت الآية بيان ذلك كلِّه بأوجز لفظٍ وأبينِه وأَدلِّه على المراد».

ثانيًا- أن ما في الوحي من أصول الإيمان يكفي ويشفي ويغني عن كلام أهل الكلام ومعقول أهل المعقول:

قال ابن القيم: «وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي ويُغني عن كلام أهل الكلام ومعقول أهلِ المعقول؛ فإنَّها تضمَّنت تقرير المبدإ والمعاد والتوحيد والنبوّة والإيمان بالملائكة، وانقسام الناس إلى هالكٍ شقيٍ وفائزٍ سعيدٍ، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء، وتضمّنت إثبات صفات الكمال لله، وتنزيهه عمّا يُضادُّ كماله من النقائص والعيوب، وذكر فيها القيامتين الصغرى والكبرى، والعالَمين: الأكبرَ وهو عالَمُ الآخرة، والأصغرَ وهو عالَمُ الدُّنيا، وذُكِرَ فيها خَلْقُ الانسان ووفاتُه وإعادتُه

وحالـه عنـد وفاته ويوم معـاده، وإحاطتُه سُبْحَانَهُ به من كلِّ وجه، حتَّى عِلمه بوسـاوس نفسـه، وإقامـة الحفظة عليـه يُحصُون عليـه كلَّ لفظةٍ يتكلَّم بهـا، وأنَّه يوافيه يـوم القيامة ومعه سـائق يسـوقه إليه وشاهد يشـهد عليه؛ فإذا أحضره السَّائق قال: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [قٓ: ٢٣] أي: هـذا الَّـذي أُمـرتُ بإحضـاره قد أحضرتـه، فيقال عند إحضـاره: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [قٓ: ٢٤] كما يُحضَر الجاني إلى حضرة السُّـلطان، فيقال: هذا فلان قد أحضرته، فيقول: اذهبوا به إلى السجن، وعاقبوه بما يستحقه.

ولهـذا فإنَّ مـن انتفع بالوحـي أعرض عن كلِّ ما سـواه من المتكلِّمين والفلاسـفة وأهـل المعقـول، وأنَّ مـن لم ينتفع لفسـاد قلبه أو إنشـغاله عنـه بغيره فإنَّه سـيلجأ لكلام المنحرفين».

ثالثًـا- أنّ الوحـيَ بيّـن أمـور التوحيد العلمـي والإرادي أتـمّ بيـان، وأنّ العبد لا غنى له عن التوحيد مطلقًا، وأنّ سعادته متوقّفة على تحقيق التوحيد:

قـال ابن القيِّم: «للإنسـان قوَّتان: قـوَّة علميَّة نظريَّة وقوَّة عمليَّة إراديَّة، وسـعادته التَّامَّة موقوفة على اسـتكمال قوَّتيه العلميَّة والإراديَّة، واسـتكمال القوَّة العلميَّة إنَّما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسـمائه وصفاته، ومعرفة الطَّريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسـه ومعرفة عيوبها؛ فبهذه المعارف الخمسـة يحصل كمال قوّته العلميّة، وأعلـمُ النَّاس أَعرفهم بها وأفقههم فيها،واسـتكمال القوَّة العمليَّـة الإراديَّة لا تحصل إلَّا بمراعاة حقوقه سُبْحَانَهُ على العبد، والقيام بها إخلاصًا وصدقًا ونصحًا وإحسـانًا ومتابعة وشـهودًا لمنَّته عليه، وتقصيره هو في أداء حقِّه، فهو مسـتحي من مواجهته بتلك الخدمة؛ لعلمه أنَّها دون ما يسـتحقُّه عليه، ودونَ دونِ ذلك، وأنَّه لا سـبيل له إلى اسـتكمال هاتين القوَّتـين إلَّا بمعونتـه، فهو مضطرٌّ إلى أن يهديَه الصِّراط المسـتقيم الَّذي هدى اليه أولياءه وخاصَّتـه، وأن يجنِّبـه الخـروج عن ذلك الصِّـراط؛ إمَّا بفسـاد في قوَّتـه العلميَّة فيقع في

الضَّلال، وإمَّا في قوَّته العمليَّة فيوجب له الغضب، فكمال الإنسان وسعادتُه لا تتمُّ إلَّا بمجموع هذه الأمور».

ثمَّ ذكر ما تضمَّنته سورة الفاتحة لهذه الأمور وانتظمته أكمل انتظام.

رابعًا: أنّ من انشغل عن الله تَعَالَىٰ وعن كلامه ودينه، لم ينتفع بحقيقة الهداية التي أنزلها الله على عباده، والمتمثلة في كتابه وسنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**:**

قال ابن القيم: «قَبول المحلِّ لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضدِّه، وهذا كما أنَّه في الذَّوات والأعيان، فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات، فإذا كان القلب ممتلئًا بالباطل اعتقادًا ومحبةً، لم يبق فيه لاعتقاد الحقِّ ومحبَّته موضع، كما أنَّ اللِّسان إذا اشتغل بالتَّكلُّم بما لا ينفع لم يتمكَّن صاحبه من النُّطق بما ينفعه، إلَّا اذا فرغ لسانه من النُّطق بالباطل، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شَغلُها بالطَّاعة إلَّا إذا فرَّغها من ضدِّها، فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشَّوق إليه والأنس به، لا يمكن شغله بمحبَّة الله وإرادته وحبِّه والشَّوق إلى لقائه إلَّا بتفريغه من تعلُّقه بغيره، ولا حركة اللِّسان بذكره والجوارح بخدمته إلَّا إذا فرَّغها من ذكر غيره وخدمته، فإذا امتلأ القلب بالشُّغل بالمخلوق والعلوم الَّتي لا تنفع، لم يبق فيها موضع للشُّغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه، وسِرُّ ذلك أنَّ إصغاءَ القلب كإصغاء الأذن فإذا صغا إلى غير حديث الله لم يبق فيه إصغاء ولا فهم لحديثه، كما إذا مال إلى غير محبَّة الله لم يبق فيه ميل إلى محبَّته، فإذا نطق القلب بغير ذكره لم يبق فيه محلٌّ للنُّطق بذكره كاللِّسان؛ ولهذا في الصَّحيح عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَه مِن أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦١٥٤) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ورواه الشيخان من حديث أبي هريرة بلفظ: (قيحًا يريه)، البخاري برقم (٦١٥٥)، ومسلم برقم (٧-٢٢٥٧).

فبيَّن أنَّ الجوف يمتلئ بالشِّعر، فكذلك يمتلئ بالشُّبه والشُّكوك والخيالات والتقديرات التي لا وجود لها والعلوم الَّتي لا تنفع والمفاكهات والمضاحكات والحكايات ونحوها، وإذا امتلأ القلب بذلك جاءته حقائق القرآن، والعلم الَّذي به كماله وسعادته، فلم تجد فيه فراغًا لها، ولا قبولًا فتعدَّته وجاوزته إلى محلٍّ سواه».

خامسا- أنّ ترك الكتاب والسّنّة والإعراض عنهما يسبّب فسادًا في الفطرة، وظلمة في القلب، وكدرًا في العقول ومحقًا للأفهام:

قال ابن القيِّم: «لما أعرض النَّاس عن تحكيم الكتاب والسنَّة، والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم، وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحقٌ في عقولهم، وعمَّتهم هذه الأمور، وغلبت عليهم حتَّى رُبِّيَ فيها الصغير، وهرم عليها الكبير، فلم يروها منكرًا.

فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السُّنن، والنَّفس مقام العقل، والهوى مقام الرُّشد، والضَّلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرِّياء مقام الاخلاص، والباطل مقام الحقِّ، والكذب مقام الصِّدق، والمداهنة مقام النَّصيحة، والظُّلم مقام العدل، فصارت الدَّولة، والغلبة لهذه الأمور وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم، فاذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، وراياتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض واللهِ خيرٌ من ظهرها، وقُلَلُ الجبال خيرٌ من السُّهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة النَّاس».

سادسا- أن سعادة العبد في الدنيا والآخرة متوقّفة على التّوحيد والسّنّة والطّاعة، وأنّ أقرب الوسائل إلى الله ملازمة السنة:

قال ابن القيِّم: «أقربُ الوسائِلِ إلى الله ملازمَةُ السُّنَةِ، والوقوفُ معها في الظاهرِ

والباطِنِ، ودوامُ الافتقارِ إلى الله، وإرادةُ وجهِهِ وحدَه بالأقوالِ والأفعال، وما وصلَ أحدٌ إلى الله إلّا من هذه الثلاثةِ، وما انقطعَ عنه أحدٌ إلّا بانقطاعِهِ عنها أو عن أحدِها.

الأصـول التـي انبنى عليها سـعادة العبد ثلاثـة، ولكل واحد منها ضـدٌّ، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضدِّه:

* التوحيد وضدُّه الشرك.
* والسنة وضدُّها البدعة.
* والطَّاعة وضدُّها المعصية.

ولهـذه الثلاثـة ضدٌّ واحد، وهـو: خلوُّ القلب مـن الرَّغبة في الله وفيـما عنده، ومن الرَّهبة منه وممّا عنده».

سـابعًا- أن العلم بالكتاب والسـنة وما كان عليه سلف الأمة يورث الرفعة في الدنيا والآخرة:

قال ابن القيم: «أفضل ما اكتسبته النُّفوس وحصَّلته القلوب، ونال به العبد الرِّفعة في الدُّنيـا والآخرة، هـو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهـما سُبْحَانَهُ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] وقولـه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وهـؤلاء هم خلاصة الوجود ولُبُّه، والمؤهّلون للمراتب العالية، ولكنَّ أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان، اللَّذين بهما السَّعادة والرفعـة، وفي حقيقتهما، حتى إنَّ كلَّ طائفة تظـنُّ أنَّ ما معها من العلم والإيمان هـو هـذا الـذي به تُنـال السَّعادة، وليس كذلك، بـل أكثرهم ليـس معهم إيـمان يُنجي، ولا علم يرفع، بل قد سـدُّوا على نفوسهم طرُقَ العلم والإيمان، اللَّذين جاء بهما الرسول

ﷺ ودعا إليهما الأمَّة، وكان عليهما هو وأصحابه من بعده، وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم».

ثامنًا- أنّ الله أبان سبيل المؤمنين مفصّلًا ليتبع، وأبان سبيل المخالفين ليُحذر:

قال ابن القيِّم: «والله تَعَالَىٰ قد بيَّن في كتابه سبيل المؤمنين مفصَّلة، وسبيل المجرمين مفصَّلة، وعاقبة هؤلاء مفصَّلة وعاقبة هؤلاء مفصَّلة، وأعمال هؤلاء، وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء، وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفَّق بها هؤلاء، والأسباب الَّتي خذل بها هؤلاء، وجلَّى سُبْحَانَهُ الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبيَّنهما غايةَ البيان، حتَّى شاهدتها البصائر كمشاهدة الأبصار للضِّياء والظَّلام».

تاسعًا- أنّ العلماء هم مَن عرفوا سبيل المؤمنين مفصلًا، وسبيل المخالفين مفصلًا:

قال ابن القيِّم: «فالعالِمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيليَّة، وسبيلَ المجرمين معرفةً تفصيليَّةً، فاستبانتْ لهم السَّبيلان كما يستبين للسَّالك الطَّريقُ الموصلُ إلى مقصوده، والطَّريقُ الموصلُ إلى الهلكة، فهؤلاء أعلم الخلق، وأنفعهم للنّاس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلَّاء الهُداة، وبذلك برز الصَّحابة على جميع مَن أتى بعدَهم إلى يوم القيامة، فإنَّهم نشؤوا في سبيل الضَّلال والكفر والشِّرك والسُّبل الموصلة إلى الهلاك، وعرفوها مفصَّلة، ثم جاءهم الرَّسول، فأخرجهم من تلك الظُّلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النُّور التَّامِّ، ومن الشرك إلى التَّوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغيِّ إلى الرَّشاد، ومن الظُّلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه؛ فإنَّ الضِّدَّ يظهر حسنَه الضدُّ، وإنَّما تتبيَّن الأشياء بأضدادها، فازدادوا رغبة ومحبة

فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضًا لما انتقلوا عنه، وكانوا أحبَّ النَّاس في التَّوحيد والإيمان والإسلام، وأبغضَ النَّاس في ضدِّه، عالمين بالسَّبيل على التَّفصيل».

عاشرًا- أنّ معرفة سبيل المخالفين والتّحذير منها لتُجتنب محبوبٌ لله تَعَالَىٰ:

قال ابن القيم: «**والمقصود**: أنَّ الله سُبْحَانَهُ يحبُّ أن تُعرَف سبيلُ أعدائه لتُجتنب وتُبغض، كما يحبُّ أن تُعرَف سبيل أوليائه لتُحبَّ وتُسلك، وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلّا الله؛ من معرفة عموم ربوبيَّته سُبْحَانَهُ، وحكمته، وكمال أسمائه وصفاته، وتعلقها بمتعلقاتها، واقتضائها لآثارها وموجباتها، وذلك من أعظم الدّلالة على ربوبيَّته وملكه وإلهيَّته، وحبِّه وبغضه، وثوابه وعقابه، والله أعلم».

الحادي عشر- الواجب اجتناب أهل البدع ومن يعادي الكتاب والسنة:

قال ابن القيم: «اجتنبْ منْ يُعادي أهلَ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ لِئلَا يُعديَك خُسرانُهُ.

احترزْ من عَدُوَّينِ هلكَ بهما أكثرُ الخلقِ: صادٌّ عن سبيلِ الله بشبهاتِهِ وزخرفِ قولِهِ، ومفتُونٍ بدُنياه ورِئاستِهِ».

الثاني عشر- أنّ أهل البدع في قلوبهم حرج من الآيات التي تخالف بدعتهم:

قال ابن القيم: «ولا تجدُ مبتَدِعًا في دينه قطُّ إلّا وفي قلبِه حرجٌ من الآياتِ الّتي تخالفُ بدعتَه؛ كما أنّكَ لا تجدُ ظالـمًا فاجرًا إلَّا وفى صدرِه حرجٌ من الآياتِ الَّتي تحولُ بينه وبينَ إرادتِه.

فتدَبَّرْ هذا المعنى ثم ارضَ لنفسِكَ بما تشاء».

الثالث عشر- أنّ مَن آثر الدّنيا على الآخرة لا بد من أن يبتدع في دين الله:

قال ابن القيم: «كلُّ مَن آثر الدُّنيا من أهل العلم واستحبَّها؛ فلا بدَّ أن يقولَ على الله غيرَ الحقِّ؛ في فتواه وحكمِه، في خبرِه وإلزامِه، لأنَّ أحكامَ الربِّ سُبْحَانَهُ كثيرًا ما تأتي

على خلافِ أغراضِ النَّاس، ولا سيَّما أهل الرِّيَاسةِ والَّذين يتَّبعون الشهوات؛ فإنَّهم لا تَتِمُّ لهم أغراضُهم إلَّا بمخالفةِ الحقِّ ودفعِه كثيرًا؛ فإذا كانَ العالِمُ والحاكِمُ محبًّا للرِّئاسةِ، متَّبعًا للشَّهواتِ لم يتمَّ له ذلكَ إلَّا بدفعِ ما يضادُّه من الحقِّ، ولا سيَّما إذا قامتْ له شبهةٌ، فتَتَّفِقُ الشبهةُ والشهوةُ، ويثورُ الهوى، فيخفى الصَّوابُ، وينطَمِسُ وجهُ الحقِّ، وإن كانَ الحقُّ ظاهرًا لا خفاءَ به ولا شبهةَ فيه أقدمَ على مخالفتِه، وقال: لي مخرجٌ بالتوبةِ».

وقال أيضًا: «وأمَّا الَّذين يتَّقون فيعلمونَ أنَّ الدَّار الآخرةَ خيرٌ من الدُّنيا، فلا يحمِلُهم حُبُّ الرئاسةِ والشَّهوةِ على أن يُؤثِروا الدَّنيا على الآخرةِ، وطريقُ ذلك أن يتمسَّكوا بالكتابِ والسُّنةِ، ويستعينوا بالصَّبرِ والصَّلاةِ، ويتفكَّروا في الدُّنيا وزوالها وخِسَّتِها، والآخرةِ وإقبالها ودوامها.

وهؤلاء لا بدَّ أن يبتَدِعوا في الدِّينِ مع الفجورِ في العملِ، فيجتمعُ لهم الأمران؛ فإنَّ اتِّبَاعَ الهوى يُعمي عينَ القلبِ؛ فلا يميِّزُ بين السُّنةِ والبِدعةِ، أو يُنْكِسُهُ؛ فيرى البدعةَ سُنَّةً والسُنَّةَ بدعةً.

فهذه آفةُ العلماء إذا آثروا الدُّنيا واتَّبعوا الرئاساتِ والشَّهواتِ».



الورقة الأولى من كتاب الفوائد

الورقة الثانية من المخطوطة



الورقة الثالثة من المخطوطة

ورقة تظهر بعض التصحيحات التي في الكتاب

الورقة الأخيرة من كتاب الفوائد

الورقة الأولى من رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية

الورقة الثانية من رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية

الورقة الأخيرة من رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية

قاعدة جليلة(١)

إذَا أردتَ الانتفاعَ بالقرآن فاجمعْ قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك واحضَرْ حضورَ من يخاطبه به مَنْ تكلم به سُبْحَانَهُ منه إليه، فإنَّه خطابٌ منه لك على لسان رسوله: قال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وذلك أنَّ تمام التأثير لَـمَّا كان موقوفًا على مؤثِّرٍ مقتضٍ، ومحلٍّ قابلٍ، وشرطٍ لحصولِ الأثَرِ، وانتفاءِ المانعِ الذي يمنعُ منه؛ تضمَّنت الآية بيان ذلك كلِّه بأوجز لفظٍ وأبينِهِ وأدلِّه على المراد.

فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم من أوَّل السُّورة إلى ها هنا، وهذا هو المؤثِّر.

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحلُّ القابل، والمراد به: القلبُ الحيُّ الذي يَعْقِلُ عن الله، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩-٧٠]، أي: حيَّ القَلْبِ.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: وجَّهَ سمعه، وأصغى حاسَّةَ سمعِهِ إلى ما يُقالُ له، وهذا شَرْطُ التَّأثُرِ بالكَلامِ.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهدُ القلبِ، حاضرٌ غيرُ غائبٍ.

---

(١) بدأ ابن عُروة الحنبلي كتاب الفوائد بقوله: «فوائد شتى، ونكت حسانٌ، من تفسير آية، أو حديث، أو أثر سلفيٍّ، تتعلَّق بعلم التوحيد القولي العلمي، والعملي الإرادي، وهي من كلام الشيخ، الإمام، العالم، العلَّامة، مفتي المسلمين، بحر العلوم، أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرعي، الشهير بابن قيم الجوزيَّة، وهي غير (بدائع الفوائد) له، وهي إمَّا فائدة تعود إلى معرفة، أو سلوك، أو تحذير من قاطع، أو تنبيه على مقصود».

قال ابن قتيبة: «استمعَ كتابَ اللهِ، وهو شاهدُ القلبِ والفَهمِ، ليسَ بغافلٍ ولا ساهٍ»[1]، وهو إشارةٌ إلى المانِعِ من حُصولِ التأثيرِ وهو: سَهْوُ القَلْبِ وغيبتُه، عن تَعقُّلِ ما يقال له، والنّظَرِ فيه وتأمُّلِهِ، فإذا حصل المؤثِّر وهو القرآن، والمحلُّ القابلُ وهو: القلبُ الحيُّ، ووُجدَ الشَّرطُ وهو الإصغَاءُ، وانتفى المانِعُ وهو: اشتغالُ القَلْبِ وذُهولُه عن معنى الخِطَابِ، وانصِرافُه عنه إلى شيءٍ آخرَ، حصلَ الأثَرُ وهو الانتفاعُ والتذَكُّر.

فإن قيل: إذا كان التّأثيرُ إنّما يَتِمُّ بمجموعِ هـذه؛ فما وَجهِ دخولِ أداةِ «أو» في قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، والموضِعُ موضِعُ واو الجَمعِ، لا موضع «أو» الّتي هي لأحدِ الشيئَينِ؟

قيل: هذا سؤالٌ جيِّدٌ، والجوابُ عنه أن يُقال: خرج الكلامُ بـ«أو» باعتبارِ حَالِ المخاطَبِ المدعوِّ؛ فإنَّ من النَّاسِ مَنْ يكونُ حيَّ القلبِ، واعيَه، تامَّ الفِطْرَةِ.

فإذا فكَّرَ بقلبِهِ، وجال بفكره؛ دلَّهُ قلبهُ وعقلُهُ على صِحَّةِ القرآن، وأنَّه الحقُّ، وشَهِدَ قلبُهُ بما أخبرَ به القرآن، فكان ورودُ القرآنِ على قلبِهِ نورًا على نورِ الفِطْرَةِ، وهذا وَصْفُ الَّذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، وقال في حقِّهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، فهذا نورُ الفِطْرَةِ على نورِ الوحي، وهذا حالُ صاحبِ القلبِ الحيِّ الواعِي.

قال ابنُ القيِّم: وقد ذكَرنا ما تَضمَّنت هذه الآية من الأسرارِ والعِبرِ في كتابِ: (اجتماعِ الجيُوش الإسلاميةِ على غزو المعَطِّلَةِ والجَهْمِيَّةِ)[2]، فصاحبُ القلبِ يجمع بين قلبِهِ وبين معاني القرآنِ، فيجدُها كأنَّها قد كُتِبَتْ فيه؛ فهو يقرؤها عن ظَهْرِ قَلْبٍ.

---

(١) «تفسير غريب القرآن» (ص: ٤١٩).

(٢) عقد ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فصلًا قال فيه (ص: ١٠ وما بعدها): «والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سمّى نفسه نورًا، =

ومـن الناسِ مَنْ لا يكونُ تامَّ الاسـتعدادِ، واعيَ القلبِ، كَامـلَ الحياةِ، فيحتاجُ إلى شَـاهدٍ يميّزُ له بين الحَـقِّ والبَاطِلِ، ولم تبلغْ حياةُ قلبِهِ ونـورُه وزكَاءُ فطرتِهِ مبلَغَ صاحبِ القلـبِ الحيِّ الواعي؛ فطريـقُ حصولِ هدايتـهِ: أن يُفرِّغَ سـمعَهُ للكلامِ، وقلبَـهُ لتأمُّلِهِ، والتَّفكُّرِ فيه، وتعقُّلِ معانيه، فيَعْلَمُ حينئذٍ أنَّه الحقُّ. فالأوّلُ: حالُ من رأى بعينَيهِ ما دُعِيَ إليـه وأُخبِرَ به، والثاني: حـالُ من عَلِمَ صدقَ المخبِرِ وتَيقَّنَهُ وقـال: يكفيني خَبَرُهُ، فهو في مقـامِ الإيمانِ، والأولُ في مقامِ الإحسـانِ. هذا قد وَصَلَ إلى علـمِ اليقينِ، وترقَّى قلبهُ منه إلى منزلـةِ عينِ اليقِينِ، وذاكَ معهُ التَّصدِيقُ الجـازِمُ الَّذي خرجَ به من الكُفْرِ، ودخلَ به في الإسلامِ.

فعـينُ اليقـينِ نوعان: نـوعٌ في الدُّنيا، ونوعٌ في الآخِـرَةِ، فالحاصلُ في الدُّنيا نسـبتُهُ إلى القلبِ كنِسـبةِ الشَّـاهِدِ إلى العينِ. وما أخبرَتْ به الرُّسُـلُ من الغيبِ يُعايَنُ في الآخرةِ بالأبصارِ، وفي الدُّنيا بالبصائرِ؛ فهو عينُ يقينٍ في المرتبتين.

❁ ❁ ❁

= وجعل كتابه نورًا، ورسوله ﷺ نورًا ودينه نورًا»، ثم فصّل في أسرار وفوائد الآية، وذكر كلام السّلف من الصّحابة والتّابعين في رؤية النبيِّ ﷺ لربِّه تَعَالَىٰ في المعراج، ثمّ قال: «وَقَدْ حَكَى عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ، فِي كِتَابِ (الرَّدِّ) لَهُ، إجماعَ الصَّحابة على أنَّه لم ير ربَّه ليلة المعراج، وبعضُهم استثنى ابـنَ عبَّاس فيمن قال ذلك، وشيخُنا يقول: ليـس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإنَّ ابن عباس لم يقـل رآه بعينَي رأسِـه. وعليه اعتمد أحمد في إحـدى الرِّوايتين حيث قال: إنَّه ﷺ رآه عَزَّوَجَلَّ ولم يقـل بعينَي رأسِـه ولفظ أحمدَ لفـظُ ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ويدلُّ على صحَّة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**حجابه النور**» فهذا النور هو والله أعلم النور المذكور في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**رايت نورا**»».

وهـذا يـردُّ على مَن قال: إنَّ الصَّحابة مختلفون في مسـائل العقيدة، ومثَّلوا لذلكَ بمسـألةِ الرُّؤية هذه، والصَّحيح أنَّ الصَّحابة لم يختلفوا في مسائل العقيدة.

فصل

وقد جمعتْ هذه السُّورةُ من أصُولِ الإيمانِ ما يَكْفِي ويَشفِي ويُغْنِي عن كلامِ أهلِ الكلامِ ومعقُولِ أهلِ المعقولِ؛ فإنَّها تضمَّنتْ تقريرَ المبدإِ والمعادِ والتّوحيدِ والنبُوةِ والإيمانِ بالملائِكَةِ، وانقسامِ النّاسِ إلى هالِكٍ شَقيٍّ وفائزٍ سعيدٍ، وأوصافِ هؤلاءِ وهؤلاءِ، وتضمَّنتْ إثباتَ صفاتِ الكمالِ لله وتنزيهِهِ عمّا يُضادُّ كمالَهُ من النقائِصِ والعُيوبِ، وذكرَ فيها القيامتينِ الصُّغرى والكُبرى، والعالَمين: الأكبرَ وهو عالَمُ الآخِرَةِ، والأصغرَ وهو عالَمُ الدُّنيا، وذَكَرَ فيها خَلْقَ الانسانِ ووفاتَه وإعادتَه، وحالَه عندَ وفاتِهِ ويوم معاده، وإحاطتَه سبحانه بِه من كلِّ وجهٍ، حتَّى عِلْمَهُ بوسَاوسِ نفسِهِ، وإقامةِ الحفظَةِ عليه يُحصُونَ عليه كلَّ لفظةٍ يتكلَّمُ بها، وأنَّه يوافيه يومَ القيامةِ ومعه سائِقٌ يَسُوقُه إليهِ، وشاهِدٌ يشهدُ عليه؛ فإذا أحضره السَّائق قال: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] أي: هذا الّذي أُمِرتُ بإحضَارِهِ قد أحضرتُه، فيقالُ عند إحضاره: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤] كما يُحْضَرُ الجاني إلى حَضْرَةِ السُّلطانِ، فيقال: هذا فلان قد أحضرتُه، فيقول: اذهبوا به إلى السِّجنِ وعاقِبُوه بما يستحقُّهُ.

وتأمَّلْ كيفَ دلَّتِ السُّورةُ صريحًا على أنَّ الله سُبْحَانَهُ يُعيدُ هذا الجسدَ بعينه الّذي أطاعَ وعصى فيُنعِّمُهُ ويُعذِّبُهُ، كما يُنعِّمُ الرُّوحَ التي آمنتْ بعينِها، ويُعذِّبُ الَّتي كفرتْ بعينِها، لا أنَّه سُبْحَانَهُ يخلُقُ روحًا أخرى غيرَ هذه فيُنعِّمُها ويُعذِّبُها! كما قاله مَنْ لم يعرف المعاد الّذي أخبرتْ به الرُّسل، حيث زعمَ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يخلُقُ بدنًا غيرَ هذا البدن من كلِّ وجهٍ! عليه يقعُ النَّعيمُ والعذابُ! والرُّوحُ عنده عَرَضٌ من أعراض البدنِ! فيخلُقُ روحًا غيرَ هذه الرُّوحِ وبدنًا غيرَ هذا البدن! وهذا غيرُ ما اتفقتْ عليه الرُّسلُ ودَلَّ عليه القرآنُ والسُّنةُ وسائرُ كُتُبِ اللهِ تَعَالَىٰ.

وهذا في الحقيقة إنكارٌ للمعادِ، وموافقةٌ لقولِ من أنكره من المكذِّبين؛ فإنَّهم لم يُنكِروا قدرةَ الله على خَلْقِ أجسامٍ أُخر غيرَ هذه الأجسام يعذِّبها وينعِّمها، كيف وهم يشهدون النوعَ الإنسانيَّ يُخلَقُ شيئًا بعدَ شيءٍ، فكلَّ وقتٍ يخلقُ الله سُبْحَانَهُ أجسامًا وأرواحًا غيرَ الأجسامِ التي فَنِيَتْ، فكيف يتعجَّبون من شيءٍ يشاهدونه عيانًا؟! وإنَّما تعجَّبوا من عَودهم بأعيانهم بعد أن مزَّقهم البِلَى وصاروا عِظامًا ورُفاتًا، فتعجَّبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء، ولهذا قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢]، [الصافات: ١٦]، [الواقعة: ٥٦]، وقالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، ولو كان الجزاءُ إنَّما هو لأجسامٍ غيرَ هذه؛ لم يكن ذلك بعثًا ولا رجعًا، بل يكون ابتداءً، ولم يكن لقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤] كبيرُ معنىً؛ فإنَّه سُبْحَانَهُ جعلَ هذا جوابًا لسؤالٍ مقدَّرٍ، وهو أنَّه يُميِّز تلكَ الأجزاءِ التي اختلطتْ بالأرضِ، واستحالتْ إلى العناصرِ بحيث لا تتميَّز، فأخبر سُبْحَانَهُ أنَّه قد عَلِمَ ما تَنْقُصُه الأرضُ من لحومِهم وعِظامِهم وأشعارهم، وأنَّه كما هو عالمٌ بتلك الأجزاءِ، فهو قادرٌ على تحصيلها وجَمْعِها بعد تَفَرُّقِها وتأليفِها خلقًا جديدًا.

وهو سُبْحَانَهُ يُقرِّرُ المعادَ بذكرِ كَمالِ عِلْمِه، وكمال قُدْرَتِه، وكمالِ حكمَتِه، فإنَّ شُبَهَ المنكرينَ له كُلُّها تعودُ إلى ثلاثةِ أنواعٍ:

أحدها: اختلاطُ أجزائهم بأجزاءِ الأرضِ على وجْهٍ لا يَتَمَيَّزُ ولا يحصُلُ معها[1] تميُّزُ شَخْصٍ عن شخصٍ.

الثاني: أنَّ القُدْرةَ لا تتعلَّقُ بذلك.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (معه).

الثالث: أنَّ ذلكَ أمرٌ لا فائِدَةَ فيه، وإنَّما الحكمةُ اقتضتْ دوامَ هذا النَّوعِ الإنسانيِّ شيئًا بعد شيءٍ هكذا أبدًا، كُلَّما ماتَ جيلٌ خلفه جيلٌ آخرُ؛ فأمَّا أن يُميتَ النوعَ الإنسانيَّ كُلَّه ثم يُحييه بعد ذلك، فلا حكمةَ في ذلكَ.

فجاءتْ براهينُ المعادِ في القرآن مبنيةً على ثلاثةِ أُصُولٍ:

أحدُها: تقريرُ كمالِ عِلْمِ الرَّبِّ سُبحانَهُ، كما قال في جوابِ مَنْ قال: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩]، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥ - ٨٦]، وقال: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾ [ق: ٤].

والثاني: تقريرُ كمالِ قُدْرَتِه؛ كقوله: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُم﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الحج: ٦]، ويجمعُ سُبحانَهُ بين الأمرينِ كما في قوله: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الثالث: كمالُ حكمته كقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ [ص: ٢٧]، وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]، وقوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

ولهذا كانَ الصَّوابُ أنَّ المعادَ معلومٌ بالعقلِ مع الشَّرعِ، وأنَّ كمالَ الرَّبِّ تعالى وكمالَ أسمائه وصفاته تقتضيه وتُوجِبُه، وأنَّه مُنزَّهٌ عمَّا يقولُه منكِرُوه كما يُنزَّه كمالُه عن سائر العُيوبِ والنَّقائِصِ.

ثـمَّ أخـبرَ سُبحَانَهُ أنَّ المنكرين لذلـك لما كذَّبوا بالحقِّ اختلـطَ عليهم أمرُهُم، ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، مُختَلِـطٍ لا يحصُلُـون منـه على شيءٍ. ثم دعاهـم إلى النظرِ في العالَمِ العُلويِّ وبنائِه وارتفاعِه واستوائِه وحُسْنِه والتِئامِه.

ثم إلى العالَمِ السُّفليِّ: وهو الأرضُ، وكيفَ بَسَطَها وهيَّأها بالبَسْطِ لما يُرَادُ منها، وثبَّتهـا بالجبـالِ وأودعَ فيها المنافعَ، وأنبتَ فيها من كلِّ صنفٍ حسـنٍ من أصنافِ النبات علـى اختلافِ أشـكاله وألوانه ومقاديـره ومنافعه وصفاته، وأنَّ ذلك تبـصرة، إذا تأمَّلَها العبـدُ المنيـبُ وتبصَّر بها تَذَكَّر مـا دَلَّتْ عليه ممَّا أخبرتْ به الرُّسُـلُ مـن التَّوحيدِ والمعادِ، فالنَّاظر فيها يتبصَّرُ أوَّلًا، ثم يتذكَّرُ ثانيًا.

وأنَّ هذا لا يحصلُ إلَّا لعبدٍ مُنيبٍ إلى اللهِ بقلبِهِ وجوارحِهِ.

ثـمَّ دعاهم إلى التَّفكُّرِ في مـادَّةِ أرزاقِهِم وأقواتِهم وملابِسِـهم ومراكِبِهم وجنَّاتِهِم، وهـو الماءُ الذي أنزلَهُ من السَّـماءِ وبـاركَ فيه حتَّى أنبتَ به جنَّاتٍ مختلفـةِ الثِّمارِ والفواكِهِ؛ مـا بينَ أبيضَ وأسـودَ وأحمرَ وأصفـرَ وحلوٍ وحامِـضٍ وبين ذلك، مع اختـلافِ منابِعِها وتنوُّعِ أجناسِها، وأنبتَ به الحُبُوبَ كلَّها على تنوُّعِها واختلافِ منافِعِها وصفاتِها وأشكالِها ومقاديرِهـا، ثم أفـردَ النَّخْلَ لما فيه من موضِعِ العبرةِ والدِّلالـةِ التي لا تخفى على المتأمِّلِ، وأحيا به الأرضَ بعد موتِها.

ثـمَّ قـال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١] أي: مثـل هـذا الإخراجِ مـن الأرضِ الفواكه والثِّمار والأقوات والحُبُوب خروجُكُم من الأرضِ بعد ما غُيِّبْتُم فيها.

وقد ذكرنا هذا القياسَ وأمثاله من المقاييسِ الواقعة في القرآن في كتابنا «المعالم»[١]، وبيَّنَّا بعضَ ما فيها من الأسرارِ والعِبَرِ.

---

(١) أي: كتاب «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (١/ ١٥٠- ١٩٥).

ثُمَّ انتقل سُبْحَانَهُ إلى تقريرِ النُّبوَّةِ بأحسن تقريرٍ، وأوجر لفظٍ، وأبعدِه عن كلِّ شبهةٍ وشكٍّ، فأخبر أنَّه أرسلَ إلى قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقوم لوطٍ وقوم فرعونَ رسلًا فكذَّبُوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاكِ وصَدَّقَ فيهم وعيدَه الذي أوعدتهم به رسُلُهُ إن لم يؤمنوا، وهذا تقريرٌ لنبوَّتهم ولنبوَّةِ من أخبرَ بذلك عنهم من غيرِ أن يتعلَّمَ ذلك من معلِّمٍ ولا قرأه في كتابٍ، بل أخبر به إخبارًا مفصَّلًا مطابقًا لما عند أهل الكتاب.

ولا يَرِدُ على هذا إلَّا سؤالُ البَهْتِ والمكابَرَةِ على جَحد الضَّرورياتِ بأنَّه لم يكن شيءٌ من ذلك! أو أنَّ حوادثَ الدَّهرِ ونكباتِهِ أصابتهم كما أصابت غيرهم! وصاحبُ هذا السؤالِ يعلم من نفسِهِ أنَّه باهِتٌ مباهِتٌ جاحدٌ لما شَهِدَ به العَيان، وتناقَلَتْه القرونُ قرنًا بعد قرنٍ، فإنكاره بمنزلة إنكارِ وجود المشهورينَ من الملوكِ والعُلَماءِ والبلادِ النائيةِ.

ثم عادَ سُبْحَانَهُ إلى تقريرِ المعادِ بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [قٓ: ١٥]، يُقال: لكلِّ مَن عَجَزَ عن شيءٍ: عييَ به، وعيي فلانٌ بهذا الأمرِ، قال الشَّاعر:

عَيُّوا بأمْرِهم كَمَا ... عَيَّتْ بِبَيضَتِها الحَمامَةْ[1]

---

(١) هذا البيت ذكره سيبويه في «الكتاب» (٤/ ٣٩٦)؛ والمبرد في «المقتضب» (١/ ١٨٢)، وابن السراج في «الأصول في النحو» (٣/ ٢٤٨) غير منسوب، وذكره منسوبًا لعبيد بن الأبرص، ابنُ قتيبة في «أدب الكاتب» ص(٦٧-٦٨)؛ وفي «عيون الأخبار» (٢/ ٨٥)؛ والجاحظ في «الحيوان» (٣/ ٩٤)؛ وابن يعيش في «شرح المفصل» (٥/ ٥٠٤)؛ وابن منظور في «لسان العرب» (١٤/ ٢١٨)، و(١٥/ ١١٣)، بهذا اللفظ، وهو في «ديوان ابن الأبرص» بشرح: أشرف أحمد عدره (ص: ١٠٩) بلفظ:

بَرِمَتْ بنو اسدٍ كَمَا ... بَرِمَتْ بِبَيضَتِها الحَمامَةْ

وبعد هذا البيت:

جَعَلَتْ لَهَا عُودَيْنِ مِنْ ... نَشَمٍ وآخرَ مِنْ ثُمَامَةْ

وذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» (٩/ ٩٩ - ١٠٠) قصة هذه الأبيات.

ومنـه قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، قال ابن عبَّاس: يريد أفعَجِزْنا، وكذلكَ قالَ مُقاتِل[١].

قلت: هذا تفسيرٌ بِلَازِمِ اللَّفظةِ، وحقيقتُها أعمُّ من ذلك؛ فإنَّ العربَ تقول: أعْيَاني أن أَعْـرِفَ كـذا وعَيِيَـتُ بـه: إذا لم تهتدِ لوجهه، ولم تَقْـدِرْ على معرفتـه وتحصيله، فتقول: أعيـاني دواؤُكَ: إذا لم تهتـدِ له ولم تقفْ عليه، ولازمُ هـذا المعنى العجز عنه. والبيتُ الَّذي استشهدوا به شاهدٌ لهذا المعنى؛ فإنَّ الحمامةَ لم تَعْجزْ عن بَيْضَتِها، ولكن أعياها إذا أرادتْ أن تبيـضَ أين تَرْمِـي بالبيضة؛ فهي تدور وتجول حتَّى ترميَ بها؛ فـإذا باضتْ أَعْيَاها أين تَحْفَظُها وتُودِعُها حتَّى لا تُنَالَ؛ فهي تنقلُها من مكانٍ إلى مكانٍ وتحارُ أين تجعل مَقَرَّها؛ كما هو حال من أعيى بأمره فلم يَدْرِ من أين يُقْصدُ له ومن أين يأتيه.

وليـس المـراد بالإعياءِ في هذه الآيـةِ التَعَبُ، كـما يظنُّه من لم يعرفْ تفسـيرَ القرآن، بـل هـذا المعنى هـو الَّذي نفـاه سُبْحَانَهُ عن نفسـه في آخرِ السُّـورَةِ بقولـه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

ثم أخبر سُبْحَانَهُ أنَّهم: ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] أي: أنَّهم التبسَ عليهم إعَادةُ الخلقِ خلقًا جديدًا.

ثـمَّ نبهَهُم عـلى ما هو من أعظم آيـاتِ قدرتِهِ وشـواهِدِ ربوبيَّتِهِ وأدلَّـةِ المعادِ، وهو خلق الإنسـان، فإنَّه من أعظمِ الأدلَّة على التَّوحيد والمعاد، وأيُّ دليلٍ أوضحُ من تركيبِ هـذه الصُّورةِ الآدميَّة بأعضائهـا وقُوَاها وصفاتها وما فيها من اللَّحْـمِ والعَظْمِ والعُروقِ والأعصـابِ والرِّبَاطـات والمنافذ والآلات والعلـوم والإرادات والصناعات؛ كلُّ ذلك

---

(١) هو: مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني أبو الحسن البلخي، صاحب التَّفسير، وهو ضعيف بيِّن الضعف، قد تركه الأئمَّة، توفي (١٥٠هـ) ونيفًا، ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٣٢).

من نطفةِ ماءٍ؟! فلو أنصفَ العبدُ ربَّه؛ لاكتفى بفكره في نفسه، واستدلَّ بوجوده على جميع ما أخبرتْ به الرُّسلُ عن الله وأسمائه وصفاته.

ثمَّ أخبرَ سُبْحَانَهُ عن إحاطة علمه به، حتَّى عَلِمَ وساوسَ نفسِه.

ثم أخبر عن قُرْبِهِ إليه بالعلمِ والإحاطةِ، وأنَّ ذلك أدنى إليه من العِرْقِ الَّذي هو داخلَ بدنه؛ فهو أقربُ إليه بالقدرةِ عليه والعلمِ به من ذلك العِرْقِ.

وقال شيخنا المرادُ بقول «نحن» أي: ملائكتُنا كما قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] أي: إذا قرأه عليك رسولنا جبريل[1]، قال: ويدلُّ عليه قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧]، فقُيِّدَ القُرْبُ المذكور بتلَقِّي الملَكين، ولو كان المرادُ به قُرْبَ الذَّاتِ لم يتقيَّدْ بوقت تلَقِّي الملَكين؛ فلا حجَّةَ في الآية لِحُلُوليٍّ ولا مُعطِّلٍ.

ثم أخبر سُبْحَانَهُ أنَّ على يمينه وشماله ملَكين يكتبان أعمالَه وأقوالَه، ونبَّه بإحصاءِ الأقوالِ وكتابتِها على كتابةِ الأعمال، التي هي أقلُّ وقوعًا وأعظمُ أثرًا من الأقوالِ، وهي غاياتُ الأقوالِ ونهايَتُها.

ثم أخبر عن القِيامَةِ الصُّغرَى، وهي سَكْرةُ الموتِ، وأنَّها تجيءُ بالحقِّ، وهو: لقاؤُه سُبْحَانَهُ والقُدُوم عليه، وعرضُ الرُّوحِ عليه، والثَّوابُ والعقابُ الَّذي تعجَّل لها قبل القيامة الكُبْرَى.

ثم ذكر القيامة الكُبْرَى بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠].

ثم أخبرَ عن أحوالِ الخَلْقِ في هذا اليوم، وأنَّ كلَّ أحدٍ يأتي الله سُبْحَانَهُ ذلك اليومَ ومعه سائِقٌ يسوقُهُ وشَهيدٌ يشهدُ عليه، وهذا غيرُ شهادةِ جوارحِهِ، وغيرُ شهادةِ الأرضِ الَّتي كان عليها له وعليه، وغيرُ شهادةِ رسولِهِ والمؤمنين؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ يَستشهِدُ على

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٢٣٤- ٢٣٥، ٥٠٥ وما بعدها).

العبادِ الحفظةَ والأنبياءَ والأمكنةَ التي عَمِلُوا عليها الخيرَ والشَّرَّ، والجُلودَ التي عَصَوُه بها، ولا يحكمُ بينهم بمجرَّدِ علمه؛ وهو أعدلُ العادلينَ وأحكمُ الحاكمينَ، ولهذا أخبرَ نبيُّه أنَّه يحكمُ بين الناسِ بما سَمِعَهُ من إقرارهم، وشهادةِ البيِّنةِ، لا بمجرَّدِ علمِهِ؛ فكيفَ يسوغُ لحاكمٍ أن يحكمَ بمجرَّدِ علمه من غير بيِّنَةٍ ولا إقرارٍ؟!.

ثمَّ أخبرَ سُبْحَانَهُ أنَّ الإنسانَ في غفلةٍ من هذا الشَّأنِ الَّذي هو حقيقٌ بأن لا يَغفُلَ عنه وأن لا يزالَ على ذكرِهِ وبالِهِ، وقال: ﴿فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: ٢٢]، ولم يقل: عنه؛ كما قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠]، [فصلت: ٤٥]، ولم يقل: في شَكٍّ فيه، وجاء هذا في المصدرِ وإن لم يجئ في الفعل، فلا يقال: غَفَلْتُ منه ولا شَكَكْتُ منه، كأن غفلتَهُ وشكَّهُ ابتداء منه؛ فهو مبدأُ غفلَتِهِ وشَكِّهِ؟ وهذا أبلغ من أن يقال: في غفلةٍ عنه وشكٍّ فيه؛ فإنَّه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأَ التذكرةِ واليقينِ ومنشأَهُمَا مبدأً للغفلةِ والشَّكِّ.

ثم أخبر أنَّ غِطاءَ الغفلةِ والذُّهولِ يُكشَفُ عنه ذلك اليوم؛ كما يُكشَفُ غطاءُ النَّومِ عن القلبِ فيستيقظُ وعن العينِ فتنفتحُ؛ فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعَايَنَةِ كنسبةِ كشف غطاءِ النَّوم عنه عند الانتباه.

ثـمَّ أخبر سُبْحَانَهُ أنَّ قرينه - وهو الذي قُرِنَ به في الدُّنيا من الملائكةِ يَكْتُبُ عمله وقوله -، يقول لـمَّا يُحضِرُهُ: هذا الذي كنتَ وَكَلْتَني به في الدُّنيا قد أحضرتُه وأَتيتُك به، هذا قول مجاهد[1].

---

(١) وذكر ذلك كذلك ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٠٢)، وله قول آخر ذكره البخاري في صحيحه معلَّقًا في تفسير سورة «ق»، قال: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الشَّيطان الَّذى قيِّض له. ووصله الفريابي عن مجاهد، كما ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٤٩٥)، وكذا ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٦/ ٦٢٢). ومجاهد: هو ابن جبر أبو الحجَّاج المكي شيخ القرَّاء والمفسِّرين توفي (١٠٤هـ)، ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٦).

وقـال ابـن قتيبـة: المعنـى هذا مـا كتبتُـهُ عليـه وأحصيتُهُ مـن قوله وعملـه حاضِرٌ عندي[١].

والتَّحقيـقُ أنَّ الآيـةَ تتضمَّنُ الأمرين؛ أي: هذا الشَّـخص الذي وكِّلْـتُ به، وهذا عملُهُ الذي أحصيتُهُ عليه.

فحينئـذٍ يقـال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤][٢]، وهـذا إمَّـا أن يكـون خطابًـا للسَّـائِقِ والشـهيد، أو خطابًـا للمَلَـكِ الموكَّلِ بعذابِـهِ وإن كان واحدًا، وهو مذهـبٌ معروفٌ من مذاهـب العـرب في خِطَابِهَا، أو تكون الألـف منقلبةً عن نون التَّأكيـد الخفيفة ثم أُجرِيَ الوصلُ مجرى الوقفِ.

ثمَّ ذكرَ صفاتِ هذا المُلقَى، فذكرَ له سِتَّ صفاتٍ:

أحدهـا: أنَّه كَفَّارٌ لِنعَـمِ اللهِ وحقوقِه، كَفَّار بدينه وتوحيده وأسـمائه وصفاته، كَفَّار برسُلِه وملائكته، كَفَّار بكُتبه ولقائه.

الثانية: أنَّه معاندٌ للحقِّ بدفعه جَحْدًا وعِنادًا.

الثالثـة: أنَّـه منَّـاعٌ للخيرِ، وهذا يَعُـمُّ منعَهُ للخيرِ الذي هو إحسـانٌ إلى نفسـه من الطَّاعـاتِ والقُـرَبِ إلى الله، والخيرُ الَّذي هو إحسـانٌ إلى النَّاس، فليس فيه خيرٌ لنفسـه، ولا لبني جنسه، كما هو حالُ أكثرِ الخَلْقِ.

الرابعـة: أنَّـه مع منعِهِ للخـير معتدٍ على الناس، ظلومٌ، غشـومٌ، معتـدٍ عليهم بيدِهِ ولسانِهِ.

---

(١) «تأويـل مشـكل القرآن» لابن قتيبـة الدينـوري (ص: ٢٣٩)، ولفظـه: «﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ يعني: الملك، ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] يعني: ما كتبه من عمله، حاضر عندي».

(٢) وقال ابن كثير (٧/ ٤٠٢): «وقد اختار ابن جرير أن يعمَّ السَّائق والشَّهيد، وله اتِّجاهٌ وقوَّة. فعند ذلك يحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]».

الخامسة: أنَّه مريبٌ، أي: صاحب ريبٍ وشكٍّ، ومع هذا فهو آتٍ لكلِّ ريبةٍ، يقال: فلانٌ مريبٌ؛ إذا كان صاحبَ ريبةٍ.

السادسة: أنَّه مع ذلك مشرِكٌ بالله، قد اتَّخذ مع الله الهًا آخرَ، يعبدُهُ، ويحبُّهُ، ويغضبُ لهُ، ويرضى لهُ، ويحلفُ باسمِهِ، وينذرُ لَهُ، ويُوالي فيه، ويُعادِي فيه.

فيختصِمُ هو وقرينُهُ من الشياطِينِ، ويُحيلُ الأمرَ عليه، وأنَّه هو الذي أطغاه وأضلَّه، فيقول قرينُهُ: لم يكنْ لي قوةٌ أن أُضِلَّه وأُطغيَه، ولكن كان في ضلالٍ بعيدٍ، اختاره لنفسه، وآثره على الحقِّ، كما قال إبليسُ لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢] وعلى هذا؛ فالقرينُ هنا هو: شَيْطَانُهُ، يختصمانِ عند الله.

وقالت طائفةٌ: بل قرينُهُ هاهنا هو الملَك، فيدَّعي عليه أنَّه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغى، وأنَّه لم يفعلْ ذلك كُلَّه، وأنَّه أعجلَهُ بالكتابةِ عن التَّوبةِ، ولم يُمهِلْهُ حتى يتوبَ، فيقول الملَك: ما زِدْتُ في الكتابةِ على ما عَمِلَ، ولا أعجَلْتُهُ عن التوبة، ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

فيقول الرَّبُّ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٨]، وقد أخبرَ سُبْحَانَهُ عن اختصامِ الكُفَّارِ والشَّياطينِ بين يديه في سورتي[1] (الصَّافاتِ) و(الأعراف)، وأخبرَ عن اختصامِ الناسِ بين يديه سُبْحَانَهُ في سورة (الزُّمر)، وأخبر عن اختصامِ أهل النارِ فيها في سورة (الشُّعراء) وسورة (ص).

ثم أخبرَ سُبْحَانَهُ أنَّه لا يُبدَّلُ القولُ لديه، فقيل: المراد بذلك قولُهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، [السجدة: ١٣]، ووعدُهُ لأهلِ الإيمانِ بالجنَّةِ، وأنَّ هذا لا يُبدَّلُ ولا يُخْلَفُ، قال ابن عبَّاس: يريد: ما لوعدي خُلفٌ لأهلِ طاعتي،

---

(١) هكذا في الأصل، وذكر محقِّق طبعة (المجمع): الأصل (سورة). وهو خطأ.

ولا أهلِ معصيتي[١]، قال مجاهد: قد قضيتُ ما أنا قاضٍ، وهذا أصحُّ القولين فى الآية[٢].

وفيها قول آخر: أنَّ المعنى: ما يُغيَّرُ القولُ عندي بالكَذِبِ والتَّلبيسِ كما يُغيَّرُ عند الملوك والحُكَّام، فيكون المرادُ بالقولِ قولَ المختصمين، وهو اختيار الفرَّاء وابنِ قتيبة؛ قال الفرَّاء: المعنى: ما يُكذَبُ عندي لعلمي بالغيب[٣].

وقال ابن قتيبة: أي: ما يُحرَّفُ القولُ عندي ولا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ منه[٤]، قال: لأنَّه قال: ﴿ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [قٓ: ٢٩][٥]، ولم يقلْ: قولي، وهذا كما يقال: لا يُكْذَبُ عندي.

فعلى القول الأوَّل يكون قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [قٓ: ٢٩] من تمام قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [قٓ: ٢٩] في المعنى؛ أي: ما قلتُه ووعدْتُ به لا بدَّ من فعلِهِ، ومع هذا فهو عدلٌ لا ظُلْمَ فيه ولا جوْرَ، وعلى الثَّاني يكون قد وصفَ نفسَهُ بأمرين:

أحدهما: أنَّ كمالَ علمِهِ واطلاعه يمنع من تبديلِ القولِ بين يَدَيْهِ وترويجِ الباطِلِ عليه.

وكمال[٦] عدله وغناه يمنع مِن ظُلمه لِعبيده.

---

(١) ذكره الواحدي عنه في «التفسير البسيط» (٢٠/ ٤٠٤)، من رواية عطاء.

(٢) رواه الطَّبري في تفسيره (٢٢/ ٣٥٩)، من طريقين عن مجاهد.

(٣) «معاني القرآن» لأبي زكريا الفرَّاء (٣/ ٧٩)، ولفظه: «ما يكذب عندي؛ لعلمه عَزَّوَجَلَّ بغيب ذلك».

(٤) «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة الدينوري (ص: ٢٣٩)، ولفظه: «لا يغيَّر عن جهته، ولا يحرَّف، ولا يزاد فيه، ولا ينقص؛ لأني أعلم كيف ضلُّوا، وكيف أضللتموهم».

(٥) في الأصل: (القول عندي) وهو خطأ، والصَّحيح ما أثبتناه؛ لأنَّها آية.

(٦) هكذا في الأصل، والمقصود أنَّ هذا هو الأمر الثاني.

ثمَّ أخبرَ عن سعةِ جهنمَ، وأنَّها كُلَّما أُلقِيَ فيها ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، وأخطأ من قال: إنَّ ذلك للنفي، أي: ليس فيَّ مزيد، والحديث الصَّحيح يردُّ هذا التَّأويل[(١)].

ثـمَّ أخبرَ عن تقريبِ الجنَّةِ مـن المتَّقين، وأنَّ أهلها هم الَّذين اتَّصفوا بهذه الصِّفات الأربع:

أحدها: أن يكون أوَّابًا، أي: رجَّاعًا إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغَفْلَةِ عنه إلى ذكره. قال عبيد بن عمير[(٢)]: الأوَّاب الَّذي يتذكَّر ذنوبَه، ثمَّ يستغفرُ منها[(٣)].

وقـال مجاهـد: «هو الـذي إذا ذَكَرَ ذنبَهُ في الخَلَاءِ اسـتغفر منه»[(٤)]، وقال سـعيد بن المسيّب[(٥)]: «هو الذى يُذنِبُ ثم يتوب، ثم يُذنِبُ ثم يتوب»[(٦)].

---

(١) يشـير المؤلـف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مـا رواه البخاري برقـم (٤٨٤٨، ٦٦٦١، ٧٣٨٤)، ومسـلم برقم (٣٧-٢٨٤٨) و(٣٨-٢٨٤٨)، مـن حديـث أنس بن مالك قال: قَالَ النَّبِـيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَزَالُ جهنَّم تقـولُ: هـل من مَزيد، حتَّى يَضَـعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها قَدَمَهُ، فتَقُولُ: قَط قَـط وَعِزَّتِكَ. ويُزوى بعضُها إلى بعض**»، هذا لفظها في رواية.

(٢) عبيـد بـن عمير بن قتادة الليثي الجندعي المكِّـي، الواعظ المفسِّر، ولد في حياة النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان من ثقات التَّابعين، توفي قبل عبد الله بن عمر بأيَّام، ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٧٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (٣٦١٤٥ عوامة)، وهنَّاد بن السَّـري في «الزُّهد» (٢/ ٤٥٨)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٢٤ الرسالة)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٦٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٦٧٩٧).

(٤) أخرجه عبد الرَّزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٩٧ عبده)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» رقم (٣٦٧٤٢ عوامة)، وأحمد في «الزُّهد» رقم (٢٢٢٠ شاهين)، والطبري في «تفسيره (١٧/ ٤٢٤).

(٥) سـعيد بن المسيّب بن حزن القرشي المخزومي، عالم أهل المدينة، وسيِّد التَّابعين في زمانه، توفي سـنة (٩٤هـ)، ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٤٢ وما بعدها).

(٦) أخرجه الحسـين المروزي في زياداته على «الزهد» لابن المبارك (١/ ٣٨٦)، وعبد الرزاق الصنعاني في «تفسيره» (٢/ ٢٩٥)، وأبو داود في «الزهد» (ص: ٤٥٦)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣١٠).

وذكـر الطـبري (١٧-٤٢٥-٤٢٦ الرسـالة): أنَّ أولى الأقوال بالصَّواب قول مـن قال: الأوَّاب: هو =

الثَّانيـة: أن يكون حفيظًا، قال ابن عبَّاس: «لما ائتَمَنَهُ الله عليه وافتَرَضَهُ»[١]، وقال قتادةُ: «حافظٌ لما استَودَعَهُ الله من حقِّهِ ونعمتِهِ»[٢].

ولـمَّا كانت النَّفْسُ لها قوَّتان: قوَّة الطَّلَبِ وقوَّة الإمساك، كان الأوَّابُ مستعملًا لقـوَّةِ الطَّلَـبِ في رجوعـه إلى الله ومرضاتـه وطاعته، والحفيظُ مستعملًا لقـوَّة الحفظِ في الإمسـاك عن معاصيه ونواهيه، **فالحفيظ:** الـمُمْسِـكُ نفسَـهُ عمَّا حرَّم عليه، **والأوَّاب:** الـمُقبِلُ على الله بطاعته.

الثالثة: قوله: ﴿مَنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣] يتضمَّن: الإقرارُ بوجودِهِ وربوبيَّتِهِ وقُدْرَتِهِ وعلمِهِ واطلاعِهِ على تفاصيل أحوالِ العبد، ويتضمَّنُ الإقرارَ بكتبِهِ ورسُلِهِ وأمرِهِ ونهيِهِ، ويتضمَّنُ الإقرار بوعْدِهِ، ووعيدِهِ، ولقائِهِ؛ فلا تَصِحُّ خشيةُ الرَّحمنِ بالغَيْبِ إلَّا بعد هذا كلِّهِ.

= التَّائب من الذنب، الرَّاجع من معصية الله إلى طاعته، ومما يكرهه إلى ما يرضاه؛ لأنَّ الأوّاب إنَّما هو فعَّال، من قول القائل: آب فلان من كذا؛ إمّا من سفره إلى منزله، أو من حال إلى حال، كما قال عَبيد بن الأبرص:

وكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَئُوبُ وغائِبُ المَوْتِ لا يَئُوبُ

فهو يئوب أوبًا، وهو رجل آئب من سفره، وأوّاب من ذنوبه.

(١) ذكره الواحدي عنه في «التفسير البسيط» (٢٠/ ٤٠٩) بهذا اللفظ، غير مسند، ولم أجدْه مسندًا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وذكر الطبريُّ هذا القول في تفسيره (٢٢/ ٣٦٥) ولم يسم قائله، فقال: «وقال آخرون: معناه: أنه حفيظ على فرائض الله وما ائتمنه عليه».

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٦٥)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٦٠٤) أيضًا إلى عبد بن حميد وابن المنذر. مع أنَّ الطَّبريَّ رجَّح أنَّ الأوَّاب والحفيظ يشمل حفظ جميع أنواع الطاعات، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تَعَالَىٰ ذِكرُه وَصَفَ هذا التَّائب الأوّاب بأنَّه حفيظ، ولم يخصّ به على حفظ نوع من أنواع الطاعات دون نوع، فالواجب أن يعمّ كما عمّ جلّ ثناؤه، فيقال: هو حفيظ لكلّ ما قرّبه إلى ربه من الفرائض والطاعات والذنوب التي سلَفت منه للتوبة منها والاستغفار».

الرَّابعـة: قوله: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] قال ابن عبَّاس: «راجعٌ عن معاصي الله، مُقْبِلٌ على طاعةِ الله»[(١)]، وحقيقةُ الإنابةِ عُكوفُ القَلْبِ على طاعةِ الله ومحبَّته والإقبالِ عليه.

ثـمَّ ذكـر سُبْحَانَهُ جزاءَ مَـنْ قامتْ به هـذه الأوصاف بقولـه: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٤ - ٣٥].

ثـمَّ خوَّفَهُم بـأن يُصيبَهُم من الهلاكِ ما أصـابَ مَن قبلَهم، وأنَّهم كانوا أشـدَّ منهم بَطْشًـا، ولم يدفعْ عنهم الهلاكَ شـدةُ بَطْشِـهم، وأنهم عندَ الهلاكِ تَقَلَّبُوا وطافوا في البلاد، هـل يَجِدُون محيصًا ومنجىً من عذاب الله؟! قال قَتادة: حَاصَ أعداءُ الله فوجدوا أمرَ الله لهم مُدْرِكًا[(٢)].

وقال الزَّجَّاج[(٣)]: طَوَّفوا وفَتَّشُـوا فلم يروا محيصًا من الموت[(٤)]، وحقيقةُ ذلك أنَّهم طلبوا الـمَهرب من الموتِ فلم يجدوه.

ثـم أخـبرَ سُبْحَانَهُ أنَّ في هـذا الَّـذي ذُكِـرَ ذكـرى ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ثمَّ أخبرَ أنَّه خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستَّةِ أيَّامٍ، ولم يمسَّـهُ من تَعَبٍ ولا إعياءٍ، تكذيبًا لأعدائه من اليهود؛ حيث قالوا: إنَّه استراحَ في اليوم السَّابع[(٥)]!

---

(١) ذكره الواحديُّ في «التفسير البسيط» (٢٠/ ٤١١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٣٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٧٢)، وإسناده صحيح.

(٣) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن محمَّد بن السَّري، نحوي زمانه، توفي سنة (٣١١هـ).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٥/ ٤٨).

(٥) إشارة إلى حديث أخرجه ابنُ جرير الطَّبري في «تفسيره» (٢٠ / ٣٨٢) وفي «تاريخه» (١/ ٢٢-٢٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٦٢)، والحاكم في «المستدرك» برقم (٣٦٨٣) و(٣٩٩٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» برقم (٧٦٥)، من طريق أبي سعيد -وفي بعض الروايات: أبي سعد- البقَّال =

ثمَّ أمر نبيَّه بالتَّأسِّي به سُبْحَانَهُ في الصَّبْرِ على ما يقول أعداؤُه فيه، كما أنَّه سُبْحَانَهُ صَبَرَ على قول اليهود: إنَّه استراحَ! و«لا أحدَ أصبرُ على أذىً يسمَعُه منه»[1].

ثمَّ أمرَه بما يستعينُ به على الصَّبْرِ؛ وهو التَّسبيح بحمدِ ربِّهِ قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبلَ غُروبِهَا وبالليل وأدْبَارَ السجود، فقيل: هو الوِتْرُ، وقيل: الرَّكعتانِ بعد المغرب، والأوَّل قول ابن عبَّاس[2]، والثاني قول عمرَ وعليٍّ وأبي هريرة والحسنِ بن عليٍّ[3]، وإحدى الرِّوايتين عن ابن عبَّاس[4].

= عن عكرمة عن ابن عباس: أن اليهود أتت النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسألته عن خلق السماوات والأرض؛ قال: . . . فذكره. وقد صحَّحه الطبري في «تاريخه»، وقال الحاكم في الموضع الثاني: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ». وتعقَّبه الذهبي بقوله: «أبو سعيد البقَّال قال ابنُ معين: لا يُكتب حديثُه». وساقه الحافظ ابنُ كثير في «تفسيره» (٧/ ١٦٨) من رواية الطبري، وقال: «هذا الحديث فيه غرابة». وقال الألباني في «الضعيفة» (٥٩٧٣): «منكر».

وللحديث إسناد آخر عند الطبري في «التفسير» (٢١/ ٤٦٥) وفي «التاريخ» (١/ ٥٠)، وهو ضعيف جدًّا؛ لانقطاعه، وضعفٍ في رواته. وانظر تخريج الحديث موسَّعًا في «السلسلة الضعيفة» حديث رقم (٥٩٧٣).

(١) لفظ الحديث رواه البخاري برقم (٦٠٩٩)، ومسلم برقم (٢٨٠٤) واللفظ له، عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) حكاه القرطبي في «تفسيره» عن ابن عبَّاس (١٧/ ٢٦أطفيش).

(٣) انظر: «قيام الليل» للمروزي (ص: ٧٨ مختصر المقريزي)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٢٦٧، ٣/ ٢٤٠ مصطفى)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٤٦٩-٤٧٠ هجر)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٠ سلامة)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٦١١).

(٤) لم أجده عن ابن عبَّاس موقوفًا، لكن يروى عنه مرفوعًا؛ أخرجه الترمذي برقم (٣٢٧٥)، والحاكم (١١٩٨) وصحَّحه، وغيرهما، من طريق مُحَمَّدِ بْن فُضَيْلٍ، ثنا رِشْدِينُ بْنُ كُرَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**الرَّكْعَتَانِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ (إِدْبَارَ النُّجُومِ)، وَالرَّكْعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ (إِدْبَارَ السُّجُودِ)**». قال الترمذي: «غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ». وأشار الذهبيُّ إلى ضعفه، فقال: «رشدين ضعَّفه أبو زرعة والدارقطني». وضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (٢١٧٨).

وعن ابن عباس روايةٌ ثالثةٌ: أنَّه التسبيحُ باللسانِ أدبارَ الصلواتِ المكتُوبَاتِ[1].

ثم ختم السُّورةَ بذكر المعادِ، ونداءِ المنادي برجوعِ الأرواحِ إلى أجسادها للحَشْرِ، وأخبر أنَّ هذا النداء من مكانٍ قريبٍ يَسمعُه كلُّ أحدٍ، ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ [قٓ: ٤٢]: بالبعثِ ولقاء الله، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ [قٓ: ٤٤] كما تَتَشَقَّقُ عن النبات، فيخرجون ﴿سِرَاعًا﴾ [قٓ: ٤٤] من غيرِ مُهْلَةٍ ولا بطءٍ، ذلك حشر يسير عليه سُبۡحَانَهُ.

ثمَّ أخبرَ سُبۡحَانَهُ أنَّه عالمٌ بما يقول أعداؤُه، وذلك يتضمَّنُ مجازاتِهِ لهم بقولهم إذ لم يخفَ عليه، وهو سُبۡحَانَهُ يذكرُ علمَهُ وقدرتَهُ لتحقيقِ الجزاء.

ثمَّ أخبره أنَّه ليس بمُسَلَّطٍ عليهم ولا قهَّار، ولم يبعثْ ليُجبِرَهُم على الإسلام ويُكرهَهُم عليه، وأمره أن يُذكِّرَ بكلامه مَنْ يخافُ وعيده؛ فهو الَّذي ينتفع بالتَّذكير، وأمَّا من لا يؤمنُ بلقائِهِ ولا يخافُ وعيدَه ولا يرجو ثوابَهُ؛ فلا ينتفع بالتَّذكير.



(١) رواه البخاري في «صحيحه» (رقم: ٤٥٧١ البغا) عنه. وحكى الطَّبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٨١ الرسالة) قولًا آخر وهو: النَّوافل أدبار المكتوبات، حكَاه عن ابن زيد، ورجَّح الطَّبري أنَّها الرَّكعتان بعد المغرب، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قول من قال: هما الركعتان بعد المغرب، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، ولو لا ما ذكرت من إجماعها عليه، لرأيت أن القول في ذلك ما قاله ابن زيد، لأن الله جل ثناؤه لم يخصص بذلك صلاة دون صلاة، بل عم أدبار الصلوات كلها، فقال: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [قٓ: ٤٠]. ولم تقم بأنه معنيٌّ به: دبر صلاة دون صلاة حجَّة يجب التَّسليم لها من خبر ولا عقل».

فَائِدَة

قول النَّبيِّ ﷺ لعمرَ: «**وما يُدْرِيكَ أنَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[(١)] أَشكَلَ على كثيرٍ من النَّاس معناه؛ فإنَّ ظاهرَهُ إباحةُ كلِّ الأعمالِ لهم وتخييرهم فيما شاؤوا منها، وذلك ممتنعٌ.

فقالت طائفةٌ منهم ابن الجوزيّ: ليس المراد من قوله: «**اعْمَلُوا**» الاستقبال، وإنَّما هو للماضي، وتقديرُه: أيُّ عملٍ كان لكم فقد غفرتُه. قال: ويدلُّ على ذلك شيئان: أحدهما: أنَّه لو كان للمستقبلِ كان جوابُه قولَه: سأغفِرُ لكم، والثاني: أنَّه كان يكون إطلاقًا في الذُّنُوبِ، ولا وجهَ لذلك[(٢)].

وحقيقة هذا الجواب: أنِّي قد غفرتُ لكم بهذه الغزوة ما سلفَ من ذنوبكم.

لكنَّه ضعيفٌ من وجهين:

أحدهما: أنَّ لفظ (اعملوا) يأباه؛ فإنَّه للاستقبالِ دون المُضيِّ، وقوله: «قد غفرتُ لكم» لا يوجِبُ أنَّ يكون (اعملوا) مثلَهُ؛ فإنَّ قوله: «قد غفرتُ» تحقيقٌ لوقوع المغْفِرَةِ في المستقبلِ كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، ونظائرُهُ.

الثاني: أنَّ نفسَ الحديثِ يردُّه؛ فإنَّ سببه قصةُ حاطِبٍ[(٣)] وجَسُّهُ على النبيِّ، وذلك ذَنْبٌ واقعٌ بعدَ غزوةِ بَدْرٍ لا قبلَها، وهو سببُ الحديثِ، فهو مرادٌ منه قطعًا.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٧، ٣٩٨٣، ٤٨٩٠)، ومسلم برقم (١٦١- ٢٤٩٤)، من حديث عليٍّ رضي الله عنه.

(٢) «كشف مشكل الصَّحيحين» لابن الجوزي (١/ ١٤٢حسين البواب).

(٣) هو: حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهل اللَّخمي رضي الله عنه، صحابيّ شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ، توفي سنة (٣٠ هـ) في خلافة عثمان رضي الله عنه، «الإصابة» (٢/ ٤-٥).
وقصَّة تجسُّسه أخرجها البخاري برقم (٣٠٠٧، ٣٩٨٣، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠) ومسلم برقم (١٦١- ٢٤٩٤). عن علي رضي الله عنه.

فالَّـذي نظـنُ في ذلـكَ -والله أعلم-: أنَّ هذا خطابٌ لقومٍ قـد عَلِمَ اللهُ سُبْحَانَهُ أنَّهم لا يُفارِقُونَ دينهم، بل يموتونَ على الإسـلام، وأنَّهم قد يُقَارِفُونَ بعضَ ما يقارفُه غيرُهم من الذُّنُوبِ، ولكن لا يتركهم سُبْحَانَهُ مُصرِّيـن عليها، بل يوفِّقهم لتوبةٍ نصوحٍ واستغفارٍ وحسـناتٍ تمحو أثرَ ذلك، ويكون تخصيصُهم بهذا دونَ غيرهم؛ لأنَّه قد تحقَّق ذلك فيهم وأنَّهم مغفورٌ لهم، ولا يمنع ذلك كون المغفرةِ حصلتْ بأسـبابٍ تقوم بهم؛ كما لا يقتضي ذلـك أن يُعَطِّلُـوا الفرائضَ وثوقًـا بالمغفرةِ؛ فلو كانت قد حصلتْ بدونِ الاسـتمرارِ على القيـامِ بالأوامـر لما احتاجُوا بعد ذلـكَ إلى صلاةٍ ولا صيامٍ ولا حـجٍّ ولا زكاةٍ ولا جهادٍ وهـذا محال، ومن أوجبِ الواجباتِ التَّوبَةُ بعـدَ الذَّنْبِ؛ فضمانُ المغفرةِ لا يُوجِبُ تعطيلَ أسبابِ المغفرةِ.

ونظـيرُ هـذا قولُه في الحديث الآخـر: «**أَذْنَبَ عَبدٌ ذَنْبًـا فَقَـالَ: أَيْ رَبِّ، أَذْنَبْتُ ذَنبًا فاغفِرْهُ لي، فَغَفَرَ لَه، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لي**[1]، **فَغَفَرَ لَه، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْه لي، فَقَالَ اللهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَه رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِه، قَدْ غَفَرْتُ لعَبدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**»[2].

فليس في هذا إطلاقٌ وإذنٌ منه سبحانه له في المحرَّمَاتِ والجرائِم، وإنَّما يدلُّ على أنَّه يغفرُ له ما دامَ كذلكَ إذا أذنبَ تابَ.

واختصاصُ هذا العبدِ بهذا لأنَّه قد عَلِمَ أنَّه لا يُصِرُّ على ذنبٍ، وأنَّه كلَّما أذنبَ تابَ، حكـمٌ يعُمُّ كلَّ من كانت حالُهُ حالَـه، لكنَّ ذلكَ العبد مقطوعٌ له بذلكَ كما قُطِعَ به لأهلِ بدرٍ.

---

(١) في الأصل: «فاغفر لي»، في هذا الموضع فقط.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٥٠٧)، ومسلم برقم (٢٩ - ٢٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك كلُّ مَن بشَّرَهُ رسولُ الله ﷺ بالجنَّةِ أو أَخبرَهُ بأنَّه مغفورٌ له؛ لم يَفْهَمْ منه هو ولا غيرُه من الصَّحابةِ إطلاق الذُّنوب والمعاصي له ومسامحته بتركِ الواجبات، بل كانَ هؤلاء أشدَّ اجتهادًا وحذرًا وخوفًا بعد البشارة منهم قبلها؛ كالعشَرَةِ المشهود لهم بالجنَّةِ، وقد كان الصِّدِّيقُ شديدَ الحذرِ والمخافةِ، وكذلك عُمَرُ فإنَّهم علموا أنَّ البشارةَ المطلقةَ مقيدةٌ بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت، ومقيَّدةٌ بانتفاء موانِعِهَا، ولم يفهمْ أحدٌ منهم من ذلك الإطلاقَ والإذنَ فيما شاؤوا من الأعمالِ.



فائدة جليلة

قولـه تعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] أخبرَ سُبْحَانَهُ أنَّه جعلَ الأرضَ ذلولًا منقادةً للوطءِ عليها وحفرِهَا وشقِّهَا والبناءِ عليها، ولم يجعلْهَا مستصعبةً ممتنعةً على مَن أراد ذلك منها.

وأخبرَ سُبْحَانَهُ أنَّه جعلها مِهَادًا وفِرَاشًا وبِسَاطًا وقَرَارًا وكِفَاتًا، وأخبرَ أنَّه دَحَاها وطَحاهَا وأخرج منها ماءَهَا ومَرْعَاهَا، وثبَّتَها بالجبالِ، ونهجَ فيها الفِجَاجَ والطُّرُقَ، وأجرى فيها الأنهارَ والعيونَ، وبارك فيها وقدَّرَ فيها أقواتَها، ومن بركتِها أنَّ الحيوانات كلَّها وأرزاقَهَا وأقواتَهَا تخرجُ منها، ومن بركتها أنَّكَ تُودِعُ فيها الحبَّ فتخرجُه لك أضعافَ أضعاف ما كان، ومن بركتها أنَّها تَحْمِلُ الأذى على ظهرهَا، وتخرجُ لكَ من بطنها أحسنَ الأشياءِ وأنفعها؛ فتواري منه كلَّ قبيحٍ وتخرج له كلَّ مليحٍ، ومن بركتها أنَّها تستر قبائحَ العبدِ وفضلاتِ بدنه وتُواريها، وتضمُّهُ وتُؤويه، وتخرج له طعامَهُ وشرابَهُ؛ فهيَ أحملُ شيءٍ للأذى وأعودُه بالنَّفع؛ فلا كان من التراب خيرٌ منه وأبعدُ من الأذى وأقربُ إلى الخيرِ.

والمقصودُ أنَّه سُبْحَانَهُ جعلَ لنا الأرضَ كالجملِ الذَّلُولِ الَّذي كيفما يُقَادُ ينقادُ.

وحَسُنَ التَّعبيرُ بـ(مناكبِهَا) عن طُرُقِهَا وفِجَاجِهَا؛ لما تَقَدَّمَ مِن وصفها بكونها ذلولًا؛ فالماشي عليها يطأُ على مناكِبِهَا، وهو[1] أعلى شيءٍ فيها، ولهذا فُسِّرَتْ المناكبُ بالجبال؛ كمناكبِ الانسان وهي أعاليه. قالوا: وذلك تنبيهٌ على أنَّ المشيَ في سهولها أيسر، وقالت طائفة: بل المناكبِ الجوانبُ والنواحي، ومنه: مناكبُ الإنسان لجوانِبه.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (وهي).

والَّـذي يظهـر: أنَّ المرادَ بالمناكبِ الأعالي، وهذا الوجـهُ الَّذي يمـشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجهِ المقابلِ له؛ فإنَّ سـطحَ الكُرَةِ أعلاها، والمشيُ إنَّما يقعُ في سطحِهَا، وحَسُنَ التعبيرُ عنه بالمناكبِ لِمَا تقدَّم من وصفها بأنَّها ذلولٌ.

ثـمَّ أمرَهـم أن يأكلوا من رزقهِ الَّـذي أودعَهُ فيهـا؛ فَذَلَّلهَا لهم ووطَّأهَـا وفتقَ فيها السُبُلَ والطُرُقَ الَّتي يمشون فيها، وأودعَهَا رزقَهُم؛ فذكر تهيئةَ المسكنِ للانتفاع والتَّقلُّبِ فيه بالذَّهابِ والمجيء، والأكلِ ممَّا أُودِعَ فيه للسَّاكن.

ثمَّ نبَّه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ على أنَّا في هذا المسكنِ غيرُ مستوطنين ولا مقيمين؛ بل دخلناهُ عابري سبيلٍ، فلا يحسُنُ أن نتَّخذَهُ وطنًا ومستقرًّا؛ وإنَّما دخلناهُ لنتزوَّدَ منه إلى دارِ القَرارِ؛ فهو منزلُ عُبُورٍ لا مستقرُّ حُبُورٍ؛ ومَعْبرٌ وممرٌّ لا وطنٌ ومُستقرٌّ.

فتضمَّنتْ الآيـةُ الدّلالةَ على ربوبيَّتِه ووحدانيَّتِه وقدرتِه وحكمتِه ولطفِه، والتَّذكير بنِعَمِهِ وإحسـانِه، والتَّحذير من الرُّكونِ إلى الدُّنيا واتِّخاذها وطنًا ومسـتقرًّا، بل نُسرِعُ فيها السَّيرَ إلى دارِه وجنَّتِه.

فللَّه ما في ضمن هذه الآية من معرفتِه وتوحيدِه، والتَّذكير بنِعَمِه والحثِّ على السَّير إليه والاستعدادِ للقائه والقدومِ عليه، والإعلامِ بأنَّه سُبْحَانَهُ يطوي هذه الدَّارَ كأن لم تكنْ، وأنه يحي أهلَهَا بعد ما أماتهم، وإليه النُّشُور.

❁ ❁ ❁

فَائِدَة

للإنسانِ قوَّتانِ: قوَّةٌ علميَّةٌ نظريَّةٌ، وقوَّةٌ عمليَّة إراديَّةٌ.

وسعادتُهُ التَّامَّةُ موقوفةٌ على استكمال قوَّتيهِ العلميَّةِ والإراديَّةِ.

واستكمالُ القوَّةِ العلميَّةِ إنَّما يكونُ: بمعرفة فاطرِهِ وبارئِهِ، ومعرفةِ أسمائِه وصفاتِه وأفعالِـه، ومعرفة الطَّريق الَّتي تُوصِلُ إليه ومعرفة آفاتِها، ومعرفةِ نفسِـهِ ومعرفةِ عيوبِها؛ فبهذه المعارف الخمسةِ تحصُلُ[1] كمالُ قوَّتِهِ العلميَّة، وأعلمُ النَّاس أعرَفُهم بها وأفقهُهم فيها.

واستكمالُ القوَّةِ العمليَّة الإراديَّـة لا تَحْصُلُ إلَّا بمراعـاةِ حقوقِهِ سُبْحَانَهُ على العبد والقيامِ بها إخلاصًا وصدقًا ونُصحًا وإحسـانًا ومتابعةً وشُهودًا لـمِنَّتِهِ عليه وتقصيرِهِ هو في أداءِ حقِّـه، فهو مُسْتَحْيي من مُواجَهتِهِ بتلك الخدمةِ؛ لعلمِهِ أنَّها دونَ ما يَستحقُّه عليه ودونَ دونِ ذلك، وأنَّه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوَّتين إلَّا بمعونتِهِ؛ فهو مضطرٌّ إلى أنْ يَهدِيَـهُ الصِّراطَ المستقيمَ الَّذي هَدى إليه أولياءَهُ وخاصَّتَهُ، وأن يُجنِّبَهُ الخروجَ عن ذلك الصراطِ: إمَّا بفسادٍ في قوَّتِهِ العلميَّةِ فيقعُ في الضَّلال، وإمَّا في قوَّتِهِ العمليَّةِ فيُوجِبُ له الغضبَ.

فكمالُ الإنسانِ وسعادتُهُ لا تَتِمُّ إلَّا بمجموع هـذه الأمور، وقد تضمَّنَتْها سـورةُ الفاتحة وانتظمتْها أكمل انتظام:

فـإنَّ قولـه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤] يتضمَّـنُ الأصـلَ الأوَّل، وهو معرفةُ الرَّبِّ تَعَالَىٰ ومعرفةُ أسمائِهِ وصفاتِه وأفعالِهِ. والأسماءُ المذكورةُ في هذه السُّورة هي أصولُ الأسماءِ الحسنى، وهي اسمُ اللهِ

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (يحصل).

والـرَّبِّ والرَّحمن؛ فاسـم الله متضمِّنٌ لصفات الألوهيَّةِ، واسـمُ الـرَّبِّ متضمِّنٌ لصفاتِ الرُّبوبيَّةِ، واسـمُ الرَّحمن متضمِّنٌ لصفاتِ الإحسـانِ والجودِ والبرِّ. ومعاني أسـمائه تدورُ على هذا.

وقولُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] يتضمَّنُ معرفة الطَّريق الـمُوصِلةِ إليه، وأنَّها ليستْ إلَّا عبادتَهُ وحدَه بما يُحِبُّه ويرضاهُ واستعانتَهُ على عبادتِهِ.

وقولُـهُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] يتضمَّن بيانَ أنَّ العبد لا سـبيل له إلى سـعادتِهِ إلَّا باسـتقامتِهِ على الصـراطِ المسـتقيم، وأنَّه لا سـبيلَ له إلى الاستقامةِ إلَّا بهداية ربِّه له؛ كما لا سبيلَ له إلى عبادتِهِ إلَّا بمعونتِهِ؛ فلا سبيلَ لهُ إلى الاستقامة على الصِّراط إلَّا بهدايتِهِ.

وقولُهُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] يتضمَّنُ بيانَ طرفَي الانحراف عـن الصِّراط المسـتقيم، وأنَّ الانحراف إلى أحد الطَّرفين انحـرافٌ إلى الضَّلال الَّذي هو فسـادُ العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطَّرف الآخر انحرافٌ إلى الغضب الَّذي سـببُهُ فسادُ القصدِ والعمل.

فأوَّلُ السُّورة رحمةٌ، وأوسطُها هدايةٌ، وآخرُها نعمةٌ. وحَظُّ العبدِ من النِّعمةِ على قَدْرِ حَظِّهِ من الهداية، وحظُّه منها على قَدْرِ حظِّه من الرَّحمةِ. فعادَ الأمرُ كلُّه إلى نعمتِهِ ورحمتِهِ. والنِّعمةُ والرَّحمةُ من لوازم ربوبيَّتِهِ؛ فلا يكونُ إلَّا رحيمًا مُنعِمًا، وذلك من موجباتِ إلهيَّتِهِ؛ فهو الإله الحقُّ وإنْ جَحَدَهُ الجاحدونَ وعدَلَ به المشركون. فمَن تحقَّق بمعاني الفاتحة علمًا ومعرفةً وعملًا وحالًا؛ فقد فاز من كمالِهِ بأوفرِ نصيبٍ، وصارتْ عبوديَّتُه عبوديَّةَ الخاصَّةِ الَّذين ارتفعتْ درجتُهم عن عوامِّ المتعبِّدين.

والله المستعان.

فائدة

الرَّبُّ تَعَالَىٰ يدعو عبادَه في القرآنِ إلى معرفتِهِ من طريقين:

أحدُهما: النَّظرُ في مفعولاتِه، والثَّاني: التَّفكُّر في آياتِهِ وتدبُّرُها، فتلك آياتُهُ المشهودةُ، وهذه آياتُهُ المسموعةُ المعقولةُ.

فالنَّوع الأوَّل: كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، هو كثيرٌ في القرآنِ.

والثاني: كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، [محمد: ٢٤] وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقولِهِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وهو كثيرٌ أيضًا.

فأمَّا المفعولاتُ فإنَّها دالَّةٌ على الأفعالِ، والأفعالُ دالَّةٌ على الصفاتِ؛ فإنَّ المفعولَ يدلُّ على فاعلٍ فَعَلَهُ، وذلك يستلزمُ وجودَه وقدرتَه ومشيئتَه وعلمَه؛ لاستحالةِ صدورِ الفعلِ الإختياريِّ من معدومٍ، أو موجودٍ لا قدرةَ له ولا حياةَ ولا علمَ ولا إرادةَ.

ثمَّ ما في المفعولاتِ من التَّخْصِيصاتِ المتنوِّعةِ دالٌّ على إرادةِ الفاعلِ وأنَّ فعلَه ليس بالطَّبْعِ بحيثُ يكون واحدًا غير متكرِّرٍ(١)، وما فيها من المصالِحِ والحِكَمِ والغاياتِ المحمودةِ دَالٌّ على حكمتِه تَعَالَىٰ، وما فيها من النَّفعِ والاحسانِ والخيرِ دالٌّ على رحمتِه، وما فيها من البَطْشِ والانتقامِ والعُقوبَةِ دالٌّ على غضبه، وما فيها من الإكرامِ والتَّقريبِ والعنايةِ دالٌّ على محبَّتِه، وما فيها من الإهانَةِ والإبعادِ والخُذْلَانِ دالٌّ على بغضته ومَقْتِه، وما فيها من ابتداءِ الشَّيءِ في غايةِ النَّقْصِ والضَّعْفِ، ثمَّ سَوْقِهِ إلى تمامِه ونهايتِه دالٌّ على

(١) في الأصل: (منكر)، وهو خطأ.

وقوعِ المعادِ، وما فيها من أحوالِ النَّباتِ والحيوان وتَصَرُّفِ المياهِ دليلٌ على إمكانِ المعاد، وما فيها من ظهورِ آثار الرَّحمةِ والنِّعْمَةِ على خلقهِ دليلٌ على صِحَّةِ النُّبوَّاتِ، وما فيها من الكَمالَاتِ الَّتي لو عُدِمَتْهَا كانتْ ناقصةً دليلٌ على أنَّ معطي تلك الكمالات أحقُّ بها؛ فمفعولاتُه من أدلِّ شيءٍ على صفاتِه وصِدْقِ ما أخبرتْ به رُسُلُهُ عنه.

فالمصنوعاتُ شاهدةٌ تُصَدِّقُ الآياتِ المسموعاتِ مُنَبِّهَةٌ على الاستدلالِ بالآيات المصنوعاتِ.

قال تَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣] أيْ: أنَّ القرآنَ حقٌّ؛ فأخبرَ أنَّه لا بدَّ من أن يُرِيَهُم من آياتِه المشهودةِ ما يُبيِّنُ لهم أنَّ آياتِه المتلوَّةَ حقٌّ.

ثمّ أخبرَ بكفايةِ شهادتِه على صِحَّةِ خبرِه بما أقامَ من الدَّلائِلِ والبراهينِ على صِدْقِ رسولِه؛ فآياتُه شاهدةٌ بصدقِه، وهو شاهدٌ بِصِدْقِ رسولِه بآياتِه؛ فهو الشَّاهِدُ والمشهود لـه، وهو الدَّلِيلُ والمدلول عليه، فهو الدَّلِيلُ بنفسِه على نفسِه، كما قال بعضُ العارفين: كيفَ أطلبُ الدَّليلَ على مَنْ هو دليلٌ على كلِّ شيءٍ؟! فأيُّ دليلٍ طلبتُه عليه فوجودُه أظهرُ منهُ.

ولهذا قال الرُّسلُ لقومهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟! فهو أعرفُ من كلِّ معروفٍ، وأبينُ من كلِّ دليلٍ؛ فالأشياءُ عُرِفَتْ به في الحقيقةِ، وإن كانَ عُرِفَ بها في النَّظَرِ والإستدلالِ بأفعالِه وأحكامِه عليه.

❁ ❁ ❁

فَائِدَة

في المسندِ[١] وصحيح أبي حَاتم[٢] من حديثِ عبدِ الله بن مسعودٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَصابَ عَبْدًا همٌّ ولا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إنِّي عَبْدُكَ، ابنُ عَبْدِكَ، ابنُ أَمتِكَ، نَاصِيَتي بيَدِكَ، مَاضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قَضاؤكَ، أَسْأَلُكَ بكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيتَ به نَفْسَكَ، أَو أَنْزَلْتَهُ في كِتَابِكَ، أَو عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلقْكَ، أَو استَأْثَرتَ بـه في عِلْمِ الغَيبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبيعَ قَلْبِي، ونُورَ صَدْرِي، وجلاءَ حُزْنِي، وذَهابَ هَمِّي وغَمِّي، إلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وغَمَّهُ وأَبْدَلَهُ مكانَهُ فرحًا**»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نَتعلَّمُهُنَّ؟ قال: «**بلى؛ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أن يَتعلَّمَهُنَّ**».

فَتضَمَّنَ هذا الحديثُ العظيمُ أمورًا من المعْرِفَةِ والتوحيدِ والعُبُودِيَّةِ منها:

أنَّ الدَّاعيَ بـه صدَّرَ سؤالَه بقوله: «**اللَّهُمَّ إنِّي عَبْدُكَ، ابنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ**»، وهذا يتناولُ مَنْ فوقَهُ من آبائِهِ وأمَّهاتِهِ إلى أبوَيْهِ آدمَ وحَوَّاء، وفي ذلك تَمَلُّقٌ له، واستخذاءٌ بين يديه، واعترافٌ بأنَّه مملوكُه وآباؤه مماليكُه، وأنَّ العبدَ ليسَ له غيرُ بابِ سَيِّدِه وفَضْلِه وإحسانِه، وأنَّ سَيِّدَهُ إن أهملَهُ وتخلَّى عنه هَلَكَ، ولم يُؤْوِهِ أحدٌ، ولم يَعْطِفْ عليه، بلْ يَضِيعُ أعظمَ ضَيْعَةٍ.

فَتحْتَ هذا الاعترافِ: أنِّي لا غِنًى بي عنكَ طَرْفَةَ عينٍ، وليسَ لي مَنْ أعوذُ بهِ وأَلُوذُ به غير سَيِّدي الَّذي أنا عَبْدُه.

وفي ضِمْنِ ذلكَ الاعتراف بأنَّه مَرْبُوبٌ مُدَبَّرٌ مأمورٌ منهيٌّ، إنَّما يتصرَّفُ بحُكمِ العبوديَّةِ لا بحُكمِ الاختيار لنفسه؛ فليس هذا شأنَ العبدِ بل شأنُ الملوكِ والأحرار، وأمَّا العبيد فتَصرُّفُهم على محْضِ العبوديَّة، فهؤلاء عبيدُ الطَّاعةِ المضافُونَ إليه سُبحانَهُ في

(١) برقم (٣٧١٢، ٤٣١٨).

(٢) «صحيح ابن حبَّان» برقم (٩٧٢).

قولـه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، [الإسراء: ٦٥]، وقولـه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الإسراء: ١]، ومَـن عَدَاهُـم عبيـدُ القَهْـرِ والرُّبوبيَّةِ؛ فاضافتُهم إليـه كإضافَةِ سـائِرِ البُيُوتِ إلى مُلْكِه، وإضافة أُولئك كإضافَـةِ البيتِ الحرامِ إليه وإضافة ناقتِـه إليـه ودارِه التي هي الجنةُ إليه، وإضافَةِ عبودِيَّةِ رسـولِه إليه بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وفي **التحقيـق**(١) بمعنى قولِـهِ: «**إنِّي عَبْدُكَ**»: التزامُ عبوديَّتِـه من الذُّلِّ والخُضُوعِ والإنابَةِ، وامتثالُ أمرِ سَيِّدِه، واجتنَابُ نهيِه، ودوامُ الإفتقارِ إليه، واللَّجأ إليه، والاستعانَةِ بـه، والتَّـوكُّلِ عليـه، وعِيَـاذِ العبدِ به، وليـاذِهِ بـه، وأنْ لا يتعلَّـقَ قَلْبُه بغيره محبَّـةً وخوفًا ورجاءً.

وفيــه أيضًا: أنِّي عبدٌ من جميـعِ الوجوه، صغيرًا وكبيرًا، حَيًّا ومَيِّتًا، مُطيعًا وعاصيًا، معافًى ومبتلًى، بالرُّوحِ والقَلْبِ واللِّسانِ والجوارحِ.

وفيه أيضًا: أنَّ مالي ونفسي مُلْكٌ لكَ؛ فإنَّ العبدَ وما يَملِكُ لسيِّدِه.

وفيــه أيضًــا: أنَّكَ أنت الَّـذي مَنَنْتَ عليَّ بكلِّ ما أنـا فيه من نِعْمَـةٍ؛ فذلك كُلُّه من إنعامِكَ على عَبْدِكَ.

وفيــه أيضًــا: أنِّي لا أتـصَرَّفُ فيـما خَوَّلتَنِـي مـن مـالي ونفسي إلَّا بأمـركَ؛ كـما لا يتـصَرَّفُ العبدُ إلَّا بأذنِ سـيِّده، وأنِّي لا أمْلِكُ لنفـسي ضَرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشُورًا.

فإنْ صَحَّ له شهودُ ذلكَ فقدْ قال: إنِّي عَبْدُكَ حقيقةً.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة المجمع (التحقق).

ثمَّ قال: «**نَاصِيَتي بيدِكَ**» أيْ: أنتَ المتَصرِّفُ فيَّ؛ تُصرِّفُني كيفَ تشاءُ، لستُ أنا المتصرِّف في نفسي.

وكيفَ يكونُ له في نفسِه تصرُّفٌ مَنْ نفسُه بيدِ ربِّه وسيِّدِه، وناصيتُهُ بيدِه، وقلْبُهُ بين أصْبُعَينِ من أصَابِعِه، وموتُه وحياتُه وسعادتُه وشقاوتُه وعافيتُه وبلاؤُه كلُّه إليه سُبْحَانَهُ، ليسَ إلى العبدِ منه شيءٌ، بل هو في قَبْضَةِ سيِّدِه أضعَفُ من مملوكٍ ضعيفٍ حقيرٍ ناصيتُه بيدِ سلطانٍ قاهرٍ مالكٍ له تحتَ تصرُّفِه وقَهْرِه، بل الأمرُ فوقَ ذلكَ!

ومتى شَهِدَ العبدُ أنَّ ناصِيَتَهُ ونواصيَ العبادِ كلَّهَا بيد الله وحدَهُ يُصرِّفُهم كيفَ يشاءُ؛ لم يَخَفْهُم بعدَ ذلكَ، ولم يَرْجُهُم، ولم يُنْزِلْهُم منزلةَ المالكينَ، بل منزلةَ عبيدٍ مقهورينَ مربوبينَ، المتصرِّفُ فيهم سواهم، والمدَبِّرُ لهم غيرُهُم.

فمنْ شَهِدَ نفسَهُ بهذا المشْهَدِ، صارَ فَقْرُهُ وضرورتُه إلى ربِّهِ وصفًا لازمًا له، ومتى شَهِدَ الناس كذلكَ لم يفتقرْ إليهم، ولم يُعَلِّقْ أمَلَهُ ورجاءَهُ بهم، فاستقامَ توحيدُهُ وتوكُّلُه وعبوديَّتُهُ.

ولذا قال هودٌ لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [هُود: ٥٦].

وقوله: «**مَاضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قضاؤُكَ**»، تضَمَّنَ هذا الكلامُ أمرين:

أحدهما: مضَاءُ حُكْمِهِ في عبدِه، والثاني: يتضَمَّنُ حمدَهُ وعدْلَهُ، وهو سُبْحَانَهُ له الملكُ وله الحمدُ.

وهذا معنى قولُ نبيِّه هود: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾، أي: مع كونِه مالكًا قاهرًا متصرِّفًا في عبادِه نواصِيهم بيدِه؛ فهو على صراطٍ مستقيمٍ، وهو العَدْلُ الَّذي يتصَرَّفُ به فيهم؛ فهو على صِرَاطٍ مستقيمٍ في قولِه وفعلِه

وقضائِه وقَدَرِه وأمرِه ونهيِه وثوابِه وعقابِه؛ فخَبَرُهُ كلُّه صدقٌ، وقضاؤُه كلُّه عدلٌ، وأمرُه كلُّه مصلحَةٌ، والَّذي نهى عنه كلُّه مفسدةٌ، وثوابُهُ لمنْ يستحقُّ الثَّوابَ بفضلِهِ ورحمتِهِ، وعِقَابُهُ لمنْ يستحقُّ العقابَ بعدلِهِ وحكْمَتِهِ.

وفرَّقَ بين الحُكْمِ والقضاءِ، وجعل المضاءَ للحُكْمِ والعدلَ للقضاء: فإنَّ حُكْمَهُ سُبْحَانَهُ يتناولُ حُكْمَهُ الدِّينيَّ الشرعيَّ، وحكمَه الكونيَّ القدريَّ، والنوعانِ نافذَةٌ[1] في العبد ماضيةٌ[2] فيه، وهو مقهورٌ تحتَ الحكمينِ، قد مَضَيَا فيه ونَفَذَا فيه شاءَ أم أبى، لكن الحكمُ الكونيُّ لا يُمكِنُه مخالفتُه، وأمَّا الدِّينيُّ الشَّرعيُّ فقد يخالفُهُ.

ولما كان القضاءُ هو الإتمامُ والإكمالُ، وذلك إنَّما يكونُ بعد مُضِيِّهِ ونفوذِهِ؛ قال: «عَدْلٌ فيَّ قضاؤُكَ» أيْ: الحكمُ الَّذي أكملْتَهُ وأتممْتَهُ ونَفَّذْتَهُ في عبدِكَ عَدْلٌ منكَ فيهِ.

وأمَّا الحكمُ فهو ما يحكُمُ به سبحانَهُ، وقدْ يشاءُ تنفيذَهُ وقدْ لا يُنَفِّذَهُ، فإن كانَ حكمًا دينيًّا فهو ماضٍ في العبد، وإن كانَ كونيًّا؛ فإنْ نَفَّذَهُ سُبْحَانَهُ مضى فيه، وإنْ لم يُنَفِّذْهُ اندفعَ عنه.

فهو سُبْحَانَهُ يقضي[3] ما يقضي به، وغيرُه قد يَقْضِي بقضاءٍ ويُقْدِرُ أمرًا ولا يستطيعُ تَنْفِيذَه، وهو سُبْحَانَهُ يَقْضِي ويُمضِي؛ فله القضاءُ والإمضَاءُ.

وقولُه: «عَدْلٌ فيَّ قضاؤُكَ»؛ يتضَمَّنُ جميعَ أقضيتِهِ في عبدِهِ من كلِّ الوجوه؛ من صِحَّةٍ وسقْمٍ، وغنىً وفقرٍ، ولذةٍ وألمٍ، وحياةٍ وموتٍ، وعقوبةٍ وتجاوزٍ وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال:

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (نافذان).

(٢) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (ماضيان).

(٣) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (يمضي)، وهو الصواب.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]، فكُلُّ ما يَقْضِي على العبد فهو عَدْلٌ فيه.

فإن قيلَ: فالمعصيةُ عندكم بقضائِهِ وقَدَرِهِ؛ فما وجهُ العَدْلِ في قضائِهَا؛ فإنَّ العدلَ في العقوبةِ عليها ظاهر؟!

قيلَ: هذا سؤالٌ له شأنٌ، ومن أجلِهِ زعمتْ طائفةٌ أنَّ العدلَ هو المقدورُ، والظلم ممتنعٌ لذاتِهِ، قالوا: لأنَّ الظُّلمَ هو التَّصرُّفُ في ملكِ الغير، والله له كلُّ شيءٍ، فلا يكون تصرُّفُه في خَلْقِه إلَّا عدلًا.

وقالت طائفة: بل العدلُ أنَّه لا يُعاقِبُ على ما قضاهُ وقَدَّره، فلمَّا حَسُنَ منه العقوبةُ على الذَّنب عُلِمَ أنَّه ليسَ بقضائِهِ وقَدَرِهِ فيكونُ العدلُ هو جزاؤُه على الذَّنْبِ بالعقوبَةِ والذَّمِّ، إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخرة.

وصَعُبَ على هؤلاءِ الجمعُ بينَ العدلِ وبينَ القَدَرِ، فزعموا أنَّ مَن أثبتَ القدرَ لم يُمكِنهُ أن يقولَ بالعدلِ، ومَن قالَ بالعدلِ لم يُمكِنهُ أن يقولَ بالقدرِ؛ كما صَعُبَ الجمع بينَ التَّوحيدِ وإثباتِ الصفات، فزعموا أنَّه لا يُمكِنُهم إثباتُ التَّوحيدِ إلا بإنكارِ الصفاتِ! فصار توحيدُهُم تعطيلًا، وعدلُهم تكذيبًا بالقَدْرِ!

وأمَّا أهلُ السُّنَةِ فهم مُثبتونَ للأمرين، والظُّلمُ عندهم هو: وَضْعُ الشَّيءِ في غيرِ موضِعِه كتعذيب المطيعِ ومن لا ذَنْب له، وهذا قد نزَّه اللهُ نفسَهُ عنه في غير موضعٍ مِن كتابِهِ.

وهو سُبْحَانَهُ وإنْ أضلَّ مَن شاءَ، وقضى بالمعصيةِ والغَيِّ على من شاءَ؛ فذلك محضُ العدل فيه؛ لأنَّه وضع الإضلالَ والخُذلان في موضعه اللَّائقِ بِهِ، كيف ومن أسمائه الحسنى العَدْلُ، الَّذي كلُّ أفعالِهِ وأحكامِهِ سدادٌ وصوابٌ وحقٌّ!

وهـو سُبْحَانَهُ قد أوضحَ السُّبلَ، وأرسـلَ الرُّسلَ، وأنـزلَ الكُتـبِ، وأزاحَ العللَ، ومَكَّنَ مِن أسـبابَ الهدايةِ والطَّاعةِ بالأسماعِ والأبصارِ والعقولِ، وهذا عَدْلُه، ووفَّقَ مَن شـاءَ بمزيـدِ عنايةٍ، وأرادِ مِنْ نفسـهِ أن يعينهُ ويوفِّقَهُ، فهذا فَضْلُـهُ، وخذلَ مَنْ ليسَ بأهلٍ لتوفيقـهِ وفضلـهِ، وخـلَّى بينهُ وبين نفسـهِ، ولم يُرِدْ سُبْحَانَهُ مِن نفسـهِ أنْ يُوَفِّقَـهُ، فقطعَ عنهُ فضلهُ ولم يَحْرِمْهُ عَدْلَهُ، وهذا نوعان:

أحدُهمـا: مـا يكـون جزاءً مِنـهُ للعبدِ عـلى إعراضهِ عنـهُ، وإيثار عـدوِّهِ في الطَّاعةِ والموافقةِ عليهِ، وتناسي ذِكرهِ وشكرهِ؛ فهو أهلٌ أنْ يَخْذُلَهُ ويتخلَّى عنهُ.

والثانـي: أن لا يشـاءَ لهُ ذلك ابتـداءً؛ لِـما يَعلمُ منهُ أنَّهُ لا يعرفُ قـدرَ نِعمةِ الهدايةِ، ولا يشـكُرهُ عليـهِ، ولا يُثني عليهِ بها، ولا يُحِبُّهُ، فلا يَشـاؤُها لهُ لعـدمِ صلاحيَّةِ محلِّهِ؛ قال تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقـال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فـإذا قَـضى عـلى هذهِ النُّفـوسِ بالضَّلالِ والمعصيـةِ؛ كان ذلك مَحْضُ العدلِ؛ كـما إذا قَضى على الحيَّـةِ بـأن تُقتلَ وعلى العقربِ وعلى الكلبِ العقُورِ؛ كان ذلكَ عدلًا فيهِ، وإن كان مخلوقًا على هذه الصِّفةِ.

وقدْ استوفينا الكلامَ في هذا في كتابِنا الكبير في القضاءِ والقدر(١).

والمقصـودُ: أنَّ قولَـهُ: «مَـاضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَـدْلٌ فيَّ قَضَاؤُكَ»: ردٌّ عـلى الطَّائفتين: القَدَريَّـةِ الذيـن يُنْكِـرُون عمومَ أقضيـةِ الله في عبده، ويُخرجـونَ أفعالَ العبـادِ عن كونها بقضائِـه وقَـدَرِهِ، ويـرُدُّونَ القضـاءَ إلى الأمرِ والنهي، وعـلى الجَبْريَّةِ الذيـن يقولون: كلُّ مقـدورٍ عـدلٌ! فلا يبقـى لقولِـه: «عَـدْلٌ فيَّ قضـاؤُكَ»: فائدةٌ؛ فـإنَّ العـدلَ عندهم كلُّ

(١) واسمه: «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتَّعليل».

مـا يمكـنُ فعلُه، والظلمُ هو الـمُحَـالُ لذاتِه! فكأنَّه قال: ماضٍ ونافـذٌ فيَّ قضاؤُك، وهذا هو الأولُ بعينه.

وقوله: «أسـألُكَ بكلِّ اسْـمٍ...» إلى آخره: توسُّـلٌ إليه بأسـمائِهِ كلِّها؛ ما عَلِمَ العبدُ منها وما لم يعلمْ، وهذه أحبُّ الوسائلِ إليه؛ فإنَّها وسيلةٌ بصفاتِهِ وأفعالِهِ التي هي مدلولُ أسمائِهِ.

وقولـه: «أنْ تَجْعَـلَ القُـرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي ونُـورَ صَدْرِي»، الرَّبيـعُ: المطرُ الذي يُحيي الأرضَ؛ شبَّهَ القرآنَ به لحياةِ القلوبِ به، وكذلكِ شـبَّهَهُ الله بالمطرِ، وجمع بينَ الماءِ الَّذي تحصُلُ به الحياةُ والنور الَّذي تحصُلُ به الإضاءةُ والإشراقُ؛ كما جمعَ بينهما سُبْحَانَهُ في قولِهِ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ [الرعد: ١٧]، وفي قولـه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]، ثـم قـال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩]، وفي قولـه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥] الآيات. ثـم قـال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ [النور: ٤٣] الآية. فتضَمَّـنَ الدُّعـاء أن يحيـيَ قلبَـهُ بربيعِ القرآنِ وأن يُنـوِّرَ به صَدْرَهُ فتجتمـعَ لـه الحياةُ والنُّورُ؛ قـال تَعَالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولـما كانَ الصَّدرُ أوسـعَ من القلـبِ؛ كانَ النُّورُ الحاصلُ له يَسـري منه إلى القلب؛ لأنَّه قد حصلَ لما هو أوسعُ منه.

ولما كانت حياةُ البدنِ والجوارحِ كلِّها بحياةِ القلبِ، تسري الحياةُ منه إلى الصَّدرِ ثم إلى الجوارحِ؛ سألَ الحياةَ له بالربيعِ الَّذي هو مادتُها.

ولما كان الحُـزْنُ والهمُّ والغمُّ يُضادُّ حياةَ القلبِ واستنارتَهُ؛ سأل أن يكون ذهابُها بالقرآنِ؛ فإنَّها أحرى أنْ لا تعود، وأمَّا إذا ذهبت بغير القرآنِ من صحَّةٍ أو دنيا أو جاهٍ أو زوجةٍ أو ولدٍ؛ فانَّها تعودُ بذهابِ ذلك.

والمكروه الواردُ على القلبِ: إن كانَ من أمرٍ ماضٍ أحدث الحزن، وإنْ كان من مستقبلٍ أحدث الهمَّ، وإن كان من أمرٍ حاضرٍ أحدثَ الغمَّ. والله أعلم.



فَائِدَة

أنـزَهُ الموجوداتِ وأطهرُهَا وأنورُهَا وأشرُفَها وأعلاها ذاتًا وقدرًا وأوسـعُهَا عرشُ الرَّحمنِ جَلَّجَلَالُهُ؛ ولذلكَ صَلُحَ لاستوائِهِ عليه.

وكلُّ مـا كانَ أقـربَ إلى العرشِ؛ كانَ أنورَ وأنزهَ وأشرفَ ممـا بَعُدَ عنه؛ ولهذا كانت جنَّةُ الفِرْدَوسِ أعلى الجنانِ وأشرفَهَا وأنورَهَا وأجلَّهَا؛ لقربها من العرشِ؛ إذ هو سقْفُهَا.

وكلُّ ما بَعُدَ عنه كانَ أظلمَ وأضيقَ، ولهذا كانَ أسفلُ سافلينَ شَرَّ الأمكنةِ وأضيقَهَا وأبعدَهَا من كلِّ خيرٍ.

وخلـقَ اللهُ القلوبَ وجَعلها محـلًّا لمعرفتهِ ومحبَّتهِ وإرادتهِ؛ فهـيَ عرشُ المثلِ الأعلى الَّذي هو مَعرِفَتُـهُ ومحبَّتُهُ وإرادتُه، قال تَعَالَىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، وقـال تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقـال تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ فهـذا مِـنَ المثلِ الأعلى، وهو مُسْـتَوٍ على قلبِ المؤمـنِ؛ فهوَ عرشُـهُ، وإنْ لم يكنْ أطهرَ الأشـياءِ وأنزهَها وأطيبَهـا وأبعدَها مِن كلِّ دَنَسٍ وخُبْثٍ؛ لم يَصْلُح لإستواءِ المثلِ الأعلى عليه معرفةً ومحبَّةً وإرادةً، فاستوى عليهِ مَثَلُ الدُّنيا الأسـفلُ ومحبتُها وإرادتُها والتَّعلُّقُ بها، فضاقَ وأظلمَ وبَعُدَ مِنْ كمالِهِ وفلاحِهِ، حتَّى تعودَ القلوبُ على قلبينِ:

قلـب هو عرشُ الرَّحمـنِ؛ ففيهِ النُّورُ والحيـاةُ والفرحُ والسُّـرورُ والبهجةُ وذخائرُ الخيرِ.

وقلـب هو عرشُ الشَّـيطانِ؛ فهناكَ الضِّيقُ والظُّلمةُ والمـوتُ والحزنُ والغمُّ والهمُّ؛ فهو حزينٌ على ما مَضى، مهمومٌ بما يُسْتَقْبَلُ، مغمومٌ في الحالِ.

وقـدْ روى التِّرْمِـذيُّ وغيرهُ عنِ النَّبـي ﷺ أنَّه قالَ: «**إذا دَخَـل النُّورُ القَلْبَ انْفَسَـحَ وانْشَـرَحَ**»، قالوا: فما علامةُ ذلكَ يا رسـولَ اللهِ؟ قالَ: «**الإنابَـةُ إلى دَارِ الخُلُودِ، والتَّجَافي عَن دَارِ الغُرُورِ، والاسْتِعْدَادُ للموتِ قبلَ نُزولِهِ**»[1].

والنُّـورُ الَّذي يدخلُ القلبَ إنَّما هو من آثارِ المثلِ الأعلى؛ فلذلك ينفسـحُ وينشرحُ، وإذا لم يكنْ فيهِ معرفةُ اللهِ ومحبَّتهُ؛ فحظُّهُ الظُّلمةُ والضِّيقُ.



(١) الحديث أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٠٦-١٠٧)، ووكيع في «الزهد» (ص٢٣٨ الفريوائي)، وسعيد بن منصور في «سننه» برقم (٩١٨)، وابن أبي شيبة في «مصنَّفـه» (٣٥٤٥٥) و(٣٥٤٥٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٤ محمود عبده)، وابـن أبي حاتم في «التفسـير» (٤/ ١٣٨٤ الباز)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» برقم (٣٢٤)، من طريقين عن عبد الله بن المسور أبي جعفر المدائني، عن النبيِّ ﷺ.
وفيه علّتان: الأولى: فيه عبد الله بن المسور، وهو متهم؛ قال فيه أحمد وغيره: أحاديثه موضوعة، وقال النسائي والدارقطني: متروك، «الميزان» (٢/ ٥٠٤-٥٠٥ البجاوي).
والثانية: الإرسال، عبد الله بن المسور تابعيٌّ صغير، كما في «الإصابة» لابن حجر (٥/ ١٦١).
ويـروى هـذا الحديث عن ابن مسـعود، وعن ابن عبَّاس، وعن الحسـن البصري مرسـلًا، ولا يصحُّ. انظر: «العلل» للدَّارقطني (٥/ ١٨٩)، و«الضعيفة» للألباني (٩٦٥).
ووَهِـمَ المصنّـف رحمه الله في نسـبة الحديث للترمذي؛ حيـث إنَّ التِّرمذيَّ لم يخرجه، ولم أجد من نسـبَهُ للتّرمذي غيره. والله أعلم.

فائدة

تأمَّلْ خِطابَ القرآنِ؛ تجدْ مَلِكًا لهُ المُلكُ كلّه ولهُ الحمدُ كلُّهُ، أزِمَّةُ الأمورِ كلِّها بيدَيْه ومصدرُها منهُ ومردُّها إليهِ، مستويًا على سريرِ ملكهِ، لا تخفى عليهِ خافيةٌ في أقطارِ مملكتهِ، عالمًا بما في نُفوسِ عبيدهِ، مُطَّلِعًا على إسْرارهِم وعلانيَتِهِم، مُنفردًا بتدبيرِ المملكةِ، يسمعُ ويرى، ويُعطي ويمنعُ، ويُثيبُ ويُعاقبُ، ويُكرمُ ويُهينُ، ويَخلُقُ ويرزقُ، ويُميتُ ويُحيي، ويُقدِّرُ و يَقضي ويُدبِّرُ، الأمورُ نازلةٌ من عندهِ دَقيقُها وجَليلُها وصاعدةٌ إليهِ، لا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلَّا بإذنهِ، ولا تَسْقُطُ وَرَقَةٌ إلَّا بِعلمِهِ.

فتأمَّلْ كيفَ تَجِدُهُ يُثني على نفسهِ، ويُمَجِّدُ نفسَهُ، ويَحْمَدُ نفسَهُ، ويَنصحُ عبادَهُ، ويَدُلُّهم على ما فيهِ سعادتُهم وفلاحُهم، ويُرغِّبُهم فيهِ، ويُحَذِّرُهم ممَّا فيهِ هلاكُهم، ويتعرَّفُ إليهم بأسمائهِ وصفاتهِ، ويتحبَّبُ إليهم بنعمهِ وآلائهِ؛ فيُذكِّرهم بنِعَمِه عليهم ويَأمرهم بما يستوجبون به تمامَها، ويُحذِّرهم من نِقَمِه ويُذكِّرهم بما أعدَّ لهُم من الكرامةِ إنْ أطاعوه، وما أعدَّ لهم من العقوبة إن عصوهُ، ويُخْبِرُهم بصُنعِهِ في أوليائهِ وأعدائهِ، وكيف كانت عاقبةُ هؤلاءِ وهؤلاءِ، ويُثني على أوليائهِ بصالح أعمالِهم وأحسن أوصافهم، ويذمُّ أعداءه بسيِّءِ أعمالِهم وقبيح صفاتهم، ويضربُ الأمثال، ويُنوِّعُ الأدلَّة والبراهين، ويُجيب عن شُبه أعدائِهِ أحسنَ الأجوبة، ويُصدِّقُ الصَّادق، ويكذِّبُ الكاذب، ويقولُ الحقَّ ويَهدي السَّبيل، ويدعو إلى دار السَّلام ويَذكُرُ أوصافها وحُسنها ونعيمها، ويُحذِّرُ مِن دار البوارِ ويَذكُرُ عذابها وقبحها وآلامها، ويُذكِّرُ عباده فقرهم إليه وشدَّة حاجتهم إليهِ مِن كلِّ وجهِ، وأنَّهم لا غِنىً لهم عنهُ طرفةَ عَيْنٍ، ويذكُرُ غِناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنَّهُ الغنيُّ بنفسهِ عن كلِّ ما سواه، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليهِ بنفسه، وأنَّه لا ينالُ أحدٌ ذرَّةً من الخيرِ فما فوقها إلَّا بفضلهِ ورحمتهِ، ولا ذرَّة من الشَّرِّ فما فوقها إلَّا بعدلهِ وحكمتهِ.

ويشهدُ من خطابه عتابَهُ لأحبابِهِ ألطفَ عتابٍ، وأنَّهُ مع ذلك مُقيلُ عثراتِهِمْ، وغافرُ زلَّاتِهِم، ومُقيمُ أعذارِهم، ومُصلحُ فسادِهم، والدَّافعُ عنهم، والمحامي عنهم، والنَّاصرُ لهم، والكفيلُ بمصالحهم، والمُنجي لهم مِن كلِّ كربٍ، والموفي لهم بوعدِهِ، وأنَّه وليُّهم الذي لا وليَّ لهم سواه؛ فهو مولاهُم الحقُّ، ونصيرهُم على عدوِّهم؛ فنعم المولى ونعم النَّصيرُ.

فإذا شَهدتِ القلوبُ من القرآن ملكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلًا هذا شأنُهُ؛ فكيف لا تُحِبُّه، وتُنافِسُ في القُرْبِ منه، وتُنْفِقُ أنفاسها في التَّودُّد إليه، ويكون أحبَّ إليها من كلِّ ما سواه، ورضاهُ آثر عندها من رِضَى كلِّ ما سواه؟! وكيف لا تلهَجُ بذكْرِهِ، ويصير حبُّه والشُّوقُ إليه والأنسُ به هو غذاءها وقُوتَها ودواءَها؛ بحيثُ إن فقدتْ ذلك؛ فسدتْ وهلكتْ ولم تَنْتَفِعْ بحياتها؟!



فَائِدَة

قَبولُ المحلِّ لما يُوضعُ فيه مشروطٌ بتفريغِهِ من ضِدِّه، وهذا كما أنَّه في الذَّواتِ والأعيانِ؛ فكذلك هو في الاعتقاداتِ والإراداتِ؛ فإذا كان القلبُ ممتلئًا بالباطلِ اعتقادًا ومحبَّةً؛ لم يبقَ فيه لاعتقادِ الحقِّ ومحبَّتِهِ موضعٌ؛ كما أنَّ اللِّسانَ إذا اشتغلَ بالتَّكلُّمِ بما لا ينفعُ؛ لم يتمكَّنْ صاحبُهُ من النُّطقِ بما ينفعُهُ؛ إلَّا إذا فرَّغَ لسانَهُ من النُّطقِ بالباطلِ، وكذلك الجوارحُ إذا اشتغلتْ بغير الطَّاعةِ؛ لم يُمكنْ شُغلُها بالطَّاعةِ إلَّا إذا فرَّغَها من ضِدِّها.

فكذلكَ القلبُ المشغولُ بمحبَّةِ غيرِ اللهِ وإرادتِهِ والشَّوق إليه والأُنسِ به لا يُمكنُ شغْلُهُ بمحبَّةِ اللهِ وإرادتِهِ وحبِّهِ والشَّوقِ إلى لقائه؛ إلَّا بتفريغِهِ من تَعلُّقِهِ بغيره، ولا حركةُ اللسانِ بذكرِه والجوارحِ بخدمتِهِ؛ إلَّا إذا فرَّغها من ذكرِ غيره وخِدمَتِهِ؛ فإذا امتلأَ القلبُ بالشُّغلِ بالمخلوقِ والعلومِ التي لا تنفعُ؛ لم يبقَ فيها مَوضِعٌ للشُّغلِ بالله ومعرفةِ أسمائِهِ وصفاتِهِ وأحكامِهِ.

وسِرُّ ذلكَ **أنَّ إصغاءَ القلبِ كإصغاءِ الأُذُنِ**: فإذا صَغَا إلى غيرِ حديثِ الله لم يبقَ فيه إصغاءٌ ولا فهمٌ لحديثه، كما إذا مالَ إلى غير محبَّةِ الله لم يبقَ فيه مَيْلٌ إلى محبَّتِهِ، فإذا نَطَقَ القلبُ بغير ذكره لم يبقَ فيه محلٌّ للنُّطقِ بذكرِهِ كاللِّسانِ.

ولهذا في الصَّحيح عن النَّبيِّ أنَّه قال: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُم قَيْحًا حتَّى يَرِيَهُ خَيرٌ لَه مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**»[1]، فبيَّن أنَّ الجوفَ يمتلئُ بالشِّعْرِ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦١٥٥)، ومسلم برقم (٧-٢٢٥٧)، عن أبي هريرة بلفظ: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا يَرِيهِ خيرٌ من أنْ يمتلئَ شعرًا**».

وأخرجه مسلم برقم (٨ - ٢٢٥٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نحوه.

وأخرجه البخاري برقم (٦١٥٤) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، بنحوه، وليس فيه: ذكر الرِّيِّ.

فكذلكَ يمتلئُ بالشُّبَهِ والشُّكُوكِ والخَيالاتِ والتَقْدِيرَاتِ[١] التي لا وجودَ لها، والعلومُ التي لا تنفعُ، والـمُفاكَهاتِ والـمُضْحِكَات، والحكاياتِ ونحوها.

وإذا امتلأَ القلبُ بذلكَ؛ جاءَتْه حقائِقُ القرآنِ والعلمِ الَّذي به كمالُهُ وسعادتُهُ، فلم تجدْ فيه فَرَاغًا لها ولا قَبُولًا، فتعدَّتْهُ وجاوزَتْهُ إلى محلٍّ سِواهُ؛ كما إذا بُذِلَتْ النَّصِيحَةُ لقلبٍ ملآن من ضِدِّهَا لا منفذَ لها فيه؛ فإنَّه لا يَقْبَلُهَا ولا تَلِجُ فيه، لكن تمُرُّ مجتازةً لا مستوطِنَةً، ولذلك قيل:

نَزِّهْ فُؤَادَكَ مِنْ سِوانَا تَلْقَنَا ... فَجَنابُنا حِلٌّ لِكُلِّ مُنَزِّهِ
والصَّبْرُ طِلَّسْمٌ لِكَنْزِ وِصَالِنَا ... مَنْ حَلَّ ذَا الطِّلَّسْم فازَ بِكَنزِهِ[٢]

وبالله التَّوفيق.



(١) في الأصل: (التقدرات)، والصَّواب: (التَّقديرات)، والله أعلم.

(٢) ذكره ابن القيم في «مدارج السَّالكين» (٣/ ٢٣٩)، و«طريق الهجرتين» (ص: ٢٦٦)، مع تغير في بعض الألفاظ يسير.

فَائِدَة

قولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، إلى آخرها.

أُخلِصَتْ هذه السُّورة للوعدِ والوعيدِ والتَّهديدِ، وكفى بها موعظةً لمن عقلها.

فقولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾؛ أي: شَغَلَكُمْ على وجهٍ لا تُعذَرونَ فيه؛ فإنَّ الإلهاءَ عنِ الشَّيءِ هو الاشتغالُ عنهُ، فإن كان بقصدٍ فهو محلُّ التَّكليفِ، وإنْ كانَ بغيرِ قصدٍ كقولِهِ ﷺ في الخميصة: «إنَّها ألهَتْني آنفًا عَنْ صَلاتي»[1]، كان صاحبُهُ معذورًا وهو نوعٌ من النِّسيان، وفي الحديث: فلها رسولُ اللهِ ﷺ عن الصَّبيِّ[2] أيْ: ذهلَ عنه، ويقال: لها بالشيء، أيْ: اشتغلَ به، ولها عنه: إذا انصرفَ عنه، واللَّهوُ للقلب، واللَّعبُ للجوارح، ولهذا يُجْمعُ بينهما. ولهذا كان قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] أبلغَ في الذَّمِّ من: (شَغلَكُم)؛ فإنَّ العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبهُ غير لاهٍ به؛ فاللَّهو هو ذهولٌ وإعراضٌ.

والتَّكاثر: (تفاعلٌ) من الكثرةِ، أيْ: مُكاثرةُ بعضكُم لبعضٍ، وأعرضَ عن ذكرِ المتكاثَرِ به إرادةً لإطلاقهِ وعمومهِ وأنَّ كلَّ ما يكاثِرُ به العبدُ غيرَهُ سوى طاعةِ اللهِ ورسولِهِ وما يعودُ عليه بنفعِ معادهِ، فهو داخلٌ في هذا التَّكاثر، فالتَّكاثرُ في كلِّ شيءٍ: مِن مالٍ أو جاهٍ أو رئاسةٍ أو نسْوَةٍ أو حديثٍ أو علمٍ - ولا سيَّما إذا لم يحتجْ إليه -، والتَّكاثرُ في الكتبِ والتَّصانيفِ وكثرةِ المسائلِ وتفريعها وتوليدِها، والتَّكاثرُ أن يطلبَ الرَّجلُ أن يكون أكثرَ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٣)، ومسلم برقم (٦٢-٥٥٦)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦١٩١)، ومسلم برقم (٢٩- ٢١٤٩)، من حديث سهل بن سعد قال: أُتي بالمنذر ابن أبي أسيد إلى رسول الله ﷺ حين ولد، فوضعه النبيُّ ﷺ على فخذه، وأبو أسيد جالس، فَلَهِيَ النبيُّ ﷺ بشيء بين يديه، فأمرَ أبو أسيد بابنه فاحتُمِلَ مِن على فَخذ رسول الله ﷺ فأقلبوه فاستفاق رسول الله ﷺ فقال: «أَيْنَ الصَّبيُّ؟»، فقال أبو أسيد: أقلبناه يا رسول الله، فقال: «ما اسْمُهُ؟» قال: فلانٌ، يا رسول الله، قال: «لا، وَلَكِن اسْمُهُ المُنْذِرُ»، فسمَّاه يومئذ المنذر.

من غيرِه، وهذا مذمومٌ؛ إلَّا فيما يُقَرِّبُ إلى الله؛ فالتَّكاثُرُ فيه منافسةٌ في الخيراتِ ومسابقة إليها.

وفي صحيح مسلم من حديثِ عبد الله بن الشِّخِّير[1]: أنَّه انتهى إلى النبيِّ ﷺ وهو يقرأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، قالَ: «**يقولُ ابنُ آدم: مالي مالي! وهل لكَ مِن مالِكَ إلَّا ما تصدَّقتَ فأمضيتَ، أو أكلتَ فأفنيتَ، أو لَبِستَ فأبليتَ؟!**»[2].

تنبيه:

❁ مَن لم ينتفعْ بعينِهِ لم ينتفعْ بأُذُنِهِ.

❁ للعبدِ سِترٌ بينهُ وبينَ اللهِ وسِترٌ بينهُ وبين النَّاس؛ فمَن هَتكَ السِّترَ الَّذي بينهُ وبين الله؛ هتكَ اللهُ السِّترَ الَّذي بينه وبين النَّاس.

❁ للعبدِ ربٌّ هو ملاقيهِ وبيتٌ هو ساكنهُ؛ فينبغي لهُ أن يَسترضيَ ربَّهُ قبلَ لقائهِ ويَعْمُرَ بيتهُ قبل انتقالهِ إليهِ.

❁ إضاعةُ الوقتِ أشدُّ من الموتِ؛ لأنَّ إضاعةَ الوقتِ تقطعُكَ عن الله والدَّار الآخرة، والموتُ يقطعُكَ عن الدُّنيا وأهلِها.

❁ الدُّنيا مِن أوَّلها إلى آخرها لا تساوي غمَّ ساعةٍ؛ فكيفَ بغمِّ العُمُر!

---

(١) هو: عبد الله بن الشِّخِّير بن عوف بن كعب بن وقدان الحرشي ثمَّ العامري، من الحريش وهم بطن من بني عامر بن صعصعة، له صحبة ورواية، يعدُّ في البصريِّين، هو والد مُطرِّف الفقيه وأخيه يزيد أبي العلاء. «الاستيعاب» (٣/ ٩٢٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٣ - ٢٩٥٨)، ولفظه: أتيت النبيَّ ﷺ وهو يقرأ. ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، قال: «**يقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي**»، قَالَ: «**وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟**».

أمَّا لفظ (أنَّه انتهى إلى النبي ﷺ)، فقد أخرجه الترمذي في «سننه» برقم (٣٣٥٤).

❁ محبوبُ اليومِ يعقب المكروهَ غدًا، ومكروهُ اليومِ يعقب المحبوبَ غدًا.

❁ أعظمُ الرِّبْح في الدُّنيا أن تُشْغِلَ[1] نفسَكَ كلَّ وقتٍ بما هو أولى بها وأنفعُ لها في معادها.

❁ كيف يكون عاقلًا من باعَ الجنَّةِ بما فيها بشهوةِ ساعةٍ؟!

❁ يخرجُ العارفُ من الدُّنيا ولم يقضِ وَطَرَهُ مِن شيئينِ: بُكاؤُهُ على نفسهِ، وثَناؤُهُ على ربِّهِ.

❁ المخلوقُ إذا خِفتَهُ؛ استوحشتَ منهُ وهربتَ منهُ، والرَّبُّ تَعَالَىٰ إذا خفتهُ أَنِستَ بهِ وقَرُبْتَ إليهِ.

❁ لو نفعَ العلمُ بِلا عمل؛ لما ذمَّ اللهُ سُبْحَانَهُ أحبارَ أهلِ الكتابِ، ولو نفعَ العملُ بلا إخلاصٍ؛ لما ذمَّ المنافقين.

❁ دافِعِ الخطرةَ؛ فإن لم تفعلْ صارتْ فكرةً؛ فدافِعِ الفكرةَ؛ فإنْ لم تفعل صارتْ شهوةً؛ فحارِبْها؛ فإن لم تفعل صارت عزيمةً وهمَّةً؛ فإن لم تُدافِعْها صارت فِعلًا؛ فإن لم تتداركْهُ بضدِّهِ صارَ عادةً، فيصعبُ عليكَ الانتقالُ عنها.

■ **التَّقوى ثلاث مراتبٍ: أحدها**: حميةُ القلبِ والجوارحِ عن الآثامِ والمحرَّماتِ. **الثانية**: حميتُها عن المكروهات. **الثالثة**: الحميةُ عن الفضولِ وما لا يعني. فالأولى تُعطي العبدَ حياتَه، والثانية تُفيدهُ صحَّتَهُ وقوَّتَه، والثَّالثة تُكسِبُهُ سرورَه وفرحَه وبهجَتَه.

❁ **غُمُوضُ الحَقِّ حينَ تَذُبُّ عنهُ — يُقَلِّلُ ناصِرَ الخَصْمِ المُحِقِّ**
تَضِلُّ عَنِ الدَّقِيقِ فُهُومُ قَوْمٍ — فَتَقْضِي للمُجِلِّ على المُدِقِّ[2]

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (تشتغل).

(٢) «ديوان ابن الرومي» (٢/ ٤٨٥-٤٨٦)، وانظر: «محاضرات الأدباء» (١/ ١٠٠)، و«دواوين الشعر العربي على مر العصور» القصيدة رقم (٦١٧٠٤).

❁ بـاللهِ أبْلُـغُ مـا أسعـى وأُدرِكُـهُ لَا بـي ولَا بشفيعٍ لـي مِـنَ النَّاسِ
إذا أيِسْتُ وكـادَ اليأسُ يقطعُني جاءَ الرَّجا مُسرعًا مِن جانبِ الياس[1]

❁ «مَـن خَلقـهُ اللهُ للجنَّـةِ لم تَزَلْ هداياها تأتيـه من المكَارهِ، ومَن خلقـهُ للنّارِ لم تَزَلْ هداياها تأتيهِ من الشَّهوات»[2].

❁ لـمَّا طلـبَ آدمُ الخلودَ في الجنةِ من جانبِ الشَّـجرةِ عُوقِبَ بالخـروجِ منها، ولـمَّا طلبَ يوسُفُ الخروجَ من السِّجنِ من جِهةِ صاحبِ الرُّؤيا لَبِثَ فيهِ بِضْعَ سِنينَ.

■ **إذا جرى على العبدِ مقدورٌ يكرهُهُ؛ فلهُ فيه ستةُ مشاهد:**

أحدها: مشـهدُ التَّوحيدِ، وأنَّ اللهَ هو الَّذي قدَّرهُ وشـاءَهُ وخلقَهُ، وما شاءَ اللهُ كان، وما لم يشأْ لم يكنْ.

الثاني: مشهدُ العَدْلِ، وأنَّه ماضٍ فيه حُكْمُهُ، عَدْلٌ فيه قَضاؤُهُ.

الثالـث: مشـهدُ الرَّحمةِ، وأنَّ رحمتَهُ في هـذا المقدورِ غالبةٌ لغضبـهِ وانتقامهِ، ورحمتهُ حشوُهُ.

الرَّابـع: مشـهدُ الحكمـةِ، وأنَّ حكمتَـهُ سُبْحَانَهُ اقتضـت ذلـك، لم يُقـدِّرْهُ سُـدىً ولا قضاه[4].

الخامس: مشهدُ الحمدِ، وأنَّ له سُبْحَانَهُ الحمدَ التَّامَّ على ذلك من جميع وجوهِهِ.

السـادس: مشـهدُ العبوديَّةِ، وأنَّه عبدٌ محضٌ من كلِّ وجهٍ، تجري عليهِ أحكامُ سيِّدهِ وأقضيتُهُ بحكم كونهِ ملكهُ وعبدهُ، فيُصَرِّفُهُ تحت أحكامهِ القَدَرِيَّةِ كما يُصرِّفُهُ تحت أحكامهِ الدِّينيَّةِ؛ فهو محلٌّ لجريانِ هذه الأحكامِ عليهِ.

---

(١) البيتـان ذكرهمـا أبـو نعيـم في «الحلية» (١٠/ ٣٠٤ السـعادة) عن أحمد بن سـهل بن عطـاء، بشيء من الاختلاف.

(٢) سقطت هذه الجملة من طبعة (المجمع).

۞ قلةُ التَّوفيقِ، وفسادُ الرَّأي، وخفاءُ الحقِّ، وفسادُ القلبِ، وخُمولُ الذِّكرِ، وإضاعةُ الوقتِ، ونفرةُ الخلقِ، والوحشةُ بين العبدِ وبين ربِّهِ، ومنعُ إجابةِ الدُّعاءِ، وقسوةُ القلبِ، ومحقُ البركةِ في الرزقِ والعمرِ، وحرمانُ العلمِ، ولباسُ الذُّلِّ، وإدالةُ العدوِّ، وضيقُ الصَّدرِ، والإبتلاءُ بقرناءِ السّوءِ الَّذين يُفسدونَ القلبَ ويُضيِّعونَ الوقتَ، وطولُ الهمِّ والغمِّ، وضنكُ المعيشةِ، وكسفُ البالِ: يتولَّدُ[1] من المعصيةِ والغفلةِ عن ذكرِ الله، كما يتولَّدُ الزَّرعُ عن الماءِ والإحراقُ عن النَّارِ. وأضدادُ هذه يتولَّدُ[2] عن الطَّاعةِ.



(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (تتولد).

(٢) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (تتولد).

فَصْلٌ

طُوبَى لِمَنْ أنصفَ ربَّهُ؛ فأقرَّ له بالجهلِ في علمِهِ، والآفاتِ في عملِهِ، والعيوبِ في نفسِهِ، والتَّفريطِ في حَقِّهِ، والظُّلم في معاملتِهِ.

فإن آخَذَهُ بذُنُوبِهِ رأى عَدْلَهُ، وإن لم يُؤاخِذْهُ بها رأى فَضْلَهُ.

وإن عَمِلَ حسنةً رآها من مِنَّتِهِ وصَدَقَتِهِ عليه؛ فإن قَبِلَهَا فَمِنَّةٌ وصَدَقَةٌ ثانيةٌ، وإن رَدَّهَا فلكونِ مثلِهَا لا يَصلُحُ أن يُواجَه به.

وإن عَمِلَ سيِّئةً رآها من تخلِّيهِ عنه، وخُذْلانِهِ له، وإمساكِ عِصمَتِهِ عنه، وذلك من عَدْلِهِ فيه، فيرى في ذلك فَقْرَهُ إلى ربِّهِ، وظلمهِ في نفسهِ؛ فإنْ غفَرَها له؛ فبمَحْضِ إحسانِهِ وجودِهِ وكَرمِهِ.

ونُكْتَةُ المسألةِ وسِرُّها أنَّه لا يرى رَبَّه إلَّا مُحْسِنًا، ولا يرى نَفسَه إلَّا مُسيئًا أو مُفرِّطًا أو مُقصِّرًا، فيرى كلَّ ما يَسُرُّه من فضلِ رَبِّه عليه، وإحسانِهِ إليه، وكلَّ ما يسوؤُهُ من ذنوبِهِ وعَدْلِ الله فيه.

❁ الـمُحِبُّونَ إذا خَرِبَتْ منازلُ أحبَّائهم قالوا: سَقْيًا لسُكَّانها.

وكذلك المحبُّ إذا أتَتْ عليه الأعوامُ تحتَ التُّرابِ، ذَكَرَ حينئذٍ حُسْنَ طاعتِهِ له في الدُّنيا وتَودُّدِهِ إليه (و) تجَدُّدِ رحمتِهِ وسُقيَاهُ لمن كانَ ساكنًا في تلكَ الأجسام البالية.

❁ ❁ ❁

فَائِدَة

الغَيْرَةُ غَيْرَتانِ: غَيرَةٌ على الشَّيءِ، وغَيْرَةٌ من الشَّيءِ.

فالغَيْرَةُ على المحبوبِ[1]، والغَيْرَةُ من المكروهِ: أن يُزاحِمَكَ عليه.

فالغَيرَةُ على المحبوبِ لا تتمُّ إلَّا بالغَيرَةِ من المزاحِمِ، وهذه تُحْمَدُ حيثُ يكونُ المحبوبُ تَقبُحُ المشاركةُ في حبِّهِ؛ كالمخلوق.

وأمَّا من تَحسُنُ المشاركةُ في حُبِّهِ؛ كالرَّسولِ والعالِمِ بل الحبيبِ القريبِ سُبْحَانَهُ؛ فلا يُتَصوَّرُ غَيرَةُ المزاحمةِ عليه بل هو حَسَدٌ.

والغَيْرَةُ المحمودةُ في حَقِّهِ أن يَغارَ المحبُّ على محبَّتِهِ له أن يَصرِفَهَا إلى غيره، أو يَغارَ عليها أن يَطَّلِعَ عليها الغَيْرُ فيُفْسِدَهَا عليه، أو يَغارَ على أعمالِهِ أن يكونَ فيها شيءٌ لغيرِ محبوبه، أو يَغارَ عليها أن يَشُوبَها ما يكرَهُ محبوبُهُ من رياءٍ أو إعجابٍ أو محبَّةٍ لاشرافِ غيره عليها، أو غَيبتِهِ عن شهودِ منَّتِهِ عليه فيها.

وبالجُملَةِ فَغَيْرَتُه تقتضي أن تكونَ أحوالُهُ وأعمالُهُ وأفعالُهُ كلُّها لله، وكذلك يَغارُ على أوقاتِهِ أن يذهبَ منها وقتٌ في غيرِ رِضَى محبوبِهِ.

فهذه الغَيرَةُ من جهةِ العبدِ، وهي غَيرةٌ من المزاحمِ له المعوِّقِ القاطِعِ له عن مرضاةِ محبوبِهِ.

وأمَّا غَيرَةُ محبوبِهِ عليه؛ فهي كراهيةُ أن يَنصَرِفَ قلبُهُ عن محبَّتِهِ إلى محبَّةِ غيرِهِ بحيثُ يشاركُهُ في حبِّهِ.

ولهذا كانت غَيرةُ الله أن يأتي العبدُ ما حرَّمَ عليه؛ ولأجلِ غيرتِهِ سُبْحَانَهُ حَرَّمَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطن، لأنَّ الخلقَ عبيدُهُ وإماؤُهُ؛ فهو يَغارُ على إمائِهِ كما يَغارُ

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (فالغيرة على المحبوب حرصُك عليه).

السَّيِّدُ على جواريهِ، ولله الـمَثَلُ الأعلى، ويَغارُ على عبيدِهِ أنْ تكونَ محبَّتُهم لغيرِهِ؛ بحيثُ تَحمِلُهم تلك المحبَّةُ على عشقِ الصُّور ونيل الفاحشة منها.

❁ من عَظُمَ وَقارُ الله في قلبِهِ أن يعصيَهُ؛ وَقَّرَهُ الله في قلوب الخلق أن يُذِلُّوه.

❁ إذا علقتْ شُروشُ[1] المعرفة في أرضِ القلب، نبتتْ فيهِ شجرةُ المحبَّة؛ فإذا تمكَّنتْ وقَوِيَتْ أثمرتْ الطاعة، فلا تزالُ الشجرة ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥].

■ **أولُ منازل القوم**: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢]، **وأوسطُها**: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، **وآخرُها**: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

❁ أرْضُ الفِطْرَة رَحْبَةٌ قابلةٌ لما يُغْرَسُ فيها؛ فإنْ غُرِسَتْ شَجَرَةُ الإيمان والتَّقْوى أورثَتْ حلاوةَ الأبد، وإن غُرِسَتْ شَجَرَةُ الجَهْلِ والهوى، فكلُّ الثَّمرِ مُرٌّ.

❁ ارْجِعْ إلى الله، واطْلُبه من عينك وسمعك وقلبك ولسانك، ولا تَشْرُدْ عنه من هذه الأربعة؛ فما رَجَعَ مَنْ رَجَعَ إليه بتوفيقه إلَّا منها، وما شَرَدَ مَنْ شَرَدَ عنه بخذلانهِ إلَّا منها، فالموَفَّقُ يَسمعُ ويُبْصِرُ ويتكلَّمُ ويبطش بمولاه[2]، والمخْذُول يصدُر منه ذلك عنه بنفسِهِ وهواه.

---

(١) الشروش جمع شرش وهو: أصل الشجرة وعروقها، انظر: «تكملة المعاجم العربيَّة» (٦/ ٢٨٨).

(٢) يدلُّ عليه ما أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ قالَ: مَنْ عادَى لي وَلِيًّا فقدْ آذنْتُهُ بالحرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بشَيءٍ أَحَبَّ إليَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عَلَيهِ، وَمَا يَزالُ عبْدِي يَتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يسْمَعُ به، وبَصرهُ الَّذي يُبْصِرُ به، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الموتَ وَأَنا أكْرَهُ مُساءَتَهُ».

❁ مثالُ تولُّدِ الطَّاعات ونُموِّها وتزايُدِها، كمثل نواةٍ غَرَستَها، فصارتْ شجرةً، ثمَّ أثمرتْ، فأكلتَ ثمرها، وغَرستَ نواها، فكلَّما أثمرَ منها شيءٌ جَنيتَ ثمرَهُ، وغَرستَ نواهُ، وكذلك تَداعِي المعاصي.

فليَتَدَبَّرِ اللَّبيبُ هذا المثال؛ فمن ثَوابِ الحسنةِ الحسنةُ بعدها، ومن عقوبةِ السَّيِّئةِ السَّيِّئةُ بعدها.

❁ ليس العَجَبُ من مملوكٍ يَتَذَلَّلُ لله ويَتَعَبَّدُ له ولا يَملُّ من خِدْمَتِهِ مع حاجتِهِ وفَقْرِه إليه، إنَّما العجبُ من مالكٍ يتحبَّبُ إلى مملوكِهِ بصنوفِ إنعامِهِ ويتودَّدُ إليه بأنواع إحسانِهِ مع غِناهُ عنهُ.

❁ كَفَى بِكَ عِزًّا أنَّكَ لَهُ عَبْدٌ　　　وكَفَى بِكَ فَخْرًا أنَّه لَكَ رَبٌّ



فَصْلٌ

* إِيَّاكَ والمعاصي؛ فإنَّها أذلَّتْ عِزَّ ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ [البقرة: ٣٤]، وأخرجتْ إقطاع ﴿ٱسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥].

* يا لها لحظةً أثمرتْ حرارة القلقِ ألف سنةٍ!

* مازالَ يَكتُبُ بدمِ النَّدَم سطور الحزن في القصص، ويُرسِلُها مع أنفاس الأسف، حتى جاءه توقيعُ: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

* فَرِحَ إبليسُ بنزولِ آدمَ مِن الجنَّةِ وما عَلِمَ أنَّ هبوط الغائص في اللُّجَّةِ خلفَ الدُّرِّ صعودٌ.

* كَمْ بينَ قولِهِ لآدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقولِهِ لك: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٣]!!

* ما جرى على آدم هو المرادُ من وجودِهِ، «**لَوْ لَمْ تُذْنِبوا**»(١).

* يا آدمُ! لا تَجزعْ مِن قَولي لك: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨]؛ فلك ولِصالح ذُرِّيَّتِك خَلَقْتُها.

* يا آدمُ! كُنتَ تَدخلُ عليَّ دخولَ الملوك على الملوكِ، واليوم تدخل عليَّ دخولَ العبيد على الملوك.

* يا آدمُ! لا تجزعْ مِن كأسِ زللٍ كانت سببَ كيسك؛ فقد استخرج منك داءُ العجب، وأُلبِسْتَ خلعةَ العبوديَّة، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

---

(١) أخرج مسلم برقم (١١ - ٢٧٤٩)، من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَو لَم تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**».

❁ يا آدمُ! لم أُخرج إقطاعك إلى غيرك، إنَّما نحَّيتُك عنه؛ لأ كمِّل عمارتهُ لك، وليبعث إليَّ العمالُ نفقةَ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ [السجدة: ١٦].

❁ تالله ما نفعَهُ عند معصيته عزُّ ﴿اسْجُدُوا﴾ [البقرة: ٣٤]، ولا شرفُ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ [البقرة: ٣١]، ولا خصيصةُ ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ولا فخرُ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، [ص: ٧٢]، وإنَّما انتفع بذُلِّ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

❁ لـمَّا لَبِسَ دِرْعَ التوحيد على بدن الشُّكْرِ؛ وقعَ سهمُ العدوِّ منه في غير مَقْتَلٍ، فجرحهُ، فوضع عليه جُبَارَ الإنكسار، فعاد كما كان، فقام الجريح كأن لم يكن به قَلبةٌ[١].

❁❁❁

(١) قال ابن فارس: «وقولهم: ما به قَلَبَةٌ، قالوا: معناه ليست به علَّة يقلب لها فينظر إليه». «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ١٧).

فصل

نجائبُ النجاةِ مُهيَّأةٌ للمُراد، وأقدامُ المطرود موثوقةٌ بالقيود.

هَبَّتْ عواصفُ الأقدارِ في بيداءِ الأكوان، فتقلَّب الوجود، ونجَمَ الخيرُ، فلمّا ركَدَت الريحُ إذا أبو طالبٍ غَرِيقٌ في لُجَّةِ الهلاك، وسلمانُ على ساحلِ السَّلامة، والوليدُ بنُ المغيرة يقدُمُ قومَهُ في التِّيهِ، وصُهيبٌ قد قدم بقافلة الرُّوم، والنجاشيُّ في أرض الحبشة يقولُ: لبيك اللهمَّ لبيك، وبلالٌ ينادي: الصَّلاةُ خيرٌ مِنَ النَّوم، وأبو جهل في رقدةِ المخالفة.

لما قُضيَ في القدم بسابقة سلمان؛ عرَّجَ به دليلُ التَّوفيق عن طريقِ آبائه في التَّمجُّس، فأقبل يُناظرُ أباه في دين الشرك، فلمّا عَلاهُ بالحُجَّة؛ لم يكن له جوابٌ إلَّا القيد، وهذا جوابٌ يتداولُه أهلُ الباطل من يوم حرَّفوه، وبه أجاب فِرْعَونُ موسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي﴾ [الشعراء: ٢٩]، وبه أجاب الجهميَّةُ الإمامَ أحمد لـمّا عرضوه على السِّياط، وبه أجاب أهل البدع شيخَ الإسلام حين استودعوهُ السِّجن، وها نحنُ على الأثرِ، فنزلَ بِهِ ضيفُ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [البقرة: ١٥٥]، فنالَ بإكرامِهِ مرتبةَ: «سلمانُ منَّا أهلَ البيت»[1]، فَسمِعَ أنَّ ركبًا على نيَّة السَّفر، فسرقَ نفسَهُ مِن أبيهِ -ولا قَطْعَ-، فركبَ راحلة العزم يرجو إدراك مطلب السَّعادة، فغاص في بحرِ البحث ليقع بدُرَّةِ الوجود، فوقفَ نفسَهُ على خدمةِ

(١) روي هذا الكلام مرفوعًا إلى النبيِّ ﷺ، أخرجه الحاكم في «المستدرك» برقم (٦٥٤١ عطا)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ٢١٢ برقم ٦٠٤٠)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» برقم (٣٣٤٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٤١٨)، من حديث عمرو بن عوف المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعَّفه الذهبي في «تلخيص المستدرك»، ويروى نحوه من حديث علي بن أبي طالب وأنس وزيد بن أبي أوفى والحسين ابن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ولا يصحُّ، انظر بيان ذلك في «السلسلة الضعيفة» حديث رقم (٣٧٠٤).
وجاء موقوفًا على علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه ابنُ سعد في «الطبقات» (٤/ ٦٤ العلمية)، وابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» برقم (٣٢٩٩٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ٢١٣) برقم (٦٠٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٨٧)، وغيرهم.

الأدلَّاء وقوف الأذلَّاء، فلمَّا أحسَّ الرُّهبانُ بانقراض دولتهم، سلَّموا إليهِ أعلام الإعلام على نبوَّة نبيِّنا، وقالوا: إنَّ زمانَه قد أظلَّ؛ فاحذر أن تضلَّ! فرحلَ مع رفقةٍ لم يرفُقوا بهِ، فشَروهُ بثمن بَخْسٍ دراهم معدودةٍ، فابتاعه يهوديٌّ بالمدينة، فلما رأى الحرَّة؛ توقَّد حرُّ شوقِهِ، ولم يعلم ربُّ المنزل بوجدِ النازل؛ فبينا هو يُكابدُ ساعات الانتظار؛ قدم البشيرُ بقدوم البشير، وسلمان في رأسِ نخلةٍ، وكادَ القلقُ يُلقيه، لو لا أنَّ الحزم أمسكهُ؛ كما جرى يومَ ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فعجَّل النُّزولَ لتلقِّي رَكْبِ البشارة ولسانُ حالِه يقولُ:

خَليليَّ مِن نَجْدٍ قِفا بِي على الرُّبَا فقدْ هَبَّ منْ تِلْكَ الدِّيارِ نَسيمُ(١)

فصاحَ بِهِ سيِّدُهُ: مَا لَكَ؟! انصرِفْ إلى شُغلك! فقال(٢):

كَيفَ انصِرافي وَلِيْ في دارِكُمْ شُغُلُ

ثُمَّ أخذَ لسانِ حالِهِ يترنَّمُ لو سمع الأطروش:

خَلِيلَيَّ لا وَاللهِ مَا أَنَا مِنْكُمَا إِذَا عَلَمٌ مِنْ آلِ لَيْلَى بَدَا لِيَا(٣)

فلمَّا لقيَ الرَّسول عارض نسخةَ الرُّهبانِ بكتابِ الأصل، فوافقهُ. يا محمدُ! أنت تريدُ أبا طالبٍ، ونحنُ نريدُ سلمان.

أبو طالب إذا سُئلَ عن اسمِهِ قال: عبدُ منافٍ. وإذا انتسبَ افْتَخَرَ بالآباء. وإذا ذُكِرَتِ الأموالُ عَدَّ الإبِلَ. وسلمانُ إذا سُئل عن اسمِهِ قال: عبدُ الله. وعن نسبِهِ قال: ابنُ الإسلام. وعن مالِهِ قال: الفقرُ. وعن حانوتِهِ قال: المسجدُ. وعن كَسْبِهِ قال: الصَّبرُ. وعن لباسِهِ قال: التَّقوى والتَّواضعُ. وعن وِسادِهِ قال: السَّهرُ. وعن فخرِهِ قال: «سلمانُ

---

(١) ذكره ابن الجوزي في: «المدهش» (ص: ٢١٤).

(٢) ذكره ابنُ الجوزي في: «المدهش» (ص: ٢١٤).

(٣) ذكره ابن الجوزي في: «المدهش» (ص: ٢١٤)، وابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٢٣٨).

منَّـا»[١]. وعـن قصدهِ قال: يريدونَ وجههُ[٢]. وعن سـيرهِ قـال: إلى الجنَّةِ. وعن دليلهِ في الطَّريقِ قال: إمامُ الخلقِ وهادي الأئمَّة[٣].

إذا نَحْـنُ أدْلَجنـا وأنـتَ إمَامُنَـا ... كَفَى بالمَطَايَا طِيبُ ذِكرَاكَ حَادِيَا

وإن نَحْنُ أضْلَلنَا الطَّرِيقَ ولم نَجِدْ ... دَلِيلًا كَفانَا نُورُ وَجهكَ هَادِيَا[٤]

❁ الذُّنوبُ جِرَاحاتٌ ورُبَّ جُرْحٍ وقعَ في مَقْتَلٍ.

❁ لو خرَجَ عَقلُكَ من سُلطانِ هواكَ عادتِ الدَّولةُ له.

❁ دَخلْتَ دارَ الهوى فقامرتَ بِعُمُرِكَ.

❁ إذا عُرِضَتْ نظرةٌ لا تحلُّ فاعلَمْ أنَّها مسعر حربٍ؛ فاستتِرْ منها بحجابِ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣٠]، فقد سَلِمتَ من الأثرِ، وكفى الله المؤمنينَ القتالَ.

❁ بَحرُ الهوى إذا مَدَّ أغرق، وأخوف المَنافِذِ على السَّابِحِ فتحُ البصرِ في الماء.

❁ مَا أحـدٌ أكْـرَمَ مـن مُفْـردٍ ... فِي قَـبرِهِ أعمالُهُ تُؤنِسُهْ

مُنَعَّمًا فِي الْقَبْرِ فِي رَوْضَةٍ ... لَيسَ كعبدٍ قَبرُهُ مَحْبِسُهْ[٥]

---

(١) يشير إلى الحديث الذي تقدَّم تخريجُه قريبًا: (سلمانُ منَّا أهل البيت).

(٢) قارن هذا الفصل بما في «المدهش» (ص: ٢١٤-٢١٥).

(٣) يشير ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما ذكره عن سلمان الفارسي إلى ما رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٣٧٣٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن سلمان حدثه حديثه من فيه، ثم ذكر قصة سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) البيت الأوَّل منسوب لقيس بن الملوح كما في «ديوانه» (ص: ١٢٥) مع تغير في قافيته (...كفى لمطايانا بذكراك هاديا)، وهو منسوب أيضًا كما في «ديوان المعاني» (١/ ٢٢٤) لعمرو بن شأس الأسدي مع تغير يسير فيه، وفي «التذكرة الحمدونية» (٦/ ١١٨) نسب لعمرو بن شأس الأسدي وفيه مزج للبيت الأوَّل والثَّاني حيث يقول:

إذا نحـن ادلجنـا وانـت امامـنا ... كفى للمطايا نور وجهك هاديا

(٥) ذكرهما أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١١ السعادة)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (ص: ٢٦٨ الثقافية)، وابن الجوزي في «مثير العزم الساكن» (٢/ ٣٣٢ دار الراية)، مع اختلاف في لفظ الشطر الثاني من =

* عَلى قَدْرِ فضل المَرءِ تَأْتي خُطوبُه ... وَيُعرَفُ عِنْد الصَّبْرِ فِيمَا يُصِيبُهُ
ومَنْ قَلَّ فيما يَتَّقِيه اصطبارُهُ ... فقدْ قَلَّ مِمَّا يَرْتجيه نَصِيبُهُ[1]

* كم قُطِعَ زرعٌ قبلَ التَّمامِ؛ فما ظَنُّ الزَّرْعِ المستَحصَدِ.

* اشترِ نفسَكَ فالسُّوقُ قائِمَةٌ، والثَّمنُ موجودٌ.

* لابُدَّ من سِنَةِ الغَفْلَةِ ورُقَادِ الهوى، ولكنْ كُنْ خَفيفَ النَّومِ، فحُرَّاسِ البَلدِ يصيحونَ: دنا الصَّباحُ.

* نورُ العقلِ يُضيءُ في ليلِ الهوى، فتلوحُ جادَّةُ الصَّوابِ، فيتلَمَّحُ البصيرُ في ذلكَ النُّورِ عَواقِبَ الأمورِ.

* اخرُجْ بالعَزْمِ من هذا الفناءِ الضَّيِّقِ المحشُوِّ بالآفاتِ إلى ذلكَ الفناءِ الرَّحبِ الذي فيه ما لا عينٌ رأتْ؛ فهناكَ لا يتعذَّرُ مطلوبٌ ولا يُفْقَدُ محبُوبٌ.

* [يا][2] بائِعًا نفسَهُ بهوى مَنْ حُبُّه ضَنًى، ووصلُهُ أذىً، وحُسنُهُ إلى فناء. لقد بعتَ أنفسَ الأشياءِ بثمَنٍ بَخْسٍ! كأنَّكَ لم تعرفْ قَدْرَ السِّلعَةِ ولا خِسَّةَ الثَّمنِ! حتَّى إذا قَدِمتَ يومَ التَّغابُنِ؛ تَبَيَّنَ لكَ الغبنُ في عَقْدِ التَّبايعِ، لا إله إلا الله سلعةٌ، الله مُشْتَرِيهَا، وثمنُهَا الجنَّةُ، والدَّلَّالُ الرَّسُولُ؛ ترضَى ببيعِهَا بجزءٍ يسيرٍ ممَّا لا يساوي كلُّه جَناحَ بَعوضة؟![3].

= البيت الثاني، فإنه بلفظ: زيَّنها الله فهي مجلسُه.

(١) البيتان منسوبان لابن ظفر المكي الصِّقِّلي، كما في «إنباه الرواة» (٣/ ٧٦)، و«وفيات الأعيان» (٤/ ٣٩٧).

(٢) ليست في الأصل، وكأنَّها ساقطة.

(٣) يشير إلى ما أخرجه الترمذي برقم (٢٣٢٠)، وابن ماجه برقم (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»**.

والحديث صحَّحه الشيخ الألباني كما في «السّلسلة الصحيحة» برقم (٦٨٦).

إذا كان شيءٌ لا يُساوي جَميعُهُ جَناحَ بَعُوضٍ عندَ مَنْ صِرْتَ عَبْدَهُ
ويملِكُ جزءٌ منه كُلَّكَ ما الذي يكونُ على ذا الحَالِ قَدرُكَ عِنْدَهُ
وبِعْتَ به نَفْسًا قد استَامَها بِمَا لَدَيهِ مِن الحُسنَى وزالَ وُدُّهُ[(١)]

❁ يا مُخَنَّثَ العزمِ أينَ أنتَ؛ والطَّريقُ طَريقٌ تَعِبَ فيه آدَمُ، وناحَ لأجلِهِ نوحٌ، ورُمِيَ في النارِ الخَلِيلُ، وأُضجِعَ للذَّبحِ إسماعِيلُ، وبِيعَ يوسُفُ بثَمَنٍ بَخْسٍ ولَبِثَ في السِّجنِ بِضْعَ سنين، ونُشِرَ بالمنشَارِ زكريَّا، وذُبِحَ السَّيِّدُ الحَصُورُ يحيى، وقاسَى الضُّرَ أيُّوبُ، وزادَ على المقدَارِ بُكَاءُ داودَ، وسارَ مع الوحشِ عِيسَى، وعَالَجَ الفَقْرَ وأنواعَ الأذى مُحَمَّدٌ؛ تُزْهَى أنتَ باللَّهوِ واللعِبِ؟!

فيا دَارَها بالحَزْنِ إنَّ مَزارَها قريبٌ ولكنْ دونَ ذلكَ أهوالُ[(٢)]

❁ الحربُ قائِمَةٌ، وأنتَ أعزلُ في النظَّارَةِ؛ فإن حرَّكْتَ رِكَابَكَ فللهَزِيمَةِ.

❁ مَن لمْ يُباشِرْ حَرَّ الهجيرِ في طِلابِ المجد؛ لم يَقِلْ في ظِلالِ الشَّرف.

تقولُ سُلَيْمَى لَوْ أقمْتَ بِأرْضِنا ولمْ تَدْرِ أنِّي للمُقامِ أطوِّفُ[(٣)]

قيلَ لبعضِ العُبَّاد: إلى كم تُتْعِبُ نفسَكَ؟! فقال: راحتَها أريدُ.

❁ يا مُكَرَّمًا بِحُلَّةِ الإيمانِ بعد حُلَّة العافية، وهو يُخْلِقُهما في مخالفةِ الخالق! لا تُنْكِرِ السَّلْبَ؛ يَستحقُّ من استعملَ نعمةَ المنعِمِ فيما يكرهُ أن يُسْلَبَها.

---

(١) هكذا في الأصل، وزاد محقِّق طبعة (المجمع): (وقد)، عند قوله: وزال ودُّه، والأبيات لم أقف عليها عند غير المصنف.

(٢) البيت لأبي العلاء المعرِّي في ديوانه المسمَّى «سقط الزند» (ص: ٢٢٩ دار صادر). وذكره المصنِّف في «بدائع الفوائد» من غير نسبة (٤/ ٧٣٦)، وذكره ابنُ الجوزي في «أخبار الظراف والمتماجنين» (ص: ١٤٩) منسوبًا للمعرِّي.

(٣) البيت لعروة بن الورد كما في «الكامل في اللغة والأدب» (١/ ١٦٣ أبو الفضل إبراهيم)، وهو في «ديوان ابن الورد»؛ كما في «دوواين الشِّعر العربي على مر العصور»، قصيدة برقم (١٧٤١٨). وذكره ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١/ ٣٣٨ الكتب العلمية) بلا نسبة.

۞ عَرائِسُ الموجوداتِ قدْ تزيَّنَتْ للنَّاظرين؛ لِيَبْلُوَهُمْ أيُّهم يُؤْثِرُهُنَّ على عرائسِ الآخرة؛ فمنْ عَرفَ قَدْرَ التَّفاوتِ آثَرَ ما ينبغي إيثارُهُ.

وحِسانُ الكَوْنِ لمَّا أنْ بَدَتْ	أقْبَلتْ نَحْوي وقالتْ لي إلَيَّ
فتعامَيْتُ كأنْ لَمْ أرَها	عندَما أبْصَرْتُ مَقْصودي لَدَيّ

۞ كواكِبُ هِمَمِ العارفين في بُروجِ عزائمِهِم سيَّارةٌ ليس فيها زُحَل.

۞ يا مَنِ انحرفَ عن جادَّتِهِم! كنْ في أواخرِ الرَّكب، ونَمْ إذا نِمتَ على الطَّريقِ؛ فالأميرُ يُراعِي السَّاقَةَ.

۞ قِيلَ لِلحَسنِ: سَبَقَنا القَومُ على خَيْلٍ دُهْم، ونحنُ على حُمُرٍ مُعَقَّرةٍ، فقالَ: إنْ كُنتَ على طريقِهِم؛ فما أسرعَ اللَّحاقَ بِهِم!

۞۞۞

فائدة

❁ مَـنْ فقدَ أُنسَـهُ بالله بينَ النَّـاسِ ووجدَهُ في الوحْـدَةِ، فهو صَـادِقٌ ضَعيفٌ، ومَنْ وجـدَهُ بين النَّـاسِ وفقدَهُ في الخلـوةِ فهو مَعْلُولٌ، ومـنْ فقدَهُ بين النَّـاسِ وفي الخلوةِ فهو مَيِّـتٌ مَطـرُودٌ، ومنْ وجدَهُ في الخلـوةِ وفي النَّاسِ فهـو المحبُّ الصَّادِقُ القـويُّ في حالِهِ، ومـنْ كانَ فتحُـهُ في الخلوةِ لم يكنْ مَزيـدُهُ إلَّا منها، ومنْ كانَ فتحُهُ بـين النَّاسِ ونُصحِهِم وإرشـادِهِم كان مزيـدُهُ معهم، ومنْ كانَ فتحُـهُ في وقوفِهِ مع مرادِ الله حيثُ أقامَهُ وفي أيِّ شيءٍ استعملَهُ، كانَ مزيدُهُ في خلوتِهِ ومع النَّاس.

فأشرَفُ الأحوالِ أنْ لا تختارَ لنفسِـكَ حالةً سـوى ما يختارُهُ لكَ ويُقيمُكَ فيه؛ فكن مع مرادِهِ منكَ؛ ولا تكنْ مع مرادِكَ منه.

❁ مصابيحُ القلوبِ الطَّاهِرَةِ في أصلِ الفِطْرَهِ مُنيرَةٌ قبلَ الشَّـرائِعِ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ [النور: ٣٥].

❁ وحَّدَ قُسٌّ[١] وما رأى الرَّسولَ، وكَفَرَ ابنُ أُبَيٍّ[٢] وقد صَلَّى معه في المسجِدِ.

---

(١) قسُّ بن ساعدة بن حذافة بن زفر بن إياد بن نزار الإيادي، البليغ الخطيب المشهور، ذكره ابن حجر في «الإصابـة» (٥/ ٥٥٣)، وذكـر من أخباره وفضائله، ومن أهم ما قاله فيه: «وهو أوَّل من آمن بالبعث مـن أهـل الجاهليَّة، وأوَّل من تـوكَّأ على عصا في الخطبة، وأوَّل من قال: (أمَّـا بعد) في قول، وأوَّل من كتـب: (مـن فلان إلى فلان)، وفي رواية ابـن الكلبي أنَّ في آخر خطبته: لو على الأرض دين أفضل من دين قد أظلَّكم زمانُه، وأدرككم أوانه فطوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه».

(٢) هو: عبد الله ابن أُبيّ بن سلول المنافق، قال النَّووي في «تهذيب الأسماء واللُّغات» (١/ ٣٣٦): «وسلول أمّ عبـد الله، فلهـذا قال العلماء: الصَّـواب فى ذلك أن يقال: عبد الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سـلول، بالرَّفع بتنوين (أُبيٍّ)، وكتابة (ابن سلول) بالألف، ويعرب إعراب (عبد الله)؛ لأنَّه صفةٌ له لا لـ (أُبيّ)».
وقـال أيضـا: «وكان عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين، ونزل فى ذمِّه آيات كثيرة مشـهورة، وتوفى فى زمن رسـول الله ﷺ وصـلى عليه وكفنه فى قميصه قبل النهى عن الصـلاة على المنافقين، وإنَّما صلى عليه لكرامة ابنه، وإحسانًا وكرمًا وحلمًا».

❁ مع الصَبّ رَيٌّ ولا ماءَ، وكم من عطشانَ في اللُّجَّةِ.

❁ سبقَ العِلمُ بنبوَّةِ موسى، وإيمانِ آسيةٍ، فَسِيقَ تابوتُهُ إلى بيتِهَا؛ فجاءَ طِفْلٌ منفَرِدٌ عن أُمٍّ، إلى امرأةٍ خاليةٍ عن ولَدٍ! فلله كم في هذه القصَّةِ من عبرَةٍ! كم ذبحَ فرعونُ في طلبِ موسى من ولدٍ، ولسانُ القَدَرِ يقول: لا نُرَبِّيه إلَّا في حِجرِكَ!

❁ كان ذو البِجَادَيْنِ[1] يتيمًا في الصِّغَرِ، فَكَفَلَهُ عَمُّهُ، فنازعتْهُ نفسُهُ إلى اتِّباعِ الرَّسولِ، فَهمَّ بالنُّهوضِ؛ فإذا بَقيَّةُ المرضِ مانِعَةٌ، فقعدَ ينتظرُ العَمَّ، فلما تكامَلَتْ صحَّتُهُ؛ نفد الصَّبرُ، فناداه ضَميرُ الوجْدِ:

إلى كَمْ حَبْسُهَا تَشْكُو المَضِيقَا   أثِرْهَا رُبَّمَا وَجَدَتْ طَرِيقَا[2]

فقال: يا عَمُّ طالَ انتظاري لإسلامِكَ، وما أرى مِنكَ نَشاطًا! فقال: واللهِ، لئنْ أسلَمْتَ لأنتزِعَنَّ كلَّ ما أعطيتُكَ، فصاحَ لسانُ الشَّوقِ: نظرةٌ من محمَّدٍ أحبُّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها.

وَلَوْ قِيلَ للمَجْنُونِ لَيلَى وَوَصْلَهَا   تريدُ أم الدُّنيا وما في طَوايَاهَا
لَقَالَ تُرَابٌ من غُبَارِ نِعَالِهَا   ألَذُّ إلى نَفْسِي وأشْفَى لِبَلْوَاهَا[3]

---

(١) هو: عبد الله بن عبد نهم بن عفيف بن سحيم بن عدي بن ثعلبة بن سعد المزني، وهو عم عبد الله بن مغفل بن عبد نهم المزني، ذكره ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ١٦١-١٦٢) وقال: «وقال ابن حبَّان: له صحبة، وقال بن إسحاق: حدثني محمد بن إبراهيم التيمي قال: كان عبد الله رجلًا من مزينة -وهو ذو البجادين- يتيما في حجر عمه وكان محسنا له فبلغ عمه أنه أسلم فنزع منه كل شيء أعطاه حتى جرده من ثوبه فأتى أمه فقطعت له بجادا لها باثنتين فاتزر نصفا وارتدى نصفا ثم أصبح فقال له النبي ﷺ: «**انتَ عبدُ الله ذُو البِجَادَين، فالتزمْ بَابي**» فالتَزَمَ بَابَه، وكان يرفع صوته بالذِّكر، فقال عمر: أَمُرَاءٍ هو؟ قال: «**بل هُوَ احدُ الأوَّاهِينَ**».

(٢) البيت لمهيار الديلمي؛ كما في «دووايين الشعر العربي على مرِّ العصور»، قصيدة برقم (٦٠١٩٦).

(٣) «المدهش» لابن الجوزي (ص١٧٧)، بلفظ «خباياها» بدل «طواياها».

فلمَّا تجرَّدَ للسَّيرِ إلى الرَّسُولِ جَرَّدَهُ عَمُّه من الثِّيابِ، فناولتْه الأمُّ بِجَادًا، فَقَطَعَهُ لسفرِ الوصلِ نصفينِ؛ أتَّزرَ بأحدِهما وارْتَدَى بالآخر، فلما نادى صائحُ الجهادِ؛ قَنِعَ أن يكون في ساقةِ الأحبابِ، والمحبُّ لا يرى طُولَ الطَّريقِ؛ لأنَّ المقصودَ يُعِينُهُ.

ألا بلَّغَ اللهُ الحِمَى مَنْ يُرِيدُهُ ... وبلَّغَ أكْنافَ الحِمَى من يُرِيدُها[١]

فلمَّا قَضى نَحْبَهُ نزل الرَّسولُ يُمَهِّدُ له لَحْدَهُ، وجعلَ يقولُ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أمْسَيتُ عنهُ راضيًا؛ فارْضَ عنه**»، فصاحَ ابنُ مسعودٍ: يا ليتني كنتُ صاحبَ القَبْرِ[٢].

فيَا مُخَنَّثَ العَزْمِ أقلُّ ما في الرُّقعةِ البَيْذَق[٣]، فلمَّا نَهَضَ تَفرْزَنَ[٤].

❁ رأى بَعْضُ الحُكَماءِ بِرْذَوْنًا يُسقَى عليه، فقال: لو هَمْلَجَ هذا لَرُكِبَ.

❁ أقدامُ العَزْمِ بالسُّلوكِ اندفعَ من بينِ أيديها سَدُّ القَواطِعِ[٥].

❁ القواطِعُ مِحَنٌ يتبيَّنُ بها الصَّادِقُ من الكَاذِبِ؛ فاذا خُضْتَها انقلبتْ أعوانًا لكَ تُوصلُكَ إلى المقصُودِ[٦].

❁❁❁

---

(١) البيت ذكره ابن الجوزي من غير نسبة في «اللَّطائف» (ص: ٩). و «المدهش» (ص: ١٧٧).

(٢) أخرجه البزَّار في «مسنده» برقم (١٧٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٢)، و«معرفة الصحابة» (٣/ ١٦٣٤).

(٣) **البياذقة**: هم الرجالة، وهي تعريب (بياده)، ومنه بيذق الشطرنج، ينظر: «تاج العروس» (٢٥/ ٣٧).

(٤)وهو معرّب (فَرْزِينَ)، وهو بمنْزِلَةِ الوَزِيرِ للسُّلْطان، «تاج العروس» (٣٥/ ٥٠٤).

(٥) هكذا في الأصل، وذكره ابنُ الجوزي في كتابه «المدهش» (ص: ١٧٦) العبارة فقال: (متى همَّت أقدام العزم بالسلوك اندفع من بين يديها ما يسدُّ القواطع).

(٦) ينظر كتاب «المدهش» لابن الجوزي (ص: ١٧٦-١٧٧).

فصل

* الدُّنيا كامرأةٍ بغيٍّ لا تَثْبُتُ مع زوجٍ، إنَّما تَخْطُبُ الأزواجَ لِيُسْتَحْسَنوا عليها؛ فلا ترضَ بالدِّياثَةِ.

مَيَّزْتُ بينَ جَمَالِها وفِعالِها ... فإذا الملاحَةُ بالقباحَةِ لا تَفِي
حَلَفَتْ لنا أنْ لا تَخُونَ عُهودَنا ... فكأنَّها حَلَفَتْ لنا أنْ لا تَفِي[1]

السَّيرُ في طَلَبِها سيرٌ في أرضٍ مُسبعةٍ[2]، والسِبَاحَةُ فيها سباحةٌ في غديرِ التِّمساحِ، المفروحُ به منها هو عينُ المحزونِ عليه، آلامُها مُتَوَلِّدَةٌ من لَذَّاتِها، وأحزَانُها من أفراحِها.

مَآرِبُ كانتْ في الشبابِ لأهْلِهَا ... عِذَابًا فَصارَتْ في المَشيبِ عَذابًا[3]

* طَائِرُ الطَّبْعِ يرى الحَبَّةَ، وعينُ العقلِ ترى الشَّرَكَ؛ غيرَ أنَّ عَينَ الهوى عَمياءُ.

وعَيْنُ الرِّضَى عنْ كلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... كما أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدى المَسَاوِيَا[4]

---

(١) ذكرهما ابن الوردي في «تاريخه» (١/ ٢٤٩)، واليافعي في «مرآة الجنان» (٢/ ٢٠٢-٢٠٣)، وياقوت في «معجم الأدباء» (٦/ ٢٥٣٥-٢٥٣٦)، وابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٤/ ٣٤٠)، منسوبة لأبي بكر ابن السراج النحوي، إلَّا أنَّهما بلفظ (الخيانة) بدل (القباحة). ونسبهما في ابن العماد في «شذرات الذَّهب» (٤/ ٨٠) لابن الأهدل من شعره.

(٢) قال ابن فارس في «معجم المقاييس» (٣/ ١٢٨): «وأرض مُسْبَعَة إذا كثر سباعها».

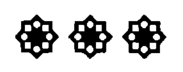
(٣) البيت ذكره المصنف في «طريق الهجرتين» من غير نسبة (ص: ٩٩).

(٤) نسبه ابن المبرد في «الكامل» (١/ ١٧٢) لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وكذا نسبه أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» (١٢/ ٢٧٢)، والزركلي في «الأعلام» (٤/ ١٣٩)، مع أنَّ البيت منسوب للإمام الشَّافعي كما في «دوواين الشِّعر العربي على مر العصور» قصيدة برقم (١٤٣٢٢).
والظاهر أنَّ هذا البيت صار مثلًا؛ فانتشر بين النَّاس؛ ولذلك نسب لأكثر من قائل، والله أعلم.

❁ تزخرفَتْ الشَّهواتُ لأعينِ الطِّبَاعِ، فَغضَّ عنها الَّذين يُؤمِنونَ بالغَيبِ، ووقعَ تابِعُوهَا في بَيدَاءِ الحسَرَاتِ؛ فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وهؤلاء[١] يُقَالُ لهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦].

❁ لـمَّا عَرفَ الموفَّقونَ قَدْرَ الحياةِ الدُّنيا وقلَّة الـمُقام فيها؛ أماتوا فيها الهوى طلبًا لحياةِ الأبد. ولـمَّا استيقظوا من نُومِ الغَفلَةِ؛ استرجعوا بالجِدِّ ما انتهبَهُ العدوُّ منهم في زَمنِ البِطالَةِ، فلما طالتْ عليهم الطَّريقُ تلمَّحوا المقصد، فقَرُب عليهم البعيدُ، وكلَّما أمَرَّتْ لهم الحياةُ حَلَا لهم تذكُّرُ ﴿يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وركْبٍ سَرَوا واللَّيلُ مُلْقٍ رواقَهُ ... على كُلِّ مُغْبَرِّ المطالِعِ قاتِمِ
حَدَوا عَزَماتٍ ضاعتِ الأرضُ بينها ... فصارَ سُراهُمْ في ظهورِ العزائِمِ
تُريهم نُجومُ اللَّيلِ ما يَتْبَعونَهُ (يبتغونه) ... على عاتِقِ الشِّعْرى وهامِ النَّعائِمِ
إذا اطَّرَدتْ في مَعْرِكِ الجِدِّ قَصَّفوا ... رماحَ العَطايا في صُدورِ المكارِمِ[٢]



(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (هؤلاء).

(٢) هذه الأبيات للشريف الرضي في «ديوانه» (٢/ ٣٨٢-٣٨٣ صادر)، مع شيء من الاختلاف عما هنا؛ فالأبيات الثلاثة عنده متوالية، والرابع يأتي بعدها بأبيات. وانظر «دواوين الشعر العربي على مر العصور»، قصيدة برقم (١٠٣٧٦). ووقع في المصدرين (يبتغونه)، بدل (يتبعونه).

فصل

من أعجبِ الأشياءِ: أن تَعْرفَه ثم لا تحبَّهُ، وأن تسمع داعِيَهُ ثم تتأخَّر عن الإجابة، وأن تعرفَ قدرَ الرِّبحِ في معاملتِهِ ثمَّ تعامل غيرَهُ، وأن تَعرِفَ قَدْرَ غضبِهِ ثم تتعرَّض له، وأن تذوقَ ألَمَ الوَحْشَةِ في معصيتِهِ ثمَّ لا تطلُبَ الأُنسَ بطاعتِهِ، وأن تذوقَ عُصْرَةَ القلبِ عند الخوضِ في غير حديثِهِ والحديث عنه ثم لا تشتاقُ إلى انشراحِ الصَّدْرِ بِذكْرِهِ ومناجاتِهِ، وأن تذوقَ العذابَ عند تعلُّقِ القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيمِ الإقبالِ عليه والإنابةِ إليه! وأعجبُ من هذا علمُكَ أنَّكَ لابدَّ لك منه وأنَّكَ أحوجُ شيءٍ إليه وأنتَ عنه مُعْرِضٌ، وفيما يُبْعِدُكَ عنه رَاغِبٌ!



فَائِدَة

■ **ما أخذَ العبدُ ما حُرِّمَ عليه إلا من جهتين:**

أحدهما: سوءُ ظَنِّهِ بربِّهِ، وأنَّه لو أطاعَهُ وآثرَهُ لم يعطِهِ خيرًا منه حلالًا.

والثانية: أن يكونَ عالـمًا بذلك، وأنَّ مَن تركَ لله شيئًا أعاضَهُ خيرًا منه، ولكنْ تغلبُ شهوتُهُ صبرَهُ، وهواهُ عقلَهُ.

فالأوَّلُ مِن ضَعْفِ علمِهِ، والثاني مِن ضَعفِ عقلِهِ وبصيرتِهِ.

❁ قال يحيى بن معاذ[1]: مَن جمعَ الله عليه قلبَهُ في الدُّعاءِ لم يَرُدَّهُ.

قلت: إذا اجتمعَ عليه قلبُهُ، وصَدَقَتْ ضرورتُهُ وفاقتُهُ، وقَويَ رجاؤُهُ؛ فلا يكادُ يُرَدُّ دعاؤُهُ.



(١) هو: يحيى بن معاذ الرَّازي الواعظ، قال الذَّهبي: «من كبار المشايخ، له كلام جيِّد، ومواعظ مشهورة»، كما في «السِّير» (٢٥/ ٩)، توفي سنة (٢٥٨)، وذكر أخباره وأقواله ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٤/ ٩٠).

فَصْلٌ

❁ لما رأى المتيقِّظون سطوةَ الدُّنيا بأهلها، وخداعَ الأملِ لأربابِهِ، وتملُّك الشَّيطانِ قيادَ النُّفوس، ورأوا الدَّولةَ للنَّفسِ الأمَّارةِ؛ لجأوا إلى حصنِ التضرُّعِ والالتجاءِ؛ كما يأوي العبدُ المذعورُ إلى حَرَمِ سيِّدِهِ.

❁ شَهَواتُ الدُّنيا كَلُعَبِ الخَيالِ، ونظرُ الجاهلِ مقصورٌ على الظَّاهِرِ، فأمَّا ذو العقلِ فيرى ما وراء السِّتْر.

❁ لاحَ لهم حَبُّ المشتهَى، فلما مدُّوا أيديَ التَّناولِ؛ بانَ لأبصارِ البصائرِ خيطُ الفَخِّ، فطاروا بأجنحةِ الحَذَرِ، وصَوَّبوا إلى الرَّحيلِ الثاني: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦].

❁ تلمَّحَ القومُ الوجودَ، ففَهِمُوا المقصودَ، فأجمعوا الرَّحيلَ قبل الرَّحيلِ، وشمَّروا للسَّيرِ في سواءِ السَّبيلِ؛ فالنَّاسُ مشتغلونَ بالفضلاتِ، وهم في قطع الفلواتِ، وعصافيرُ الهوى في وَثاقِ الشَّبكةِ ينتظرونَ الذَّبحَ.

❁ وقعَ ثَعْلَبانِ في شبكةٍ، فقال: أحدُهما للآخَرِ: أين الملتقى[1] بعد هذا؟ فقال: بعدَ يومينِ في الدِّبَاغَةِ.

❁ تالله ما كانتِ الأيامُ إلَّا منامًا؛ فاستيقَظُوا وقد حصلوا على الظَّفَرِ.

❁ ما مضى من الدُّنيا أحلامٌ، وما بقيَ منها أمانيُّ، والوقت ضائعٌ بينهما.

❁ كيفَ يسلمُ منْ له زوجةٌ لا ترحمُهُ، وولدٌ لا يَعذِرُهُ، وجارٌ لا يأمنُهُ، وصاحبٌ لا ينصحُهُ، وشريكٌ لا يُنصِفُهُ، وعدوٌّ لا ينامُ عن معاداتِهِ، ونفسٌ أمَّارةٌ بالسُّوءِ، ودُنيَا متزينةٌ، وهوىً مُرْدٍ، وشهوةٌ غالبةٌ له، وغضَبٌ قاهِرٌ، وشيطانٌ مُزيِّنٌ، وضَعْفٌ مستولٍ عليه؟!

---

(١) في الأصل: (المتلقى)، وهو خطأ.

فإن تولَّاه الله وجَذَبَهُ إليه انقهرتْ له هذه كلُّها، وإنْ تخلَّى عنه ووكلَهُ إلى نفسِهِ اجتمعتْ عليه، فكانتِ الهَلَكَةُ.

❁ لـمَّا أعرضَ النَّاسُ عن تحكيمِ الكتابِ والسُّنةِ والمحاكمةِ إليهما، واعتقدوا عدمَ الاكتفاءِ بهما، وعَدَلُوا إلى الآراءِ والقياسِ والاستِحْسَانِ وأقوالِ الشُّيوخِ؛ عرضَ لهم من ذلكَ فسادٌ في فِطَرِهِم، وظلمةٌ في قلوبِهِم، وكَدَرٌ في أفهامِهِم، ومَحْقٌ في عقولِهِم، وعَمَّتْهم هذه الأمورُ وغلبتْ عليهم؛ حتَّى رُبِّيَ فيها الصغيرُ، وهَرِمَ عليها الكبير، فلم يَرَوْها منكرًا.

فجاءتهم دولةٌ أخرى قامتْ فيها البِدَعُ مقامَ السُّنَنِ، والنَّفسُ مقامَ العقلِ، والهوى مقامَ الرُّشدِ، والضَّلالُ مقامَ الهدى، والمنكرُ مقامَ المعروفِ، والجهلُ مقامَ العلمِ، والرِّياءُ مقامَ الاخلاص، والباطلُ مقامَ الحقِّ، والكذِبُ مقامَ الصِّدقِ، والمداهنةُ مقامَ النَّصيحة، والظُّلمُ مقامَ العدلِ، فصارتِ الدَّولةُ والغلبةُ لهذه الأمور، وأهلُها هم المشار إليهم، وكانت قبلَ ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأيتَ دولةَ هذه الأمور قد أقبلتْ، وراياتُها قد نُصِبَتْ، وجيوشُها قد ركِبَتْ، فبطنُ الأرضِ والله خيرٌ من ظهرها، وقُلَلُ الجبالِ خيرٌ من السهولِ، ومخالطةُ الوحشِ أسلمُ من مخالطةِ النَّاسِ.

اقشَعرَّتِ الأرضُ وأظلمتِ السماءُ وظهرَ الفسادُ في البَرِّ والبَحرِ مِن ظُلْمِ الفَجَرَةِ، وذهبتِ البركاتُ وقلَّتِ الخيراتُ وهُزِلَت الوحوشُ وتكدَّرتِ الحياةُ من فِسقِ الظَّلَمَةِ وبكى ضوءُ النَّهارِ وظلمةُ اللَّيلِ من الأعمالِ الخبيثةِ والأفعالِ الفظيعةِ، وشكا الكِرَامُ الكاتبونَ والمعقِّباتُ إلى ربِّهم من كثرةِ الفواحشِ وغلبةِ المنكراتِ والقبائحِ، وهذا واللهِ مُنذِرٌ بسيلِ عذابٍ قد انعقدَ غمامُهُ، ومؤذِنٌ بليلِ بلاءٍ قدْ ادْلَهَمَّ ظلامُهُ؛ فاعزلوا عن طريقِ هذا السَّيلِ بتوبةٍ نصوحٍ ما دامتِ التَّوبةُ ممكنةٌ وبابُها مفتوحٌ، وكأنَّكم بالبابِ

وقـد أُغلِـقَ، وبالرَّهـنِ وقـد غَلِقَ، وبالجَناحِ وقـد عَلِـقَ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

* اشـتَرِ نفسـكَ اليومَ؛ فإنَّ السُّـوقَ قائمةٌ، والثَّمَـنَ موجودٌ، والبضائِـعُ رخيصةٌ، وسـيأتي على تلكَ السُّـوقِ والبضائـعِ يوم لا تَصِلُ فيهـا[1] إلى قليـلٍ ولا كثيرٍ، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧][2].

إذا أنـتَ لمْ تَرْحَلْ بـزادٍ من التُّقـى ... وأبْصَرْتَ يومَ الحَشْرِ مَنْ قدْ تَزوَّدا

نَـدِمْـتَ على أنْ لا تـكونَ كمثلِهِ ... وأنَّكَ لم تُرْصِدْ كما كانَ أرْصَدَا[3]

* العملُ بغير إخلاصٍ ولا اقتداءٍ كالمسافرِ يملأُ جِرابَهُ رملًا يُثْقِلُهُ ولا ينفعُهُ.

* إذا حملـتَ عـلى القلـبِ همـومَ الدُّنيـا وأثقالَهَا، وتهاونتَ بـأورادِهِ التي هـي قوتُهُ وحياتُـهُ؛ كنـتَ كالمسـافرِ الذي يُحمِّـلُ دابَّتَهُ فـوق طاقتِهـا، ولا يوفيها عَلَفَهـا؛ فما أسرع ما تقفُ به!

* ومشَتَّت العَزَماتِ يُنفِقُ عُمْرَهُ ... حـيرانَ لا ظَـفَـرٌ ولا إخـفـاقُ[4]

* هلِ السَّائقُ العَجلانُ يَملِكُ أمرَهُ ... فما كُـلُّ سيرِ اليَعْمَلاتِ وخيدُ

رُويـدًا بـأخـفـافِ الـمَطِيِّ فإنَّما ... تُـداسُ جِبـاهٌ تحتَها وخُـدودُ[5]

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (فيه).

(٢) في الأصل: (يوم)، من غير واو.

(٣) البيتان في ديوان الأعشـى، كما في «دووايـن الشّـعر العربي على مرِّ العصور»، بلفظ: ولاقيت بعد الموت من قد تزودا، القصيدة بعنوان: أَلَمْ تَغتَمِضْ عَيناكَ لَيلَةَ أَرْمَدَا، قصيدة برقم (١٧٢٦٦).
وذكرهما الصَّفدي في «الوافي» ونسـبهما لسـابق بن عبد الله أبي سعيد (٥/ ١٧). (لكن بيته الثاني مغاير للبيت الثاني هنا).

(٤) البيـت لعبـد الله بـن محمد بن سـعيد بن سـنان أبي محمـد الخفاجي الشـاعر الأديب، كـما في «ديوانه» (ص: ٢٠٢)، و«فوات الوفيات» (٢/ ٢٢٣).

(٥) البيتان لمهيار بن مرزويه أبي الحسن الديلمي، كما في «ديوانه» (١/ ٣١٠)، ووقع عنده في البيت الأول:
=

❁ منْ تلمَّحَ حلاوةَ العافيةِ هانَ عليه مرارةُ الصَّبرِ.

❁ الغايـةُ: أوَّلٌ في التَّقديـرِ، آخرٌ في الوجـودِ، مبدأٌ في نظرِ العقـلِ، منتهًى في منازلِ الوصولِ.

❁ ألِفْتَ عَجْزَ العادةِ؛ فلو عَلَتْ بكَ هِمَّتُكَ رُبَا المعالي؛ لاحتْ لكَ أنوارُ العزائِمِ.

❁ إنَّما تفاوتَ القومُ بالهمَمِ لا بالصُّوَرِ.

❁ نزولُ هِمَّةِ الكَسَّاحِ دَلَّاهُ في جُبِّ العَذِرَةِ.

❁ بينكَ وبينَ الفائزينَ جبلُ الهوى، نزلوا بين يديهِ ونزلتَ خلفَهُ؛ فاطْوِ فضلَ منزلٍ تلحقْ بالقومِ.

❁ الدُّنيـا مِضْمارُ سـباقٍ، وقد انعقدَ الغبارُ، وخفيَ السَّـابِقُ، والنَّاسُ في المِضْمارِ بينَ فارسٍ وراجلٍ وأصحابِ حُمُرٍ مُعَقَّرةٍ.

سـوفَ تـرى إذا انجلـى الغُبارُ ... أفـرسٌ تحتـكَ أم حِمـارٌ[1]

❁ في الطَّبعِ شَرَهٌ، والحميةُ أوفقُ.

❁ لصُّ الحرصِ لا يمشي إلَّا في ظلام الهوى.

❁ حَبَّةُ المشتَهى تحتَ فخِّ التَّلَفِ؛ فتفكَّرْ في الذَّبحِ، وقد هانَ الصَّبرُ.

= «هـل السَّـابق الغضبـان...»، وانظر: «دووايـن الشـعر العربي على مـر العصور»، والقصيـدة بعنوان: «أمنها على أنّ المزارَ بعيدُ»، برقم (٦٠٠٣٧).

(١) ذكـره الثعالبـي في «التمثيل والمحاضرة» (ص٣٤٥)، وياقوت الحمـوي في «معجم الأدباء» عن بديع الزّمـان الهمذاني (١/ ٢٥١) بلفـظ: «تحتي» بدل «تحتك»، وذلك ضمن قصيـدة يمدح فيها الصَّحابة ويردُّ على الخوارزمي. وذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» من غير نسبة (٤/ ٨)، وصار هذا البيت مثلًا، ويضرب لمن يُنْهَى عن شيء فيأبى، وانظر: «مجمع الأمثال» (١/ ٣٤٤).

❁ قوةُ الطَّمعِ في بلوغِ الأمل تُوجِبُ الاجتهادَ في الطَّلبِ وشدَّةَ الحذرِ من فوتِ المأمولِ.

❁ البخيلُ فقيرٌ لا يؤجَرُ على فقرِهِ.

❁ الصَّبرُ على عطشِ الضُّرِّ، ولا الشُّربُ من شِرعَةِ مَنٍّ.

❁ تجوعُ الحُرَّةُ ولا تأكلْ ثَدْيَيَها[١].

❁ لا تسألْ سوى مولاكَ؛ فسؤالُ العبدِ غيرَ سيِّدِهِ تشنيعٌ عليه.

❁ غَرْسُ الخَلوَةِ يُثْمِرُ الأُنسَ.

❁ استوحشْ مما لا يدومُ معكَ، واستأنسْ بمن لا يفارِقُكَ.

❁ عزلةُ الجاهلِ فسادٌ، وأمَّا عزلةُ العالِمِ فَمَعَها حِذاؤُها وسِقاؤُها.

❁ إذا اجتمعَ العقلُ واليقينُ في بيت العُزْلَةُ، واستَحْضَرا الفكرَ، وجرتْ بينهم مناجاةٌ:

أتاكَ حديثٌ لا يُمَلُّ سماعُهُ ... شَهِيٌّ إلينا نثْرُهُ ونِظامُهُ

إذا ذَكَرَتْهُ النَّفسُ زالَ عَناؤُها ... وزالَ عن القلبِ المُعَنَّى ظلامُهُ[٢]

❁ إذا خَرَجتْ من فِيِّ عدُوِّكَ لفظةُ سَفَهٍ فلا تُلْحِقْها بمثلِها؛ تُلَقِّحها، ونسلُ الخصامِ نسلٌ مَذمومٌ.

❁ حَمِيَّتُكَ لنفسِكَ أثرُ الجهلِ بها؛ فلو عرفتَها حقَّ مَعرِفَتِها أعنْتَ الخصمَ عليها.

❁ إذا اقْتَدَحَتْ نارُ الانتقامِ من نارِ الغضبِ؛ ابتدأتْ بإحراقِ القادحِ.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة المجمع: (بثدييها).

(٢) ذكره المصنف في «مدارج السالكين» من غير نسبة (٢/ ٢٠٤) و(٣/ ٢٢٢).

❁ أوثِقْ غضبَكَ بسلسلةِ الحِلْمِ؛ فإنَّه كلبٌ؛ إن أفلتَ أتلفَ.

❁ مَنْ سبقتْ له سابقةُ السَّعادةِ؛ دُلَّ على الدَّليلِ قبل الطَّلبِ.

❁ إذا أرادَ القدرُ شخصًا؛ بَذرَ في أرضِ قلبِه بِذْرَ التَّوفيقِ، ثمَّ سقاهُ بماءِ الرَّغبةِ والرَّهبةِ، ثمَّ أقامَ عليه بأطوارِ[1] المراقبةِ، واستخدمَ له حارسُ العلمِ؛ فإذا الزَّرعُ قائمٌ[2] على سوقِهِ.

❁ إذا طلعَ نجمُ الهمَّةِ في ظلامِ ليلِ البَطالةِ، وردِفَهُ قمرُ العزيمةِ؛ أشرقتْ أرضُ القلبِ بنورِ ربِّها.

❁ إذا جَنَّ اللَّيلُ تغالبَ النَّومُ والسَّهرُ؛ فالخوفُ والشَّوقُ في مُقدَّمِ عسكرِ اليَقظَةِ، والكسلُ والتَّواني في كتيبةِ الغفلةِ؛ فإذا حمَلَ العزمُ حملَ على الميمنةِ، فانهزمتْ جنود التَّفريطِ؛ فما يطلُعُ الفجرُ؛ إلَّا وقد قُسِمَتِ السُّهمانُ وبَرَدَتِ الغنيمةُ لأهلها.

❁ سَفَرُ اللَّيلِ لا يُطيقهُ إلَّا مُضَمَّرُ المجاعةِ.

❁ النَّجائِبُ في الأوَّلِ، وحاملاتُ الزَّادِ في الأخير.

❁ لا تسأمْ من الوقوفِ على البابِ ولو طُردْتَ، ولا تقطع الاعتذارَ ولو رُدِدْتَ؛ فإن فُتِحَ البابُ للمقبولينَ دونكَ؛ فاهجُمْ هجومَ الكذَّابينَ، وادخُل دخولَ الطُّفَيليَّةِ، وابسطْ كفَّ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨].

❁ يا مستفْتِحًا بابَ المعاشِ بغيرِ إقليدِ[3] التَّقوى، كيفَ تُوسِعُ طريقَ الخطايا وتشكو ضِيقَ الرِّزقِ؟!

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (ناطور).

(٢) في الأصل: (قائمًا).

(٣) الإقليد هنا: المفتاح، وجمعها الأقاليد، انظر: «لسان العرب» (٣/ ٣٦٥).

لو وقفتَ عند مرادِ التَّقوى لم يَفُتكَ مرادٌ.

❁ المعاصي سَدٌّ في بابِ الكسبِ، و«إنَّ العَبْدَ لَيُحرَمُ الرِّزقَ بالذَّنبِ يُصيبُهُ»[١].

تـــاللهِ مـــا جِـئْـتُـكُـم زائِــــرًا إلَّا وجَــدْتُ الأرضَ تُـطْـوي لِـيْ
ولا انْـثَـنـى عَـزْمِـيَ عـن بابِكُمْ إلَّا تـعــثَّــرْتُ بــأذيــالــي[٢]

❁ الأرواحُ في الأشباحِ كالأطيارِ في الأبراجِ، وليسَ ما أُعِدَّ للاستفراخِ كمنْ هُيِئ للسِّباقِ.

❁ مَنْ أرادَ من العمَّالِ أن يعرفَ قَدْرَهُ عند السُّلطانِ فلينظرْ ماذا يُولِيهِ من العمل، وبأيِّ شُغْلٍ يَشْغَلُهُ.

❁ كنْ من أبناءِ الآخرةِ، ولا تكنْ من أبناءِ الدُّنيا؛ فإنَّ الولدَ يتبعُ الأمَّ.

❁ الدُّنيا لا تُساوي نقلَ أقدامِكَ إليها؛ فكيفَ تَعْدُو خلفَها؟!

❁ الدُّنيا جيفةٌ، والأسدُ لا يقعُ على الجِيَفِ.

❁ الدُّنيا مجازٌ، والآخِرَةُ وطنٌ، والأوطارُ إنَّما تُطلَبُ في الأوطانِ.

■ **الاجتماعُ بالإخوانِ قسمان:**

أحدُهما: اجتماعٌ على مؤانسةِ الطَّبعِ وشُغلِ الوقتِ؛ فهذا مضَرَّتُهُ أرجحُ من منفعتِهِ، وأقلُّ ما فيه أنَّه يُفسِدُ القلبَ ويُضَيِّعُ الوقتَ.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه ابن ماجه برقم (٤٠٢٢)، والإمام أحمد برقم (٢٢٣٨٦، ٢٢٤١٣، ٢٢٤٣٨)، وابن حبَّان برقم (٨٧٢) عن ثوبان عن النبي ﷺ، ولفظ ابن ماجه: «**لَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ**»، والحديث بهذا التمام ضعَّفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع الصَّغير» برقم (٣٠٠٦)، في «السلسلة الصحيحة» (١/ ١٥٣) تحت حديث رقم (١٥٤)؛ لضعف إسناده.
والجملتان الأوليان منه لهما شواهد، ذكرها الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» حديث رقم (١٥٤)، ولذلك حسَّنه في «صحيح سنن ابن ماجه» دون قوله: «وإنَّ الرَّجل...».

(٢) البيتان لأبي محمد المرتضى الشهرزوري، كما في «وفيات الأعيان» (٣/ ٥٢).

الثَّاني: الاجتماعُ بهم على التَّعاونِ على أسبابِ النَّجاةِ والتَّواصي بالحقِّ والصَّبْرِ؛ فهذا من أعظمِ الغنيمةِ وأنفعِهَا، ولكنْ فيه ثلاثُ آفاتٍ:

إحداها: تَزيُّنُ بعضِهم لبعضٍ.

الثانية: الكلامُ والخِلطَةُ أكثرَ من الحاجةِ.

الثَّالثة: أن يصيرَ ذلكَ شهوةً وعادةً ينقطعُ بها عن المقصودِ.

وبالجملةِ فالاجتماعُ والخِلْطَةُ لِقاحٌ: إمَّا للنَّفسِ الأمَّارة، وإمَّا للقلبِ والنَّفسِ المطمَئِنَّة، والنَّتيجةُ مستفادةٌ من اللّقاحِ؛ فمنْ طابَ لِقاحُهُ طابتْ ثمرتُهُ، وهكذا الأرواحُ الطَّيِّبةُ لِقاحُهَا من المَلَكِ، والخبيثةُ لِقاحُهَا من الشَّيطانِ، وقد جعلَ الله سُبْحَانَهُ بحكمتِهِ الطَّيِّباتِ للطَّيِّبينَ والطَّيِّبينَ للطَّيِّباتِ، وعكسَ ذلكَ.



قاعدة

ليسَ في الوجودِ الممكنِ سببٌ واحدٌ مستقِلٌّ بالتَّأثيرِ، بل لا يؤثِّرُ سببٌ البتةَ إلَّا بانضمامِ سببٍ آخرَ إليه وانتفاءِ مانعٍ يمنعُ تأثيرهُ، هذا في الأسبابِ المشهودةِ بالعَيانِ وفي الأسبابِ الغائبَةِ والأسبابِ المعنويَّةِ؛ كتأثيرِ الشَّمسِ في الحيوانِ والنَّباتِ؛ فإنَّه موقوفٌ على أسبابٍ أُخَرَ من وجودِ محلٍّ قابلٍ وأسبابٍ أُخَرَ تنضمُ إلى ذلكَ السَّببِ، وكذلك حصولُ الولدِ موقوفٌ على عِدَّةِ أسبابٍ غير وطءِ الفحلِ، وكذلكَ جميعُ الأسبابِ مع مسبَّبَاتِهَا، فكلُّ ما يُخَافُ ويُرْجَى من المخلوقاتِ فأعلى غاياتِهِ أن يكونَ جزءَ سببٍ غيرَ مستقلٍّ بالتَّأثيرِ.

ولا يستقِلُّ بالتَّأثيرِ وحدَهُ دونَ توقُّفِ تأثيرِهِ على غيرِهِ إلَّا اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ؛ فلا ينبغي أن يُرْجَى ولا يُخاف غيرُهُ.

وهذا برهانٌ قطعيٌّ على أنَّ تَعلُّقَ الرَّجاءِ والخوفِ بغيره باطِلٌ؛ فإنَّه لو فُرِضَ أنَّ ذلكَ سببٌ مستقِلٌّ وحدَهُ بالتَّأثيرِ لكانتْ سببيَّتُهُ من غيرِهِ لا منه، فليسَ له من نفسِهِ قوَّةٌ يَفْعَلُ بها؛ فإنَّه لا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله؛ فهو الَّذي بيدِهِ الحولُ كلُّهُ والقوَّةُ كلُّها؛ فالحولُ والقوَّةُ الَّتي يُرْجَى لأجلِهِمَا المخلوقُ ويُخافُ إنَّما هما لله وبيدِهِ في الحقيقة؛ فكيفَ يُخافُ ويُرْجَى من لا حولَ له ولا قوَّةَ؟!

بلْ خوفُ المخلوقِ ورجاؤُه أحدُ أسبابِ الحرمانِ ونُزولِ المكروهِ بمنْ يرجوهُ ويخافُهُ؛ فإنَّه على قَدْرِ خوفِكَ من غيرِ الله يُسلَّطُ عليك، وعلى قَدْرِ رجائِكَ لغيرِهِ يكونُ الحرمانُ.

وهذا حالُ الخلقِ أجمعِهِ، وإن ذهبَ عن أكثرِهِم عِلمًا وحالًا؛ فما شاءَ اللهُ كانَ ولا بُدَّ، وما لم يشأْ لم يكنْ ولو اتَّفقتْ عليه الخليقةُ.

التوحيدُ مَفْزَعُ أعدائِه وأوليائِه:

فأمَّا أعداؤُه فينجِّيهم من كَرْبِ الدُّنيا وشدائِدِها ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وأمَّا أولياؤُه فيُنَجِّيهم به من كُرُباتِ الدُّنيا والآخرةِ وشدائِدِهما؛ ولذلكَ فَزِعَ إليه يونُسُ فنجَّاهُ الله من تلك الظُّلُماتِ، وفَزِعَ إليه أتباعُ الرُّسُلِ فنجَوا به ممَّا عُذِّبَ به المشركونَ في الدُّنيا وما أُعِدَّ لهم في الآخِرَةِ.

ولما فَزِعَ إليه فرعونُ عندَ معايَنَةِ الهلاكِ وإدراكِ الغَرَقِ لم ينفعْه؛ لأنَّ الإيمانَ عند المعاينةِ لا يُقْبَلُ، هذه سُنَّةُ الله في عبادِه، فما دُفِعَتْ شدائِدُ الدُّنيا بمثل التَّوحيدِ.

ولذلكَ كانَ دعاءُ الكَرْبِ بالتوحيدِ(١)، ودعوةُ ذي النَّونِ التي ما دعا بها مَكْروبٌ إلَّا فَرَّجَ الله كربَهُ بالتَّوحيدِ(٢).

فلا يُلْقِي في الكُرَبِ العِظَامِ إلَّا الشِّرْكُ، ولا يُنْجي منها إلَّا التَّوحيدُ؛ فهو مَفْزَعُ الخليقةِ وملجؤُها وحِصنُها وغياثُها. وبالله التَّوفيق.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٤٥، ٦٣٤٦، ٧٤٢٦، ٧٤٣١)، ومسلم برقم (٨٣- ٢٧٣٠) من حديث عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بألفاظ متقاربة، ولفظ الإمام مسلم: أنَّ نبيَّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول عند الكرب: **«لا إلهَ إلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لا إلَهَ إلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لا إلَهَ إلَّا اللهُ رَبُّ السَّموات وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»**.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٠٥) واللفظ له، وأحمد برقم (١٤٦٢) من حديث سعد بن أبي وقَّاص قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«دَعْوَةُ ذي النُّونِ إذْ دَعَا وَهُوَ في بَطْنِ الحُوتِ: لا إلَهَ إلَّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنِّي كُنْتُ من الظَّالمين؛ فإنَّه لم يَدْعُ بها رَجُلٌ مُسلِمٌ في شَيءٍ قَطُّ إلَّا اسْتَجابَ اللهُ لهُ»**. وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي (٣/ ٤٤٣)».

فَائِدَة

اللَّذَّةُ تابعةٌ للمحبَّةِ تَقوى بقوَّتِها، وتَضْعُفُ بِضَعْفِها فكلّما كانتِ الرَّغبةُ في المحبوبِ والشُّوقُ إليه أقوى كانتِ اللَّذَّةُ بالوصولِ إليه أتمَّ.

والمحبَّةُ والشُّوقُ تابِعٌ لمعرفتِه والعلمِ به؛ فكلّما كانَ العلمُ به أتمَّ؛ كانتْ محبتُهُ أكملَ.

فإذا رجعَ كمالُ النَّعيمِ في الآخِرَةِ وكمالُ اللَّذَّةِ إلى العلمِ والحُبِّ؛ فمن كانَ بالله وأسمائِهِ وصفاتِهِ ودينه أعرفَ كانَ له أحبَّ، وكانت لذَّتُهُ بالوصولِ إليه ومجاورَتِهِ والنظرِ إلى وجهِهِ وسَماعِ كلامِهِ أتمَّ، وكلُّ لذَّةٍ ونعيمٍ وسُرورٍ وبهجةٍ بالإضافةِ إلى ذلكَ كقطرَةٍ في بحرٍ.

فكيف يُؤثِرُ منْ له عقلٌ لذَّةً ضعيفةً قصيرةً مشوبةً بالآلامِ على لذَّةٍ عظيمةٍ دائمَةٍ أبدَ الآبادِ؟!

وكمالُ العبدِ بحسبِ هاتين القوَّتين: العلم والحُبّ، وأفضلُ العلمِ العلمُ بالله، وأعلى الحُبِّ الحُبُّ له، وأكملُ اللَّذَّةِ بحَسَبِهِمَا.

والله المستعان.

❁ ❁ ❁

قاعدة

طالبُ الله والدَّارِ الآخرةِ لا يستقيمُ له سيرُهُ وطلبُهُ إلَّا بحَبْسَين: حَبْسُ قلبِهِ في طلبِهِ ومطلوبِه، وحبسُهُ عن الالتفاتِ إلى غيرِه، وحبْسُ لسانِهِ عمَّا لا يُفيدُ، وحبسُهُ على ذكرِ الله وما يزيدُ في إيمانِهِ ومعرفتِهِ، وحبْسُ جوارحِهِ عن المعاصي والشَّهواتِ، وحبْسها على الواجباتِ والمندوباتِ، فلا يُفارِقُ الحبْسَ حتى يَلْقَى ربَّهُ، فيَخْلُصُ من السِّجنِ إلى أوسَعِ فضاءٍ وأطيبه.

ومتى لم يصبرْ على هذين الحبسينِ وفَرَّ منهما إلى فضاءِ الشهواتِ؛ أعقبَهُ ذلكَ الحبسُ الفظيعُ عند خروجِهِ من الدُّنيا.

فكلُّ خارجٍ من الدُّنيا إمَّا متخلِّصٌ من الحبسِ، وإمَّا ذاهِبٌ إلى الحبسِ.

وبالله التَّوفيق.

❁ ودَّعَ ابنُ عونٍ[١] رجلًا فقال: عليك بتقوى الله؛ فإنَّ المتَّقِيَ ليست عليه وحْشَةٌ[٢]، وقال زيدُ بنُ أسلم[٣] كان يُقالُ: مَن اتَّقى اللهَ أحبَّهُ النَّاسُ وإن كَرِهوا[٤]، وقال الثَّوريُّ[٥] لابن أبي ذئْبٍ[٦]: إن اتَّقيتَ الله كفاكَ الناسَ، وإن اتَّقيتَ النَّاسَ لنْ يُغنوا عنك من الله

---

(١) هو: عبد الله بن عون بن أرطبان المزني البصري الحافظ عالم البصرة وإمامها، توفي سنة (١٥١هـ)، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٤٢).

(٢) أخرجه قوام السنة الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١/ ٤١٣ دار الحديث) برقم (٧٢٣).

(٣) هو: الإمام الحجة زيد بن أسلم أبو عبد الله العدوي العمري المدني، توفي سنة (١٣٦هـ)، انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٨١).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٢٢) من طريق ابن وهب عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم. وقوام السنة الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١/ ٤١٤) برقم (٧٢٤).

(٥) هو: الإمام سيد الحفاظ أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، توفي سنة (١٦١هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٦٣).

(٦) هو: الإمام محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب العامري المدني، وكان من أوعية
=

شيئًا[١]، وقال سليمانُ بنُ داود: أُوتينا مِمَّا أُوتيَ النَّاسُ ومِمَّا لم يُؤتَوا، وعُلِّمنا مِمَّا عُلِّمَ النَّاسُ ومِمَّا لم يُعَلَّموا، فلم نجدْ شيئًا أفضلَ من تقوى الله في السِّرِّ والعلانيةِ، والعدْلِ في الغَضَبِ والرِّضَى، والقَصْدِ في الفَقْرِ والغِنَى[٢].

وفي «الزُّهد» للإمامِ أحمد[٣] أثرٌ إلهيٌّ: ما من مخلوقٍ اعتصمَ بمخلوقٍ دوني إلَّا قطعتُ أسبابَ السَّمواتِ والأرضِ دونَهُ؛ فإن سألَني لم أُعطِهِ، وإن دَعانِي لم أُجبْه، وإن استغفَرني لم أغفرْ له، وما من مخلوقٍ اعتصمَ بي دونَ خَلْقِي إلَّا ضمنتِ السَّمواتُ والأرضُ رزقَهُ؛ فإن سألني أعطيتُهُ، وإن دعاني أجبْتُهُ، وإن استغفرني غفرتُ له[٤].

= العلم توفي سنة (١٥٨هـ) وقيل (١٥٩هـ)، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ١٦١).

(١) أخرجه البغوي في «مسند ابن الجعد» برقم (١٩٠٣) من طريق ابن أبي شيبة عن أبي نعيم قال: «سمعتُ سفيان، كتب إلى ابن أبي ذئب: من سفيان بن سعيد إلى محمد بن عبد الرحمن، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأوصيك بتقوى الله، فإنَّك إن اتَّقيت الله كفاك النَّاس، وإن اتَّقيت النَّاس فلن يُغنوا عنك من الله شيئًا، فعليك بتقوى الله، أمَّا بعد».
ومن طريق أبي نعيم أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «الحلية» (٧/ ٦٨).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص: ٣٥ شاهين) برقم (٢١٤)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (ص: ١٣٤ رمضان يوسف) برقم (١٩٩)، و«إصلاح المال» (ص: ٩٩ عطا) برقم (٣٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٩٩ السعادة)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٥٠)، والأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١/ ٤١٢)، من طريق سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيح، قال: قال سليمان ابن داود، فذكره.

(٣) هو: إمام أهل السنة حقًّا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي ثم البغدادي، توفي سنة (٢٤١هـ). انظر: «تذكرة الحفاظ» (٢/ ١٥).

(٤) لم أجده في المطبوع من كتاب «الزُّهد» للإمام أحمد، لكن رواه ابنُ المِبرَد الحنبليُّ في «صب الخمول على من وصل أذاه إلى الصالحين من أولياء الله» (ص: ١١٠) بسنده إلى الإمام أحمد بإسناده عن عطاء الخراساني قال: لقيتُ ابن منبهٍ وهو يطوفُ بالبيت، فقلت له: حدثني حديثًا أحفظُه عنكَ في مقامي هذا، وأوْجِزْ، قال: نعم، أوحى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى داود عليه السلام، يا داودُ ابن أيشا! أما وعزتي وعظمتي! فذكره بنحوه.
ورواه أيضًا أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٥) من طريق عطاء الخراساني به نحوه.



= ويروى مرفوعًا عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أخرجه تمّام في «فوائده» برقم (٥٩٠) عن كعب بن مالك رضي الله عنه، ولفظه: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«أوحى الله عز وجل إلى داود النبيّ صلى الله عليه وسلم، يا داود، ما من عابد يعتصم بي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات بمن فيها إلّا جعلت له من بين ذلك مخرجًا، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف منه نيّته إلّا قطعت أسباب السّماء بين يديه، وأرسخت الهوا من تحت قدميه، وما من عبد يطيعني إلّا وانا مطيعه قبل أن يسألني، وغافر له قبل أن يستغفرني»**.

وهذا الحديث موضوع، والمتّهم به: يوسف بن السفر كاتب الأوزاعي، قال البخاري في «الضُّعفاء» (١٢٨): «منكر الحديث»، وقال النَّسائي في «الضُّعفاء» (٢٤٧): «متروك الحديث شامي»، وقال ابن حبَّان في «المجروحين» (٣/ ١٣٣): «كان ممَّن يروي عن الأوزاعي ما ليس من أحاديثه من المناكير التي لا يَشكُّ عوامُّ أصحاب الحديث أنَّها موضوعة، لا يحِلُّ الاحتجاج به بحال». واتَّهمه الدَّارقطني والبيهقي كما في «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٦٦). والحديث خرَّجه الألبانيُّ في «الضعيفة» برقم (٦٨٨) وحكم عليه بالوضع.

فائدة جليلة

جمعَ النَّبيُّ بين تقوى اللهِ وحُسنِ الخُلُقِ[١]؛ لأنَّ تقوى الله يُصلِحُ[٢] ما بينَ العبدِ وبينَ ربِّه، وحُسنُ الخُلُقِ يُصلِحُ ما بينهُ وبينَ خلقِهِ؛ فتقوى الله تُوجِبُ له محبَّةَ الله، وحسنُ الخُلُقِ يدعو الناس إلى محبَّتِه.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرج الترمذي برقم (٢٠٠٤)، وابن ماجه برقم (٤٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ فقال: «**تَقْوَى الله وَحُسْنُ الخُلُقِ**»، وسئل عن أكثر ما يُدخِلُ النَّاس النَّار؟ فقال: «**الفَمُ والفَرْجُ**».
والحديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي»، و «صحيح سنن ابن ماجه» للشيخ الألباني، وهو مخرج في «السلسلة الصحيحة» برقم (٩٧٧).

(٢) هكذا في الأصل، وفي طبعة المجمع (تصلح).

فائدة جليلة

بينَ العبدِ وبينَ الله والجنَّةِ قنطرةٌ تُقطَعُ بخطوتين:

خطوةٍ عن نفسهِ، وخطوةٍ عن الخَلْقِ؛ فيُسقِطُ نفسَهُ ويُلْغِيهَا فيما بينه وبينَ النَّاسِ، ويُسقِطُ الناسَ ويُلْغِيهم فيما بينهُ وبينَ الله؛ فلا يلتفتُ إلَّا إلى من دَلَّه على الله وعلى الطَّريقِ الموصلةِ إليه.

❁ صاحَ بالصَّحابةِ واعظُ ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، فجزعتْ للخوفِ قُلوبهم، فجرتْ من الحذَرِ العُيُون، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

❁ تزيَّنَتِ الدُّنيا لعليٍّ فقال: أنتِ طالقٌ ثلاثًا لا رجعةَ لي فيك[1]، وكانت تكفيه واحدةٌ للسُّنَّةِ، لكنه جمعَ الثلاثَ؛ لئلا يُتصَوَّرَ للهوى جوازُ المراجعةِ، ودينُهُ الصَّحيحُ وطبعُهُ السَّليمُ يأنفانِ من المحلِّل؛ كيف وهو أحدُ رواةِ حديث: «**لعنَ الله المحلِّل**»[2].

❁ ما في هذه الدَّار موضِعُ خلوةٍ؛ فاتخذْهُ في نفسِكَ.

❁ لا بدَّ أن تَجذِبَكَ الجواذبُ فاعرِفْها وكن منها على حذرٍ، لا تضُرَّكَ الشَّواغِلُ إذا خَلَوتَ منها وأنتَ فيها.

❁ نورُ الحقِّ أضوأُ من الشَّمسِ، فيَحِقُّ لخفافيشِ البصائرِ أن تعشَى عنه.

---

(١) ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ١١٠٨)، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية» (٧/ ٣٥٩)، وهو في «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٣١٧).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٢٠٧٦)، والترمذي برقم (١١١٩)، وابن ماجه برقم (١٩٣٥)، من طريق حارث الأعور عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحارث ضعيف عند أهل العلم، لكن الحديث صحيح بشواهده، فقد روي من حديث عبد الله بن مسعود وأبي هريرة وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس وعقبة بن عامر رضي الله عنهم أجمعين، وقد بسط الشيخ الألباني تخريجه في «إرواء الغليل» (٦/ ٣٠٧).

❁ الطَّريقُ إلى الله خالٍ من أهل الشَّكِّ ومن الَّذين يتَّبِعون الشَّهوات، وهو معمورٌ بأهل اليقينِ والصَّبْر، وهم على الطَّريقِ كالأعلام ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].



قاعدة

لشـهادةِ أنْ لا إله إلَّا الله عندَ الموتِ تأثيرٌ عظيمٌ في تكفيرِ السَّيِّئاتِ وإحبَاطِها؛ لأنَّها شهادةٌ من عبدٍ موقنٍ بها عارفٍ بمضمُونِها، قد ماتتْ منه الشَّهواتِ ولانَتْ نفسُهُ المتمرِّدةُ، وانقادتْ بعدَ إبائِها واستعصَائِها، وأقبلتْ بعدَ إعراضِها، وذَلَّت بعد عِزِّها، وخرجَ منها حِرْصُها على الدُّنيا وفضُولِها، واستخذتْ بين يديَ ربِّها وفاطِرِها ومولاها الحقِّ أذلَّ ما كانتْ له وأرجَى ما كانتْ لعفوهِ ومغفرتِهِ ورحمتِهِ، وتجرَّدَ منها التَّوحيدُ بانقطاعِ أسبابِ الشِّـركِ وتحقُّقِ بطلانِـهِ، فزالتْ منها تلـكَ المنازعاتِ الَّتي كانتْ مشـغولةً بها، واجتمعَ همُّها على منْ أيقنتْ بالقدومِ عليه والمصيرِ إليـه، فوَجَّه العبدُ وجْهَه بكُلِّيَّتِهِ إليه، وأقبلَ بقلبِه وروحِه وهمِّهِ عليه، فاستسلمَ له وحدَهُ ظاهرًا وباطنًا، واستوى سِرُّه وعلانيتُه فقال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبِه، وقدْ تخلَّصَ قلبُه من التَّعلُّقِ بغيرِهِ والالتفاتِ إلى ما سواهُ، قد خرجتِ الدُّنيا كلُّها من قلبه، وشارفَ القدومَ على ربِّه، وخمدتْ نيرانُ شهوتِهِ، وامتلأَ قلبُه من الآخرةِ، فصارتْ نُصْبَ عينيهِ، وصارتِ الدُّنيا وراءَ ظهرِهِ، فكانتْ تلكَ الشَّهادةُ الخالصةُ خاتمةَ عملِهِ، فطَهَّرَتْهُ من ذُنوبِهِ، وأدخلتهُ على ربِّه؛ لأنَّه لقيَ ربَّه بشـهادةٍ صادقةٍ خالصةٍ، وافقَ ظاهرُها باطِنَها وسِرُّها علانيتَها.

فلـو حصلتْ له الشَّـهادةُ علـى هذا الوجـه في أيَّامِ الصَّحةِ لاستوحشَ مـن الدُّنيا وأهلِهـا، وفَـرَّ إلى الله مـن النَّاسِ وأنِسَ به دونَ ما سـواه، لكنَّه شَـهِدَ بها بقلبٍ مشـحونٍ بالشَّـهواتِ وحُبِّ الحياةِ وأسبابِها، ونفسٍ مملوءةٍ بطلبِ الحظوظِ والالتفاتِ إلى غيرِ الله، فلو تجرَّدتْ كتجرُّدِها عندَ الموتِ لكانَ لها نبأٌ آخرُ وعيشٌ آخرُ سوى عَيشِها البَهيمِيِّ.

والله المستعان.

❁ ماذا يملِكُ مِن أمرِه مَنْ ناصيتُه بيدِ الله، ونفسُه بيدِه، وقلبُه بين أصبعينِ من أصابعِه يُقلِّبُه كيفَ يشاء، وحياتُه بيدِه، وموتُه بيدِه، وسعادتُه بيدِه، وشقاوتُه بيدِه، وحركاتُه وسكناتُه وأقوالُه وأفعالُه بإذنِه ومشيئتِه، فلا يتحرَّكُ إلَّا بإذنِه، ولا يفعلُ إلَّا بمشيئتِه، إن وكَلَه إلى نفسِه وكَلَهُ إلى عجزٍ وضيعةٍ وتفريط وذنبٍ وخطيئةٍ، وإن وكَلَهُ إلى غيره وكَلَهُ إلى مَنْ لا يملكُ له ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وإن تخلَّى عنه استولى عليه عدوُّه وجعلَهُ أسيرًا له، فهو لا غنًى له عنه طَرْفَةَ عينٍ، بل هو مضطرٌّ إليه على مدى الأنفاسِ في كلِّ ذرَّةٍ من ذرَّاتِهِ باطنًا وظاهرًا، فاقتُهُ تامَّةٌ إليه، ومع ذلكَ فهو متخلِّفٌ عنه، معْرِضٌ عنه، يتبغَّضُ إليه بمعصيتِهِ مع شدَّةِ الضَّرورةِ إليه من كلِّ وجهٍ، قد صار لذكرِهِ نَسِيًّا، واتخذَهُ وراءَهُ ظِهرِيًّا، هذا؛ وإليه مرجِعُهُ وبين يديهِ موقِفُهُ.

❁ فَرِّغْ خاطِرَكَ لِلهَمِّ بما أُمرتَ به، ولا تشغَلْهُ بما ضُمِنَ لك؛ فإنَّ الرِّزقَ والأجلَ قرينانِ مضمُونانِ؛ فما دامَ الأجلُ باقيًا كانَ الرِّزقُ آتيًا، وإذا سَدَّ عليكَ بحكمتِهِ طريقًا من طرُقِهِ فَتَحَ لكَ برحمتِهِ طريقًا أنفعَ لكَ منه.

فتأمَّلْ حالَ الجنينِ يأتيه غِذاؤُه -وهو: الدمُ- من طريقٍ واحدةٍ وهو: السُّرَّةُ.

فلـمَّا خرجَ من بطنِ الأمِّ، وانقطعتْ تلكَ الطَّريقُ، فتحَ له طريقينِ اثنينِ وأجرى له فيهما رزقًا أطيبَ وألذَّ من الأوَّلِ؛ لبنًا خالصًا سائغًا.

فاذا تمتْ مدَّةُ الرَّضاعِ وانقطعتْ الطَّريقان بالفِطَامِ، فتحَ له طُرُقًا أربعة أكملَ منها: طعامان وشرابان؛ فالطَّعامانِ من: الحيوانِ والنَّباتِ، والشَّرابانِ من: المياهِ والألبانِ، وما يضاف إليهما من المنافعِ والملاذِّ.

فإذا ماتَ انقطعتْ عنه هذه الطُّرقُ الأربعة، لكنَّه سُبْحَانَهُ فتحَ له - إن كان سعيدًا - طُرُقًا ثمانيةً، وهي: أبوابُ الجنَّةِ الثَّمانيةُ؛ يدخُلُ من أيِّها شاء.

فهكذا الرَّبُّ سُبْحَانَهُ؛ لا يمنعُ عبدَه المؤمنُ شيئًا من الدُّنيا إلَّا ويؤتيه أفضلَ منه وأنفعَ له، وليس ذلكَ لغيرِ المؤمن، فإنَّه سبحانه يمنعُهُ الحظَّ الأدنى الخسيسَ ولا يرضى له به؛ ليُعطيَهُ الحظَّ الأعلى النفيسَ.

والعبدُ لجهلِهِ بمصالحِ نفسِه، وجهلِه بكرَمِ ربِّه وحكمتِه ولطفِه لا يعرفُ التَّفاوتَ بينَ ما مُنِعَ منه وبينَ ما ذُخِرَ له، بل هو مُولَع بحبِّ العاجلِ وإن كان دنيئًا، وبقلَّةِ الرَّغبةِ في الآجلِ وإن كانَ عليًّا.

ولو أنصفَ العبدُ ربَّه -وأنَّى له بذلك- لعَلِمَ أنَّ فضلَهُ عليه فيما منعهُ من الدُّنيا ولذَّاتِها ونعيمِها أعظمُ من فضلِه عليه فيما آتاه من ذلك.

فما منعهُ إلَّا ليعطِيَهُ، ولا ابتلاهُ إلَّا ليعافِيَهُ، ولا امتحَنَهُ إلَّا ليُصافِيَهُ، ولا أماتَهُ إلَّا ليُحْيِيَهُ، ولا أخرجه إلى هذه الدَّارِ إلَّا ليتأهَّبَ منها للقُدُومِ عليه وليسلُكَ الطريقَ الموصلةِ إليه فـ ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٢]، ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٩٩].

والله المستعان.

❁ مَنْ عرفَ نفسَهُ اشتغلَ بإصلاحِها عن عُيوبِ النَّاس، ومَن عرفَ ربَّه اشتغلَ به عن هوى نفسِهِ.

❁ أنفعُ العملِ أن تغيبَ فيه عن الناسِ بالإخلاصِ، وعن نفسِكَ بشهودِ المنَّةِ؛ فلا ترى فيه نفسَكَ ولا ترى الخلقَ.

❁ دخل النَّاسُ النَّارَ من ثلاثةِ أبوابٍ: بابُ شبهةٍ أورثتْ شكًّا في دين الله، وبابُ شهوةٍ أورثتْ تقديمَ الهوى على طاعتِهِ ومرضاتِهِ، وبابُ غضبٍ أورث العدوانَ على خلقِهِ.

■ أصولُ الخطايا كلِّها ثلاثةٌ: **الكِبْرُ**: وهو الَّذي أصارَ إبليسَ إلى ما أصارَهُ، و**الحِرْصُ**: وهو الَّذي أخرجَ آدمَ من الجنَّةِ، و**الحسدُ**: وهو الَّذي جَرَّأ أحدَ ابْنَي آدمَ على أخيه؛ فمنْ وُقِيَ شَرَّ هذه الثَّلاثة فقد وُقِيَ الشَّرَّ؛ فالكفرُ من الكِبْرِ، والمعاصي من الحِرْصِ، والبَغْيُ والظُّلمُ من الحسدِ.

❁ جعلَ اللهُ بحكمتِهِ كلَّ جزءٍ من أجزاءِ ابنِ آدمَ - ظاهرةً وباطنةً - آلةً لشيءٍ؛ إذا استُعمِلَ فيه فهو كمالُهُ، فالعينُ آلةٌ للنَّظَرِ، والأُذُن آلةٌ للسَّماعِ، والأنفُ آلةٌ للشَّمِّ، واللسان آلةٌ للنُّطقِ، والفرجُ للنِّكاحِ، واليدُ للبطشِ، والرِّجلُ للمشي، والقلبُ للتَّوحيدِ والمعرفةِ، والرُّوحُ للمحبَّةِ، والعقلُ آلةٌ للتَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ لعواقبِ الأمورِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وإيثارِ ما ينبغي إيثارُهُ وإهمالِ ما ينبغي إهمالُهُ.

❁ أخسرُ النَّاسِ صفقةً منْ اشتَغَلَ عن الله بنفسِهِ، بل أخسَرُ منه منْ اشتغلَ عن نفسِهِ بالنَّاسِ.

❁ في «السُّنَنِ» من حديثِ أبي سعيدٍ يرفعُهُ: «**إِذَا أَصْبَحَ ابنُ آدمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّها تُكَفِّرُ اللِّسَانَ؛ تَقُولُ: اتقِ اللهَ! فإنَّما نحنُ بكَ، فإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**»[1].

قوله: «**تُكَفِّرُ اللسانَ**» قيل: معناهُ تَخْضَعُ له، وفي الحديث: أنَّ الصحابةَ لـمَّا دخلوا على النَّجاشِيِّ؛ لم يُكفِّروا له؛ أيْ: لم يسجُدوا ولم يخضعوا، ولذلكَ قال له عمرو

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٠٧)، وأحمد في مسنده برقم (١١٩٠٨)، وابن حميد في «المسند» رقم (٩٧٩)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» رقم (١٢)، والبيهقي في «الآداب» رقم (٢٩٤)، من طرق عن حماد بن زيد، عن أبي الصهباء، عن سعيد بن جبير، عن أبي سعيد الخدري به.
وتردَّد حماد بن زيد في رفعه ووقفه، ورجَّح الترمذي وقفه. ورجَّح الألبانيُّ رفعه وحسَّنه في «صحيح الجامع» برقم (٣٥١).

ابـنُ العاص: أيَّهـا الـمَلِكُ إنَّهم لا يُكَفِّرون لك. وإنَّما خَضَعَتْ للِّسـان؛ لأَنَّه بريدُ القلبِ وتَرْجُمانُهُ والواسطةُ بينه وبين الأعضاءِ.

وقولهـا: «إنَّـما نحنُ بـكَ» أيْ: نجاتُنَا بـكَ وهلاكُنَا بك، ولهذا قال: فإن استقمتَ استقَمنا، وإن اعوججتَ اعوجَجْنَا.



فصل

جمعَ النبيُّ في قوله: «فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ»[1] بينَ مصالحِ الدُّنيا والآخرةِ.

ونعيمها[2] ولذَّتها إنَّما يُنالُ بتقوى الله.

وراحةُ القلبِ والبدنِ وتركُ الاهتمامِ والحِرْصِ الشَّديدِ والتَّعبِ والعَناءِ والكدِّ والشَّقاءِ في طلبِ الدُّنيا إنَّما يُنالُ بالإجمالِ في الطَّلَبِ.

فمن اتَّقى اللهَ فازَ بلذَّةِ الآخرةِ ونعيمِها، ومن أجمَلَ في الطَّلَب استراحَ من نَكَدِ الدُّنيا وهمومِها.

فالله المستعان.

قد نادتِ الدُّنيا على نَفْسِها ... لَو كان في ذا الخَلْقِ مَنْ يَسْمَعُ
كَمْ واثِقٍ بالعيشِ أهْلَكْتُهُ ... وجامِعٍ فَرَّقْتُ ما يَجْمَعُ[3]



(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٢١٤٤) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» برقم (٢١٣٦) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البيهقي (١/ ١٠٢) من حديث المطلب بن حنطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والحديث صححه الشيخ الألباني كما في «السّلسلة الصَّحيحة» برقم (٢٦٠٧).

(٢) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (فنعيمها).

(٣) ذكرهما بنحوهما: الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ١٠٦ عواد) منسوبين لأبي الحسن النديم المعروف بجحظة، وأبو الفضل الهمداني في «تكملة تاريخ الطبري» (ص: ١٧١)، منسوبين للشبلي.

فَائِدَة

جمع النبيُّ ﷺ بينَ (المأثَمِ والـمَغْرمِ)[١] فإنَّ المأثمَ يُوجِبُ خسـارةَ الآخِرَةِ، والمغْرَمَ يُوجِبُ خسارةَ الدُّنيا.



(١) أخرجه البخاري برقم (٨٣٢، ٢٣٩٧، ٦٣٦٨) ومسلم برقم (١٢٩- ٥٨٩)، عن عائشة رضي الله عنها.

فَائِدَة

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، علَّق سُبحانَهُ الهدايةَ بالجهادِ؛ فأكملُ النَّاسِ هدايةً أعظمُهم جهادًا، وأفرضُ الجهادِ جهادُ النَّفسِ وجهادُ الهوى وجهادُ الشَّيطانِ وجهادُ الدُّنيا؛ فمنْ جاهدَ هذه الأربعةَ في الله هداهُ الله سُبُلَ رضاهُ الموصلة إلى جنَّتِهِ، ومَن تركَ الجهادَ فاتَهُ من الهدى بحسَب ما عطَّل من الجِهادِ.

قال الجنيد[١]: والَّذين جاهدوا أهواءَهم فينا بالتَّوبةِ لنهدِيَنَّهم سُبُلَ الإخلاصِ[٢].

ولا يتمكَّنُ من جهادِ عدوِّه في الظَّاهرِ إلَّا من جاهدَ هذه الأعداء باطنًا؛ فمنْ نُصِرَ عليها نُصِرَ على عَدُوِّه، ومن نُصِرَتْ عليه نُصِرَ عليه عدوُّه.



---

(١) هو: أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي البغدادي توفي (٢٩٨هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢٧/ ٦٨).

(٢) ذكره النسفي في «تفسيره» (٢/ ٦٨٧بديوي).

فصل

ألقى الله سُبْحَانَهُ العداوةَ بين الشَّيطانِ وبينَ الملَكِ، والعداوة بينَ العقلِ وبينَ الهوى، والعداوة بينَ النفسِ الأمَّارةِ وبينَ القلبِ، وابْتلى العبدَ بذلكَ وجمعَ له بينَ هؤلاء، وأمَدَّ كلَّ حزبٍ بجنودٍ وأعوانٍ؛ فلا تزالُ الحربُ سِجالًا ودُوَلًا بين الفريقين إلى أن يستوليَ أحدُهما على الآخرِ ويكون الآخرُ مقهورًا معه.

فإذا كانتْ النَّوبةُ للقلبِ والعقلِ والملَكِ؛ فهنالكَ السُّرورُ، والنَّعيمُ، واللَّذَّةُ، والبهجةُ، والفرحُ، وقُرَّةُ العينِ، وطيبُ الحياةِ، وانشراحِ الصَّدْرِ، والفوزُ بالغنائِمِ، وإذا كانتْ النَّوبةُ للنَّفسِ والهوى والشَّيطانِ؛ فهنالكَ الغمومُ، والهمومُ، والأحزانُ، وأنواعُ المكارهِ، وضيقُ الصَّدْرِ، وحبسُ الملِكِ.

فما ظنَّكَ بملِكٍ استولى عليه عدوُّه، فأنزلَهُ عن سريرِ مُلكِهِ، وأسرَهُ، وحبسَهُ، وحالَ بينه وبينَ خزائِنِه وذخائِرِه وخَدَمِهِ، وصيَّرَها له، ومع هذا فلا يتحرَّكُ الملكُ لطلبِ ثأرِهِ، ولا يستغيثُ بمنْ يُغيثُهُ، ولا يستَنْجِدُ بمنْ يُنْجِدُهُ.

وفوقَ هذا الملِكِ ملِكٌ قاهِرٌ لا يُقهر، وغالبٌ لا يُغلب، وعزيزٌ لا يُذلُّ، فأرسلَ إليه: إن استنْصَرْتَنِي نَصَرتُكَ، وإن استغثْتَ بي أغثتُكَ، وإن التجأتَ إليَّ أخذْتُ بثأرِكَ، وإن هربتَ إليَّ وأويتَ إليَّ سَلَّطْتُكَ على عدوِّكَ، وجعلتُهُ تحتَ أسْرِكَ.

فإن قالَ هذا الملِكُ المأسورُ: قدْ شدَّ عَدُوِّي وَثاقي، وأحكمَ رِباطي، واستوثقَ منِّي بالقيود، ومَنَعَنِي من النُّهوضِ إليكَ والفرار إليكَ والمسير إلى بابكَ؛ فإن أرسلتَ جندًا من عندِكَ يَحُلُّ وَثاقِي ويَفُكُّ قُيُودِي ويُخرِجُني من حبسهِ؛ أمكَنَني أن أوافيَ بابَكَ، وإلَّا لم يُمكِنِّي مفارقةُ محْبِسي ولا كسرُ قُيُودي، فإن قالَ ذلكَ احتجاجًا على ذلكَ السُّلطان، ودَفْعًا لرسالتِهِ، ورِضًى بما هو فيه عندَ عدوِّهِ، خَلَّاه السُّلطانُ الأعظمُ وحالَه ووَلَّاه

ما تولَّى، وإن قالَ ذلكَ افتقارًا إليه، وإظهارًا لعجزِهِ وذُلِّهِ، وأنَّه أضعفُ وأعجزُ أن يسيرَ إليه بنفسه، ويخرجَ من حبسِ عدوِّه، ويتخلَّصَ منه بحولِهِ وقوَّتِهِ، وأنَّ من تمامِ نعمةِ الملكِ عليه -كما أرسلَ إليه هذه الرِّسالةَ- أن يُمدَّهُ من جندِهِ ومماليكِهِ بمن يُعينُهُ على الخلاصِ ويكسِرُ بابَ محبسِهِ ويفُكُّ قُيودَهُ؛ فإن فعلَ به ذلكَ فقد أتمَّ إنعامَهُ عليه، وإن تخلَّى عنه فلمْ يَظْلِمْهُ ولا مَنَعَهُ حقًّا هو له، وأنَّ حمدَهُ وحكمتَهُ اقتضى منعَه وتخليتَهُ في محبسِهِ، ولا سيَّما إذا عَلِمَ أنَّ الحبسَ حبسُهُ، وأنَّ هذا العدوَّ الذي حبسَهُ مملوكٌ من مماليكِهِ، وعبدٌ من عبيدِهِ، ناصيتُهُ بيدِهِ، لا يتصرَّفُ إلَّا بإذنِهِ ومشيئتِهِ؛ فهو غيرُ ملتفتٍ إليه، ولا خائف منه، ولا معتقد أنَّ له شيئًا من الأمرِ ولا بيدِه نفعٌ ولا ضَرٌّ، بل هو ناظرٌ إلى مالكِهِ ومتولِّي أمرِهِ ومَنْ ناصيتُه بيده، قد أفردَهُ بالخوفِ والرَّجاءِ والتَّضرُّعِ إليه والالتجاءِ والرَّغبةِ والرَّهبةِ؛ فهناكَ تأتيه جيوشُ النَّصرِ والظَّفَرِ.

❁ أعلى الهمَمِ في طلبِ العلم طلب علمِ الكتابِ والسُّنَّةِ، والفهمُ عن الله ورسولِهِ نفسَ المرادِ، وعلم حدود المُنْزَلِ، وأخسُّ هِمَمِ طلَّابِ العلم قَصْرُ هِمَّتِهِ على تتبُّعِ شواذِّ المسائلِ وما لم يَنزِلْ ولا هو واقعٌ، أو كانتْ همَّتُه معرفةَ الاختلافِ وتتبُّعِ أقوالِ النَّاسِ، وليسَ له هِمَّةٌ إلى معرفةِ الصَّحيحِ من تلكَ الأقوال، وقَلَّ أنْ ينتفعَ واحدٌ من هؤلاءِ بعلمِهِ.

وأعلى الهِمَمِ في بابِ الإرادةِ أن تكونَ الهمَّةُ متعلِّقةً بمحبَّةِ الله والوقوفِ مع مرادِهِ الدِّينيِّ الأمريِّ، وأسفلُها أن تكونَ الهمَّةُ واقفةً مع مرادِ صاحبِها من الله؛ فهو إنَّما يعبدُهُ لمرادِهِ منه لا لمرادِ الله منه، فالأوَّلُ: يريدُ الله ويريدُ مرادَهُ، والثاني: يريدُ من الله وهو فارغٌ عن إرادتِهِ.

❁ عُلماءُ السُّوءِ جلسوا على بابِ الجنَّة يدعونَ إليها النَّاسَ بأقوالِهم ويدعونَهم إلى النَّارِ بأفعالِهم؛ فكلَّما قالتْ أقوالُهُم للنَّاسِ: هَلُمُّوا، قالتْ أفعالهم: لا تَسمعوا منهم، فلو

كان ما دَعَوا إليه حقًّا كانوا أوَّلَ المستجيبين له، فهم في الصُّورةِ أدِلَّاءُ وفي الحقيقة قُطَّاعُ الطَّريق.

❁ إذا كان الله وحدَه حظَّكَ ومرادَكَ؛ فالفضلُ كلُّه تابعٌ لكَ يزدَلِفُ إليكَ؛ أيَّ أنواعِهِ تبدأ به، وإذا كانَ حظُّكَ ما تنالُ منه فالفضلُ موقوفٌ عنكَ؛ لأنَّه بيدِه تابعٌ له، فِعلٌ من أفعالِهِ، فإذا حصلَ لك حصلَ لكَ الفضلُ بطريقِ الضِّمنِ والتَّبَع، وإذا كان الفضلُ مقصودَكَ لم يحصُلِ الله بطريق الضِّمْنِ والتَّبَع، فإن كنتَ قد عرفتَهُ وأنِسْتَ به ثم سقطتَ إلى طلبِ الفضل؛ حرمَكَ إيَّاهُ عقوبةً لك، ففاتَكَ الله وفاتك الفضلُ.



فصل

لـمَّا خرجَ رَسولُ الله مِن حَصْرِ العدوِّ دَخَلَ في حُـصُرِ النَّصر، فَعَبَثَتْ أيدي سراياهُ بالنَّصرِ في الأطرافِ، فطارَ ذِكْرُهُ في الآفاقِ فصارَ الخَلْقُ معهُ ثلاثة أقسام: مؤمنٌ بهِ، ومسالمٌ لهُ، وخائفٌ منه.

ألقى بِذْرَ الصَّبرِ في مزرعةِ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ فإذا أغصانُ النباتِ تهتزُّ بخزامي ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]؛ فَدَخلَ مكَّةَ دُخولًا ما دَخلَهُ أحدٌ قبلَه ولا بعدَه، حولَهُ المهاجرونَ والأنصارُ، لا يَبِينُ منهم إلا الحَدَقُ[1]، والصَّحابةُ على مراتبهم، والملائكةُ فوق رؤوسِهم، وجبريلُ يتردَّدُ بينَه وبين ربِّهِ، وقد أباحَ له حَرَمَهُ الَّذي لم يُحِلَّهُ لأحدٍ سواه.

فَلـمَّا قايسَ بينَ هذا اليوم وبين يوم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فأخْرَجوه ثانيَ اثنين؛ دخلَ وذَقَنُه يَمَسُّ قَربوسَ سرجِهِ، خضوعًا وذُلًّا لِمن ألبسَهُ ثوبَ هذا العزِّ الذي رَفَعَتْ إليه فيه الخليقةُ رؤوسَها، ومَدَّتْ إليه الملوكُ أعناقَها.

فدخَلَ مكَّةَ مالكًا مؤيَّدًا منصورًا، وعلا كَعْبُ بلالٍ فوقَ الكعبةِ بعد أن كان يُجَرُّ في الرَّمضاءِ على جَمْرِ الفتنة، فَنَشَرَ بَزًّا طُوي عن القومِ من يومِ قولِهِ: (أحدٌ أحدٌ)[2] ورَفَعَ

---

(١) قال ابن فارس: «الحاء والدَّال والقاف أصلٌ واحدٌ، [وهو الشيء] يحيط بشيء. يقال حَدَقَ القومُ بالرّجُل وأحدقوا به». «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٣٣).

(٢) يشير لما وقع لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من تعذيب الكفَّار له، ومن ذلك ما أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أوَّل من أظهر إسلامه سبعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر وعمَّار وأمُّه سميَّة وصهيب وبلال والمقداد، فأمَّا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمنعه الله بعمِّه أبي طالب، وأمَّا أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأمَّا سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشَّمس، فما منهم من أحد إلَّا وقد واتاهم على ما أرادوا إلَّا بلالًا فإنَّه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه =

صوتَه بالأذانِ، فأجابتهُ القبائلُ مِن كلِّ ناحيةٍ، فأقبلوا يؤمُّونَ الصَّوتَ، فدخلوا في دينِ الله أفواجًا، وكانوا قبل ذلك يأتونَ آحادًا.

فَلَمَّا جلسَ الرَّسولُ ﷺ على منبر العزِّ -وما نزلَ عنهُ قطُّ- مَدَّتِ الملوكُ أعناقها بالخُضوع إليه؛ فمنهم من سلَّمَ إليه مفاتيحَ البلادِ، ومنهم مَن سألَهُ الموادعةَ والصُّلْح، ومنهم من أقرَّ بالجزيةِ والصَّغارِ، ومنهم من أخذَ في الجمعِ والتَّأهُّب للحرب ولم يَدْرِ أنَّه لم يزِد على جمع الغنائم وسَوْقِ الأسارى إليه.

فلمَّا تكامل نصرُهُ، وبلَّغَ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، وجاءهُ منشورُ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ - ٣]، وبعده توقيعُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١ - ٢]؛ جاءَهُ رسولُ ربِّه يُخيِّرُهُ بين المُقام في الدُّنيا وبين لقائِهِ، فاختار لقاءَ ربِّه شوقًا إليه، فتزيَّنَتِ الجِنانُ ليوم قدوم روحِهِ الكريمةِ لا كزينةِ المدينة يوم قدوم الملِكِ. إذا كان عرشُ الرَّحمنِ قد اهتزَّ لموت بعض أتباعِهِ[1] فرحًا واستبْشارًا بقُدومِ روحِهِ؛ فكيف بقُدوم رُوح سيدِ الخلائقِ؟!

فيا منتسبًا إلى غير هذا الجناب! ويا واقفًا بغير هذا الباب!

ستعلمُ يومَ الحشرِ أيَّ سَريرةٍ ... تكونُ عليها يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ[2]

❁❁❁

= فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكَّة، وهو يقول: أحد أحد. والحديث حسَّنه الشيخ الألباني كما في «صحيح السيرة النبوية» (ص: ١٢١- ١٢٢).

(١) يشير لموت سعد بن معاذ رضي الله عنه، وذلك لما أخرجه البخاري برقم (٣٨٠٣)، ومسلم برقم (١٢٤- ٢٤٦٦) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) لم أجده عند غير المصنف.

فصل

يا مغرورًا بالأماني! لُعِنَ إبليسُ وأُهْبِطَ من منزلِ العزِّ بتَرْكِ سجدةٍ واحدةٍ أُمِرَ بها، وأخْرِجَ آدم من الجنَّةِ بلُقمةٍ تناوَلَها، وحَجَبَ القاتل عنها بعد أن رآها عيانًا بملءِ كفٍّ من دم، وأمرَ بقتل الزَّاني أشنعَ القِتْلاتِ بإيلاج قَدْر الأُنْمُلَةِ فيما لا يَحِلُّ، وأمَرَ بإيساعِ الظَّهْرِ سياطًا بكلمةِ قذفٍ أو بقطرةٍ من مُسْكِرٍ، وأبانَ عُضوًا من أعضائك بثلاثةِ دراهم؛ فلا تأمَنْهُ أن يَحبِسَكَ في النَّارِ بمعصيةٍ واحدةٍ من معاصيهِ؛ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥].

دخلتِ امرأةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ[١].

وإنَّ الرَّجلَ لَيتكلَّمُ بالكلمةِ لا يُلقي لها بالًا يَهْوي بها في النَّار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب[٢].

وإنَّ الرجلَ ليعملُ بطاعةِ الله ستين سنةً، فإذا كان عند الموت جارَ في الوصيَّة، فيُخْتَمُ لهُ بسوءِ عملهِ، فيدخُلُ النَّار[٣].

العُمُرُ بآخرِهِ، والعملُ بخاتمتِهِ.

* مَن أحدث قبْلَ السَّلام بطَلَ ما مضى مِن صلاتِهِ، ومَنْ أفطر قبل غروب الشَّمس ذهب صيامُهُ ضائعًا، ومَن أساءَ في آخر عُمُرِهِ لَقِيَ ربَّه بذلك الوجه.

---

(١) يشير لحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي أخرجه البخاري برقم (٢٣٦٥، ٣٣١٨، ٣٤٨٢)، ومسلم برقم (١٥١ - ٢٢٤٢) ولفظه: «**دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، ولم تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**».

(٢) يشير لما أخرجه البخاري برقم (٦٤٧٧)، ومسلم برقم (٥٠ - ٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولفظه: «**إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فيهَا يَزِلُّ بِهَا في النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بينَ المَشْرِقِ**».

(٣) يشير إلى ما أخرجه أبو داود برقم (٢٨٦٧)، والترمذي برقم (٢١١٧)، عن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ**»، والحديث من طريق شهر بن حوشب، وهو ضعيف.

❁ لو قدَّمْتَ لقمةً وجدْتَها، ولكن يُؤذيك الشَّرَهُ.

❁ كم جاءَ الثَّوابُ يَسعَى إليك، فوقف بالبابِ، فردَّهُ بوَّابُ (سوفَ) و(لعلَّ) و(عسى).

❁ كيف الفلاحُ بين إيمانٍ ناقصٍ، وأملٍ زائدٍ، ومرضٍ لا طبيبَ له ولا عائد، وهوىً مستيقظ، وعقلٍ راقدٍ؛ ساهيًا في غَمْرَتِهِ، عَمِهًا في سكرتِهِ، سابحًا في لُجَّةِ جهلِهِ، مُسْتوحِشًا مِن ربِّهِ، مُسْتأنِسًا بخَلْقِهِ، ذِكْرُ النَّاس فاكهتُهُ وقوتُه، وذِكْرُ الله حبْسُهُ ومَوْتُهُ، لله منه جزءٌ يسيرُ من ظاهرِهِ، وقلبُهُ ويقينُهُ لغيرِهِ؟!

لا كانَ مَنْ لِسِواك فيهِ بَقِيَّةٌ   يَجِدُ السَّبيلَ بها إليهِ العُذَّلُ[1]



(١) ذكره المصنف في «طريق الهجرتين» (ص: ٣٥٣، ٤٣٩)، وفي «مدارج السالكين» (٣/ ٢٧٢) من غير نسبة.

فصل

كانَ أوَّلَ المخلوقاتِ القَلَمُ؛ لِيَكْتُبَ المقادير قبل كونِها[1].

وجُعِلَ آدمُ آخرَ المخلوقاتِ، وفي ذلك حِكَمٌ:

أحدها: تمهيدُ الدَّارِ قبل السَّاكنِ.

الثانية: أنَّه الغايةُ التي خُلِقَ لأجلها ما سواهُ مِن السَّمواتِ والأرضِ والشَّمسِ والقمرِ والبَرِّ والبَحْرِ.

الثالثة: أنَّ أحذقَ الصُّنَّاعِ يَختِمُ عملَه بأحسنِهِ وغايتِهِ كما يبدؤُهُ بأساسِهِ ومبادئِهِ.

الرَّابعة: أنَّ النُّفوس متطلِّعةٌ إلى النِّهاياتِ والأواخرِ دائمًا، ولهذا قال موسى للسَّحَرةِ أوَّلًا: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠]، [الشعراء: ٤٣]، فلما رأى النَّاسُ فعلَهم تطلَّعوا إلى ما يأتي بعدَه.

الخامسة: أنَّ الله سُبْحَانَهُ أخَّرَ أفضلَ الكُتُبِ والأنبياء والأمم إلى آخر الزَّمان، وجعل الآخرةَ خيرًا من الأولى، والنِّهاياتِ أكملَ مِن البداياتِ، فكم بين قول المَلَكِ للرَّسول: اقْرَأْ! فيقولُ: ما أنا بقارئ[2]. وبين قولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]!

---

(١) أخرج أبو داود برقم (٤٧٠٠)، والترمذي برقم (٣٣١٩) من حديث عبادة بن الصامت أنَّ النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إنَّ أوَّلَ ما خلقَ اللهُ تَعَالَىٰ القلمُ، فقالَ لهُ: اكْتُبْ، فقالَ: ربِّ وماذا أكْتُبُ؟ قالَ: اكْتُبْ مقاديرَ كلِّ شيءٍ حتَّى تقومَ السَّاعةُ».

والحديث صحيح. ينظر: «صحيح الجامع الصغير» برقم (٣٧٨٠، ٣٧٨١).

وفي هذا الحديث ردٌّ على مَن زعم أنَّ أوَّل من خُلق هو النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالحديث صريح بأنَّ الله تَعَالَىٰ أوَّل ما خلق القلم.

(٢) يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ لحديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا الطَّويل في «بدء الوحي»، الذي أخرجه البخاري برقم (٣، ٤٩٥٣، ٦٩٨٢)، ومسلم برقم (٢٥٢-١٦٠).

السَّادسة: أنَّه سُبْحَانَهُ جمعَ ما فرَّقَه في العالم في آدم؛ فهو العالم الصَّغير وفيه ما في العالم الكبير.

السَّابعة: أنَّه خُلاصة الوجود وثمرتُهُ، فناسب أن يكون خلقُهُ بعد الموجودات.

الثَّامنة: أنَّ هذا مِن كرامتِهِ على خالقِهِ أنهُ هيَّأ لهُ مصالحَه وحوائجَه وآلاتِ معيشتِهِ وأسبابَ حياتِهِ؛ فما رفعَ رأسَه إلَّا وذلك كلُّه حاضرٌ عتيدٌ.

التَّاسعة: أنَّه سُبْحَانَهُ أراد أن يُظهِرَ شرفَهُ وفضلَهُ على سائرِ المخلوقات، فقَدَّمها عليه في الخلقِ، ولهذا قالت الملائكةُ: ليخلُقْ ربُّنا ما شاء؛ فلنْ يَخلُقَ خلقًا أكرمَ عليه مِنَّا[1]. فلمَّا خلقَ آدم وأمرهم بالسُّجودِ لهُ ظهرَ فضلُهُ وشرفُهُ عليهم بالعلمِ والمعرفةِ. فلمَّا وقعَ في الذَّنبِ ظنَّتِ الملائكة أنَّ ذلك الفضل قد نُسِخَ، ولم تطَّلعْ على عبوديَّةِ التَّوبة الكامنة. فلمَّا تاب إلى ربِّه، وأتى بتلك العبوديَّة؛ علمتِ الملائكةُ أنَّ لله في خلقِهِ سرًّا لا يعلمُهُ سواه.

العاشرة: أنَّه سُبْحَانَهُ لما افتتحَ خلقَ هذا العالم بالقلمِ كان مِن أحسن المناسبة أن يختمه بخلق الإنسان؛ فإنَّ القلمَ آلةُ العلم، والإنسان هو العالِمُ. ولهذا أظهرَ سُبْحَانَهُ فضلَ آدم على الملائكةِ بالعلمِ الَّذي خُصَّ به دونهم.

وتأمَّلْ كيف كتبَ سُبْحَانَهُ عُذْرَ آدمَ قَبل هبوطِهِ إلى الأرضِ، ونَبَّه الملائكةَ على فضلِهِ وشرفِهِ، ونوَّهَ باسمِهِ قبل إيجادِهِ بقولِهِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: ٣٠].

وتأمَّلْ كيفَ وَسَمَهُ بالخلافةِ، وتلك وِلايةٌ لهُ قبلَ وجوده، وأقامَ عُذْرَهُ قبلَ الهُبوطِ بقولِهِ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ والمحبُّ يُقيم عُذْرَ المحبوبِ قبلَ جنايتِهِ.

فلمَّا صوَّرهُ ألقاهُ على بابِ الجنَّة أربعين سنة؛ لأنَّ دَأْبَ المحبِّ الوقوفُ على باب الحبيب، رَمَى بهِ في طريقِ ذلِّ ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا﴾ [الإنسَان: ١] لِئلَّا يُعْجَبَ يومَ ﴿ٱسْجُدُواْ﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٤) عن ابن عبَّاس وغيره موقوفًا. وانظر: «الدُّرّ المنثور» (١/ ١٢٢).

كان[1] إبليسُ يمرُّ على جسدِهِ، فيعجبُ منه ويقولُ: لأمرٍ قد خُلِقتَ! ثمَّ يدخل من فيه ويخرج من دُبُرِهِ ويقول: لئن سُلِّطْتُ عليك لأهلِكنَّكَ، ولئن سُلِّطْتَ عليَّ لأعصينَّكَ! ولم يَعلَمْ أنَّ هلاكَه على يدهِ. رأى طينًا مجموعًا فاحتقره، فلمَّا صُوِّر الطِّينُ صورةً دَبَّ فيه داءُ الحسد، فلمَّا نُفخَ فيه الرُّوحُ ماتَ الحاسدُ. فلمَّا بُسِطَ له بساطُ العِزِّ عُرِضَتْ عليه المخلوقاتُ، فاسْتُحْضِرَ مُدَّعي ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ [البَقَرَة: ٣٠] إلى حاكم ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ [البَقَرَة: ٣١]، وقد أخفى الوكيلُ عنه بيِّنَةَ ﴿وَعَلَّمَ﴾، فنكسوا رؤوسَ الدَّعاوى على صدورِ الإقرار، فقام منادي التَّفضيل في أنديةِ الملائكة ينادي: ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾، فتطهَّروا مِن حَدَث دعوى ﴿وَنَحْنُ﴾ بماءِ العذر في آنيةِ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، فسجدُوا على طهارةِ التَّسليم. وقامَ إبليسُ ناحيةً لم يَسْجُدْ؛ لأنَّه خَبَثٌ، وقد تلوَّثَ بنجاسةِ الاعتراض، وما كانتْ نجاستُهُ تُتلافى بالتَّطهير؛ لأنَّها عينيَّةٌ.

فلمَّا تمَّ كمالُ آدم قيل: لا بُدَّ من خالِ جمالٍ على وجهِ ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾، فجرى القدرُ بالذَّنبِ؛ ليتبيَّنَ أثرُ العبوديَّةِ في الذُّلِّ.

يا آدمُ! لو عُفِيَ لك عن تلك اللُّقْمَةِ لقال الحاسدونَ: كيفَ فُضِّلَ ذو شَرَهٍ لم يَصبِرْ على شجرة؟!

لولا نُزولُك ما تصاعدتْ صُعداءُ الأنفاس، ولا نَزلتْ رَسائلُ «**هَلْ مِنْ سَائِلٍ**»[2]، ولا فاحتْ روائحُ «**ولخلوفُ فمِ الصَّائِمِ**»[3]؛ فتبيَّنَ حينئذٍ أنَّ ذلك التَّناول لم يكنْ عن شرَهٍ.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (وكان).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٧٠-٧٥٨) من حديث أبي هريرة، وبرقم (١٧٢-٧٥٨) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري برقم (١٨٩٤، ١٩٠٤) ومسلم برقم (١٦٣-١١٥١) من حديث أبي هريرة.

يا آدمُ! ضَحِكُك في الجنَّةِ لك، وبكاؤُك في دارِ التكليف لنا.

مـا ضُرَّ مَن كَسـرَهُ عزِّي إذا جَـبَرَهُ فَضْلي. إنَّما تليقُ خِلْعَةُ العِزِّ ببدنِ الانكسـارِ. أنا عند المنكسرةِ قلوبُهم من أجلي(١).

مازالـتْ تلـك الأكْلةُ تُعادُّه حتى استولى داؤه على أولادِهِ: فأرسـلَ إليهم اللَّطيفُ الخبـيرُ الـدَّواءَ على أيدِي أطبَّـاءِ الوجـودِ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، فَحماهُم الطَّبيب بالمناهِي، وحَفِظَ القوَّةَ بالأوامرِ، واستفرغَ أخلاطَهم الرَّديئة بالتَّوبةِ، فجاءتْ العافية من كلِّ ناحية.

فيـا مَـن ضَيَّع القوَّةَ ولم يحفظهـا، وخَلَّط في مَرضهِ وما احتمـى ولا صبرَ على مرارةِ الاستفراغ! لا تُنْكرْ قُربَ الهلاك؛ فالدَّاء مترامٍ إلى الفساد! لو ساعدَ القدرُ فأعَنْتَ الطَّبيبَ على نفسك بالحِمْيةِ من شهوةٍ خسيسةٍ؛ ظَفِرْتَ بأنواع اللَّذَّات وأصنافِ المشتهيات، ولكنْ بُخار الشَّهوة غطَّى عينَ البصيرة، فظننْتَ أنَّ الحزم بيعُ الوعدِ بالنَّقدِ.

ياها بَصيرةً عَمياء! جَزِعَتْ مِن صَبرِ ساعةٍ، واحْتملَتْ ذُلَّ الأبد! سافرتْ في طلبِ الدُّنيا وهي عنها زائلةٌ، وقعدتْ عن السَّفرِ إلى الآخرةِ وهي إليها راحلةٌ.

إذا رَأيـتَ الرَّجُلَ يَشـتري الخَسـيسَ بالنَّفيسِ، ويَبيـعُ العَظيمَ بالحَقـيرِ؛ فاعْلَمُ بأنَّهُ سَفيهٌ.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرج أحمد في «الزُّهد» (٦٤ شـاهين)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٧٧ السـعادة) عن عمران القصير قَـالَ: «قَالَ مُوسَـى بن عمـران: أي رَبِّ، أَيْنَ أَبْغِيـكَ؟ قَالَ: ابْغِنِي عِنْـدَ الْـمُنْكَـسِرَةِ قُلُوبُهُمْ..»، قال العَجلوني في «كشف الخفا» (١/ ١٣٠ العصريَّة، ت/ هنداوي): «ولا أصل له في المرفوع».

فصل

❁ لـمَّا سَلِمَ لآدمَ أصلُ العبوديَّةِ لم يقدحْ فيه الذَّنْبُ.

❁ «**ابنَ آدمَ! لو لَقيتَني بِقُرابِ الأرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شَيئًا لَقِيتُكَ بِقُرابِها مَغفِرَةً**»(١).

❁ لـمَّا عَلِمَ السَّيِّد أنَّ ذنبَ عبدِه لم يكنْ قصْدًا لمخالفتِه ولا قدحًا في حكمتِه؛ علَّمَهُ كيفَ يعتذِرُ إليهِ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البَقَرَة: ٣٧].

❁ العبدُ لا يريدُ بمعصيتِه مخالفةَ سيِّدِه ولا الجرأةَ على محارمِه، ولكنْ غلباتُ الطَّبْعِ وتزيينُ النَّفسِ والشَّيطانِ وقَهْرِ الهوى والثِّقةُ بالعفوِ ورجاءُ المغفرةِ، هذا من جانب العبد.

وأمَّا من جانبِ الرُّبوبيَّةِ فجريانُ الحكمِ وإظهارُ عِزِّ الرُّبوبيَّةِ وذُلِّ العبوديَّةِ وكمالُ الاحتياجِ، وظهورُ آثارِ الأسماءِ الحسنى؛ كالعفوِّ والغفورِ والتَّوَّابِ والحليمِ لمنْ جاءَ تائبًا نادمًا، والمنتقِمِ والعدْلِ وذي البَطْشِ الشَّديدِ لمنْ أصرَّ ولزمَ المجرَّةِ(٢)؛ فهو سُبْحَانَهُ يريدُ أن

---

(١) هذه قطعة من حديث أنس بن مالك الذي أخرجه التِّرمذيُّ برقم (٣٥٤٠) ولفظه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا ابنَ آدمَ إنَّكَ مَا دعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابنَ آدمَ لو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدمَ إنَّكَ لو أَتَيتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيئًا لأَتَيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»، قال الترمذي: «حَسَنٌ غَرِيبٌ» اهـ.

وفي سنده كثير بن فائد لم يوثِّقه غير ابن حبَّان (٩/ ٢٥)، وقال فيه الحافظ في «التقريب» (ص٤٦٠): «مقبول».

وله شاهد من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه الإمام أحمد برقم (٢١٤٧٢)، وفي سنده شهر بن حوشب وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام كما في «التقريب» (ص: ١٦٩)، فالحديث حسنٌ كما قال الترمذي. لا سيما أن لحديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أصلًا عند مسلم في «الصحيح» برقم (٢٢-٢٦٨٧)، ولفظه: «**وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً**».

(٢) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (المعرة) وهو خطأ، وذلك أنَّ المصنِّف يريد أنَّ العبدَ إذا أصرَّ =

يُريَ عبدَه تفرُّدَهُ بالكمالِ ونَقْصِ العبدِ وحاجتهِ إليهِ، ويُشْهِدَهُ كمالَ قدرتِهِ وعزَّتِهِ، وكمالَ مغفرتِهِ وعفوهِ ورحمتِهِ، وكمالَ برِّهِ وسَترِهِ وحِلمِهِ وتجاوزِهِ وصَفْحِهِ، وأنَّ رحمتَه به إحسانٌ إليه لا معارضة، وأنَّه إنْ لم يتَغَمَّدْهُ برحمتِهِ وفضلِهِ؛ فهو هالكٌ لا محالةَ.

فللّه! كَمْ في تقديرِ الذَّنْبِ من حكمةٍ! وكم فيه مع تحقيقِ التَّوبةِ للعبدِ من مصلحةٍ ورحمةٍ! التَّوبةُ من الذَّنْبِ كشُرْبِ الدَّواءِ للعليلِ، ورُبَّ علَّةٍ كانتْ سببَ الصِّحَّةِ.

لعلَّ عَتْبكَ مَحْمودٌ عَواقِبُهُ فَرُبَّما صَحَّتِ الأَجْسامُ بِالْعِلَلِ[1]

❁ لو لا تقديرُ الذَّنبِ هلكَ ابنُ آدمَ من العُجْبِ.

❁ ذَنْبٌ يَذِلُّ به أحبُّ إليهِ من طاعةٍ يُدِلُّ بها عليه.

❁ شمعةُ النَّصرِ إنَّما تنزِلُ في شمعدانِ الانكسارِ.

❁ لا يُكْرِمُ العبدُ نفسَه بمثلِ إهانتِها، ولا يُعِزُّها بمثلِ ذُلِّها، ولا يُريحُها بمثلِ تَعَبِهَا كما قيل:

سأُتعِبُ نفسي أو أُصادِفَ راحَةً فإنَّ هوانَ النَّفْسِ في كَرَمِ النَّفْسِ[2]

ولا يُشْبِعُها بمثلِ جُوعِها، ولا يُؤمِنُها بمثلِ خَوفِهَا، ولا يُؤنِسُهَا بمثلِ وحشَتِها من كلِّ ما سوى فاطِرِها وبارِئِها، ولا يُحْيِيها بمثلِ إماتَتِها؛ كما قيل:

موتُ النُّفوسِ حياتُها من شاءَ أن يحيا يموتُ[3]

= ولزم العادة على الذَّنب، فالمجرة: هي العادة المسلوكة.

(١) هذا البيت من شعر المتنبي وصار مثلًا، ينظر: «الأمثال السَّائرة من شعر المتنبي» لأبي القاسم الطَّالقاني (ص: ٤٦).

(٢) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص٣٤٢ قباني) بلا نسبة، وفي آخره: «أكرم للنفس» بدل «في كرم النفس». وذكره المصنف في «بدائع الفوائد» (٣/ ٧٣١) من غير نسبة.

(٣) ذكره المحبِّي في «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (٣/ ٣٥٥)، بلفظ:

❁ شَرابُ الهوى حلوٌ ولكنَّه يُورِثُ الشَّرَق.

❁ مَن تذكَّرَ خَنْقَ الفَخِّ هانَ عليه هِجرانُ الحبَّةِ.

❁ يا مُعرْقَلًا في شَرَكِ الهوى جَمزةُ عزمٍ وقد خرقتَ الشبكةَ.

❁ لا بدَّ من نفوذِ القَدَرِ؛ فاجْنَحْ للسَّلْمِ.

❁ لله ملكُ السَّمواتِ والأرضِ؛ واستقرضَ منكَ حبَّةً فبَخِلْتَ بها! وخلقَ سبعةَ أبحُرٍ، وأحبَّ منكَ دمعةً، فقَحطَتْ عينُك بها!

❁ إطلاقُ البصرِ ينقُشُ في القلبِ صورةَ المنظور، والقلبُ كعبةٌ، والمعبودُ لا يرضى بمزاحمةِ الأصنامِ.

❁ لَذَّاتُ الدُّنيا كسوداءَ وقد غلبتْ عليك، والحورُ العينُ يَعْجَبْنَ من سوءِ اختياركَ عليهنَّ؛ غير أنَّ زوبعةَ الهوى إذا ثارتْ سفتْ في عينِ البصيرة، فخفيتِ الجادَّةُ.

❁ سبحان الله! تزيَّنَتِ الجنَّةُ للخُطَّابِ فجَدُّوا في تحصيلِ المهر، وتعرَّفَ ربُّ العزَّةِ إلى المحبِّينَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ فعَمِلُوا على اللِّقاءِ، وأنتَ مشغولٌ بالجِيَفِ:

لا كانَ مَنْ لسواكَ منه قلبُهُ ... ولكَ اللِّسانُ مع الودادِ الكَاذِبِ[1]

❁ المعرفةُ بِساطٌ لا يطأُ عليه إلَّا مُقرَّبٌ، والمحبَّةُ نشيدٌ لا يطربُ عليه إلَّا مُحِبٌّ مُغْرَمٌ.

❁ الحبُّ غديرٌ في صحراءَ، ليستْ عليه جادَّةٌ؛ فلهذا قَلَّ وارِدُهُ.

❁ المحبُّ يَهْرُبُ إلى العُزلةِ والخلوةِ بمحبوبِهِ والأُنسِ بذكرِهِ كهَرَبِ الحوتِ إلى الماءِ والطِّفلِ إلى أمِّهِ:

= **موتُ النفوس حياتُها ... من رامَ ان يحيا يموت**

(١) لم أجد من ذكره غير المصنف.

وأخـرجُ مِـن بـيـنِ الـبُـيُـوتِ لعلَّني أحدِّثُ عنك القلبَ بالسِّرِّ خاليا[1]

❁ ليسَ للعابِدِ مستراحٌ إلَّا تحتَ شجرةِ طُوبى، ولا للمحبِّ قرارٌ إلَّا يومَ المزيد.

❁ اشتَغِلْ به في الحياةِ؛ يَكْفِكَ ما بعدَ الموتِ.

❁ يـا مُنْفِقًا بضاعةَ العُمُر في مخالفةِ حبيبِـهِ والبعدِ منه، ليسَ في أعدائِكَ أَضَرُّ عليكَ منكَ.

مـا يـبـلُـغُ الأعـــداءُ مـن جـاهِـلٍ مـا يـبـلُـغُ الجـاهِـلُ مـن نفسِهِ[2]

❁ الهِمَّـةُ العليَّـةُ[3] مـن اسـتعدَّ صاحبُهـا للقـاءِ الحبيـبِ، وقـدَّمَ التَّقـادمَ بين يدي الـمُلتقى، فاستبشـر عندَ القدومِ: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣].

❁ تاللهِ ما عَدَا عليكَ العدوُّ إلَّا بعدَ أن تولَّى عنكَ الوليُّ؛ فلا تظنَّ أنَّ الشَّيطانَ غلب، ولكنَّ الحافِظَ أعرض.

❁ احـذرْ بنفسِـكَ فـما أصابكَ بلاءٌ قَـطُّ إلَّا منهـا، ولا تُهادِنْها فواللهِ مـا أكرمَها مَنْ لم يُهِنْهَـا، ولا أعزَّهَـا مـنْ لم يُذِلَّهَـا، ولا جَبَرَها من لم يَكْسِرْهَـا، ولا أراحَهَا مـن لم يُتْعِبْها، ولا أمَّنها من لم يُخَوِّفها، ولا فرَّحها من لم يُحزِنْها.

---

(١) البيت نسبَه القالي في «أماليه» لمجنون ليلى (١/ ٢١٦ الكتب المصرية).

(٢) هـذا البيـت لصالـح بن عبد القدوس الأزدي البصري الشَّـاعر المتكلِّم المتفلسـف، نسبه له الثعالبي في «التمثيـل والمحـاضرة» (ص: ٧٧ الحلو)، والنويري في «نهايـة الأرب» (٣/ ٨٢ الوثائق القومية)، وهـو ليـس بثقة، ترجم لـه الذهبي في «تاريـخ الإسـلام» (٤/ ٤١١)، وابن حجر في «لسـان الميزان» (٤/ ٢٩١)، وهو الذي قتله المهدي للزَّندقة.

(٣) هكـذا في الأصـل، وزاد محقق طبعة (المجمـع): (همة)، بحيث أصبحت الجملة: الهمـة العليَّة هِمَّةُ من استعد ...

❁ سبحانَ اللهِ! ظاهِرُكَ متجمِّلٌ بلباسِ التَّقوى، وباطِنُكَ باطيةٌ لخمرِ الهوى، فكلَّما طيَّبتَ الثَّوبَ فاحتْ رائحةُ المسكِرِ من تحتِه، فتباعدَ منك الصَّادقون، وانحازَ إليكَ الفاسقون.

❁ يدخُل عليكَ لِصُّ الهوى وأنتَ في زاويةِ التَّعبُّد، فلا يَرى منكَ طردًا له، فلا يزالُ بكَ حتَّى يُخرِجكَ من المسجد.

❁ اصدقْ في الطَّلبِ؛ وقد جاءتْكَ المعونةُ.

❁ قالَ رجلٌ لمعروفٍ(١): عَلِّمني المحبةَ، فقال: المحبَّةُ لا تجيءُ بالتَّعليم(٢).

هو الشَّوقُ مدلولًا على مقتلِ الفَنا ... إذا لم يَعِدْ صَبًّا بِلُقيا حَبيبهِ(٣)

❁ ليسَ العجب من قوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، إنَّما العجبُ من قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾(٤).

❁ ليسَ العجبُ من فقيرٍ مسكين يُحِبُّ محسنًا إليه، إنَّما العجبُ من محسنٍ يحبُّ فقيرًا مسكينًا.

❁❁❁

---

(١) هو: أبو محفوظ معروف الكرخي البغدادي، ذكره ابن حبَّان في «الثقات»، وقال: «ليس له حديث يرجع إليه»، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «قلت لأبي: هل كان مع معروف الكرخي شيء من العلم؟ فقال لي: يا بني كان معه رأس العلم، خشية الله تَعَالَىٰ»، توفي سنة (٢٠٠). انظر: كتاب «الثقات» (٩/ ٢٠٦)، و«تاريخ بغداد» (١٥/ ٢٦٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٣٥٣).

(٢) جاء في «طبقات الصوفية» للسلمي (ص: ٨٥ عطا): «سُئِلَ مَعْرُوف عَن الْمحبَّة، فَقَالَ: الْمحبَّة لَيست من تَعْلِيم الْخلق، إِنَّمَا هِيَ من مواهب الْحق وفضله».

(٣) البيت للشريف الرَّضي كما في «دووايين الشعر العربي على مرِّ العصور»، قصيدة برقم (٩٨٤٤).

(٤) يشير إلى قوله تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فَصْلٌ

القرآنُ كلامُ الله، وقدْ تجلَّى الله فيه لعبادِه بصفاتِه:

فتارةً يتجلَّى في جلبابِ الهيبة والعظمة والجلال، فتَخْضَعُ الأعناقُ، وتَنكسرُ النُّفوسُ، وتَخْشَعُ الأصواتُ، ويذوبُ الكبرُ كما يذوب الملحُ في الماء.

وتارةً يتجلَّى في صفاتِ الجمال والكمال، وهو كمالُ الأسماء وجمالُ الصِّفات وجمالُ الأفعال الدَّالُّ على كمال الذَّات. فيَستنفِدُ حُبُّه من قلب العبد قُوَّة الحبِّ كلها بحسب ما عرفه من صفاتِ جماله ونعوتِ كماله، فيُصبح فؤادُ عبدِه فارغًا إلَّا من محبَّتِهِ، فإذا أراد منه الغيرُ أن يعلق تلك المحبَّة به؛ أبى قلبُهُ وأحشاؤُهُ ذلك كلَّ الإباء، كما قيل:

يُرادُ مِنَ القلبِ نسيانُكم ... وتأبى الطِّباعُ على النَّاقِلِ[1]

فتبقى المحبَّةُ له طبعاً لا تكلُّفًا.

وإذا تجلَّى بصفات الرَّحمة والبرِّ واللُّطفِ والإحسانِ انبعثتْ قوَّةُ الرَّجاء من العبدِ، وانبسطَ أملُهُ، وقوِيَ طمَعُهُ، وسارَ إلى ربِّهِ وحادي الرَّجاء يحدو ركابَ سيره، وكلَّما قوي الرَّجاءُ جَدَّ في العملِ؛ كما أنَّ الباذر كلَّما قويَ طمعُهُ في المغلِّ غلَّقَ أرضَهُ بالبذْرِ، وإذا ضَعُفَ رجاؤُهُ قصَّر في البذرِ.

وإذا تجلَّى بصفاتِ العدلِ والانتقام والغضبِ والسَّخطِ والعقوبةِ انقمعتِ النَّفسُ الأمَّارةُ، وبَطَلَتْ أو ضَعُفتْ قُواها مِنَ الشَّهوةِ والغضبِ واللَّهوِ واللَّعبِ والحرصِ على المُحَرَّماتِ، وانقبضَتْ أعِنَّةُ رُعوناتِها، فأحضرت المطية حظَّها من الخوفِ والخشيةِ والحذرِ.

---

(١) هذا البيت من قول المتنبِّي، ينظر: «الأمثال السائرة» للصّاحب بن عباد (ص: ٣٨ أل ياسين)، و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» لأبي الحسن الجرجاني(ص: ١٤١ البجاوي)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (٧/ ٣).

وإذا تجلَّى بصفاتِ الأمرِ والنَّهي والعهدِ والوصيَّةِ وإرسالِ الرُّسل وإنزال الكتب وشَرْعِ الشرائع؛ انبعثتْ منها قُوَّةُ الامتثال والتَّنفيذِ لأوامره، والتبليغِ لها، والتَّواصي بها، وذكرِها وتذكُّرِها، والتَّصديقِ بالخبرِ، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

وإذا تجلَّى بصفةِ[١] السَّمعِ والبصرِ والعلمِ انبعثَ مِنَ العبدِ قُوَّةُ الحياءِ؛ فيستحيي من ربّه أنْ يراهُ على ما يكره، أو يسمعُ منه ما يكره، أو يُخفي في سريرتهِ ما يمقتُهُ عليه، فتبقى حركاتُهُ وأقوالُهُ وخواطرُهُ موزونةً بميزانِ الشَّرع، غيرَ مُهملةٍ ولا مُرسَلةٍ تحت حُكم الطَّبيعة والهوى.

وإذا تجلَّى بصفاتِ الكفايةِ، والحسبِ، والقيامِ بمصالحِ العباد، وسَوْقِ أرزاقهم إليهم، ودفع المصائبِ عنهم، ونصرِهِ لأوليائِهِ وحمايتِهِ لهم ومعيَّتِهِ الخاصَّة لهم؛ انبعثتْ من العبد قوَّةُ التَّوكُّل عليه، والتّفويض إليه، والرِّضى به وما في كلِّ ما يُجريه على عبدِهِ ويُقيمه فيهِ مما يَرضى بهِ هوَ سُبْحَانَهُ. والتَّوكُّل معنى يلتئمُ مِنْ عِلمِ العبد بكفايةِ الله وحُسنِ اختياره لعبدِهِ، وثقتِهِ به، ورضاهُ بما يفعلهُ به ويختارُهُ لهُ.

وإذا تجلَّى بصفاتِ العزِّ والكبرياءِ أعطتْ نفسُه المطمئنَّةُ ما وصلتْ إليه مِنَ الذُّلِّ لعظمتِهِ، والانكسار لعزَّته، والخضوع لكبريائِهِ، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السَّكينةُ والوقارُ في قلبِهِ ولسانِهِ وجوارحِهِ وسمتِهِ، ويَذهبُ طيشُه وتَوْقُهُ وحدَّتُهُ.

وجماعُ ذلك أنَّه سُبْحَانَهُ يتعرَّفُ إلى العبدِ بصفاتِ إلهيَّته تارةً وبصفاتِ ربوبيَّتِهِ تارةً:

فيُوجب لهُ شهودُ صفاتِ الإلهيَّة: المحبَّةَ الخاصَّة، والشَّوقَ إلى لقائِهِ، والأُنسَ والفرحَ بِهِ، والسُّرورَ بخدمتِهِ، والمنافسةَ في قربِهِ، والتَّودُّدَ إليهِ بطاعتِهِ، واللَّهَجَ بذكرِهِ، والفِرارَ مِنَ الخلقِ إليه، ويصيرُ هو وحدَه همَّهُ دون ما سواه.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (بصفات).

ويُوجِبُ لهُ شهودُ صفاتِ الرُّبوبيَّة: التَّوكُّلَ عليهِ، والافتقارَ إليهِ، والاستعانةَ بهِ، والذُّلَّ والخضوع والانكسار له.

وكمالُ ذلك أن يشهد ربوبيَّتَهُ في إلهيَّتِهِ، وإلهيَّتَهُ في ربوبيَّتِهِ، وحمده في ملكِهِ، وعزَّه في عفوِهِ، وحكمته في قضائِهِ وقدرِه، ونعمته في بلائِهِ، وعطاءه في منعِهِ، وبرَّهُ ولطفه وإحسانه ورحمته في قيُّوميَّتِهِ، وعدلهُ في انتقامِهِ، وجودَهُ وكرمَهُ في مغفرتِهِ وسترِهِ وتجاوزِهِ، ويشهد حكمتَهُ ونعمتَهُ في أمرِهِ ونهيِهِ، وعزَّهُ في رضاهُ وغضبهُ، وحلمهُ في إمهالِهِ، وكرمَهُ في إقبالِهِ، وغناهُ في إعراضِهِ.

وأنت إذا تدبَّرتَ القرآن وأجَرتَهُ من التَّحريفِ وأن تقضي عليهِ بآراءِ المتكلِّمين وأفكار المتكلِّفين؛ أشهدَك مَلِكًا قيُّومًا فوق سماواته، على عرشِهِ، يُدبِّرُ أمرَ عباده، يأمرُ وينهى، ويُرسِلُ الرُّسل وينزلُ الكتب، ويرضى ويغضبُ، ويُثيبُ ويُعاقبُ، ويُعطي ويَمنعُ، ويُعزُّ ويُذِلُّ، ويَخفِضُ ويَرفع، يرى مِن فوقِ سبعٍ ويسمع، ويعلم السِّرَّ والعلانية، فَعَّالٌ لما يريدُ، موصوفٌ بكلِّ كمال، منزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ، لا تتحرَّكُ ذرَّةٌ فما فوقها إلَّا بإذنِهِ، ولا تسقطُ ورقةٌ إلَّا بعلمِهِ، ولا يَشفعُ أحدٌ عنده إلَّا بإذنِهِ، ليس لعبادِهِ مِنْ دونه وليٌّ ولا شفيعٌ.

❁❁❁

فَصْلٌ

لما بايعَ الرَّسولُ ﷺ أهلَ العقبةِ أمرِ أصحابَه بالهجرةِ إلى المدينةِ، فعلمتْ قريشٌ أنَّ أصحابَهُ قد كَثُروا وأنَّهم سيمنعونه، فأعملتْ آراءها في استخراجِ الحيل؛ فمنهم مَن رَأى الحبس، ومنهم مَن رَأى النَّفيَ، ثُمَّ اجتمعَ رَأيُهم على القتلِ.

فجاءَ البريدُ بالخبرِ مِن السَّماءِ، وأمرهُ أن يُفارِقَ المضجعَ، فباتَ عَلِيٌّ مكانَهُ[1]، ونَهَضَ الصِّدِّيقُ لرفقةِ السَّفَرِ.

فلمَّا فارقا بيوتَ مكَّةَ اشتدَّ الحَذَرُ بالصِّدِّيقِ، فجعلَ يَذكُرُ الرَّصدَ فيسيرُ أمامه، وتارةً يذكُرُ الطَّلَب فيتأخَّرُ وراءَه، وتارةً عن يمينِهِ، وتارةً عن شمالِهِ، إلى أنْ انتهيا إلى الغار.

فبدأَ الصِّدِّيقُ بدخولِهِ ليكونَ وقايةً له إنْ كان ثَمَّ مُؤذٍ، وأنْبَتَ الله شجرةً لم تكن قبلُ، فأظلَّت المطلوب وأضلَّت الطَّالب، وجاءتْ عنكبوتٌ فحاذت وجهَ الغار فحاكتْ ثوبَ نَسْجِها على منوال السِّتْرِ، فأُحْكِمَت الشُّقَّةُ حتَّى عُمِّيَ على القائفِ الطلبُ، وأرسلَ حمامتين[2] فاتَّخذَتا هناك عُشًّا جَعلَ على أبصارِ الطالبين غِشاوةً[3]، وهذا أبلغُ في الإعجازِ مِن مُقاومةِ القوم بالجنودِ.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٣٢٥١)، وعبد الرزاق في «المصنف» برقم (٩٧٤٣)، والطبراني في «الكبير» برقم (١٢١٥٥)، والحاكم في «المستدرك» برقم (٤٦٥٢)، عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (١/ ٢٦١-٢٦٢) تحت حديث رقم (١١٢٩).

(٢) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (وأرسل الله حمامتين).

(٣) يشير إلى ما أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٢٩)، والطبراني في «الكبير» برقم: (١٧٤٥٥) من طريق عون بن عمرو القيسي أخو رباح القيسي عن أبي مصعب المكي قال: أدركت أنس بن مالك، وزيد بن أرقم، والمغيرة بن شعبة، فسمعتهم يحدثون، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أمر الله شجرة ليلة الغار، فنبتت في وجه النبي ﷺ، وأمر الله العنكبوت، فنسجت في وجه النبي ﷺ، وأمر حمامتين وحشيتين، فوقفتا بفم الغار، وأقبل فتيان قريش من كلِّ بطنٍ رجلٌ بعصيهم وهراويهم وسيوفهم، حتى إذا كانوا من النبي ﷺ قدر أربعين ذراعًا تعجَّل بعضهم =

فلـمَّا وقـفَ القـومُ عـلى رؤوسـهِم وصـارَ كلامُهـم بسَـمْعِ الرَّسـول والصِّدِّيـق؛ قـالَ الصِّدِّيـقُ وقد اشتدَّ بِهِ القلقُ: يا رسـولَ الله! لَـوَ أنَّ أحدَهم نظرَ إلى مـا تحتَ قدميهِ لأبْصَرنَـا تحـتَ قدمَيْـهِ. فقالَ رسـولُ الله ﷺ: «**يَا أَبَـا بَكْرٍ! مَا ظَنُّـكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»(١).

لـمَّا رَأى الرَّسولُ حزنَهُ قد اشتدَّ -لكن لا على نفسِهِ-، قوَّى قلبَه ببشارةِ ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فظهرَ سِرُّ هذا الاقترانِ في المعيَّة لفظًا كما ظهرَ حكمًا ومعنى؛ إذ يُقالُ: رسـول الله وصاحبُ رسـول الله، فلمَّا مات قيل: خليفةُ رسولِ الله، ثمَّ انقطعتْ إضافةُ الخلافةِ بموته، فقيل: أميرُ المؤمنين.

فأقاما في الغارِ ثلاثًا، ثُمَّ خرجا منه ولسـانُ القدرِ يقولُ: لَتدخُلنَّها دُخولًا لم يَدْخُله أحدٌ قبلك ولا ينبغي لأحدٍ من بعدك.

= ينظـر في الغـار، فرأى حمامتين بفم الغار، فرجع إلى أصحابه، فقالوا له: ما لك لم تنظر في الغار؟ فقال: رأيـت حمامتـين بفم الغار فعرفتُ أن ليس فيه أحد، فسـمع النبيُّ ﷺ ما قال، فعرف أنَّ الله قد درأ عنه بهما، فدعا لهنَّ وسمت عليهنَّ، وفرض جزاءهن وأقررن في الحرم».

وسند الحديث ضعيف؛ له علَّتان:

الأولى: عون بن عمرو القيسي وهو نفسه: عوين بن عمرو القيسي وأخوه رباح بن عمرو القيسي، فقد ضعَّفـه ابن معين والبخاري والعقيلي وابن حجر كما في «لسـان الميـزان» (٤/ ٣٨٨)، وقال أبو حاتم: شيخ.

الثانيـة: أبـو مصعب المكِّـي: قال العقيلي: رجل مجهـول كما في «الضعفاء الكبـير» (٣/ ٤٢٢)، وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٣/ ٣٠٧): لا يعرف.

وبهاتـين العلَّتـين يضعـف الحديـث، ولا يثبت من وجـه صحيح، ولذلك قـال ابن كثـير في «البداية والنهاية» (٣/ ٢٢٣): «وهذا حديث غريب جدًّا من هذا الوجه»، وانظر «السلسلة الضعيفة» حديث رقم (١١٢٨).

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٥٣)، ومسلم برقم (١-٢٣٨١) واللفظ له، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

فلـمَّا استقلَّا على البيداءِ لَحِقَهما سُراقةُ بن مالك، فلما شارفَ الظفَر أرسل عليه الرَّسولُ سهمًا من سِهام الدُّعاء، فساخَتْ قوائمُ فرسِه في الأرض إلى بطنها، فلمَّا عَلِمَ أنَّه لا سبيلَ لهُ عليهما أخذَ يَعرِضُ المالَ على مَنْ قد ردَّ مفاتيحَ الكنوز، ويُقدِّمَ الزَّادَ إلى شبعان، أبيتُ عند ربِّي يُطعِمُني ويَسقيني[1].

كانت تحفةُ ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [التوبة: ٤٠] مُدَّخرةً للصِّدِّيقِ دونَ الجميع؛ فهو الثاني في الإسلامِ وفي بذلِ النَّفسِ وفي الزُّهدِ وفي الصُّحبةِ وفي الخِلافةِ وفي العُمرِ وفي سببِ الموتِ؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ ماتَ عن أثر السُّمِّ[2]، وأبو بكر سُمَّ فماتَ[3].

أسلمَ على يديهِ مِنَ العشرة: عثمانُ وطلحةُ والزُّبيرُ وعبدُ الرَّحمن بن عوف وسعدُ ابن أبي وقَّاص.

وكان عندهُ يوم أسلم أربعون ألف درهم، فأنفقَها أحوجَ ما كان الإسلامُ إليها؛ فلهذا جَلبتْ نفقتُهُ عليه: «ما نفعني مالٌ ما نفعني مالُ أبي بكر»[4].

---

(١) روى البخاري في «صحيحه» رقم (٣٩٠٨)، ومسلم رقم (٩١- ٢٠٠٩)، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لـمَّا أَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ تَبِعَهُ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، فَدَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَسَاخَتْ بِهِ فَرَسُهُ». قَالَ: ادْعُ اللهَ لِي وَلاَ أَضُرُّكَ، «فَدَعَا لَهُ». وأخرجه مطوَّلًا البخاري برقم (٣٩٠٦).

(٢) أخرج البخاري تعليقًا برقم (٤٤٢٨)، عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: **«يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ»**.

(٣) روى الحاكم في «المستدرك» رقم (٤٣٩٥) من طريق دَاوُدَ بْنِ يَزِيدَ الْأَوْدِيِّ، وفي رقم (٤٤١٢) من طريق السَّري بن إسماعيل، كلاهما عن الشعبي قال: «وَاللهِ لَقَدْ سُمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَسُمَّ أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ»، قال الذهبيُّ في «التلخيص»: «والسريُّ متروك».
وأخرجه ابنُ سعد في «الطبقات» (٢/ ١٥٤ العلمية)، من طريق أَبِي مُعَاوِيَةَ الضَّرير قال: أَخْبَرَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الْيَهُودَ سَمَّتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَسَمَّتْ أَبَا بَكْرٍ».

(٤) أخرجه أحمد (٧٤٤٦)، وابن ماجه برقم (٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: **«مَا نَفَعَنِي**
=

فهو خيرٌ من مؤمن آل فِرْعون؛ لأنَّ ذلك كان يكتُمُ إيمانَه والصِّدِّيقُ أعلنَ به، وخيرٌ من مؤمن آل ياسينَ؛ لأنَّ ذلك جاهدَ ساعةً والصِّدِّيقُ جاهدَ سنين.

عايـنَ طائـرَ الفاقـةِ يحُـومُ حولَ حـبِّ الإيثـار ويَصيـح ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، [الحديد: ١١]، فألقى له حبَّ المال على روض الرِّضى، واستلقى على فراشِ الفقر، فنقلَ الطَّائرُ الحبَّ إلى حَوصلةِ المضاعفة، ثُمَّ علا على أفنانِ شجرة الصِّدق يُغـرِّدُ بفنـونِ المدح، ثُـمَّ قامَ في محاريبِ الإسـلام يتلـو: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧ - ١٨].

نَطقـتْ بفضلِـهِ الآيـاتُ والأخبـارُ، واجتمـعَ عـلى بَيعتِـهِ المهاجـرون والأنصار، فيـا مُبْغِضيـه! في قلوبكـم مِـن ذكرِه نـار، كلَّما تُليـتْ فضائلُه عَـلا عليهم الصَّغـار أتُرى لم يَسمع الروافضُ الكفَّار: ﴿ثَانِىَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِى ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]؟!

دُعِـيَ إلى الإسـلامِ فما تلعثَمْ ولا أبى، وسـارَ على المحجَّةِ فـما زلَّ ولا كَبا، وصَبرَ في مُدَّتِهِ من مُدى العِدَا على وقعِ الشَّـبا، وأكثرَ في الإنفاقِ فما قلَّلَ حتى تخلَّلَ بالعبا، تالله لقد زادَ على السَّبْكِ في كلِّ دينار دينارُ ﴿ثَانِىَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِى ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

مَـنْ كانَ قريـنَ النَّبي في شـبابِهِ؟! مَنْ ذا الَّذي سـبقَ إلى الإيمانِ مـن أصحابِهِ؟! مَنْ الَّـذي أفتـى بحضرته سريعًا في جوابِهِ؟! مَنْ أوَّلُ مَنْ صـلَّى معهُ؟! مَنْ آخرُ مَنْ صلَّى بِهِ؟! مَنْ الَّذي ضاجعه بعد الموت في ترابِهِ؟! فاعرِفُوا حقَّ الجار.

نهـضَ يـوم الرِّدَّةِ بفهم واستيقاظ، وأبـانَ من نـصِّ الكتاب معنًـى دَقَّ عن حديدِ الألحـاظ، فالمحبُّ يفـرحُ بفضائلِـهِ والمبغضُ يغتاظ، حـسرةُ الرَّافضيِّ أن يفـرَّ مِن مجلس ذكره، ولكن أين الفرار؟!

= مـالٌ قـطُّ، مَا نَفَعَـنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ»، قال: فبكى أبو بكر، وقال: يا رسـول الله هـل أنا ومالي، إلَّا لك يا رسول الله». وهو حديث صحيح على شرط الشيخين. وانظر: «الصحيحة» للألباني برقم (٢٧١٨).

كم وَقى الرَّسولَ بالمالِ والنَّفسِ، وكان أخصَّ بِهِ في حياتِهِ وهو ضجيعُه في الرَّمسِ، فضائلُـهُ جليَّـةٌ وهي خليَّةٌ عـن اللَّبس، يا عجبًا! من يُغطِّي عينَ ضوءِ الشَّـمس في نصف النَّهار؟!

لقد دخلا غارًا لا يَسْـكنُهُ لابثٌ، فاسـتوحشَ الصِّدِّيق مِـنْ خَوفِ الحوادث، فقال الرَّسول: ما ظنُّك باثنينِ واللهُ الثَّالث! فنزلت السَّكينةُ فارتفعَ خوفُ الحادث، فزالَ القلقُ وطابَ عيشُ الماكث، فقامَ مؤذّنُ النَّصر يُنادي على رؤوس منائرِ الأمصار: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

حُبُّه والله رأسُ الحنيفيَّة، وبُغْضُهُ يدُلُّ على خُبْثِ الطَّويَّة، فهو خيرُ الصَّحابةِ والقرابةِ والحجَّـةُ عـلى ذلك قويَّة، لولا صِحَّةُ إمامتـه ما قيلَ أين الحنفية[1]. مهـلًا! مهلًا! فإنَّ دم الرَّوافض قد فار.

والله مـا أحببنـاهُ لهوانا، ولا نعتقدُ في غـيرِهِ هوانا، ولكنْ أخذْنا بقـولِ عليٍّ وكفانا: رضيـك رسـولُ الله لديننـا، أفلا نرضـاكَ لدنيانـا[2]؟! تالله لقـد أخذتَ مِـن الرَّوافض بالثَّأر.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (ما قبل ابن الحنفية).

(٢) أخرجـه الخلال في «السُّـنة» (١/ ٢٧٣الزهراني) برقـم (٣٣٣)، والآجري في «الشريعة» (٤/ ١٧٢١ الدميجي) برقم (١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤).

قال أبو عثمان الصَّابوني في «عقيدة أصحاب الحديث» (ص: ٣١): «ويثبت أصحاب الحديث خلافة أبي بكـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وفاة رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باختيار الصحابة واتفاقهـم عليه، وقولهم قاطبة: (رضيـه رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لديننـا، فرضينـاه لدنيانـا)، وقولهـم: قدَّمك رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمـن يؤخِّـرك! وأرادوا أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدَّمك في الصـلاة بنا أيام مرضه، فصلينـا وراءك بأمره، فمن ذا الذي يؤخِّرك بعد تقديمه إيَّاك؟ وكان رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتكلم في شـأن أبي بكر في حال حياته بما يبين للصحابة أنه أحق الناس بالخلافة بعده، فلذلك اتفقوا عليه واجتمعوا، فانتفعوا بمكانه والله، وارتفعوا حتى قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله الذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف لما عُبد الله.

=

تالله لقد وجبَ حقُّ الصِّدِّيق علينا، فنحن نقضي بمدائحِهِ ونَقَرُّ بما نُقِرُّ بِهِ من السُّنِّي عينًا؛ فمن كان رافضيًّا فلا يَعُدْ إلينا، وليقلْ: لي أعذار.

تنبيه:

❁ اجتنبْ منْ يُعادي أهلَ الكتابِ والسُّنَّةِ لِئلَا يُعديَك خُسرانُهُ.

❁ احترزْ من عَدُوَّينِ هلكَ بهما أكثرُ الخلقِ: صادٌّ عن سبيلِ الله بشبهاتِهِ وزخرفِ قولِهِ، ومفتُونٍ بدُنياه ورِئاستِهِ.

❁ مَنْ خُلِقَ فيه قوَّةٌ واستعدادٌ لشيءٍ كانتْ لذَّتُهُ في استعمالِ تلكَ القوَّةِ فيه، فلذَّةُ مَنْ خُلقتْ فيه قوَّةٌ واستعدادٌ للجماعِ استعمالُ قوَّتِه فيه، ولذَّةُ مَنْ خُلقتْ فيه قوَّةُ الغضبِ والتَّوثُّبِ استعمالُ قوَّتِه الغضبيَّةِ في مُتعلَّقِهَا، ومَنْ خُلقتْ فيه قوَّةُ الأكلِ والشُّربِ فلذَّته باستعمالِ قوَّتِه فيهما، ومَنْ خُلقتْ فيه قوَّةُ العلمِ والمعرفةِ فلذَّتُه باستعمالِ قوَّتِه وصرفِها إلى العلمِ، ومَنْ خُلقتْ فيه قوَّةُ الحُبِّ لله والإنابةِ إليه والعُكوفِ بالقلبِ عليه والشَّوقِ إليه والأُنْسِ به فلذَّتُه ونعيمُه استعمالُ هذه القوَّةِ في ذلكَ، وسائرُ اللَّذَّاتِ دونَ هذه اللَّذَّةِ مُضْمَحِلَّةٌ فانيةٌ، وأحمدُ عاقبتِها أن تكونَ لا له ولا عليه.

تنبيه:

❁ يا أيُّها الأعزَلُ! احذرْ فِراسةَ المتَّقي؛ فإنَّه يرى عورةَ عملكَ من وراءِ سترِ «**اتَّقوا فراسةَ المؤمن**»[1].

= ولـمَّا قيل له: مه يا أبا هريرة! قام بحجَّة صحَّةِ قوله، فصدَّقوه فيه، وأقرُّوا به».

(١) هذا القول ينسب حديثًا للنبيِّ ﷺ ولا يصحُّ: أخرجه الترمذي برقم (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري، وأخرجه الطبراني «الكبير» برقم (٧٣٦٩) من حديث أبي أمامة، وأخرجه أبو الشيخ في كتابه «الأمثال» (ص: ٤٨) من حديث أبي هريرة، والحديث ضعيف من جميع طرقه؛ ولذلك ذكره ابنُ الجوزي في «الموضوعات» من جميع الطرق وبيَّن ضعفه (٣/ ١٤٥-١٤٨). وصحَّحه طائفة بتعدُّد طرقه، وأخطأوا؛ قال الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خلاصة تحقيقه لطرق الحديث: «وجملة القول، =

❁ سبحانَ الله! في النَّفسِ كِبْرُ إبليسَ، وحسدُ قابيلَ، وعتوُّ عادٍ، وطُغيانُ ثمودَ، وجرأةُ نمرودَ، واستطالةُ فرعونَ، وبغيُ قارونَ، وقِحَةُ هامانَ، وهوَى بَلْعامَ، وحِيَلُ أصحابِ السَّبْتِ، وتمرُّدُ الوليدِ، وجهلُ أبي جهلٍ.

وفيها مِن أخلاقِ البهائمِ: حِرْصُ الغُرابِ، وشَرَهُ الكلبِ، ورُعونَةُ الطَّاووسِ، ودَناءةُ الجُعَلِ، وعقوقُ الضَّبِّ، وحقدُ الجَمَلِ، ووثوبُ الفهدِ، وصولةُ الأسدِ، وفِسقُ الفأرةِ، وخُبثُ الحيَّةِ، وعبثُ القِرْدِ، وجمعُ النَّملةِ، ومكرُ الثَّعلبِ، وخفَّةُ الفَراشِ، ونومُ الضَّبُعِ.

غيرَ أنَّ الرِّياضةَ والمجاهدةَ تُذهبُ ذلكَ، فمن استرسلَ مع طبعهِ فهو من هذا الجندِ، ولا تصلحُ سلعتَهُ لعقدِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]، فما اشترى إلَّا سلعةً هذَّبها الإيمانُ، فخرجتْ من طبعِهَا إلى بَلَدٍ سكَّانُه ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

❁ سَلِّم المبيعَ قبلَ أن يَتْلفَ في يدكَ فلا يقبلهُ المشتري.

قدْ علمَ المشتري بعيبِ السِّلْعَةِ قبلَ أن يشتريَها فسلِّمْها ولكَ الأمانُ من الرَّدِّ.

❁ قَدْرُ السِّلْعَةِ يُعرفُ بِقَدْرِ مشتريها، والثَّمنِ المبذولِ فيها والمنادي عليها؛ فإذا كانَ المشتري عظيمًا والثَّمنُ خطيرًا والمنادي جليلًا كانتِ السِّلعةُ نفيسةً.

يا بائعًا نفسَهُ بيعَ الهوانِ لو اسـ ... ترجعتَ ذا البيعَ قبلَ الفوتِ لم تَخِبِ
وبائعًا طِيبَ عيشٍ ما له خطرٌ ... بطيفِ عيشٍ من الآلام مُنْتَهَبِ
غُبِنْتَ والله غُبْنًا فاحشًا ولدى ... يومَ التَّغابُنِ تلقى غايةَ الحرَبِ
ووارِدًا صفوَ عيشٍ كلّه كَدَرٌ ... أمامكَ الوِرْدُ حقًّا ليسِ بالكَذِبِ

= أن الحديث ضعيف، لا حسن ولا موضوع، وإليه مال الحافظُ السخاويُّ في (المقاصد الحسنة)». انظر: «الضعيفة» تحت حديث رقم (١٨٢١).

وحاطبَ اللَّيلِ في الظَّلماءِ منتصبًا ... لكل داهيـةٍ تُـدْنـي مـن العَطَبِ
ترجو الشِّفاءَ بأحداقٍ بها مرضٌ ... فهلْ سمعتَ بُبْرءٍ جاءَ من عطَبِ
ومُفْنِيًا نفسَهُ في إثْـرِ أقبحِهم ... وصفًا للطْخِ جمالٍ فيه مستَلَبِ
وواهبًا نفسَهُ من مثلِ ذا سَفَهًا ... لو كنتَ تعرفُ قدرَ النَّفسِ لم تَهَبِ
شابَ الصِّبَا والتَّصابي بعدُ لم يَشِبِ ... وضاعَ وقتُك بين اللَّهْوِ واللَّعِبِ
وشمسُ عُمْرِكَ قد حانَ الغروبُ لها ... والفيءُ في الأُفُقِ الشَّرقيِّ لم يَغِبِ
وفازَ بالوصلِ من قد جدَّ وانقشعتْ ... عن أُفْقِهِ ظُلُماتُ اللَّيلِ والسُّحُبِ
كم ذا التَّخلُّفُ والدُّنيا قد ارتحلتْ ... ورسلُ ربِّكَ قد وافتكَ في الطَّلَبِ
ما في الدِّيار وقد سارتْ ركائِبُ منْ ... تهواهُ للصَّبِّ من شُكرٍ ولا أرَبِ
فأَفْرِشِ الخدَّ ذيَّاكَ التُّرابَ وقلْ ... ما قاله صاحبُ الأشواقِ والحُقُبِ
ما ربعُ ميَّةَ محفوفًا يُطِيفُ به ... غيلانُ أشهى له من رَبعِكَ الخَرِبِ
منازلًا كانَ يهواها ويألَفُهَا ... أيَّام كان منالُ الوصلِ عن كَثَبِ
ولا الخدودُ ولوْ أُدْمِينَ من ضَرَجٍ ... أَشهى إلى ناظري من رَبعِكَ الخَرِبِ
وكلما جُلِّيتْ تلكَ الرُّبوعُ له ... يهوي إليها هُويَّ الماءِ في الصَّبَبِ
أحيا له الشُّوقُ تذكارُ العهودِ بها ... فلوْ دعا القلبَ للسُّلْوَانِ لم يُجِبِ
هذا وكمْ منزلٍ في الأرضِ يألفُهُ ... وماله في سواها الدَّهرَ من رَغَبِ
ما في الخيامِ أخو وَجْدٍ يريحكَ إنْ ... بَثَثْتَهُ بعضَ شأنِ الحُبِّ فاغتَرِبِ
وأَسرِ في غَمَراتِ اللَّيلِ مهتديًا ... بنفحةِ الطِّيبِ لا بالعودِ والحَطَبِ
وعادِ كلَّ أخي جُبْنٍ ومعجزةٍ ... وحاربِ النفسَ لا تُلْقيكَ في الحَرَبِ
وخذْ لنفسِك نورًا تستضيءُ به ... يومَ اقتسامِ الورَى الأَنوارَ بالرُّتَبِ[1]

---

(١) ذكر المؤلف قريبًا من هذه الأبيات له في كتابه «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٩٦).

غيره:

إنْ كانَ يوجِبُ صبري[1] رحمتي فرضىً ... بسوءِ حالي وحِلّ للضَّنا بَدَني

مَنحْتُكَ الرَّوحَ لا أبغي لها ثمنًا ... إلّا رضاكَ ووا فَقْري إلى الثَّمَنِ[2]

غيره:

أَحِنُّ بأطرافِ النَّهارِ صبابةً ... وباللَّيلِ يدعوني الهوى فأُجِيبُ[3]

غيره:

وإذا لم يكنْ من العِشقِّ بُدٌّ ... فمن العجز عِشقُ غيرِ الجميلِ[4]

غيره:

فلو أنَّ ما أسعى لعيشٍ معجَّلٍ ... كفانيَ منه بعضُ ما أنا فيه

ولكنَّما أسعى لمُلكٍ مخلَّدٍ ... فوا أسفَا إنْ لم أكُنْ بمُلاقيه[5]

❁ يا منْ هو من أربابِ الخبرةِ، هلْ عرفتَ قيمةَ نفسِكَ؟ إنَّما خُلِقتِ الأكوانُ كلُّها لك.

---

(١) هكذا في الأصل، وكذا في «بدائع الفوائد» (٣/ ٧٣٠)، وفي طبعة (المجمع): (ضرِّي).

(٢) البيتان ذكرهما ابن الجوزي في «المنتظم» ونسبهما لحسين بن محمد البارع (١٠/ ١٦-١٧)، إلَّا أنه بلفظ (ضري) بدل (صبري). وفيه (وخلِّي) بدل (وحلَّ)، و(القلب) بدل (الروح)، وبينهما بيتان. وذكرهما في «المدهش» (ص: ٤٢٣)، وذكرهما في «المدهش» (ص٤٢٣) كما ذكرهما المؤلِّف غير أنه ذكر (القلب) بدل (الروح).

(٣) نسبه أبو نعيم في «الحلية» لسمنون البصري (١٠/ ٣١١) وكذا في «طبقات الصوفية» للسُّلمي (ص: ١٦١)، وذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٤٢٠) من غير نسبة، وكذا ذكره المصنف في «بدائع الفوائد» (٣/ ٧٣٠).

(٤) لم أجده عند غير المصنف.

(٥) لم أجده عند غير المصنف.

❁ يا من غُذِّيَ بلبَانِ البرِّ، وقُلِّبَ بأيدي الألطافِ، كلُّ الأشياءِ شجرةٌ وأنتَ الثَّمرةُ، وصورةٌ وأنتَ المعنى، وصَدَفٌ وأنتَ الدُّرُّ، ومَخِيضٌ وأنتَ الزُّبْدُ.

❁ منشورُ اختيارِنَا لكَ واضِحُ الخَطِّ، ولكنَّ استخراجَكَ ضعيفٌ.

❁ متى رُمْتَ طلبي فاطلُبْنِي عندكَ، اطلُبْنِي[١] منكَ تجِدْني قريبًا، ولا تطلُبْنِي من غيركَ فأنا أقربُ إليكَ منه.

❁ لو عرفتَ قَدْرَ نفسِكَ عندنا ما أهنتَها بالمعاصي، إنَّما أبعدْنَا إبليسَ إذْ لم يسجدْ لكَ وأنتَ في صُلبِ أبيكَ، فوا عَجَبًا! كيفَ صالحتَهُ وتركتَنَا؟!

❁ لو كان في قلبكَ محبَّةٌ لبانَ أثرُهَا على جَسَدِكَ:

ولـمَّا ادَّعيتُ الحبَّ قالتْ كذَبْتَني ... ألستُ أرَى الأعضاءَ منكَ كَواسِيَا[٢]

❁ لو تغذَّى القلبُ بالمحبَّةِ لذهبتْ عنه بِطْنَةُ الشَّهواتِ:

ولو كنتَ عُذريَّ الصَّبابةِ لم تكنْ ... بَطينًا وأنساكَ الهوى كَثرةَ الأكلِ[٣]

❁ لو صحَّتْ محبَّتُكَ لاسْتوحشتَ ممن لا يُذكِّرك بالحبيبِ.

❁ واعجبًا! لمن يَدّعي المحبَّةَ، ويحتاج إلى من يُذكِّره بمحبوبِه؛ فلا يذكُرُه إلَّا بمُذكِّر!

❁ أقلُّ ما في المحبَّةِ أنَّها لا تُنسيكَ تذكُّرَ المحبوبِ:

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (واطْلبني).

(٢) نسبه المصنف في «طريق الهجرتين» لسري السقطي (ص: ٤٦٥)، وكذا في «طبقات الأولياء» (ص: ٢٧)، ونسبه له بنحوه في «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٥٩)، و«البداية والنهاية» (١١/ ١٩)، وفي «الزهرة» بنحوه لأم حمادة الهمدانية (١/ ٩٢)، وفي «المستطرف» بنحوه لمجنون ليلى (٣/ ٧٦).

(٣) البيت لجميل كما في «الخصائص» لابن جنِّي (١/ ٧٩).

ذكرتُكَ لا أني نسيتُكَ ساعةً ... وأيسرُ ما في الذِّكرِ ذكرُ لِسَاني[1]

❁ إذا سافرَ المحبُّ للقاءِ محبوبِه ركبتْ جنودُه معه، فكانَ الحبُّ في مقدِّمَةِ العسكر، والرَّجاءُ يحدو بالمطيِّ، والشَّوقُ يسوقُهَا، والخوفُ يجمعها على الطَّريق؛ فإذا شارفَ قُدومَ بلدِ الوصلِ خرجتْ تقادمُ الحبيبِ للِّقاءِ.

فَداوِ سُقْمًا بجسمٍ أنتَ مُتلفُهُ ... وابرُدْ غرامًا بقلبٍ أنتَ مُضرِمُهُ

ولا تَكِلْني على بُعْدِ الدِّيارِ إلى ... صبري الضَّعيفِ فصبري أنتَ تعلَمُهُ

تلقَّ قلبي فقد أرسلتُهُ عَجِلا ... إلى لقائِكَ والأشواقُ تقدُمُهُ[2]

فإذا دخلَ على الحبيبِ أُفيضتْ عليه الخِلَعُ من كلِّ ناحيةٍ؛ ليُمتَحنَ أيسكُنُ إليها فتكونُ حظَّهُ؟ أم يكون التفاتُهُ إلى منْ ألبسَهُ إيَّاها؟

❁ ملَؤوا مراكبَ القلوبِ متاعًا لا تَنفقُ[3] إلَّا على الملك، فلما هبَّتْ رياحُ السَّحرِ أقلعتْ تلكَ المراكبُ، فما طلعَ الفجرُ إلَّا وهي بالميناء.

❁ قطعوا باديةَ الهوى بأقدامِ الجِدِّ، فما كانَ إلا القليلُ حتّى قَدِموا من السَّفَرِ فأعقبهم[4] الرَّاحةُ في طريق التلَقِّي، فدخلوا بلدَ الوصلِ وقد حازوا رِبْحَ الأبدِ.

❁ فَرَّغ القومُ قلوبَهم من الشَّواغِلِ، فضُربتْ فيها سُرادقاتُ المحبَّةِ، فأقاموا العُيونَ تحرُسُ تارةً وترشُّ أخرى.

❁ سُرادِقُ المحبَّةِ لا يُضرَبُ إلَّا في قاعٍ نَزِهٍ فارغٍ.

---

(١) البيت للشبلي كما في «تاريخ بغداد» (١٥/ ٥٦٣).

(٢) الأبيات ذكرها ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ٢٥٥).

(٣) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (لا يَنفق).

(٤) هكذا في الأصل، وذكر ابن الجوزي في كتابه «المدهش» (ص: ١٦٤) العبارة بقوله: «فما كان إلَّا قليل حتى قدموا من السفر فاعتنقتهم الراحة في طريق التلقِّي».

نَــزِّهْ فــؤادكَ مــن سِــوانــا والقَنا فــجـنــابُـنــا حِــلٌّ لــكــلِّ مــنــزّهِ
الــصَّــبرُ طــلَّــسمٌ لــكنـزِ وصالِنَا مــنْ حلَّ ذا الطلَّسمَ فــازَ بكنزِهِ[1]

❁ اعرفْ قدْرَ ما ضاعَ منكَ، وابكِ بكاءَ من يدري مِقْدارَ الفائتِ.

❁ لو تخيَّلتَ قربَ الأحبابِ لأقمتَ المأتمَ على بُعدِكَ.

❁لو استنشقتَ ريحَ الأسحارِ لأفاقَ منكَ قلبُكَ المخمورُ.

❁ مَن استطالَ الطَّريقَ ضعُفَ مشيُهُ.

وما أنتَ بالـمُشتَاقِ إن قُلتَ بيننا طِوالُ اللَّيالي أو بعيدُ المفاوزِ[2]

❁ أما علمتَ أنَّ الصَّادق إذا همَّ ألقى بينَ عينَيْهِ عَزْمَهُ.

❁ إذا نزلَ آبُ في القلبِ حلَّ آذارُ في العينِ.

❁ هانَ سهرُ الحرَّاسِ لـــمَّا عَلِمُوا أنَّ أصواتَهم بِسَمْعِ الملك.

❁ من لاحَ له حالُ الآخرةِ هانَ عليه فِراقُ الدُّنيا.

❁ إذا لاحَ للباشِقِ الصَّيدُ نسيَ مألوفَ الكفِّ.

❁ يا أقدامَ الصَّبرِ احملي بقيَ القليلُ.

❁ تذكَّرْ حلاوةَ الوصالِ يَهُنْ عليك مُرُّ المجاهدة.

❁ قد علمتَ أينَ المنزلُ، فاحْدُ لها تَسِرْ.

❁ أعـلى الهِمَـمِ همَّـةُ مَن اسـتعدَ صاحبُهـا للقاءِ الحبيـبِ، وقـدَّمَ التَّقـادُمَ بين يديْ الـــمُلتقى؛ فاستبشرْ بالرِّضى عند القدوم ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣].

---

(١) تقدَّم صفحة (٧٦).
(٢) ذكره المصنِّف في «بدائع الفوائد» من غير نسبة (٣/ ٧٣٣).

❁ الجنـةُ تـرضى منكَ بـأداءِ الفرائِضِ، والنَّـارُ تندفعُ عنكَ بتركِ المعـاصي، والمحبَّةُ لا تقنعُ منكَ إلَّا ببذلِ الرُّوحِ.

❁ لله ما أحلى زمان[1] تَسعَى فيه أقدامُ الطَّاعةِ على أرضِ الاشتياقِ.

❁ لـمَّا سلَّمَ القـومُ النَّفوسَ إلى رائـضِ الشَّرعِ؛ علَّمهـا الوِفاقَ في خـلافِ الطَّبعِ، فاستقامتْ مع الطَّاعةِ؛ كيف دارتْ دارتْ معها[2].

وإنـي إذا اصطكَّتْ رقـابُ مطيِّهم ... وثـــوَّرَ حـادٍ بـالـرِّفَـاقِ عـجُـولُ

أُخالِفُ بينَ الرَّاحتينِ على الحَشَا ... وأنْـظُـرُ أنِّــي مُـلْـتَـمٍ فـأمـيـلُ[3]

❁❁❁

(١) هكذا في الأصل، ولعل الصَّواب: (زمانًا).

(٢) غالب ما سبق من عبارات هي في «بدائع الفوائد»، مع اختلاف بسيط في اللَّفظ (٣/ ٧٣٠ - ٧٣١- ٧٣٢-٧٣٣).

(٣) البيت للشريف الرضي كما في «المدهش» (ص: ٤٥٥)، وانظر: «دووايـن الشعر العربي على مرِّ العصور»، قصيدة برقم (١٠٢٦٢).

فَصْلٌ

* عَلَّمتَ كلبكَ فهو يتركُ شهوتَه في تناولِ ما صادَه احترامًا لنعمتِكَ، وخوفًا من سطوتِكَ، وكمْ علَّمكَ معلِّمُ الشَّرعِ وأنتَ لا تقبلُ.

* حُرِّمَ صيدُ الجاهلِ والممسِكِ لنفسِه؛ فما ظنُّ الجاهلِ الَّذي أعمالُهُ لهوى نفسِه.

* جُمِعَ فيكَ عقلُ الملكِ، وشهوةُ البهيمةِ، وهوى الشَّيطانِ، وأنتَ للغالبِ عليكَ من الثلاثةِ: إن غلبتَ شهوتَكَ وهواكَ زدْتَ على مرتبةِ مَلَكٍ، وإن غلبكَ هواكَ وشهوتكَ نقصتَ عن مرتبةِ كلْبٍ.

* لـمَّا صادَ الكلبُ لربِّه أُبيحَ صيدُهُ، ولـمَّا أمسكَ على نفسِه حَرُمَ ما صادَهُ.

* مصدرُ ما في العبدِ من الخيرِ والشرِّ والصِّفاتِ الممدوحةِ والمذمومةِ من صفةِ الـمُعطي المانعِ؛ فهو سُبْحَانَهُ يُصرِّفُ عبادَه بينَ مقتضى هذينِ الاسمين، فحظُّ العبدِ الصَّادقِ من عبوديَّتِه بهما الشُّكْرُ عند العطاءِ، والافتقارُ عند المنعِ، فهو سبحانه يُعْطِيه ليَشكُرَهُ، ويمنعَهُ ليَفتَقِرَ إليه، فلا يزالُ شكورًا فقيرًا.

* قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفُرْقَان: ٥٥]؛ هذا من ألطفِ خطابِ القرآنِ وأشرفِ معانيه، وأنَّ المؤمنَ دائمًا مع الله على نفسِه وهواهُ وشيطانِهِ وعدوِّ ربِّه، وهذا معنى كونِه من حزبِ الله وجندِه وأوليائِه؛ فهو مع الله على عدوِّه الدَّاخلِ فيه والخارجِ عنه؛ يحاربُهم ويعاديِهم ويغضبُهم له سُبْحَانَهُ، كما يكونُ خواصُّ الملِكِ معه على حربِ أعدائِه، والبعيدونَ منه فارغونَ من ذلك غيرُ مهتمِّين به.

والكافرُ مع شيطانِه ونفسِه وهواهُ على ربِّه، وعباراتُ السَّلفِ على هذه تدور:

ذكرَ ابنُ أبي حاتم عن عَطاء بن دينار[١] عن سَعيد بن جُبير[٢] قال: عونًا للشَّيطانِ على ربِّه بالعداوةِ والشِّركِ[٣]، وقال ليث[٤] عن مجاهد قال: يُظاهِرُ الشيطانَ على معصيةِ الله؛ يُعينُه عليها[٥].

وقال زيد بن أسلم: ظهيرًا أيْ: مواليًا[٦]، والمعنى: أنَّه يُوالي عدوَّه على معصيتِه والشِّركِ به، فيكونُ مع عدوِّه معينًا له على مَساخِطِ ربِّه.

فالمعيَّةُ الخاصَّةُ الَّتي للمؤمن مع ربِّه وإلهِه قد صارتْ لهذا الكافر والفاجر مع الشَّيطانِ ومع نفسِه وهواهُ وقُربانِه، ولهذا صدَّر الآيةَ بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]، وهذه العبادةُ هي: الموالاةُ والمحبَّةُ والرِّضى بمعبودِيهم المتضمِّنَةُ لمعيَّتِهم الخاصةِ، فظاهروا أعداءَ الله على معاداتِه ومخالفتِه ومَساخِطِه، بخلافِ وليِّه سُبْحَانَهُ؛ فإنَّه معه على نفسِه وشيطانِه وهواهُ. وهذا المعنى من كنوزِ القرآنِ لمن فَهِمَه وعَقَلَهُ.

وبالله التَّوفيق.

---

(١) هو: أبو الريان عطاء بن دينار الهذلي وثَّقه الأئمَّة توفي سنة (١٢٦هـ)، انظر: «تهذيب الكمال» (٢٠/ ٦٧).

(٢) هو: الإمام الحافظ أبو عبد الله سعيد بن جبير بن هشام الوالبي الكوفي، قتله الحجَّاج سنة (٩٥هـ)، انظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ٦٠)

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧١١) ولفظه: «عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك»، وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٤) هو الليث ابن أبي سليم ابن زنيم، بالزاي والنون، مصغَّر، واسم أبيه: أيمن، وقيل: أنس، وقيل غير ذلك، صدوق اختلط جدًّا، ولم يتميز حديثُه فتُرِك، من السادسة، مات سنة ثمان وأربعين. «التقريب» (ص: ٤٦٤).

(٥) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/ ٤٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧١١). وانظر: «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٧).

(٦) أخرجه ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧١١).

قولـه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

قال[١] مقاتل: إذا وُعِظوا بالقرآنِ لم يقعوا عليه صمًّا لم يسمعوه، وعميانًا لم يُبصروه، ولكنَّهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به[٢].

وقال ابن عبَّاس: لم يكونوا عليها صُمًّا وعُميانًا، بل كانوا خائفين خاشعين.

وقال الكلبيُّ[٣]: يَخِرُّون عليها سمعًا وبصرًا.

وقال الفرَّاء: وإذا تُلِيَ عليهم القرآن لم يقعدوا على حالِهم الأولى؛ كأنَّهم لم يَسمعوه، فذلك الخُرور، وسمعتُ العربَ تقول: قعد يشتِمُني كقولك: يشتمني[٤] وأقبل يشتمني[٥]، والمعنى على ما ذُكِرَ لم يَصيروا عندها صُمًّا وعُميانًا.

وقال الزَّجَّاج: المعنى إذا تليتْ عليهم خرُّوا سُجَّدًا وبُكِيًّا سامعينَ مُبصرينَ كما أُمِروا به[٦].

وقال ابن قتيبة: أيْ: لم يتغافلوا عنها كأنهم صُمٌّ لم يسمعوها وعُميٌّ لم يروها[٧].

---

(١) انظر هذه الآثار المذكورة في الآية في «التفسير البسيط» للواحدي (١٦/ ٦٠٧-٦٠٩).

(٢) «تفسير مقاتل بن سليمان» (٢/ ٤٤٣) بلفظ: «لم يقفوا عليها صمًّا لم يسمعوها، ولا عميانًا لم يبصروها، كفعل مشركي مكَّة، ولكنهم سمعوا وأبصروا وانتفعوا به». وذكره الواحدي في «التفسير البسيط» (١٦/ ٦٠٧).

(٣) هو: أبو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي الكوفي، ضعَّفه الأئمَّة وتركه بعضُهم، ولم يكن مرضيًّا عند جماعة من الأئمة، فلقد نهى أحمد عن النظر في تفسيره، وذم سفيان طريقته في التفسير، وتجنب ابن أبي حاتم الرواية عنه في تفسيره، وهذا اختيار ابن حبان؛ انظر: «الرد على البكري» (١/ ٧٤-٧٦)، و«التيسير لمعرفة المشهور من كتب وأسانيد التفسير» للرازحي (ص: ٨٨ وما بعدها)، توفِّي سنة (١٤٦هـ)، انظر: «تهذيب الكمال» (٢٥/ ٢٤٦ وما بعدها).

(٤) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (قام يشتمني). وكذا في «التفسير البسيط» (١٦/ ٦٠٨).

(٥) «معاني القرآن» (٢/ ٢٧٩).

(٦) «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٧). ونصُّ كلامه: «تأويله: إذَا تلِيَتْ عَلَيْهِم خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا، سَامِعِينَ مُبْصِرِينَ لما أُمِرُوا بِهِ ونُهُوا عَنْهُ».

(٧) «غريب القرآن» (ص: ٣١٥ صقر)، وذكر ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٢٧ هجر) أنَّ معنى الآية:

=

قلتُ: هاهنا أمران: ذِكرُ الخُرور، وتسليطُ النفي عليه.

وهل هو خُرورُ القلبِ أو خرورُ البدنِ للسُّجودِ؟

وهل المعنى: لم يكنْ خُرورُهم عن صَمَمٍ وعمهٍ؛ فلهم عليها خرورٌ بالقلبِ خضوعًا أو بالبدن سجودًا، أو ليسَ هناكَ خُرورٌ وعبَّر به عن القعودِ؟

■ **أصولُ المعاصي كلِّها كِبارِها وصغارِها ثلاثة:**

❁ **تعلقُّ القلبِ بغير الله.**

❁ **وطاعةُ القوَّةِ الغضبيَّةِ.**

❁ **والقوَّة الشَّهوانيَّة.**

وهي: الشِّركُ والظُّلمُ والفواحشُ.

فغايةُ التَّعلُّقِ بغير الله: شِركٌ وأن يُدعى معه إلهٌ آخرُ، وغايةُ طاعةِ القوَّةِ الغضبيةِ: القتلُ، وغايةُ طاعةِ القوَّةِ الشَّهوانيَّةِ: الزِّنى.

ولهذا جمعَ الله سُبْحَانَهُ بين الثَّلاثةِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وهذه الثَّلاثةُ يدعو بعضُها إلى بعضٍ: فالشِّركُ يدعو إلى الظُّلمِ والفواحش؛ كما أنَّ الإخلاصَ والتَّوحيدَ يصرِفُهما عن صاحبِه، قال تَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤][1] **فالسُّوءُ: العشقُ، والفحشاءُ: الزِّنى.**

= «يقول تَعَالَىٰ ذكره: والذين إذا ذكَّرهم مذكِّر بحجج الله، لم يكونوا صمًّا لا يسمعون، وعميًا لا يبصرونها. ولكنهم يِقاظ القلوب، فهماء العقول، يفهمون عن الله ما يذكرهم به، ويفهمون عنه ما ينبههم عليه، فيوعون مواعظه آذانًا سمعته، وقلوبًا وعته. وبنحو الَّذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل».

(١) بكسر اللام والصَّاد على أنَّه اسم الفاعل الذي يدلُّ على أنَّه آت بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص. ينظر: «أضواء البيان» (٢/ ٢٠٦)، وهي قراءة ابن كثير و أبي عمرو وابن عامر، وقرأ الباقون بفتح اللام على أنَّه اسم مفعول.

وكذلكَ الظُّلم يدعو إلى الشِّركِ والفاحشةِ؛ فإنَّ الشِّركَ أظلمُ الظُّلمِ؛ كما أنّ أعدلَ العدلِ التوحيد؛ فالعدلُ قرينُ التوحيد، والظُّلم قرينُ الشّرك، ولهذا يجمعُ سُبْحَانَهُ بينهما: أمَّا الأوَّل ففي قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأمَّا الثَّاني فكقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والفاحشةُ تدعو إلى الشِّركِ والظُّلمِ، ولا سيما إذا قَويتْ إرادتُها ولم تحصُل إلَّا بنوعٍ من الظُّلمِ والاستعانةِ بالسِّحرِ والشَّيطانِ، وقد جمع سُبْحَانَهُ بين الزِّنى والشِّركِ في قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

فهذه الثلاثةُ يجُرُّ بعضُها إلى بعضٍ، ويأمرُ بعضُها ببعضٍ.

ولهذا كلَّما كانَ القلبُ أضعفَ توحيدًا وأعظمَ شركًا كان أكثرَ فاحشةً وأعظمَ تعلُّقًا بالصُّورِ وعشقًا لها، ونظير هذا قوله تَعَالَىٰ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٧].

فأخبرَ أنَّ ما عنده خيرٌ لمنْ آمنَ به وتوكَّلَ عليه، وهذا هو التَّوحيد ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الشورى: ٣٧] فهذا اجتنابُ داعي القوَّةِ الشَّهوانيَّةِ، ثمَّ قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، فهذا مخالفةُ القوَّةِ الغضبيَّةِ؛ فجمع بين التَّوحيدِ والعفَّةِ والعدلِ الَّتي هي جِماعُ الخيرِ كلِّه.

❁ ❁ ❁

فَائِدَة

هَجْرُ القرآنِ أنواعٌ:

أحدها: هَجْرُ سماعِه والإيمانِ به والإصغاءِ إليه.

والثَّاني: هَجْرُ العملِ به والوقوفِ عند حلالِه وحرامِه، وإن قرأهُ وآمنَ به.

والثَّالث: هَجْرُ تحكيمِه والتَّحاكمِ إليه في أصولِ الدِّينِ وفروعِه، واعتقادُ أنَّه لا يُفيدُ اليقينَ، وأنَّ أدلَّتَه لفظيَّةٌ لا تحصِّل العلمَ.

والرَّابع: هَجْرُ تدبُّرِه وتفهُّمِه ومعرفةِ ما أرادَ المتكلِّمُ به منه.

والخامس: هَجْرُ الاستشفاءِ والتَّداوي به في جميع أمراضِ القلوبِ وأدوائِها؛ فيطلبُ شِفاءَ دائِه من غيره، ويهجرُ التَّداوي به.

وكلُّ هذا داخلٌ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وإن كانَ بعضُ الهجرِ أهونَ من بعضٍ.

وكذلكَ الحَرَجُ الذي في الصُّدورِ منه:

فإنَّه تارةً يكونُ حرجًا من إنزالِه وكونِه حقًّا من عند الله.

وتارةً يكونُ من جهةِ التَّكلُّمِ به، أو كونِه مخلوقًا من بعضِ مخلوقاتِه ألهمَ غيرَهُ أن تكلَّمَ به.

وتارةً يكونُ من جهةِ كفايتِه وعدمِها، وأنَّه لا يكفي العبادَ، بل هم محتاجونَ معه إلى المعقولاتِ أو الأقيسةِ أو الأراءِ أو السِّياساتِ.

وتارةً يكونُ من جهةِ دلالتِه وما أُريدَ به[1] حقائِقُهُ المفهومةُ منه عندَ الخطابِ، أو أريدَ به تأويلُها وإخراجُها عن حقائِقِها إلى تأويلاتٍ مستكرَهةٍ مشتركةٍ.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (وهل أريد به).

وتارةً يكونُ من جهةِ كون تلكَ الحقائقِ، وإن كانتْ مرادةً فهي ثابتةٌ في نفسِ الأمرِ، أو أَوْهمَ أنَّها مرادةٌ لضرب من المصلحةِ؟!

فكلُّ هؤلاء في صدورِهِم حرجٌ من القرآنِ، وهم يعلمونَ ذلك من نفوسِهم، ويجدونه في صدورِهم.

ولا تجدُ مبتَدِعًا في دينه قطُّ إلَّا وفي قلبِه حرجٌ من الآياتِ التي تخالفُ بدعتَه؛ كما أنَّكَ لا تجدُ ظالمًا فاجرًا إلَّا وفى صدرِه حرجٌ من الآياتِ التي تحولُ بينه وبينَ إرادتِه.

فتدَبَّرْ هذا المعنى، ثمَّ ارضَ لنفسِكَ بما تشاء.



فَائِدَة

كمالُ النَّفسِ المطلوبُ ما تضمَّن أمرين:

أحدُهما: أن تصيرَ هيئةً راسخةً وصفةً لازِمَةً له.

الثاني: أن يكونَ صفةَ كمالٍ في نفسِهِ.

فإذا لم يكنْ كذلكَ لم يكنْ كمالًا؛ فلا يليقُ بمنْ يسعى في كمالِ نفسهِ المنافسةُ عليه، ولا الأسفُ على فوتِه.

وذلك ليسَ إلَّا معرفةُ بارئِها وفاطرِها ومعبودِها وإلهِها الحقِّ الَّذي لا صلاحَ لها ولا نعيمَ ولا لـذَّةَ إلَّا بمعرفتِه وإرادةِ وجهِه وسلوكِ الطَّريقِ الموصلةِ إليه وإلى رضاهُ وكرامتِه، وأن تعتادَ ذلك فيصيرَ لها هيئةً راسخةً لازمةً.

وما عدا ذلكَ من العلومِ والإراداتِ والأعمالِ؛ فهي بينَ مالا ينفعُها ولا يُكمِّلُها وما يعودُ بضررِها ونقصِها وألمِها، ولا سيما إذا صار هيئةً راسخةً لها؛ فإنَّها تُعذَّبُ وتتألَّمُ به بحسب لزومِه لها.

وأمَّا الفضائِلُ المنفصلةُ عنها كالملابسِ والمراكبِ والمساكنِ والجاهِ والمالِ؛ فتلكَ في الحقيقةِ عَوَارٍ أُعِيرَتْها مدةً، ثم يَرجِعُ فيها المُعِيرُ، فتتألَّمُ وتتعذَّبُ برجوعِه فيها بحسب تعلُّقِها بها، ولا سيَّما إذا كانتْ هي غايةَ كمالِها، فإذا سُلِبَتْها أُحضرتْ أعظم النقصِ والألمِ والحسرةِ.

فليتدبَّرْ من يُريدُ سعادةَ نفسِه ولذَّتَها هذه النُّكْتَة؛ فأكثرُ هذا الخلقِ إنَّما يسعَون في حرمانِ نفوسِهم وألمِها وحسرتِها ونقصِها من حيث يظنُّون أنَّهم يُريدون سعادتَها ونعيمَها؛ فلذَّتُها بحسب ما حصلَ لها من تلكَ المعرفةِ والمحبَّةِ والسلوكِ، وألمُها وحسرتُها بحسب ما فاتَها من ذلك.

ومتى عُـدِمَ ذلكَ وخلا منـه؛ لم يبقَ فيه إلَّا القـوى البدنيَّة النفسـانيَّة التي بها يأكلُ ويـشربُ ويَنكِحُ ويغضَبُ وينالُ سـائرَ لذَّاتِه ومرافـقَ حياتِه ولا يلحقُهُ من جهتِها شرَفٌ ولا فضيلـةٌ، بـل خساسـةٌ ومنقصـةٌ؛ إذا كان إنَّما يُناسِـبُ بتلـكَ القوى البهائـمَ ويتَّصلُ بجنسـها ويدخُلُ في جملتِها ويصيرُ كأحدهـا، وربَّما زادتْ في تناولها عليه واختصتْ دونه بسلامةِ عاقبتِها والأمن من جلبِ الضَّررِ عليها.

فكمالٌ تشاركُكَ فيه البهائمُ وتزيدُ عليكَ وتختصُّ عنكَ فيه بسلامةِ العاقبةِ حقيقٌ أن تهجُرَهُ إلى الكمالِ الحقيقيِّ الَّذي لا كمالَ سواه.

وبالله التوفيق.



فائدة جليلة

إذا أصبحَ العبدُ وأمسَى وليس همّه إلّا الله وحده؛ تحمَّلَ الله سُبحَانَهُ حوائِجَهُ كلَّها، وحملَ عنه كلَّ ما أهمَّه، وفرَّغ قلبَه لمحبَّتِه ولسانَهُ لذكرِهِ وجوارحَهُ لطاعتِه.

وإن أصبحَ وأمسى والدُّنيا همَّهُ حَمَّلَه الله همومَهَا وغمومَهَا وأنكادَهَا، ووكَلَه إلى نفسِه، فشغلَ قلبَه عن محبَّتِه بمحبَّةِ الخلق، ولسانَهُ عن ذكرِهِ بذكرِهِم، وجوارحَهُ عن طاعتِه بخدمتِهم وأشغالِهم؛ فهو يكدَحُ كَدْحَ الوحشِ في خدمةِ غيرِهِ؛ كالكِيرِ ينفُخ بطَنه ويعصرُ أضلاعَهُ في نفعِ غيره.

فكلُّ منْ أعرضَ عن عبوديَّةِ الله وطاعتِهِ ومحبَّتِهِ يُلِيَ بعبوديَّةِ المخلوقِ ومحبَّتِه وخدمتِه قال تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

قال سفيان بن عُيينة[1]: لا تأتونَ بمثلٍ مشهورٍ للعربِ إلَّا جئتُكُم به من القرآنِ، فقال له قائلٌ: فأينَ في القرآنِ: أعطِ أخاك تمرةً، فإنْ لم يقبلْ؛ فأعطِه جمرةً؟ فقال في قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا...﴾ الآية [الزخرف: ٣٦].



(١) هو: الإمام أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، توفي سنة (١٩٨هـ)، انظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٩٣).

فَائِدَة

العلمُ: نقلُ صورةِ المعلومِ من الخارجِ وإثباتُها في النَّفسِ.

والعمل: نقلُ صورة العلميَّةِ[١] من النَّفسِ وإثباتُها في الخارجِ.

فإن كان الثَّابتُ في النَّفسِ مطابقًا للحقيقةِ في نفسِها فهو علمٌ صحيحٌ.

وكثيرًا ما يَثْبُتُ ويتراءى في النفسِ صُوَرٌ ليس لها وجودٌ حقيقيٌّ، فيظنُّها الذي قد أثبتَها في نفسِه علمًا، وإنَّما هي مقدَّرةٌ لا حقيقة لها، وأكثرُ علومِ الناسِ من هذا الباب.

وما كانَ منها مطابقًا للحقيقةِ في الخارجِ فهو نوعان:

❁ نوع تَكْمُلُ النَّفسُ بإدراكِه والعلمِ به، وهو العلمُ بالله وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه وكتبِه وأمرِه ونهيِه.

❁ ونوعٌ لا يحصلُ للنَّفسِ به كمالٌ، وهو كلُّ علمٍ لا يَضرُّ الجهلُ به؛ فإنَّه لا ينفعُ العلمُ به، وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ بالله من علم لا ينفع[٢]، وهذا حالُ أكثرِ العلومِ الصَّحيحةِ المطابقةِ الَّتي لا يَضُرُّ الجهلُ بها شيئًا؛ كالعلمِ بالفلَكِ ودقائِقِه ودرجاتِه وعدَدِ الكواكبِ ومقاديرِها والعلمِ بعددِ الجبالِ وألوانِها ومساحتِها ونحو ذلك.

فشرفُ العلمِ بحسب شرفِ معلومِه وشدَّةِ الحاجةِ إليه، وليسَ ذلكَ إلَّا العلمُ باللهِ وتوابعُ ذلك.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (عملية).

(٢) أخرجه مسلم (٧٣- ٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم بلفظ: لا أقول لكم إلَّا كما كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: كان يقول: «**اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من العَجْزِ والكَسَلِ والجُبْنِ والبُخلِ والهَرَمِ وعذابِ القبرِ، اللَّهُمَّ آتِ نفسي تقواها وزكِّها أنتَ خيرُ مَن زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها، اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من علمٍ لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يخشعُ، ومن نفسٍ لا تشبعُ، ومن دعوةٍ لا يُستجابُ لها**».

وأمَّـا العمـلُ[١] فآفتُه عدمُ مطابقتِه لمرادِ الله الدِّينيِّ الَّـذي يُحبُّه الله ويرضاهُ، وذلك يكون من فسادِ العلمِ تارةً، ومن فسادِ الإرادةِ تارةً:

ففسـادُهُ مـن جهةِ العلـمِ: أن يعتقدَ أنَّ هذا مشـروعٌ محبوبٌ لله وليسَ كذلك، أو يعتقـد أنَّـه يُقرِّبُـه إلى الله وإنْ لم يكـن مشروعًا، فيظُنُّ أنَّـه يتقرَّبُ إلى الله بهـذا العمل وإنْ لم يعلمْ أنّه مشروعٌ.

وأمَّـا فسـادُهُ من جهةِ القصدِ: فـأنْ لا يَقصِدَ به وجـهَ الله والدَّارَ الآخرة، بل يَقصِدُ به الدُّنيا والخَلق.

وهاتان الآفتانِ في العلمِ والعملِ لا سـبيلَ إلى السَّـلامةِ منهما إلَّا بمعرفةِ ما جاءَ به الرَّسول في بابِ العلمِ والمعرفةِ، وإرادةِ وجهِ الله والدَّارِ الآخرة في باب القصدِ والإرادةِ؛ فمتى خلا من هذه المعرفةِ وهذه الإرادةِ فسدَ علمُهُ وعملُهُ.

والإيـمانُ واليقـينُ يورثـانِ صِحَّـةَ المعرفـةِ وصِحَّـةَ الإرادةِ، وهمـا يورثـان الايمانَ ويُمدَّانِه.

ومن هنا يتبيَّنُ انحرافُ أكثرِ النَّاسِ عن الإيمانِ لانحرافهم عن صحَّةِ المعرفةِ وصحَّةِ الإرادةِ، ولا يتـمُّ الإيمانُ إلَّا بتلقِّي المعرفةِ من مِشـكاةِ النُّبُوَّةِ وتجريدِ الإرادةِ عن شـوائبِ الهوى وإرادةِ الخلقِ، فيكونُ علمه مقتبسًـا من مشـكاةِ الوحي وإرادتُهُ لله والدَّارِ الآخرةِ؛ فهذا أصحُّ النَّاسِ علمًا وعملًا، وهو من الأئمَّةِ الَّذين يهدون بأمرِ الله ومن خلفاءِ رسولِه في أمته.

❁❁❁

(١) في الأصل (العلم)، والصَّحيح ما أثبتناه.

قاعدة

الإيمـانُ له ظاهِرٌ وباطِنٌ: وظاهرُه قولُ اللِّسـانِ وعملُ الجوارح، وباطنُه تصديقُ القلبِ وانقيادُهُ ومحبَّتُهُ.

فلا ينفعُ ظاهرٌ لا باطنَ له، وإن حقَنَ الدِّماءَ وعصمَ به المال والذُّرِّيَّةَ.

ولا يُجزئُ باطنٌ لا ظاهرَ له إلَّا إذا تعذَّرَ بعجزٍ أو إكراهٍ وخوفِ هلاكٍ.

فتخلُّـفُ العمـلِ ظاهرًا مع عدمِ المانعِ دليلٌ على فسـادِ الباطـن وخُلُوِّه من الإيمان، ونقصُهُ دليلُ نقصِه، وقوَّتُهُ دليلُ قوَّتِه.

فالإيمانُ قلبُ الإسلام ولُبُّه، واليقين قلبُ الإيمان ولُبُّه.

وكلُّ علـمٍ وعمـلٍ لا يزيدُ الإيمانَ واليقينَ قوَّةً فمدخُـولٌ، وكلُّ إيمانٍ لا يبعثُ على العملِ فمدخولٌ.



قاعدة

التَّوكُّلُ على الله نوعان:

أحدهما: توكُّلٌ عليه في جَلْبِ حوائجِ العبدِ وحظوظِه الدُّنيويَّةِ أو دفعِ مكروهاتِه ومصائبِه الدُّنيويَّةِ.

والثاني: التَّوكُّلُ عليه في حصولِ ما يُحبُّه هو ويرضاهُ من الإيمانِ واليقينِ والجهادِ والدَّعوةِ إليه.

وبينَ النَّوعينِ من الفضلِ ما لا يُحصيه إلَّا الله، فمتى توكَّلَ عليه العبدُ في النَّوعِ الثَّاني حَقَّ توكُّلِه كفاهُ النَّوعَ الأوَّلَ تمام الكفاية، ومتى توكَّلَ عليه في النَّوعِ الأوَّلِ دون الثَّاني كفاه أيضًا، لكن لا يكونُ له عاقبةُ المتوكِّلِ عليه فيما يُحبُّه ويرضاه.

فأعظمُ التَّوكُّلِ عليه: التَّوكُّلُ في الهدايةِ، وتجريدِ التَّوحيدِ، ومتابعةِ الرَّسولِ، وجهاد أهل الباطل، فهذا توكُّلُ الرُّسُلِ وخاصَّةِ أتباعهم.

والتَّوكُّلُ تارةً يكون توكُّلَ اضطرارٍ وإلجاءٍ؛ بحيثُ لا يجدُ العبدُ ملجأً ولا وَزَرًا إلا التَّوكُّل، كما إذا ضاقتْ عليه الأسبابُ، وضاقتْ عليه نفسُهُ، وظنَّ أن لا ملجأ من الله إلَّا إليه، وهذا لا يتخلَّفُ عنه الفَرَجُ والتيسيرُ البتةَ.

وتارةً يكونُ توكُّلَ اختيارٍ، وذلك التَّوكُّلُ مع وجود السَّببِ المُفضي إلى المراد:

فإن كان السَّببُ مأمورًا به ذُمَّ على تركه، وإن قام بالسَّبب وتركَ التَّوكُّلَ ذُمَّ على تركه أيضًا؛ فإنَّه واجبٌ باتِّفاق الأمَّة ونصِّ القرآن، والواجبُ القيامُ بهما والجمع بينهما.

وإن كان السَّببُ محرَّمًا حَرُمَ عليه مباشرتُهُ، وتوحَّدَ السَّببُ في حقِّه في التَّوكُّلِ، فلم يبقَ سببٌ سواه؛ فإنَّ التَّوكُّلَ من أقوى الأسبابِ في حصولِ المرادِ ودفع المكروه، بل هو أقوى الأسبابِ على الإطلاق.

وإن كان السَّببُ مباحًا نظرتَ: هل يُضعِفُ قيامُك به التَّوكُّلَ أو لا يُضعِفُه؟ فإن أضعفَه وفرَّقَ عليكَ قلبكَ وشتَّتَ همَّكَ فتركُهُ أولى، وإن لم يُضعِفْه فمباشرتُهُ أولى؛ لأنَّ حكمةَ أحكم الحاكمين اقتضتْ ربطَ المسبَّب به؛ فلا تُعطِّلْ حكمتَه مهما أمكنكَ القيامُ بها، ولا سيَّما إذا فعلتَهُ عبوديَّةً، فتكون قد أتيتَ بعبوديَّةِ القلبِ بالتَّوكُّل، وعبوديَّةِ الجوارحِ بالسَّببِ المنْوِيِّ به القُرْبَةُ.

والَّذي يُحقِّقُ التَّوكُّلَ القيامُ بالأسبابِ المأمور بها: فمَن عطَّلَها لم يصِحَّ توكُّلُه؛ كما أنَّ القيامَ بالأسبابِ المفضيةِ إلى حصول الخير يُحقِّقُ رجاءه؛ فمنْ لم يَقُمْ بها كان رجاؤه تمنِّيًا، كما أنَّ مَن عطَّلها يكونُ توكُّلُه عجزًا وعجزُه توكُّلًا.

وسِرُّ التَّوكُّل وحقيقتُهُ هو: اعتمادُ القلبِ على الله وحدَه: فلا يضُرُّهُ مباشرةُ الأسبابِ؛ مع خلوِّ القلب من الاعتماد عليها والرُّكونِ إليها، كما لا ينفعُهُ قوله: توكَّلتُ على الله؛ مع اعتمادِه على غيره ورُكونِه إليه وثقتِه به، فتوكُّلُ اللِّسانِ شيءٌ، وتوكُّلُ القلبِ شيءٌ؛ كما أنَّ توبةَ اللِّسانِ مع إصرارِ القلب شيءٌ، وتوبة القلبِ وإن لم ينطق اللِّسانُ شيءٌ، فقول العبد: توكَّلتُ على الله مع اعتمادِ قلبِه على غيره مثلُ قولِه: تبتُ إلى الله وهو مُصِرٌّ على معصيتِه مرتكبٌ لها.

❁ ❁ ❁

فائدة

الجاهلُ يشكُو اللهَ إلى النَّاسِ، وهذا غايةُ الجهلِ بالمشكُوِّ والمشكُوِّ إليه، فإنَّه لو عرفَ ربَّه لما شكاهُ، ولو عرفَ النَّاسَ لما شكَا إليهم.

ورأى بعضُ السَّلفِ رجلًا يشكُو إلى رجلٍ فاقتَه وضرورتَه، فقال: يا هذا! واللهِ ما زدتَ على أن شكوتَ مَنْ يَرحمك إلى من لا يرحمك[1].

وفي ذلك قيل:

وإذا شَكَوْتَ إلى ابْنِ آدم إنَّما ... تَشْكُو الرَّحيمَ إلى الَّذي لا يَرْحَمُ[2]

والعارفُ إنَّما يَشكُو إلى الله وحده.

وأعرفُ العارفين مَنْ جعلَ شكواهُ إلى الله مِنْ نفسِهِ لا مِنَ النَّاسِ؛ فهو يَشكُو مِنْ مُوجباتِ تسليطِ النَّاس عليه؛ فهو ناظرٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فالمراتبُ ثلاثةٌ: أخسُّها: أنْ تَشكُوَ الله إلى خلقِهِ، وأعلاها: أنْ تَشكُوَ نفسَك إليه، وأوسطها: أن تَشكُوَ خلقه إليه.

---

(١) أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٩٦٠٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٤٠١ العمروي)، عن الأَصْمَعِيّ، قَالَ: نَظَرَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ إِلَى رَجُلٍ يَشْكُو، فَقَالَ: «يَا هَذَا، تَشْكُو مَنْ يَرْحَمُكَ إِلَى مَنْ لَا يَرْحَمُكَ»، وذكره عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في «الرد على البكري» (١/ ٢٢٣)، والذَّهبي في «تاريخه» (١٢/ ٣٣٧ تدمري)، وفي «السِّير» (٨/ ٤٣٩ الرسالة). ورواه أبو بكر الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ١٤٨ مشهور) عن سفيان الثوري.

(٢) ذكره المؤلِّف أيضًا في «مدارج السالكين» (٢/ ١٦١) ولم ينسبه لقائل، لكن ذكر البيت الذي قبله فقال:

وإذا عرتك بليَّة فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

قاعدة جليلة

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فَتضمنتْ هذهِ الآيةُ أمورًا:

أحدُها: أنَّ الحياة النَّافعة إنَّما تَحصُلُ بالاستجابةِ لله ورسولِهِ؛ فمنْ لم تَحْصُلْ لهُ هذه الاستجابةُ فلا حياةَ له، وإنْ كانت لهُ حياةٌ بهيميَّةٌ مشتركةٌ بينه وبين أرذلِ الحيوانات.

فالحياةُ الحقيقيَّةُ الطَّيِّبةُ هي حياةُ مَن استجابَ لله والرَّسولِ ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياءُ وإن ماتوا، وغيرُهم أمواتٌ وإن كانوا أحياء الأبدان.

ولهذا كان أكملُ النَّاسِ حياةً أكملَهم استجابةً لدعوة الرَّسول؛ فإنَّ كلَّ ما دعا إليه ففيه الحياةُ؛ فمَن فاتَه جزءٌ منه فاتَه جزءٌ من الحياةِ، وفيهِ مِن الحياةِ بحسبِ ما استجابَ للرَّسولِ.

قال مجاهدٌ: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ يعني: للحقِّ(١).

وقال قتادةُ: هو هذا القرآنُ؛ فيه الحياةُ والثِّقةُ(٢) والنَّجاةُ والعصمةُ في الدُّنيا والآخرة(٣).

وقال السُّدِّيُّ(٤): هو الإسلامُ؛ أحياهُم به بعد موتهم بالكفر(٥).

---

(١) «تفسير مجاهد» (ص: ١٣١).

(٢) سقطت كلمة (الثقة)، من طبعة (المجمع).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٠).

(٤) هو المفسّر أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السُّدِّي الحجازي، توفي سنة (١٢٧هـ)، انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٦٤-٢٦٥).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٠).

وقال ابنُ إسحاق وعُروةُ بن الزبير واللفظ لهُ: لِما يُحْيِيكُمْ؛ يعني: للحربِ التي أعزَّكُمُ الله بها بعدَ الذُّلِّ، وقوَّاكم بعد الضَّعْفِ، ومنعكم بها مِن عدُوِّكم بعدَ القهر منهم لكم[١].

وهذهِ كلُّها عباراتٌ عن حقيقةٍ واحدةٍ، وهي القيام بما جاءَ بِهِ الرَّسولُ ظاهرًا وباطنًا.

قال الواحديُّ: والأكثرون على أنَّ معنى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: هو الجهادُ، وهو قولُ ابن اسحاق واختيارُ أكثرِ أهل المعاني[٢].

قال الفرَّاءُ: إذا دَعاكُم إلى إحياءِ أمركم بجهادِ عدوِّكُم[٣]. يريدُ: أنَّ أمرهم إنَّما يَقوَى بالحرِب والجهادِ؛ فلو تركوا الجهادَ ضعُف أمرُهم، واجترأ عليهم عدوُّهم[٤].

قلتُ: الجهادُ مِنْ أعظم ما يُحيِيْهم به في الدُّنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، أمَّا في الدُّنيا فإنَّ قوَّتَهم وقهرَهم لعدوِّهم بالجهادِ. وأمَّا في البرزخِ فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وأمَّا في الآخرةِ فإنَّ حظَّ المجاهدين والشُّهداء من حياتها ونعيمها أعظمُ من حظِّ غيرهم.

ولهذا قال ابنُ قُتَيبة: لِما يُحْيِيكُم؛ يعني الشهادة[٥].

وقال بعضُ المفسِّرين: لِما يُحْيِيكُمْ؛ يعني الجنَّةَ؛ فإنَّها دارُ الحَيَوان، وفيها الحياةُ الدائمةُ الطيبةُ. حكاهُ أبو عليٍّ الجرجانيُّ[٦].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٠٥) عن ابن اسحاق وحده، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٠) عن ابن اسحاق، و(٥/ ١٦٧٩) عن ابن الزبير.

(٢) «التفسير البسيط» (١٠/ ٨٧-٨٨)، وأمَّا قول ابن إسحاق فقد سبق ذكره قبل قليل.

(٣) «معاني القرآن» (١/ ٤٠٧)، ولفظه: «استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم إلى إحياء أمركم».

(٤) «التفسير البسيط» (١٠/ ٨٨).

(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ٣٤٤).

(٦) ذكره عنه الواحدي في «التفسير البسيط» (١٠/ ٨٩)، وذكره الآلوسي عن أبي مسلم كما في «روح =

والآيةُ تتناولُ هذا كلَّه؛ فإنَّ الإيمانَ والإسلامَ والقرآن والجهاد تُحيِي القلوب الحياة الطَّيِّبة، وكمالُ الحياة في الجنَّةِ، والرَّسولُ داعٍ إلى الإيمان وإلى الجنَّةِ؛ فهو داعٍ إلى الحياة في الدُّنيا والآخرة.

والإنسانُ مضطرٌّ إلى نوعين من الحياة:

حياةُ بدنه الَّتي بها يُدرِكُ النَّافعَ والضَّارَّ ويُؤثِرُ ما ينفعُهُ على ما يضُرُّهُ، ومتى نقصَتْ فيه هذه الحياةُ ناله مِنَ الألمِ والضَّعف بحسب ذلك؛ ولذلك كانت حياةُ المريض والمحزون وصاحبِ الهمِّ والغمِّ والخوفِ والفقرِ والذُّلِّ دونَ حياةِ مَن هو مُعافًى مِن ذلك.

وحياةُ قلبِهِ وروحِهِ التي بها يُميِّزُ بين الحقِّ والباطلِ والغيِّ والرَّشادِ والهُدى والضَّلالِ، فيختارُ الحقَّ على ضدِّهِ، فتُفيدُهُ هذه الحياةُ قوَّةَ التَّمييزِ بينَ النَّافعِ والضَّارِّ في العلومِ والإراداتِ والأعمالِ، وتُفيدُهُ قوَّةَ الإيمانِ والإرادةِ والحبِّ للحقِّ، وقوَّةَ البغضِ والكراهةِ للباطلِ؛ فشعورُه وتمييزُه وحبُّه ونفرتُهُ بحسب نصيبِهِ مِن هذهِ الحياة؛ كما أنَّ البدنَ الحيَّ يكونُ شعورُهُ وإحساسُهُ بالنَّافعِ والمؤلِمِ أتمَّ، ويكونُ ميلُهُ إلى النَّافعِ ونفرتُهُ عن المؤلِمِ أعظمَ؛ فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حياة القلب؛ فإذا بَطلتْ حياتُه بطلَ تمييزُه، وإن كان له نوعُ تمييزٍ لم يكن فيه قوَّةٌ يُؤثِرُ بها النَّافعَ على الضَّارِّ.

كما أنَّ الإنسان لا حياةَ لهُ حتى يَنفُخَ فيهِ الملَكُ الَّذي هو رسولُ الله مِن روحِهِ فيصيرَ حيًّا بذلك النَّفخ، وكانَ قبلَ ذلك مِن جُملةِ الأمواتِ، فكذلكَ لا حياةَ لرُّوحِهِ وقلبِهِ حتَّى يَنفُخَ فيهِ الرَّسولُ ﷺ من الرُّوح الَّذي أُلقِيَ إليه؛ قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن

=

المعاني» (٥/ ١٧٨)، وذكر الواحدي في «الوجيز» (١/ ٢٦٣) ما يدل على ذلك فقال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] يعني: الجهاد؛ لأنَّ به يحيا أمرهم ويقوى، ولأنَّه سبب الشَّهادة، والشُّهداء أحياءٌ عند ربِّهم، ولأنَّه سببٌ للحياة الدَّائمة في الجنَّة.

يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فأخبرَ أنَّ وحيَهُ روحٌ ونورٌ.

فالحياةُ والاستنارةُ موقوفةٌ على نفخِ الرَّسول الـمَلَكيِّ؛ فمَنْ أصابَهُ نفخُ الرَّسول الملكيِّ ونفخُ الرَّسول البشريِّ حصلتْ له الحياتانِ، ومَن حصلَ لهُ نفخُ الملَكِ دون نفخ الرَّسول حصلتْ له إحدى الحياتين وفاتتْهُ الأخرى.

قال تعالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، فجمعَ لهُ بينَ النُّور والحياة؛ كما جمعَ لمن أعرضَ عن كتابِهِ بين الموت والظُّلمة.

قال ابنُ عبَّاس وجميعُ المفسرين: كان كافرًا ضالًّا فهديناه[1].

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٣] يتضمَّن أمورًا:

أحدُها: أنَّه يمشي في النَّاسِ بالنُّور وهم في الظُّلمة، فمَثَلُهُ ومثلُهم كمثلِ قومٍ أظلمَ عليهم اللَّيلُ فضلُّوا ولم يهتدوا للطَّريقِ، وآخر معه نورٌ يمشي بِهِ في الطَّريقِ ويَراها ويَرى ما يحذَرُهُ فيها.

وثانيها: أنَّه يمشي فيهم بنورِهِ، فهم يَقْتَبِسونَ منه لحاجتهم إلى النُّورِ.

وثالثها: أنَّه يمشي بنورِهِ يومَ القيامةِ على الصِّراطِ إذا بقي أهل الشِّركِ والنفاق في ظلماتِ شركهم ونفاقهم.

وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٣٥) بلفظ: «**من كان كافرًا فهديناه**»، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨١) بمثل سياق المؤلف، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٢) فقال: «أَخْرَج ابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عبَّاس ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٣] قال: كان كافرًا ضالًّا فهديناه».

المشهورُ في الآيةِ أنَّه يَحولُ بين المؤمنِ وبين الكفرِ، وبين الكافرِ وبين الإيمانِ، ويَحولُ بين أهلِ طاعتِهِ وبين معصيتِهِ، وبين أهلِ معصيتِهِ وبين طاعتِهِ. وهذا قولُ ابن عبَّاسٍ وجمهور المفسرين[(١)].

وفي الآيةِ قولٌ آخرُ: إنَّ المعنى أنَّه سُبْحَانَهُ قريبٌ من قلبِهِ، لا تخفَى عليه خافيةٌ؛ فهو بينه وبين قلبِهِ. ذكره الواحديُّ عن قتادة[(٢)]. وكأنَّ هذا أنسبُ بالسِّياقِ لأنَّ الاستجابة أصلُها بالقلبِ؛ فلا تَنفعُ الاستجابةُ بالبدنِ دون القلب؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ بين العبد وبين قلبِهِ؛ فيعلمُ هل استجابَ لهُ قلبه؟ وهل أضمرَ ذلك أو أضمرَ خلافه؟

وعلى القول الأوَّل فوجهُ المناسبة أنَّكم إن تثاقلتُم عن الاستجابةِ وأبطأتُم عنها؛ فلا تَأمَنوا أنَّ الله يَحُول بينكم وبين قلوبكم، فلا يُمكِّنكم بعد ذلك من الاستجابة؛ عقوبةً لكم على تركها بعد وضوحِ الحقِّ واستبانتِهِ، فيكونُ كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١]؛ ففي الآيةِ تحذيرٌ عن تركِ الاستجابةِ بالقلبِ وإنْ استجابَ بالجوارحِ.

وفي الآيةِ سرٌّ آخرُ، وهو أنَّه جَمعَ لهم بين الشَّرعِ والأمر بهِ، وهو الاستجابةُ وبين القدر والإيمان بهِ؛ فهي كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥ - ٥٦].

والله أعلم.

---

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ١٠٨ وما بعدها)، وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة وأبي صالح ومجاهد والسدي وغيرهم كما في «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٨١).

(٢) «التفسير البسيط» (١٠/ ٩٢) ولفظه: «معنى ذلك أنه قريب من قلبه، لا يخفى عليه شيءٌ أظهره أو أسرَّه».

وقول قتادة ذكره الطبريُّ في «تفسيره» (١١/ ١١٢)؛ قال: وقال آخرون، ولم يسمِّ من قاله.

فائدة جليلة

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقوله عزوجلّ: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

فالآية الأولى في الجهادِ الَّذي هو كمال القوَّة الغضبيَّة.

والثَّانية في النِّكاحِ الَّذي هو كمال القوَّة الشَّهوانيَّة.

فالعبد يكرهُ مواجهةَ عدوِّهِ بقوَّتِهِ الغضبية خشيةً على نفسهِ منه، وهذا المكروهُ خيرٌ لهُ في معاشِهِ ومعادِهِ، ويُحِبُّ الموادعةَ والمتاركةَ، وهذا المحبوبُ شرٌّ له في معاشِهِ ومعادِهِ.

وكذلك يكرهُ المرأةَ لوصفٍ من أوصافها، وله في إمساكها خيرٌ كثير لا يَعرِفُه، ويُحِبُّ المرأة لوصفٍ من أوصافها، وله في إمساكها شرٌّ كثيرٌ لا يَعرِفهُ.

فالإنسانُ -كما وصفهُ بِهِ خالقُه- ظَلومٌ جَهولٌ؛ فلا ينبغي أن يجعلَ المعيارَ على ما يضرُّه وينفعه ميلَه وحبَّه ونفرتَه وبُغضَه، بل المعيارُ على ذلك ما اختارَهُ الله له بأمرِهِ ونهيِهِ؛ فأنفعُ الأشياء له على الإطلاق طاعةُ ربِّه بظاهره وباطنه، وأضرُّ الأشياء عليهِ على الإطلاق معصيتُه بظاهره وباطنه؛ فإذا قامَ بطاعتِهِ وعبوديتَّهِ مخلصًا له فكلُّ ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيرًا له، وإذا تخلَّى عن طاعتِهِ وعبوديَّتِهِ فكلُّ ما هو فيه من محبوبٍ هو شرٌّ له.

فمن صحَّتْ له معرفةُ ربِّه والفقهُ في أسمائِهِ وصفاتِهِ؛ عَلِم يقينًا أنَّ المكروهات الَّتي تُصيبه والمِحَن التي تَنزِل به فيها ضروبٌ من المصالحِ والمنافعِ الَّتي لا يُحصيها علمُه ولا فِكرتُه، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يُحِبُّ؛ فعامَّةُ مصالح النُّفوس في مكروهاتها؛ كما أنَّ عامَّةَ مضارِّها وأسباب هَلَكَتِها في محبوباتها.

فانظُـرْ إلى غارسِ جنَّةٍ من الجنَّات خبيرٍ بالفلاحة؛ غَرَسَ جنةً، وتعاهدَها بالسَّـقي والإصلاح حتَّى أثمرتْ أشـجارها، فأقبل عليها يَفصِلُ أوصالَها ويقطع أغصانَها لعلمه أنَّهـا لـو خُلِّيتْ عـلى حالها؛ لم تَطِـبْ ثمرتُهـا فيُطعِّمُها من شـجرةٍ طيِّبة الثَّمـرة، حتى إذا التحمتْ بها واتَّحدتْ وأعطتْ ثمرتَها؛ أقبل يُقلِّمُها ويقطع أغصانَها الضَّعيفة التي تُذهِب قوَّتَهـا، ويُذيقُهـا ألمَ القطع والحديـد لمصلحتها وكمالها؛ لتصلُحَ ثمرتُهـا أن تكون بحضرةِ الملـوك، ثُمَّ لا يَدَعُهـا ودواعي طبعِها مِن الشُّربِ كلَّ وقتٍ، بل يُعَطِّشُـها وقتًا ويسـقيها وقتًـا، ولا يترك الماء عليها دائمًا، وإن كان ذلـك أنضرَ لورقها وأسرعَ لنباتها، ثُمَّ يَعمِدُ إلى تلك الزِّينة التي زُيِّنت بها من الأوراق، فيُلقي عنها كثيرًا منها؛ لأنَّ تلك الزِّينة تَحُول بين ثمرتها وبين كمال نُضْجِها واستوائها؛ كما في شـجر العنب ونحـوه، فهو يقطع أعضاءها بالحديـد، ويُلقي عنها كثيرًا من زينتها، وذلك عينُ مصلحتها؛ فلو أنَّها ذاتُ تمييزٍ وإدراكٍ كالحيوان؛ لتوهَّمتْ أنَّ ذلك إفسادٌ لها وإضرارٌ بها، وإنَّما هو عينُ مصلحتها.

وكذلك الأب الشَّفيق على ولدِهِ العالمُ بمصلحتِهِ؛ إذا رأى مصلحتَه في إخراجِ الدَّم الفاسد عنه؛ بَضَّع جلدَه وقطعَ عروقه وأذاقه الألم الشَّديد، وإن رأى شفاءه في قطعِ عضوٍ من أعضائِهِ أبانَهُ عنهُ؛ كلُّ ذلكَ رحمةً به وشفقةً عليه، وإن رأى مصلحته في أن يُمسِك عنه العطاءَ لم يُعطِه ولم يُوسِّع عليه؛ لعلمِه أنَّ ذلك أكبرُ الأسبابِ إلى فسادِهِ وهلاكِهِ، وكذلك يمنعه كثيرًا من شهواتِهِ حِميةً له ومصلحةً لا بخلًا عليه.

فأحكـم الحاكمـين وأرحمُ الرَّاحمـين وأعلم العالمـين الذي هو أرحم بعبـادِهِ منهم بأنفسـهِم ومـن آبائهِم وأمَّهاتِهـم؛ إذ أنزلَ بهم ما يكرهون؛ كان خـيرًا لهم من أن لا يُنزِله بهم؛ نظرًا منه لهم وإحسـانًا إليهم ولطفًا بهم، ولو مُكِّنوا من الاختيار لأنفسـهم لعَجَزوا عن القيامِ بمصالحهم علمًا وإرادةً وعملًا، لكنه سُبْحَانَهُ تولى تدبيرَ أمورهم بموجبِ علمِهِ وحكمتِـهِ ورحمتِهِ؛ أحبُّوا أم كرهـوا، فعرفَ ذلك الموقنون بأسمائِهِ وصفاتِهِ؛ فلم يتَّهموهُ

في شيء من أحكامِهِ، وخَفِيَ ذلك على الجهَّالِ بهِ وبأسمائِهِ وصفاتِهِ؛ فنازعوه تدبيرَه، وقَدَحُوا في حكمتِهِ، ولم ينقادوا لحكمِهِ، وعارضوا حكمَه بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وسياساتهم الجائرة، فلا لربهم عَرفوا، ولا لمصالحهم حَصَّلوا. والله الموفق.

ومتى ظَفِر العبدُ بهذه المعرفةِ سكنَ في الدُّنيا قبلَ الآخرة في جنَّةٍ لا يُشبِهُ نعيمُها إلَّا نعيم جنَّةِ الآخرة؛ فإنَّه لا يزال راضيًا عن ربِّه، والرِّضى جنَّة الدُّنيا ومُستراحُ العارفين فإنَّه طِيبُ النَّفس بما يَجري عليه من المقاديرِ التي هي عين اختيار الله له وطمأنينتُها إلى أحكامِهِ الدِّينيةِ، وهذا هو الرِّضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمَّدٍ رسولًا، وما ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن لم يَحْصل له ذلك، وهذا الرِّضى هو بحسبِ معرفتِهِ بعدل الله وحكمته ورحمته وحسنِ اختياره؛ فكلَّما كان بذلك أعرفَ كان به أرضى.

فقضاء الرَّبِّ سُبْحَانَهُ في عبدِهِ دائرٌ بين العدل والمصلحة والحكمة والرَّحمة، لا يَخرُج عن ذلك البتَّة؛ كما قال ﷺ في الدُّعاءِ المشهور: «**اللَّهُمَّ! إنِّي عَبْدُكَ، ابنُ عَبْدِكَ، ابنُ أمَتِكَ، نَاصِيَتي بِيَدِكَ، مَاضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قَضَاؤُكَ، أَسأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفسَكَ، أَو أنْزَلتَهُ في كِتَابِكَ، أو عَلَّمتَه أَحَدًا منْ خَلْقِكَ، أَو اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْمِ الغَيبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبيعَ قَلبِي، ونُورَ صَدْرِي، وَجلاءَ حُزْنِي، وذَهَابَ هَمِّي وغَمِّي، مَا قَالها أَحَدٌ قَطُّ إلَّا أَذْهَبَ اللهُ غَمَّهُ وَهَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَه فَرَحًا**». قالوا: أفلا نَتعلَّمهُنَّ يا رسول الله؟ قال: «**بلى! يَنْبَغِي لمنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ**»[1]، والمقصود قوله: «**عدلٌ فيَّ قضاؤك**»، وهذا يتناول كلَّ قضاءٍ يَقْضِيه على عبدِهِ؛ من عقوبة، أو ألم، وسبب ذلك؛ فهو الذي قضى بالسَّبب وقضى بالمسبِب، وهو عدلٌ في هذا القضاء، وهذا

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم (٣٧١٢، ٤٣١٨)، وابن حبَّان في «صحيحه» برقم (٩٧٢)، والحاكم في «المستدرك» برقم (١٨٧٧)، من طريق أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والحديث صحَّحه الشيخ الألباني في «السّلسلة الصحيحة» برقم (١٩٩).

القضـاءُ خيرٌ للمؤمنِ كما قال ﷺ: «**والَّذي نَفْســي بيَـدِهِ لا يَقضي اللهُ لِلمُؤْمِنِ قَضَاءً، إلَّا كَانَ خيرًا لَهُ، وَليسَ ذَلِكَ إلَّا لِلمُؤْمِنِ**»[١].

قال العلَّامةُ ابنُ القيِّمِ: فسـألتُ شـيخَنا: هل يدخُلُ في ذلـك قضاءُ الذَّنب؟ فقال: نعم بشرطه[٢].

فأجمَـلَ في لفظـة (بشرطه) ما يَترتَّـبُ على الذَّنبِ مـن الآثارِ المحبوبة لله مـن التَّوبةِ والانكسارِ والنَّدمِ والخُضوعِ والذُّلِّ والبكاءِ وغير ذلك.



---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم (١٢٩٠٦) من طريق القاسم بن شريح عن أبي بحر عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**عَجِبْتُ للمُؤْمِنِ، إنَّ اللهَ لا يَقْضِي لِلمُؤْمِنِ قَضَاءً إلَّا كَانَ خَيرًا لَهُ**».
والحديث صحيح صحَّحه الشيخ الألباني في تخريج أحاديث «شرح العقيدة الطحاوية» (ص: ١٦٣).
و«السلسلة الصحيحة» رقم (١٤٨).

(٢) ذكـر المؤلف في «مدارج السـالكين» (٢/ ٢١٢)، ما يدلُّ على ذلـك فقال: «وقوله: (عدل فيَّ قضاؤك) يعـم قضاء الذنب وقضاء أثره وعقوبته فإن الأمريـن من قضائه عَزَّوَجَلَّ وهو أعدل العادلين في قضائه بالذنب وفي قضائه بعقوبته».
وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية قريبًا من ذلك كما في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٤-٤٥).

فَائِدَة

لا تتِمُّ الرَّغبـةُ في الآخرةِ إلَّا بالزُّهدِ في الدُّنيا، ولا يستقيمُ الزُّهـدُ في الدُّنيا إلَّا بعدَ نظرين صحيحين:

نظـرٌ في الدنيـا وسرعةِ زوالِها وفنائِهـا واضمحلالِها ونقصِها وخسَّـتِها وألمِ المزاحمةِ عليها والحرصِ عليها، وما في ذلك من الغُصَصِ والنَّغَصِ والأنكادِ، وآخِرُ ذلكَ الزَّوالُ والانقطاعُ، مع ما يُعقِبُ من الحسـرةِ والأسـف؛ فطالبُها لا ينفكُّ من همٍّ قبل حصولها، وهمٍّ في حالِ الظَّفرِ بها، وغمٍّ وحزنٍ بعد فواتها، فهذا أحدُ النَّظرين.

النَّظـرُ الثَّـاني في الآخرةِ وإقبالِهـا ومجيئها ولا بُدَّ، ودوامِها وبقائِهـا، وشرفِ ما فيها مـن الخـيراتِ والمسرَّاتِ، والتَّفـاوت الَّذي بينه وبـينَ ما ها هنا؛ فهي كـما قال الله سُبْحَانَهُ ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]، فهـي خـيراتٌ كاملـةٌ دائمـةٌ، وهـذه خيـالاتٌ ناقصـةٌ منقطعةٌ مضمحلَّةٌ.

فـإذا تـمَّ له هـذان النَّظران آثرَ مـا يقتضي العقلُ إيثـارَهُ، وزَهِدَ فيـما يقتضـي الزُّهدَ فيه.

فـكلُّ أحدٍ مطبوعٌ على أن لا يـتركَ النَّفعَ العاجلَ، واللَّذَّةَ الحاضرةَ إلى النَّفعِ الآجل واللَّـذَّة الغائبـة المنتظرة إلَّا إذا تبيَّنَ له فضلُ الآجلِ عـلى العاجلِ وقويَتْ رغبتُهُ في الأعلى الأفضـل، فإذا آثرَ الفانيَ النَّاقـصَ كان ذلك إمَّا لعدمِ تَبيُّنِ الفضل له، وإمَّا لعدمِ رغبتِه في الأفضل، وكلُّ واحدٍ من الأمرين يدلُّ على ضَعْفِ الإيمانِ وضَعْفِ العقلِ والبصيرةِ، فإنَّ الرَّاغـبَ في الدُّنيـا الحريصَ عليها المؤثِرَ لهـا: إمَّا أن يُصدِّقَ بأنَّ ما هنـاك أشرفُ وأفضلُ وأبقى، وإمَّا أن لا يُصدِّقَ فإنْ لم يُصدِّقْ بذلكَ كان عادمًا للإيمان رأسًا، وإن صدَّقَ بذلك ولم يُؤْثِره كان فاسدَ العقلِ سيِّئ الاختيار لنفسه.

وهذا تقسيمٌ حاضرٌ[١] ضروريٌّ لا ينفكُّ العبدُ من أحد القسمين منه؛ فإيثارُ الدُّنيا على الآخرةِ: إمَّا من فسادٍ في الإيمانِ، وإمَّا من فسادٍ في العقلِ، وما أكثرُ ما يكون منهما.

ولهذا نبذَها رسولُ الله ﷺ وراءَ ظهرِه هو وأصحابُهُ، وصرَفُوا عنها قلوبَهم واطَّرَحُوهَا ولم يألَفُوها وهَجَرُوها[٢] ولم يميلوا إليها، وعدُّوها سجنًا لا جنَّةً، فزَهِدُوا فيها حقيقةَ الزُّهد، ولو أرادوها لنالوا منها كلَّ محبوبٍ ولوَصَلوا منها إلى كلِّ مرغوبٍ؛ فقد عرضتْ عليه مفاتيحُ كنوزِها فردَّها وفاضتْ على أصحابِه فآثروا بها ولم يبيعوا حظَّهم من الآخرةِ بها، وعلِمُوا أنَّها معبرٌ وممرٌّ لا دار مُقامٍ ومُستقرٍّ، وأنَّها دارُ عبورٍ لا دارُ سرورٍ، وأنَّها سحابةُ صيفٍ تنقَشِعُ عن قليلٍ، وخَيالُ طيفٍ ما استتمَّ الزِّيارةَ حتى آذن بالرَّحيل.

قال النبي ﷺ: «**مَالي وَللدُّنْيَا إنَّما أنَا كَراكِبٍ قالَ في ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[٣] وقال: «**مَا الدُّنيَا في الآخِرَة إلَّا كَمَا يُدْخِلُ أَحدُكُم أصْبُعَه في اليمِّ فلينْظُرْ بم تَرْجِعُ؟**»[٤] وقال خالقها سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٤ - ٢٥] فأخبرَ عن خِسَّةِ الدُّنيا وزَهَّدَ فيها، وأخبرَ عن دارِ السَّلامِ ودعا إليها.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة المجمع (حاصر).

(٢) وفي الأصل: (ويجروها)، وهو خطأ.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٧٧)، وابن ماجه برقم (٤١٠٩) والإمام أحمد برقم (٣٧٠٩) من حديث عبد الله بن مسعود، وأخرجه الإمام أحمد برقم (٢٧٤٤) من حديث ابن عبَّاس، وصحَّحه الشَّيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة برقم (٤٣٨) و(٤٣٩).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٥٥-٢٨٥٨)، من حديث المستورد بن شداد، ولفظه: «**وَاللهِ مَا الدُّنْيَا في الْآخِرَةِ إلَّا مِثْلُ ما يجْعلُ أحدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟**».

وقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥ - ٤٦]، وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤ - ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقد تواعدَ سُبْحَانَهُ أعظمَ الوعيدِ لمن رضيَ بالحياةِ الدُّنيا واطمأنَّ بها وغفَلَ عن آياتِه ولم يرجُ لقاءَه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

وعيَّر سُبْحَانَهُ مَن رضيَ بالدُّنيا من المؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وعلى قَدرِ رغبةِ العبدِ في الدُّنيا ورضاهُ بها يكون تثاقُله عن طاعةِ الله وطلبِ الآخرةِ.

ويكفي في الزُّهد في الدُّنيا: قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ

يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٦]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وقوله: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤]، وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

والله المستعان وعليه التكلان.



قاعدة

أساسُ كلِّ خيرٍ أن تعلم أنَّ ما شاءَ الله كان وما لم يشأ لم يكن، فتيقَّنْ حينئذٍ أنَّ الحسناتِ من نِعَمِه فتشكرهُ عليها وتتضرَّع إليه أنْ لا يقطعها عنك، وأنَّ السَّيِّئات مِن خذلانهِ وعقوبتِهِ، فتبتهل إليه أن يحولَ بينك وبينها ولا يَكِلَكَ في فعل الحسنات وترك السَّيِّئات إلى نفسك.

وقد أجمعَ العارفون على أنَّ كلَّ خيرٍ فأصلهُ بتوفيقِ الله للعبدِ، وكلَّ شرٍّ فأصلُهُ خِذلانه لعبده.

وأجمعوا أنَّ التَّوفيق أنْ لا يَكِلَكَ الله إلى نفسِك، وأنَّ الخِذلان أن يُخلِّيَ بينك وبين نفسك.

فإذا كان كلُّ خيرٍ فأصلُه التَّوفيق، وهو بيدِ الله لا بيد العبد؛ فمفتاحه الدُّعاءُ والافتقارُ وصدقُ اللَّجإ والرَّغبة والرَّهبة إليه، فمتى أعطى العبدَ هذا المفتاحَ فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضلَّه عن المفتاح بقيَ باب الخير مُرْتجًا دونه.

قال أميرُ المؤمنين عمر بن الخطَّاب: إنِّي لا أحمِلُ همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدُّعاء؛ فإذا أُلهمتُ الدُّعاءَ فإنَّ الإجابة معه[(١)].

وعلى قدرِ نيَّة العبد وهمَّتِهِ ومرادِهِ ورغبتِهِ في ذلك يكون توفيقُه سُبْحَانَهُ وإعانته، فالمعونة من الله تَنزِلُ على العبادِ على قدرِ هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخِذلان يَنزِل عليهم على حسب ذلك.

---

(١) لم أجد لهذا الأثر إسنادًا متّصلًا إلى أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصّراط المستقيم» (٢/ ٢٢٩)، و«المجموع» (٨/ ١٩٣)، وذكره ابن القيِّم أيضًا في «الجواب الكافي» (ص: ١٧)، و«مدارج السَّالكين» (٣/ ١٠٣).

فـالله سُبْحَانَهُ أحكم الحاكمين وأعلم العالمين، يضـعُ التَّوفيقَ في مواضعهِ اللَّائقة به، والخِـذلانَ في مواضعـهِ اللَّائقة به، هـو العليم الحكيم وما أُتِيَ مَـن أُتِيَ إلَّا من قبل إضاعة الشُّـكر وإهمال الافتقار والدُّعاء، ولا ظَفِرَ مَن ظفرَ بمشـيئة الله وعونه إلَّا بقيامهِ بالشُّكرِ وصدقِ الافتقار والدُّعاء.

ومِـلاكُ ذلـك الصَّبرُ؛ فإنَّه من الإيمان بمنزلةِ الرَّأس من الجسـدِ، فـإذا قطع الرَّأس فلا بقاءَ للجسد.

❁ ما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قسوة القلب، والبعدِ عن الله.

❁ خُلِقت النَّارُ لإذابةِ القلوب القاسية.

❁ أبعدُ القلوب من الله القلبُ القاسي.

❁ إذا قسا القلبُ قَحَطَتِ العينُ.

❁ قسوةُ القلب من أربعة أشياء إذا جاوزتْ قدرَ الحاجة: الأكل، والنَّوم، والكلام، والمخالطة.

❁ كـما أنَّ البـدن إذا مرض لم ينفع فيه الطَّعامُ والـشّرابُ، فكذلك القلبُ إذا مرض بالشَّهوات لم تَنْجَعْ فيه المواعظُ.

❁ من أراد صفاءَ قلبه فليُؤْثِر الله على شهوته.

❁ القلوبُ المتعلِّقةُ بالشَّهوات محجوبةٌ عن الله بقدر تعلُّقها بها.

❁ القلوبُ آنيةُ الله في أرضِهِ؛ فأحبُّها إليه أرقُّها وأصلبُها وأصفاها.

❁ شـغلوا قلوبهم بالدُّنيا، ولو شـغلوها بالله والدَّار الآخرة لجالَتْ في معاني كلامِهِ وآياتِهِ المشهودة، ورَجعتْ إلى أصحابها بغرائب الحكم وطُرَفِ الفوائد.

❁ إذا غُـذِيَ القلـبُ بالتَّذكُّر، وسُـقِيَ بالتَّفكُّـر، ونُقِّيَ من الدَّغَـل؛ رأى العجائبَ وأُلهِمَ الحكمةَ.

❁ ليـس كلُّ مـن تَحلَّى بالمعرفةِ والحكمةِ وانتحلهـا كان من أهلِها، بـل أهلُ المعرفة والحكمـة الَّذيـن أحيَـوا قلوبَهم بقتـلِ الهوى، وأمَّـا مَن قتلَ قلبـه فأحيا الهـوى؛ فالمعرفة والحكمة عاريَّةٌ على لسانِه.

❁ خَرابُ القلبِ من الأمنِ والغفلةِ، وعِمارتُهُ من الخشية والذِّكرِ.

❁ إذا زَهِـدَت القلـوبُ في موائـدِ الدُّنيا؛ قعـدتْ على مَوائِد الآخـرة بين أهل تلك الدَّعوة، وإذا رَضِيتْ بموائد الدُّنيا؛ فاتَتْها تلك الموائدُ.

❁ الشَّوقُ إلى الله ولقائِهِ نسيمٌ يَهُبُّ على القلبِ يُرَوِّحُ عنه وَهَجَ الدُّنيا.

❁ مَنْ وَطَّنَ قلبَه عند ربِّه سـكنَ واسـتراح، ومَن أرسَله في النَّاسِ اضطربَ واشتدَّ به القلقُ.

❁ لا تَدخلُ محبَّةُ الله في قلبٍ فيه حبُّ الدُّنيا إلَّا كما يَدخل الجملُ في سَمِّ الإبرة.

❁ وإذا أحبَّ الله عبدًا اصطنَعه لنفسِهِ، واجتباهُ لمحبَّتِهِ، واستخلصه لعبادته، فَشَغَلَ همَّهُ بِهِ، ولسانَهُ بذكرِهِ، وجوارحَهُ بخدمتِهِ.

❁ القلـبُ يَمرضُ كما يمرض البدنُ، وشـفاؤهُ في التَّوبةِ والحِمْيةِ، ويَصْدَأ كما تَصْدأ المرآةُ، وجلاؤهُ بالذِّكرِ، ويَعْرَى كما يَعْرَى الجسمُ، وزينتُهُ التَّقوى، ويجوعُ ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامُه وشرابُه المعرفةُ والمحبَّةُ والتَّوكُّلُ والإنابةُ والخدمةُ.

❁ إيَّـاك والغفلـةَ عمَّن جعلَ لحياتـك أجلًا، ولأيَّامِك وأنفاسِـك أمـدًا، ومن كلّ ما سواه بُدٌّ ولا بُدَّ لك منه.

❁ مَـن ترك الاختيارَ والتَّدبيرَ في طلـبِ زيادة دنيا أو جاهٍ أو في خوف نقصان أو في التَّخلُّص مِن عدوٍّ توكُّلًا على الله وثقةً بتدبيرِه له وحُسن اختيارِه له، فألقَى كَنَفَهُ بين يديه، وسـلَّم الأمرَ إليـه، ورضيَ بما يقضيه له؛ اسـتراحَ مِنَ الهُمومِ والغُمـومِ والأحزانِ، ومَن أبـى إلَّا تدبيرَهُ لنفسِـهِ؛ وقعَ في النَّكَدِ والنَّصَبِ وسـوءِ الحال والتَّعـب، فلا عيشَ يصفُو، ولا قلبَ يفرحُ، ولا عملَ يزكو، ولا أملَ يقوم، ولا راحةَ تدوم، واللهُ سُبْحَانَهُ سهَّل لخلقهِ السَّـبيلَ إليه، وحجبَهم عنه بالتَّدبيرِ، فمن رضيَ بتدبيرِ الله له، وسكنَ إلى اختيارِه، وسلَّم لحُكمه؛ أزالَ ذلك الحجاب، فأفضَى القلبُ إلى ربِّه واطمأنَّ إليه وسكن.

❁ المتوكِّلُ لا يسألُ غيرَ الله، ولا يرُدُّ على الله، ولا يدَّخِرُ مع الله.

❁ مَن شُغِلَ بنفسه شُغِلَ عن غيره، ومن شُغِلَ بربِّه شُغِلَ عن نفسه.

❁ الإخـلاصُ: هـو مـا لا يعلمـه مَلَكٌ فيكتبـه، ولَا عـدوٌّ فيُفسِـدهُ، ولَا يُعجَبُ به صاحبه فيُبطِله.

❁ الرِّضى سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

❁ النَّاسُ في الدُّنيا معذَّبون على قدرِ هممهم بها.

❁ للقلبِ ستَّة مواطنَ يجولُ فيها لا سابعَ لها: ثلاثةٌ سافلة، وثلاثةٌ عالية، فالسَّافلةُ: دنيـا تتزيَّـنُ له، ونفـسٌ تحدِّثُه، وعدوٌّ يوسـوِسُ له، فهـذه مواطنُ الأرواح السَّـافلة التي لا تـزالُ تجولُ فيها. والثَّلاثة العاليةُ: علمٌ يتبيَّنُ له، وعقلٌ يرشـدُه، وإلهٌ يعبدُه. والقلوب جوَّالةٌ في هذه المواطن.

❁ اتِّباعُ الهوى، وطولُ الأمل مادَّةُ كلِّ فسادٍ، فإنَّ اتباعَ الهوى يُعمِي عن الحقِّ معرفةً وقصدًا، وطول الأمل يُنسِي الآخرةَ، ويصُدُّ عن الاستعداد لها.

❁ لا يشمُّ عبدٌ رائحةَ الصِّدق، ويُداهِنُ نفسَه أو يُداهِنُ غيرَه.

❁ إذا أرادَ الله بعبدٍ خيرًا جعله معترفًا بذنبِهِ، مُمسِكًا عن ذنبِ غيره، جوادًا بما عنده، زاهدًا فيما عند غيره، محتملًا لأذى غيره، وإنْ أرادَ به شرًّا عَكَسَ ذلك عليه.

❁ الهمَّـةُ العليَّةُ لا تزالُ حائمةً حول ثلاثة أشـياء: تعرُّفٌ لصفةٍ من الصِّفات العليا تـزدادُ بمعرفتها محبَّـةً وإرادةً، وملاحظةٌ لـمِنَّـةٍ تزدادُ بملاحظتها شُـكرًا وطاعة، وتذكُّرٌ لذنب تزدادُ بتذكُّرِهِ توبةً وخشـيةً؛ فإذا تعلَّقتِ الهمَّةُ بسـوى هذه الثَّلاثة جالتْ في أوديةِ الوساوس والخطرات.

❁ مَـن عَشِـقَ الدُّنيا نظرتْ إلى قَدْرِهَـا عنده، فصيَّرَتْه مِن خَدَمِهـا وعبيدِها وأذلَّتْه، ومَن أعرَضَ عنها نظرتْ إلى كبر قدره، فخدمتهُ وذلَّتْ له.

❁ إنَّما يُقطَع السَّـفرُ ويَصِلُ المسـافرُ بلزومِ الجادَّة وسـيرِ اللَّيل، فإذا حادَ المسافرُ عن الطريقِ، ونامَ اللَّيل كلَّه فمتى يَصِلُ إلى مقصده؟!



فائدة جليلة

كلُّ مَـن آثـر الدُّنيا مِن أهل العلمِ واسـتحبَّها؛ فـلا بدَّ أن يقولَ عـلى الله غيرَ الحقِّ؛ في فتـواه وحكمِـه، في خبرِه وإلزامِه، لأنَّ أحكامَ الرَّبِّ سـبحانه كثيرًا ما تأتي على خلافِ أغـراضِ النَّاس، ولا سـيَّما أهل الرئاسـة والَّذين يتَّبعون الشَّـهوات؛ فإنَّهـم لا تتِمُّ لهم أغراضُهـم إلَّا بمخالفةِ الحـقِّ ودفعِه كثيرًا، فـإذا كانَ العالمُ والحاكِمُ محبًّا للرِّئاسـةِ، متَّبعًا للشَّـهواتِ لم يتمَّ له ذلكَ إلَّا بدفعِ ما يضادُّه من الحقِّ، ولا سـيَّما إذا قامتْ له شـبهةٌ فتَتَّفِقُ الشُّـبهةُ والشَّـهوةُ، ويثورُ الهوى، فيخفى الصَّوابُ وينطَمِسُ وجـهُ الحقِّ، وإن كانَ الحقُّ ظاهرًا لا خفاءَ به ولا شبهةَ فيه أقدمَ على مخالفتِه، وقال: لي مخرجٌ بالتَّوبةِ.

وفي هؤلاء وأشـباهِهم قال تَعَالَىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩]، [وقال تَعَالَىٰ فيهم أيضًا: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ][1] وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فأخـبرَ سُبۡحَانَهُ أنَّهم أخذوا العرضَ الأدنى مع علمِهم بتحريمِه عليهم، وقالوا: سـيُغفَرُ لنا، وإن عَـرِضَ لهـم عَرَضٌ آخر أخذوه؛ فهم مُـصِرُّون على ذلكَ، وذلكَ هـو الحاملُ لهم على أن يقولـوا عـلى الله غيرَ الحـقِّ، فيقولون: هذا حكمُـه وشرعُه ودينُه! وهم يعلمـون أنَّ دينَه وشرعَه وحكمَه خلافُ ذلك، أوْ لا يعلمونَ أنَّ ذلكَ دينَه وشرعَه وحكمَه! فتارةً يقولونَ على الله مالا يعلمونَ، وتارةً يقولون عليه ما يعلمونَ بطلانَهُ!

وأمَّـا الَّذيـن يتَّقون فيعلمـونَ أنَّ الـدَّار الآخرةَ خيرٌ مـن الدُّنيا، فـلا يحمِلُهم حُبُّ الرِّئاسـةِ والشَّـهوةِ على أن يُؤثِروا الدُّنيا على الآخرةِ، وطريقُ ذلك أن يتمسَّكوا بالكتابِ

---

(١) سقطت من الأصل.

والسُّنَّةِ، ويستعينوا بالصَّبرِ والصَّلاةِ، ويتفكَّروا في الدُّنيا وزوالها وخِسَّتِها، والآخرةِ وإقبالِها ودوامِها.

وهؤلاء لا بدَّ أن يبتَدِعوا في الدِّينِ مع الفجورِ في العملِ، فيجتمعُ لهم الأمران؛ فإنَّ اتِّباعَ الهوى يُعمي عينَ القلبِ؛ فلا يميِّزُ بين السُّنةِ والبِدعةِ، أو يُنْكِسُهُ؛ فيرى البدعةَ سُنَّةً والسُّنَّةَ بدعةً.

فهذه آفةُ العلماء إذا آثروا الدُّنيا واتَّبعوا الرئاساتِ والشَّهواتِ.

وهذه الآياتُ فيهم إلى قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]، فهذا مَثَلُ عالمِ السوءِ الَّذي يعملُ بخلافِ علمِه.

وتأمَّلْ ما تضمَّنتُه هذه الآية من ذمِّه، وذلكَ من وجوهٍ:

أحدها: أنَّه ضَلَّ بعد العلمِ، واختارَ الكفرَ على الإيمانِ عمدًا لا جهلًا.

وثانيها: أنَّه فارقَ الإيمانَ مفارقةَ مَنْ لا يعودُ إليه أبدًا؛ فإنَّه انسلخَ من الآياتِ بالجملةِ كما تنسلخُ الحيَّةُ من قِشْرِها، ولو بقيَ معه منها شيءٌ لم ينسلخْ منها.

وثالثها: أنَّ الشيطانَ أدركَه ولحقهُ بحيث ظفرَ به وافترسَه، ولهذا قال تَعَالَىٰ: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، ولم يقلْ: تَبِعَه؛ فإنَّ في معنى ﴿فَأَتۡبَعَهُ﴾ أدْركَه ولَحِقَه، وهو أبلغُ من (تَبِعَهُ) لفظًا ومعنًى.

ورابعها: أنَّه غَوَى بعد الرُّشدِ، والغَيُّ: الضَّلالُ في العلمِ والقَصدِ، وهو أخصُّ بفسادِ القصدِ والعملِ، كما أنَّ الضَّلالَ أخصُّ بفسادِ العلمِ والاعتقاد، فإذا أُفرِدَ أحدُهما دخلَ فيه الآخرَ، وإن اقترنا فالفرقُ ما ذُكِرَ.

وخامسها: أنَّه سُبْحَانَهُ لم يشأْ أن يرفَعَهُ بالعلمِ، فكان سبب هلاكِه؛ لأنَّه لمْ يُرفعْ به، فصارَ وَبَالًا عليه، فلو لم يكنْ عالمًا كانَ خيرًا له وأخفَّ لعذابِهِ.

وسادسها: أنَّه سُبْحَانَهُ أخبرَ عن خِسَّةِ همَّتِه، وأنَّه اختارَ الأسفلَ الأدنى على الأشرفِ الأعلى.

وسابعها: أنَّ اختياره للأدنى لم يكنْ عن خاطرٍ وحديثِ نفسٍ، ولكنَّه كانَ عن إخلادٍ إلى الأرضِ، ومَيلٍ[1] بكُلِّيَّتِه إلى ما هناك، وأصلُ الإخلادِ: اللُّزومُ على الدَّوامِ، كأنَّه قيلَ: لَزِمَ الميلَ إلى الأرض، ومِن هذا يُقال: أخلدَ فلانٌ بالمكانِ؛ إذا لَزِمَ الإقامةَ به، قال مالك بن نويرة:

بأبناءِ حيٍّ مِن قبائِلِ مالِكٍ وعَمرو بن يَرْبُوعٍ أقاموا فأخْلَدُوا[2]

وعبَّرَ عن ميلِهِ إلى الدُّنيا بإخلادِه إلى الأرض؛ لأنَّ الدُّنيا هي الأرضُ وما فيها وما يُستَخرَجُ منها من الزِّينةِ والمتاع.

وثامنها: أنَّه رَغِبَ عن هداه، واتَّبع هواهُ، فجعلَ هواهُ إمامًا له يقتدي به ويَتَّبِعُهُ.

وتاسعها: أنَّه شبَّهَهُ بالكلبِ الَّذي هو أخسُّ الحيوانات همَّةً، وأسقطُها نفسًا، وأبخلُها وأشدُّها كَلَبًا، ولهذا سُمِّيَ كلبًا.

وعاشرها: أنَّه شبَّهَ لَهَثَهُ على الدُّنيا، وعدمَ صبره عنها، وجَزَعَهُ لفقدِهَا، وحِرصَهُ على تحصيلها؛ بلَهَثِ الكلب في حالَتَي تركِهِ والحملِ عليه بالطَّردِ، وهكذا هذا: إن تُرِكَ فهو لهثَانُ على الدُّنيا، وإن وُعِظَ وزُجِرَ فهو كذلك، فاللَّهَثُ لا يُفارقُهُ في كلِّ حالٍ كلهثِ الكلبِ.

---

(١) في الأصل: (ولربما)، وهو خطأ.

(٢) «الأصمعيات» (ص: ١٩٣ عبد السلام هارون)، و«العقد الفريد» (٢/ ٢٧٩)، وذكره المؤلف في «إعلام الموقعين» (١/ ١٦٨) وذكر هناك من الفوائد المتعلقة بالآية مما لا يستغنى عنها.

قـال ابـنُ قتيبـة: كلُّ شيءٍ يلهثُ فإنَّما يلهثُ مـن إعياءٍ أو عَطَـشٍ؛ إلَّا الكلب؛ فإنَّه يلهثُ في حالِ الكلالِ، وحالِ الرَّاحَةِ، وحالِ الرَّيِّ، وحالِ العطشِ، فضربه الله مثلًا لهذا الكافـر فقال: إن وعظتَهُ فهو ضالٌّ، وإن تركتَهُ فهو ضالٌّ؛ كالكلب؛ إن طردتَهُ لَهَثَ، وإن تركتَهُ على حالِه لَهَثَ، وهذا التَّمثيلُ لم يقعْ بكلِّ كلبٍ، وإنَّما وقعَ بالكلبِ اللَّاهثِ، وذلك أخسُّ ما يكونُ وأشنَعُهُ(١).



(١) «تأويل مشـكل القرآن» (ص: ٢١٦ إبراهيم شـمس)، ولفظه: «كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطـش أو علـة، خلا الكلب، فإنه يلهث في حال الـكلال، وحال الراحة، وحال الصحة والمرض، وحال الري والعطش.
فضربه الله مثلًا لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طردته وزجرته فسـعى لهث، أو تركته على حاله أيضًا لهـث، ونحوه قوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].
وذكره بتمامه المؤلف في «إعلام الموقعين» (١/ ٢١٦).

فَصْلٌ

فهذا حالُ العالم الـمُؤْثِر الدُّنيا على الآخرة.

وأمَّـا العابـدُ الجاهـلُ فآفتُهُ من إعراضِـهِ عن العلـمِ وأحكامِهِ وغلبةُ خيالِـهِ وذُوقِهِ ووجْدِهِ وما تهواه نفسُهُ.

ولهذا قال سفيان بن عُيينة وغيره: احذروا فتنةَ العالِمِ الفاجِرِ، وفتنةَ العابِدِ الجاهِلِ؛ فإنَّ فتنتَهُما فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ(١).

فهذا بجهلِهِ يصُدُّ عن العلمِ وموجبِه، وذاكَ بِغيِّه يدعو إلى الفُجورِ.

وقـدْ ضربَ الله سُبْحَانَهُ مثل النَّوع الآخر بقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦ - ١٧].

وقصَّتُهُ معروفةٌ فإنَّه بنى أساسَ أمرِه على عبادةِ الله بجهلٍ، فأوقعه الشَّيطانُ بجهلِه، وكَفَّرَهُ بجهلِه(٢).

فهـذا إمامُ كلِّ عابـدٍ جاهلٍ يكفُرُ ولا يدري، وذاكَ إمامُ كلِّ عـالمٍ فاجرٍ يختارُ الدُّنيا على الآخرةِ.

---

(١) رواه ابـن المبارك في كتـاب «الزهـد - روايـة نعيـم» (٢/ ١٨)، وأحمـد في «العلـل ومعرفـة الرجال -رواية عبد الله- » (٣/ ١١٨ وصي الله)، والآجري في «أخلاق العلماء» (ص: ٨٧-٨٨ الأنصاري)، وأبـو نعيـم في «الحلية» (٧/ ٣٦)، والبيهقي في «المدخل إلى السـنن الكبرى» (ص: ٣٣٥ الأعظمي)، وفي «الشـعب» (٣/ ٣١٤ النـدوي)، عن سـفيان الثـوري. وفي بعض الروايات: أنه قـال: كان يقال، فذكره. وهو عند أبي نعيم في سياق طويل.

(٢) القصَّـة ذكرهـا الطَّـبري في «تفسـيره» (٢٢/ ٥٤١-٥٤٢-٥٤٣)، من رواية علي بـن أبي طالب وابن مسعود وابن عبّاس وغيرهم.

وأخرج الحاكم في «مستدركه» رواية علي بن أبي طالب وصحَّح إسنادها (٢/ ٥٢٦).

وقد جعلَ سُبْحَانَهُ رضَى العبدِ بالدُّنيا، وطمأنينتَهُ وغفلتَهُ عن معرفةِ آياتِهِ، وتدبُّرِها، والعملِ بها سببُ شقائِهِ وهلاكِهِ.

ولا يجتمعُ هذان -أعني: الرِّضَى بالدُّنيا، والغفلة عن آياتِ الرَّبِّ-، إلَّا في قلبِ مَنْ لا يؤمِنُ بالمعادِ، ولا يرجو لقاءَ ربِّ العباد، وإلَّا فلو رسخَ قدمُهُ في الإيمان بالمعاد؛ لما رضيَ بالدُّنيا ولا اطمأَنَّ إليها، ولا أعرضَ عن آياتِ الله.

وأنتَ إذا تأمَّلتَ أحوالَ النَّاسِ وجدتَ هذا الضَّربَ هو الغالب على الناسِ وهم عُمَّارُ الدُّنيا، وأقلُّ النَّاس عددًا مَنْ هو على خلافِ ذلكَ، وهو مِن أشدِّ النَّاسِ غُربةً بينهم، لهم شأنٌ وله شأنٌ، علمُهُ غيرُ علومِهم، وإرادتُه غيرُ إرادتِهم، وطريقُه غيرُ طريقِهم، فهو في وادٍ وهم في وادٍ.

قال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

ثم ذكرَ وصفَ ضدِّ هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]؛ فهؤلاء إيمانُهم بلقاءِ الله أورثَهم عدمَ الرِّضى بالدُّنيا والطّمأنينة إليها، ودوامَ ذكرِ آياتِهِ.

فهذه مواريثُ الإيمانِ بالمعادِ، وتلك مواريثُ عدمِ الإيمان به والغفلةِ عنه.

❁❁❁

فائدة عظيمة

أفضلُ ما اكتسبتْه النفوسُ وحصَّلتْهُ القلوبُ ونالَ به العبدُ الرِّفعةَ في الدُّنيا والآخرة هو: العلمُ والإيمانُ.

ولهذا قرنَ بينهما سُبحَانَهُ في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، وقوله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وهؤلاء هم خلاصةُ الوجودِ ولُبُّه، والمؤهَّلون للمراتبِ العاليةِ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ غالطون في حقيقةِ مسمَّى العلمِ والإيمانِ اللَّذين بهما السَّعادةُ والرِّفعةُ، وفي حقيقتهما، حتَّى إنَّ كلَّ طائفةٍ تظنُّ أنَّ ما معها من العلمِ والإيمانِ هو هذا الَّذي به تُنالُ السَّعادةُ، وليسَ كذلكَ، بل أكثرُهم ليسَ معهم إيمانٌ يُنْجِي، ولا علمٌ يرفَع، بل قد سدُّوا على نفوسِهم طُرُقَ العلمِ والإيمانِ اللَّذين جاءَ بهما الرَّسولُ ﷺ ودعا إليهما الأمَّةَ، وكان عليهما هو وأصحابُهُ من بعده، وتابعوهم على منهاجِهم وآثارِهم.

فكلُّ طائفةٍ اعتقدتْ أنَّ العلمَ ما معها، وفَرِحتْ به، ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣][1]، وأكثرُ ما عندهم كلامٌ وآراءٌ وخَرصٌ، والعلمُ وراءَ الكلامِ؛ كما قال حمَّاد بنُ زيد[2]: قلت لأيوبَ[3]: العلمُ اليومَ أكثرَ أو فيما تقدم، فقال: الكلامُ اليومَ أكثرُ، والعلمُ فيما تقدَّمَ أكثرُ[4].

---

(١) في الأصل: (وتقطعوا)، وما أثبتناه هو الصحيح.

(٢) هو: الإمام الحافظ أبو إسماعيل حماد بن زيد بن درهم الأزدي البصري الضرير، توفي (١٧٩هـ)، انظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٦٧).

(٣) هو: الإمام الحافظ أبو بكر أيوب بن أبي تميمة بن كيسان السختياني البصري، توفي بالطاعون سنة (١٣١هـ)، انظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ٩٨).

(٤) «المعرفة والتاريخ» للفسوي (٢/ ٣٠٢) بلفظ: قال سليمان: قال حماد: قيل لأيوب: العلم اليوم أكثر أم قلّ اليوم؟ قال: الكلام اليوم أكثر والعلم كان قبل اليوم أكثر.

ففرَّقَ هذا الرَّاسِخُ بين العلمِ والكلام.

فالكُتُبُ كثيرةٌ جدًّا، والكلامُ والجِدَالُ والـمُقدَّراتُ الذِّهنيَّةِ كثيرةٌ، والعلمُ بمعزلٍ عن أكثرِها، وهو ما جاءَ به الرَّسولُ عن الله، قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١]، وقال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال في القرآن: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] أي: وفيهِ علمُهُ.

ولـمَّا بَعُدَ العهدُ بهذا العلم؛ آلَ الأمرُ بكثيرٍ من النَّاسِ إلى أن اتَّخذوا هواجسَ الأفكارِ وسوانِحَ الخواطرِ والآراءِ علمًا، ووضعوا فيها الكتبَ، وأنفقوا فيها الأنفاسَ، فضيَّعوا فيها الزَّمانَ، وملؤوا بها الصُّحُفَ مِدادًا، والقلوبَ سوادًا، حتى صرَّح كثيرٌ منهم أنَّه ليسَ في القرآنِ والسُّنةِ علمٌ، وأنَّ أدلَّتها لفظيَّةٌ لا تفيدُ يقينًا ولا علمًا، وصَرَخَ الشَّيطانُ بهذه الكلمةِ فيهم، وأذَّنَ بها بينَ أَظهُرِهم، حتَّى أسمعَها دانيهم لقاصِيهم،فانسلختْ بها القلوبُ من العلمِ والإيمانِ كانسلاخِ الحيَّةِ مِن قشرِهَا، والثَّوب عن لابِسِه.

قال الإمامُ العلَّامةُ شمسُ الدِّين ابنُ القيِّم: ولقد أخبرني بعضُ أصحابِنا عن بعضِ أتباعِ أتباعِ[1] تلاميذِ هؤلاء أنَّه رآه يشتغلُ في بعضِ كتُبِهم ولم يحفظْ القرآنَ، فقال له: لو حفظتَ القرآنَ أوَّلًا كانَ أولى، فقال: وهلْ في القرآنِ علمٌ؟!

قالَ ابنُ القيِّم: وقالَ لي بعضُ أئمَّةِ هؤلاء: إنَّما نسمعُ الحديثَ لأجلِ البركةِ، لا لنستفيدَ منه العلمَ؛ لأنَّ غيرَنا قد كفانا هذه المؤونةَ، فعمدتُنَا على ما فَهِمُوه وقرَّروه.

ولا شكَّ أنَّ مَن كانَ هذا مبلغُه من العلم فهو كما قالَ القائِلُ:

نَزلوا بمكَّةَ في قبائِلِ هاشمٍ ... ونزلتُ بالبطحاءِ أبعدَ منزِلِ[2]

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة المجمع: (أتباع تلاميذ).

(٢) ذكره المؤلف في «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٦٦)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٨ الكتب العلمية)، وذكره ابن رجب الحنبلي في «لطائف المعارف» (ص: ٢٥٧)، وهو منسوب لعلي زين العابدين كما في خطبه =

قال: وقالَ لي شيخُنا مرَّةً في وصفِ هؤلاء: أنَّهم طافُوا على أربابِ المذاهبِ ففازوا بأخسِّ المطالبِ، ويكفيكَ دليلًا على أنَّ هذا الذي عندهم ليسَ من عند الله ما ترى فيه من التناقُضِ والاختلافِ، ومصادمة بعضِه لبعضٍ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وهذا يدُلُّ على أنَّ ما كانَ من عندِه سُبْحَانَهُ لا يختلفُ، وأنَّ ما اختلفَ وتناقضَ فليسَ من عندِهِ.

وكيفَ تكونُ الآراءُ والخيالاتُ وسوانِحُ الأفكارِ دينًا يُدانُ به ويُحكَمُ به على الله ورسولِه؟! سبحانكَ هذا بهتانٌ عظيمٌ!

وقد كانَ علمُ الصَّحابةِ الَّذي يتذاكرونَ فيه غيرَ علومِ هؤلاء المختلفينَ الخرَّاصين؛ كما حكى الحاكِمُ في ترجمةِ أبي عبد الله البخاري قال: كان أصحابُ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا اجتمعوا إنَّما يتذاكرون كتابَ ربِّهم وسنةِ نبيِّهم، ليسَ بينهم رأيٌ ولا قياسٌ[1].

ولقد أحسنَ القائلُ:

العِلمُ قالَ اللهُ قالَ رسولُهُ	**قالَ الصَّحابةُ ليسَ بالتَّمويهِ**
ما العِلمُ نصبَكَ للخلافِ سَفاهةً	**بينَ الرَّسولِ وبينَ رأي فَقِيهِ**
كلَّا ولا جحدَ الصِّفاتِ ونفيَها	**حذرًا من التَّمثيلِ والتَّشبيهِ[2]**



=

(ص: ٧). وذكره الشيرازي في «طبقات الفقهاء» (ص: ١٢٤ إحسان)، وابن خلكان في «وفيات الأعيان» (١/ ٧٣ إحسان) بلا نسبة، بلفظ: (نوفل) بدل (هاشم)، و (بالبيداء) بدل (بالبطحاء).

(١) أخرجه من طريق الحاكم، الجورقانيُّ في «الأباطيل والمناكير» (١/ ٢٥٣ الفريوائي).

(٢) ذكر المؤلِّف هذه الأبيات مع بيتين آخرين في «إعلام الموقعين» (٢/ ١٤٩ مشهور)، مع بعض الاختلاف.

فصل

وأمَّا الإيمانُ فأكثرُ النَّاسِ أو كلُّهم يدَّعونَهُ، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وأكثرُ المؤمنينَ إنَّما عندَهم إيمانٌ مجملٌ، وأمَّا الإيمانُ المفصَّلُ بما جاء به الرَّسول ﷺ معرفةً وعلمًا وإقرارًا ومحبَّةً ومعرفةً بضدِّهِ وكراهيَتِهِ وبُغْضِهِ، فهذا إيمانُ خواصِّ الأمَّةِ وخاصَّةِ الرَّسولِ، وهو إيمانُ الصِّدِّيقِ وحزبِه.

وكثيرٌ من النَّاسِ حظُّهم من الإيمانِ الإقرارُ بوجودِ الصَّانعِ، وأنَّه وحدَه هو الَّذي خلقَ السمواتِ والأرضِ وما بينهما، وهذا لم يكنْ يُنْكِرُهُ عُبَّادُ الأصنامِ من قريش ونحوهم.

وآخرونَ الإيمانُ عندَهم هو التَّكلُّمُ بالشَّهادتَينِ، سواءٌ كانَ معه عملٌ أو لم يكنْ، وسواءٌ وافقَ تصديقَ القلبِ أو خالفَهُ.

وآخرونَ عندهم الإيمانُ مجرَّدُ تصديقِ القلبِ بأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ خالقُ السَّمواتِ والأرضِ وأنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، وإنْ لم يُقِرَّ بلسانِه، ولم يعملْ شيئًا، بل ولو سبَّ اللهَ ورسولَه، وأتى بكلِّ عظيمةٍ وهو يعتقدُ وحدانيَّةَ الله ونبوَّةَ رسولِهِ؛ فهو مؤمنٌ!

وآخرونَ عندهم الإيمانُ هو جَحْدُ صفاتِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ مِن: علوِّهِ على عرشِهِ، وتكلُّمِه بكلماتِهِ وكُتُبِه، وسمعِه وبصرِه، ومشيئتِه وقدرتِه وإرادتِه، وحبِّهِ وبُغضِه، وغيرِ ذلكَ مما وصفَ به نفسَهُ ووصفَهُ به رسولُهُ، فالإيمانُ عندَهم إنكارُ حقائِقِ ذلكَ كلِّه وجحدُهُ، والوقوفُ مع ما تقتضيه آراءُ المتهوِّكِينَ وأفكارُ المخرِّصِينَ، الذين يَرُدُّ بعضُهم على بعضٍ، وينقُضُ بعضُهم قولَ بعضٍ، الَّذين هُمْ كما قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ والإمامُ أحمدُ: مختلفونَ في الكتابِ، مخالِفُونَ للكتابِ، مُتَّفِقُونَ على مُفارقَةِ الكتابِ[1].

---

(١) «الردُّ على الزنادقة والجهميَّة» للإمام أحمد بن حنبل (ص: ٦)، ولم أجده مسندًا عن عمر بن الخطاب =

وآخرونَ عندهم الإيمانُ عبادةُ اللهِ بحُكْمِ أذواقِهم ومواجيدِهم، وما تهواهُ نفوسُهُم، من غير تقييدٍ بما جاءَ به الرَّسول.

وآخرونَ الإيمانُ عندهم ما وَجدوا عليه آباءَهم وأسلافَهم بحُكْمِ الاتِّفاقِ كائنًا ما كان، بل إيمانُهم مبنيٌّ على مقدّمتين:

إحداهما: أنَّ هذا قولُ أسلافِنَا وآبائِنَا.

والثانية: أنَّ ما قالوه فهو الحقُّ.

وآخرونَ عندهم الإيمانُ مكارمُ الأخلاقِ وحسنُ المعاملةِ وطلاقةُ الوجهِ وإحسانُ الظَّنِّ بكلِّ أحدٍ وتخليةُ النَّاسِ وغفلاتِهِم.

وآخرونَ عندهم الإيمانُ التَّجرُّدُ من الدُّنيا وعلائِقها، وتفريغُ القلبِ منها، والزُّهدُ فيها، فإذا رأوا رجلًا هكذا جعلوه من ساداتِ أهلِ الإيمانِ، وإن كانَ منسلخًا من الإيمانِ علمًا وعملًا.

وأعلى مِن هؤلاء مَنْ جعلَ الإيمانَ هو مجرَّد العلمِ، وإنْ لم يُقارنهُ عملٌ.

وكلُّ هؤلاء لم يعرفوا حقيقةَ الإيمانِ ولا قاموا به، ولا قامَ بهم، وهم أنواعٌ:

منهم منْ جعلَ الإيمانَ ما يضادُّ الإيمانَ.

ومنهم منْ جعلَ الإيمانَ ما لا يُعتَبرُ في الإيمانِ.

ومنهم منْ جعلَه ما هو شرطٌ فيه، ولا يَكفي في حصولِه.

ومنهم من اشترطَ في ثبوتِه ما يناقضُهُ ويضادُّه.

ومنهم من اشترطَ فيه ما ليسَ منه بوجهٍ.

= رضي الله عنه، ولم أجد مَن نسبه له سوى ابن القيِّم هنا، مع أنَّه ذكره في غير هذا الكتاب ولم ينسبه إلَّا للإمام أحمد، وكذا شيخ الإسلام ابن تيمية.

والإيمانُ وراءَ ذلكَ كلِّه. وهو حقيقةٌ مركَّبةٌ من: معرفةِ ما جاءَ به الرَّسول ﷺ علمًا، والتَّصديقِ به عقدًا، والإقرارِ به نطقًا، والإنقيادِ له محبَّةً وخضوعًا، والعملِ به باطنًا وظاهرًا وتنفيذِهِ، والدَّعوةِ إليهِ بحسبِ الإمكان.

وكماله في: الحُبِّ في الله، والبُغضِ في الله، والعطاءِ لله، والمنعِ لله، وأن يكونَ الله وحدَه إلهَهُ ومعبودَه.

والطَّريق إليه: تجريدُ متابَعةِ رسولِه ظاهرًا وباطنًا، وتغميضُ عينِ القلبِ عن الالتفاتِ إلى سوى اللهِ ورسولِهِ.

وبالله التوفيق.

❁ من اشتغلَ بالله عن نفسِهِ كفاه الله مؤونَةَ نفسِه، ومن اشتغلَ بالله عن الناسِ كفاه الله مؤونَةَ الناسِ، ومن اشتغلَ بنفسِه عن الله وكَلَه الله إلى نفسِهِ، ومن اشتغلَ بالناسِ عن الله وكَلَه الله إليهم.

❁❁❁

فائدة جليلة

إِنَّما يجِدُ المشقَّةَ في تركِ المألوفاتِ والعوائِدِ مَنْ تركَها لغيرِ الله، فأمَّا مَنْ تركَها صادقًا مخلصًا من قلبِهِ لله فإنَّه لا يجِدُ في تركِها مشقَّةً إلَّا في أوَّلِ وهلةٍ؛ ليُمتَحنَ أصادِقٌ هو في تركِها أم كاذِبٌ، فإن صَبَرَ على تلكَ المشقَّةِ قليلًا استحالتْ لذَّةً.

قال ابن سيرين[١]: سمعتُ شُريحًا يَحْلِفُ بالله ما تركَ عبدٌ لله شيئًا؛ فوجدَ فقْدَهُ[٢].

وقولهم: «**مَنْ تَرَكَ لله شيئًا عوَّضَه الله خيرًا منه**»[٣] حقٌّ، والعوضُ أنواعٌ مختلفةٌ: وأَجَلُّ ما يُعَوَّضُ به الأُنسُ بالله، ومحبَّتُه، وطمأنينةُ القلبِ به، وقوتُه، ونشاطُه، وفرحُه، ورضاهُ عن ربِّه تَعَالَىٰ.

❁ أغبى الناسُ منْ ضلَّ في آخرِ سفرِهِ، وقدْ قاربَ المنزِلَ.

---

(١) هو: الإمام الرَّباني أبو بكر محمَّد بن سيرين مولى أنس بن مالك توفي سنة (١١٠هـ)، انظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ٦٢).

(٢) أخرجه هنَّاد في «الزُّهد» (٢/ ٤٦٧ الفريوائي)، وتمامه: قال ابن سيرين: «ولا أرى شريحًا حلَف إلَّا على علم». وذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٢٣ أحمد بن علي)

(٣) يدلُّ عليه ما أخرجه وكيع في كتاب «الزهد» (١/ ١٧٠)، وعنه الإمام أحمد في «مسنده» برقم (٢٣٠٧٤) عن أبي قتادة وأبي الدَّهماء عن رجل من أهل البادية قال سمعت النبي ﷺ يقول: «**إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِله إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ**».
وإسناده صحيح، وصحَّحه الشيخ الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١/ ٦١-٦٢). تحت حديث رقم (٥).
وأخرج وكيع في كتاب «الزهد» (١/ ١٦٩)، وابن المبارك في كتاب «الزهد- رواية نعيم» أيضًا (٢/ ١٠)، عن أبي بن كعب موقوفًا بلفظ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ تَرَكَ شَيْئًا لِله إِلَّا أَبْدَلَهُ الله بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ مِنْ حَيْثُ لا يحْتَسِبُ، ولا تَهَاوَنَ بِهِ عَبْدٌ، فَأَخَذَ مِنْ حَيْثُ لا يَصْلُحُ إِلَّا أَتَاهُ اللهُ بِمَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْه**».

❁ العقولُ المؤيَّدةُ بالتَّوفيقِ ترى أنَّ ما جاءَ به الرَّسـولُ ﷺ هو الحقُّ الموافِقُ للعقـلِ والحكمَـةِ، والعقولُ المضروبةُ بالخِـذْلَانِ ترى المعارضة بين العقـلِ والنَّقلِ، وبينَ الحكمَةِ والشَّرعِ.

❁ أقربُ الوسائِلِ إلى الله ملازمَةُ السُّنَّةِ، والوقوفُ معها في الظَّاهِرِ والباطِنِ، ودوامُ الافتقـارِ إلى الله، وإرادةُ وجهِـهِ وحده بالأقوالِ والأفعـالِ، وما وصلَ أحدٌ إلى الله إلَّا من هذه الثَّلاثةِ، وما انقطعَ عنه أحدٌ إلَّا بانقطاعِهِ عنها أو عن أحدِها.

❁ الأصولُ الَّتي انْبَنى عليها سـعادةُ العبدِ ثلاثةٌ، ولكلِّ واحدٍ منها ضِدٌّ؛ فمنْ فقدَ ذلكَ الأصلَ حصلَ على ضَدِّه:

- التوحيد وضده الشرك.
- السنة وضدها البدعة.
- والطاعة وضدها المعصية.

ولهذه الثلاثةُ ضدٌّ واحِدٌ وهو: خُلوُّ القلبِ من الرَّغبةِ في الله وفيما عنده، ومن الرَّهبةِ منه ومَّا عندَه.

❁❁❁

قاعدة جليلة

قال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ الآية [النساء: ١١٥].

والله تَعَالَىٰ قد بيّن في كتابه سبيلَ المؤمنين مُفصَّلةً وسبيلَ المجرمين مُفصَّلةً، وعاقبة هؤلاءِ مُفصَّلةً وعاقبةَ هؤلاءِ مُفصَّلةً، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانهِ لهؤلاء وتوفيقهِ لهؤلاء، والأسباب التي وفّق بها هؤلاء والأسباب التي خَذَل بها هؤلاء، وجلَّى سبحانه الأمرين في كتابهِ وكشَفَهما وأوضحَهما وبيَّنهما غاية البيان، حتى شاهدتْها البصائرُ كمشاهدةِ الأبصار للضِّياءِ والظَّلامِ.

فالعالِمون بالله وكتابهِ ودينهِ عَرفوا سبيلَ المؤمنين معرفةً تفصيليَّةً وسبيلَ المجرمين معرفةً تفصيليَّةً، فاستبانتْ لهم السَّبيلانِ كما يستبين للسَّالك الطَّريقُ الموصلُ إلى مقصودهِ والطَّريقُ الموصلُ إلى الهلكةِ؛ فهؤلاءِ أعلمُ الخلقِ، وأنفعهم للنَّاسِ، وأنصحُهم لهم، وهم الأدِلَّاءُ الهُداةُ.

وبذلكَ برَّزَ الصَّحابةُ على جميعِ مَن أتى بعدهم إلى يومِ القيامةِ؛ فإنَّهم نشأوا في سبيلِ الضَّلالِ والكفرِ والشِّركِ والسُّبُلِ الموصلةِ إلى الهلاكِ، وعرفوها مُفصَّلةٍ، ثمَّ جاءهم الرَّسولُ، فأخرجهم مِن تلك الظُّلُماتِ إلى سبيلِ الهدى وصراطِ الله المستقيم، فخرجوا من الظُّلمةِ الشَّديدةِ إلى النُّورِ التَّامِّ، ومن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، ومن الجهلِ إلى العلمِ، ومن الغيِّ إلى الرَّشادِ، ومن الظُّلْمِ إلى العدلِ، ومن الحيرةِ والعمى إلى الهُدى والبصائر، فعرفوا مقدارَ ما نالوهُ وظفروا به ومقدارَ ما كانوا فيه؛ فإنَّ الضِّدَّ يُظهِرُ حُسْنَه الضِّدُّ، وإنَّما تتبيَّنُ الأشياءُ بأضدادها، فازدادوا رغبةً ومحبَّةً فيما انتقلوا إليه، ونفرةً وبُغضًا لما انتقلوا عنه، وكانوا أحبَّ النَّاس في التَّوحيدِ والإيمانِ والإسلامِ، وأبغضَ الناسِ في ضدِّه، عالمين بالسَّبيلِ على التَّفصيلِ.

وأمَّا مَن جاء بعد الصَّحابةِ؛ فمنهم من نشأَ في الإسلام، غيرَ عالمٍ تفصيلَ ضِدِّهِ، فالتبسَ عليهِ بعضُ تفاصيلَ سبيلِ المؤمنين بسبيلِ المجرمين؛ فإنَّ اللَّبْسَ إنَّما يقعُ إذا ضَعُفَ العلمُ بالسَّبيلَينِ أو أحدهما؛ كما قالَ عُمر بن الخطَّاب: إنَّما تُنْقَضُ عُرى الإسلام عُروةً عُروةً إذا نشأَ في الإسلامِ من لم يعرف الجاهليَّةَ[1]، وهذا من كمالِ علمِ عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فإنَّه إذا لم يعرف الجاهليَّة وحُكمها، وهو كُلّ ما خالف ما جاءَ به الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّه من الجاهليَّة؛ فإنَّها منسوبة إلى الجهلِ، وكلُّ ما خالفَ الرَّسول فهو من الجهلِ؛ فمن لم يعرِفْ سبيلَ المجرمين ولم تَسْتَبن له؛ أوشَكَ أن يظنَّ في بعضِ سبيلِهم أنَّها من سبيلِ المؤمنين؛ كما وقع في هذه الأمَّة من أمورٍ كثيرةٍ في بابِ الاعتقادِ والعلمِ والعملِ، هي من سبيلِ المجرمين والكفَّار وأعداءِ الرُّسل، أدخلَها من لم يَعرِفْ أنَّها مِن سبيلِهم في سبيلِ المؤمنين، ودعَا إليها، وكَفَّرَ مَن خالفها، واستحلَّ منه ما حرَّمه اللهُ ورسولُه؛ كما وقع لأكثرِ أهل البدع من الجَهمِيَّة، والقَدَريَّة والخوارج والرَّوافِض وأشباههم، ممَّن ابتدع بدعةً ودعَا إليها وكفَّر مَن خالفها.

والنَّاس في هذا الموضع أربعُ فرقٍ:

الأولى: مَن استبانَ لهُ سبيلُ المؤمنين وسبيلُ المجرمين على التَّفصيلِ علمًا وعملًا، وهؤلاء أعلمُ الخلقِ.

---

(١) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الأثر في أكثر من موطن منها: «منهاج السنة» (٢/ ٢٣٨) و(٤/ ٣٥٦)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٠١) و(١٥/ ٥٤)، وكذا ذكره ابن القيِّم كثيرًا في كتبه منها «الجواب الكافي» (ص: ٢١٤)، و«المدارج» (١/ ٣٤٣)، و«مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٢٩٥)، ولم أجده مسندًا عنه، لكن أخرج ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٢٩)، والحاكم في «المستدرك» برقم (٨٣١٨) واللفظ له: «قد علمتُ وربِّ الكعبة؛ إذا ولي أمرهم من لم يصحب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يعالج أمر الجاهلية». وقال الحاكم عقبه: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «صحيح».

الفرقـةُ الثانيـةُ: مـن عَمِيَتْ عنه السَّـبيلانِ مـن أشباه الأنعام، وهؤلاء بسـبيل المجرمين أخصُّ ولها أسلَكُ.

الفرقةُ الثالثةُ: مَن صَرَفَ عنايتَهُ إلى معرفةِ سبيل المؤمنين دون ضدِّها، فهو يَعرِف ضدَّهـا مـن حيثُ الجُملـة والمخالفة، وأنَّ كلَّ ما خالفَ سـبيلَ المؤمنين فهـو باطلٌ، وإنْ لم يتصوَّرْه على التَّفصيلِ، بل إذا سَـمِعَ شـيئًا ممَّا يخالِفُ سـبيلَ المؤمنين صَرَفَ سَمْعَهُ عنهُ، ولم يَشْغلْ نفسَه بفهمه ومعرفةِ وجهِ بطلانه.

وهو بمنزلةِ من سَـلِمَتْ نَفسُـه من إرادة الشـهوات فلم تَخْطُر بقلبِهِ ولم تَدْعُهُ إليها نفسـه؛ بخلاف الفرقة الأولى؛ فإنَّهم يعرفونَها وتميلُ إليها نفوسُهم ويجاهدونَها على تركها لله.

وقد كتبوا إلى عمر بن الخطَّاب يسألونَهُ عن هذه المسالة: أيُّهما أفضلُ: رجلٌ لم تَخْطُرْ له الشـهواتُ ولم تمرَّ بباله، أو رجلٌ نازعتْهُ إليها نفسُـه فتركها لله؟ فكتب عمرُ: إنَّ الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله عَزَّوَجَلَّ من ﴿ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾[1] [الحجرات: ٣].

وهكـذا من عَرفَ البِدعَ والشِّركَ والباطل وطُرُقَـهُ؛ فأبغضَها لله، وحَذِرَها، وحَذَّر منهـا، ودفعهـا عن نفسِـه، ولم يَدَعْها تَخْدِشُ وجهَ إيمانه ولا تُورِثُهُ شُبهةً ولا شـكًّا، بل يزدادُ بمعرفتها بصيرةً في الحقِّ ومحبَّةً له، وكراهةً لها ونفرةً عنها: أفضلُ مِمَّن لا تخطُرُ ببالِهِ

(١) أخرجـه أحمـد في «الزُّهـد» كـما في «مسـند الفـاروق» (٢/ ٥٨٣ الفلاح)، و«تفسـير القـرآن العظيم» (٧/ ٣٦٨ طيبـة) لابـن كثير، و«الدُّر المنثور» (٧/ ٥٥٢)، ولم أجده في المطبوع. ولفظـه: عَنْ مُجَاهِدٍ، قَـالَ: كُتِـبَ إِلَى عُمَرَ يَا أَمِـيرَ الـمُؤْمِنِينَ، رَجُلٌ لَا يَشْـتَهِي الـمَعْصِيَـةَ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا، أَفْضَـلُ، أَمْ رَجُلٌ يَشْـتَهِي الـمَعْصِيَـةَ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا؟ فَكَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ الَّذِينَ يَشْـتَهُونَ المَعْصِيَـةَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

ولا تمرُّ بقلبه؛ فإنَّه كلَّما مرَّت بقلبه وتصوَّرتْ له ازدادَ محبَّةً للحقِّ ومعرفةً بقدره وسُرورًا به، فيَقْوى إيمانُهُ به؛ كما أنَّ صاحب خواطر الشَّهواتِ والمعاصي كلَّما مرَّت به فرغب عنها إلى ضدِّها، ازداد محبَّةً لضدِّها ورغبةً فيه وطلبًا له، وحرصًا عليه؛ فما ابتلى الله سُبْحَانَهُ عبدَهُ المؤمنَ بمحبة الشهواتِ والمعاصي وميلِ نفسِه إليها؛ إلا ليَسُوقَه بها إلى محبَّةِ ما هو أفضلُ منها وخيرٌ له وأنفعُ وأدومُ، وليُجاهِدَ نفسَه على تركِها له سُبْحَانَهُ، فتُورِثُه تلك المجاهدةُ الوصولَ إلى المحبوب الأعلى؛ فكلَّما نازعتْه نفسُه إلى تلك الشَّهوات واشتدَّت إرادتُه لها وشوقُه إليها؛ صَرفَ ذلك الشَّوقَ والإرادةَ والمحبَّةَ إلى النَّوع العالي الدَّائم، فكان طلبُهُ له أشدَّ، وحرصُه عليه أتمَّ؛ بخلافِ النَّفس الباردة الخالية من ذلك؛ فإنَّها وإن كانت طالبةً للأعلى، لكن بين الطلبين فرقٌ عظيم! ألا ترى أنَّ من مشى إلى محبوبه على الجمر والشَّوك أعظمُ مِمَّن مشى إليه راكبًا على النَّجائب؟ فليس مَن آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلى غيره؛ فهو سُبْحَانَهُ يبتلي عبده بالشَّهوات؛ إمَّا حجابًا له عنه، أو حاجبًا له يُوصلُه إلى رضاهُ وقُربه وكرامتِهِ.

الفرقةُ الرَّابعة: فِرقةٌ عَرفتْ سبيلَ الشَّرِّ والبِدَعِ والكُفرِ مُفصَّلةً، وسبيلَ المؤمنين مجملةً.

وهذا حالُ كثيرٍ ممن اعتنى بمقالاتِ الأمم ومقالاتِ أهل البدع، فعرفها على التفصيل، ولم يَعرِفْ ما جاء به الرَّسول كذلك، بل عرفهُ معرفةً مجملةً، وإن تفصَّلتْ لهُ في بعضِ الأشياء، ومَنْ تأمَّلَ كُتبَهم رأى ذلك عيانًا.

وكذلك مَنْ كان عارفًا بطرقِ الشَّرِّ والظُّلمِ والفسادِ على التَّفصيلِ سالكًا لها، إذا تابَ ورجع عنها إلى سبيلِ الأبرار؛ يكونُ علمه بها مجملًا، غير عارفٍ بها على التفصيلِ معرفةَ من أفنى عُمَرَهُ في تصرُّفها وسلوكها.



والمقصودُ أنَّ الله سُبۡحَانَهُ يُحِبُّ أن تُعرَفَ سبيلُ أعدائه لتُجتَنب وتُبْغَض كما يُحِبُّ أن تُعرَف سبيلُ أوليائه لتُحَبَّ وتُسلَكَ.

وفي هذه المعرفة من الفوائدِ والأسرارِ ما لا يعلمه إلا الله؛ مِنْ معرفةِ عمومِ ربوبيَّتِهِ سُبۡحَانَهُ وحكمته، وكمالِ أسمائِهِ وصفاتِهِ، وتعلُّقها بمتعلَّقاتها، واقتضائِها لآثارها وموجباتِها، وذلك من أعظم الدِّلالة على ربوبيَّتِهِ ومُلكِهِ وإلهيَّتِهِ، وحُبِّهِ وبُغْضِهِ، وثوابِهِ وعقابِهِ.

والله أعلم.

۞ أربابُ الحوائج على بابِ الملك يسألون قضاءَ حوائجهم، وأولياؤُهُ المحبُّونَ لهُ الَّذينَ هو همُّهم ومُرادُهم جُلساؤُهُ وخواصُّهُ؛ فإذا أراد قضاءَ حاجةِ واحدٍ مِن أولئك؛ أذِنَ لبعضِ جلسائِهِ وخاصَّتِهِ أن يشفعَ فيه رحمةً لهُ وكرامةً للشَّافعِ، وسائرُ النَّاس مطرودون عن البابِ مضروبون بسياطِ البُعْدِ.



فصل

عشرةُ أشياء ضائعةٌ لا يُنتفع بها: علمٌ لا يُعمَل بِهِ، وعملٌ لا إخلاصَ فيه ولا اقتداء، ومالٌ لا يُنْفَقُ منهُ فلا يَسْتمتِعُ بِهِ جامعُه في الدُّنيا ولا يُقَدِّمُه أمامَهُ إلى الآخرة، وقلبٌ فارغٌ مِن محبَّةِ الله والشَّوقِ إليه والأُنسِ بهِ، وبدنٌ مُعطَّلٌ مِن طاعتِهِ وخدمتِهِ، ومحبَّةٌ لا تتقيَّدُ بِرضى المحبوبِ وامتثالِ أوامره، ووقتٌ معطَّلٌ عن استدراكٍ فارطٍ أو اغتنام برٍّ وقربةٍ، وفكرٌ يجولُ فيما لا ينفع، وخِدمةُ من لا تُقَرِّبُكَ خِدمتُه إلى الله ولا تعودُ عليكَ بصلاحِ دُنياكَ، وخوفُكَ ورجاؤُكَ لمن ناصيتُه بيدِ الله وهو أسيرٌ في قبضتِهِ ولا يملكُ لنفسِهِ ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

وأعظمُ هذه الإضاعات إضاعتان هُما أصلُ كلِّ إضاعةٍ: إضاعةُ القلبِ وإضاعةُ الوقتِ؛ فإضاعةُ القلبِ من إيثارِ الدُّنيا على الآخرة، وإضاعةُ الوقت من طولِ الأمل.

فاجتمع الفسادُ كلُّه في اتِّباعِ الهوى وطولِ الأمل، والصَّلاحُ كلُّه في اتِّباعِ الهدى والاستعدادِ للِّقاءِ.

والله المستعان.

❁ العجبُ ممن تَعرِضُ لهُ حاجةٌ، فَيَصْرِفُ رغبتَهُ وهمَّتَهُ فيها إلى الله ليقضيها له، ولا يَتصدَّى للسُّؤالِ لحياةِ قلبه من موتِ الجهلِ والإعراضِ، وشفائِه من داءِ الشَّهواتِ والشُّبهاتِ! ولكن إذا ماتَ القلبُ لم يَشعُرْ بمعصيتِهِ!

❁❁❁

فصلٌ

لله سُبْحَانَهُ على عبدِهِ أمرٌ أمَرَهُ بِهِ وقضاءٌ يقضيه عليه ونعمةٌ يُنْعِمُ بها عليه؛ فلا ينفكُّ مِن هذهِ الثَّلاثة، والقضاء نوعان: إمَّا مصائبُ وإما معايبُ، وله عليه عبوديَّةٌ في هذهِ المراتب كلِّها.

فأحبُّ الخلق إليه: مَن عرفَ عبوديَّتَهُ في هذه المراتب ووفَّاها حقَّها؛ فهذا أقربُ الخلقِ إليه، وأبعدُهم منه: مَن جَهِلَ عبوديَّتَهُ في هذه المراتب فعطَّلها علمًا وعملًا.

فعبوديَّتُهُ في الأمرِ: امتثالُه إخلاصًا واقتداءً برسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي النَّهي: اجتنابُهُ خوفًا منه وإجلالًا ومحبَّةً.

وعبوديَّتُهُ في قضاء المصايب: الصَّبرُ عليها، ثُمَّ الرِّضى بها وهو أعلى منه، ثُمَّ الشُّكر عليها وهو أعلى من الرِّضى، وهذا إنَّما يتأتَّى منه إذا تمكَّن حبُّهُ من قلبِهِ وعلم حُسْنَ اختياره له وبرَّه به ولطفَه به وإحسانه إليه بالمصيبةِ وإن كره المصيبة.

وعبوديَّته في قضاءِ المعايب: المبادرة إلى التَّوبةِ منها والتَّنصُّل والوقوف في مقامِ الاعتذار والانكسار، عالمًا بأنَّه لا يرفعُها عنه إلَّا هو، ولا يَقِيْه شرَّها سواه، وأنَّها إن استمرَّتْ أبعدتْه من قربه وطَردتْه من بابه، فيراها من الضُّرِّ الَّذي لا يكشفه غيره، حتى إنَّه ليراها أعظمَ من ضُرِّ البدن؛ فهو عائذٌ برضاه من سُخطه، وبعفوِهِ من عقوبتِه، وبه منه، مستجيرٌ به منه، وملتجىءٌ منه إليه، يعلم أنَّه إن[1] تخلَّى عنه وخلَّى بينه وبين نفسه فعنده أمثالُها وشرٌّ منها، وأنَّه لا سبيلَ له إلى الإقلاعِ والتَّوبة إلَّا بتوفيقِهِ وإعانتِهِ، وأنَّ ذلك بيدِهِ سُبْحَانَهُ لا بيد العبد؛ فهو أعجز وأضعف وأقلُّ من أن يُوفقَ نفسه أو يأتي بمرضاة سيّدِهِ بدون إذنِهِ ومشيئتِهِ وإعانتِهِ؛ فهو ملتجىءٌ إليه، متضرِّعٌ، ذليلٌ، مسكينٌ، مُلْقٍ نفسَهُ بين يديه، طريحٌ ببابه، مستخذٍ له، أذلُّ شيءٍ وأكسره له، وأفقره وأحوجه إليه، وأرغبُهُ

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (إذا).

فيه، وأحبُّه له، بدنه مُتصرِّفٌ في أشغالِه، وقلبه ساجدٌ بين يديه، يعلم يقينًا أنَّه لا خير فيه ولا له ولا به ولا منه، وأنَّ الخيرَ كلَّهُ لله، وفي يديه وبه ومنه، فهو وليُّ نعمتِه، ومبتدئِه بها من غير استحقاق، ومُجريها عليه مع تمقُّته إليه بإعراضه وغفلته ومعصيته؛ فحظُّه سبحانه الحمد والشُّكر والثَّناء، وحظُّ العبدِ الذَّمُّ والنَّقصُ والعيبُ، قد استأثرَ بالمحامِد[1] والمدح والثناء، وولي العبدُ الملامةَ والنَّقائصَ والعيوبَ؛ فالحمدُ كلُّه له، والخيرُ كله في يديه، والفضلُ كلُّه له، والثناءُ كلُّه له، والمنةُ كلُّها له؛ فمنه الإحسانُ ومن العبد الإساءةُ، ومنه التَّوددُّ إلى العبد بنعمه ومن العبدِ التبغُّضُ إليه بمعاصيهِ، ومنه النُّصح لعبده ومن العبد الغشُّ له في معاملته.

وأمَّا عبودية النِّعم فمعرفتها والاعترافُ بها أوَّلًا، ثم العياذُ به أن يقع في قلبه نسبتُها وإضافتُها إلى سواه وإن كان سببًا من الأسباب؛ فهو مسبِّبه ومقيمه، فالنِّعمة منه وحده بكلِّ وجه واعتبار، ثمَّ الثناءُ بها عليه ومحبَّتُه عليها وشكره بأن يستعملها في طاعته.

ومِن لطائف التَّعبُّد بالنِّعم أن يَستكثِرَ قليلَها عليه، ويَستقِلَّ كثيرَ شكره عليها، ويعلم أنَّها وصلت إليه من سيِّدِهِ من غيرِ ثمنٍ بذلَهُ فيها، ولا وسيلةٍ منه توسَّل بها إليه، ولا استحقاقٍ منه لها، وأنَّها لله في الحقيقة لا للعبد، فلا تزيدُهُ النِّعم إلَّا انكسارًا وذلًّا وتواضعًا ومحبَّةً للمنعم.

وكلَّما جدَّد له نعمةً أحدثَ لها عبوديَّةً ومحبَّةً وخضوعًا وذلًّا، وكلَّما أحدثَ له قبضًا أحدثَ له رضًى، وكلَّما أحدثَ ذنبًا أحدثَ لهُ توبةً وانكسارًا واعتذارًا؛ فهذا هو العبد الكيِّسُ، والعاجزُ بمعزلٍ عن ذلك.

وبالله التَّوفيقُ.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (المحاميد).

فَصْلٌ

مـن تـركَ الاختيارَ والتدبيرَ في رجاءِ زيادةٍ أو خوف نقصانٍ أو طلبِ صحَّةٍ أو فرارٍ من سَـقَمٍ، وعَلِمَ أنَّ الله عـلى كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّه المتفرِّدُ بالاختيـارِ والتَّدبيرِ، وأنَّ تدبيرَهُ لعبـدِهِ خـيرٌ من تدبيرِ العبدِ لنفسِـهِ، وأنَّـه أعلمُ بمصلحتِـهِ من العبد، وأقـدر على جلبِها وتحصيلِها منه، وأنصح للعبد منه لنفسـه، وأرحم به منه بنفسه، وأبرُّ به منه بنفسه، وعلم مـع ذلك أنَّه لا يسـتطيع أن يتقدَّم بين يدي تدبـيره خطوة واحدة ولا يتأخَّر عن تدبيره له خطـوةً واحـدةً؛ فلا متقدّمَ له بين يـدي قضائه وقدره ولا متأخّر؛ فألقى نفسـهُ بين يديه، وسـلَّم الأمرَ كلَّه إليه، وانطرحَ بين يديه انطـراحَ عبدٍ مملوكٍ ضعيفٍ بين يدي ملكٍ عزيزٍ قاهـرٍ، لـه التَّصرف في عبده بكلِّ ما يشـاء، وليس للعبد التَّصرفُ فيـه بوجه من الوجوه، فاسـتراح حينئذٍ من الهموم والغموم والأنكاد والحسرات، وحمَّلَ كَلَّه حوائجَه ومصالحه مـن لا يبـالي بحملهـا ولا تُثْقِله ولا يَكترِثُ بهـا، فتولَّاها دونه، وأراه لطفَه وبِـرَّهُ ورحمَتَهُ وإحسـانَهُ فيها؛ من غيرِ تعبٍ من العبد ولا نَصَبٍ ولا اهتمام منه؛ لأنَّه قد صَرَفَ اهتمامَهُ كُلَّـهُ إليه، وجعله وحـدَهُ همَّه، فصـرف عنه اهتمامه بحوائِجه ومصالـح دنياه، وفرَّغَ قلبه منها؛ فما أطيبَ عيشَه! وما أنعمَ قلبَه وأعظمَ سرورَه وفرحَهُ!

وإن أبـى إلَّا تدبـيرَه لنفسـه، واختيارَهُ لهـا، واهتمامَـهُ بحظِّه، دون حـقِّ ربِّه؛ خَلَّاه ومـا اختـاره، وولَّاه مـا تولَّى، فحضـره الهمُّ والغـمُّ والحـزن والنَّكَدُ والخـوفُ والتَّعبُ وكسـفُ البال وسوءُ الحال؛ فلا قَلْبَ يصفو، ولا عملَ يزكو، ولا أملَ يحصل، ولا راحةَ يفوزُ بها، ولا لذَّةَ يتهنَّأُ بها، بل قد حِيلَ بينه وبين مسرَّته وفرحه وقرَّةَ عينه؛ فهو يَكْدَحُ في الدُّنيا كَدْحَ الوحشِ، ولا يظفر منها بأمل، ولا يَتزوَّدُ منها لمعادٍ.

والله سُبْحَانَهُ قـد أمرَ العبـدَ بأمرٍ، وضَمِنَ له ضمانًا، فإن قام بأمـره بالنُّصحِ والصِّدقِ والإخلاصِ والاجتهادِ؛ قام اللهُ سُبْحَانَهُ له بما ضمنه له من الرِّزقِ والكفايةِ والنَّصرِ وقضاءِ

الحوائج؛ فإنَّه سُبْحَانَهُ ضَمِنَ الرّزقَ لمن عبده، والنصرَ لمن توكَّلَ عليه واستنصرَ به، والكفايةَ لمن كان هو همَّهُ ومرادَهُ، والمغفرةَ لمن استغفرَهُ، وقضاءَ الحوائج لمن صدقه في طلبها ووَثِقَ به وقَوِيَ رجاؤهُ وطمعُه في فضلِه وجودِه، فالفَطِنُ الكيِّسُ إنَّما يهتمُّ بأمرِهِ وإقامتِه وتوفيقِه لا بضمانِه؛ فإنَّه الوفيُّ الصَّادقُ، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

فمِن علامات السَّعادة صرفُ اهتمامه إلى أمر الله دون ضمانه، ومن علاماتِ الحرمان فراغُ قلبه من الاهتمام بأمره وحبِّه وخشيتِه والاهتمام بضمانه.

والله المستعانُ.

❁ قال بشر بن الحارث(١): أهلُ الآخرة ثَلاثةٌ: عابدٌ وزاهدٌ وصديقٌ؛ فالعابدُ يعبدُ الله مع العلائق، والزَّاهدُ يعبدُهُ على ترك العلائق، والصديقُ يعبدُهُ على الرِّضا والموافقة: إن أراه أَخْذَ الدُّنيا أخذَها، وإن أراه تَرْكَها تَرَكَها.

❁ إذا كان الله ورسوله في جانبٍ؛ فاحذَرْ أن تكون في الجانب الآخر؛ فإنَّ ذلك يُفضِي إلى المشاقَّة والمحادَّة، وهذا أصلها، ومنه اشتقاقها؛ فإنَّ المشاقَّة أن يكون في شقٍّ ومن يخالفه في شقٍّ(٢)، والمحادَّة أن يكون في حدٍّ وهو في حدٍّ(٣).

ولا تَستسهِلْ هذا؛ فإنَّ مبادِئَه تَجُرُّ إلى غايتِهِ، وقليلُه يدعو إلى كثيرِه! وكنْ في الجانب الذي فيه الله ورسوله، وإن كان النَّاسُ كلُّهم في الجانب الآخر؛ فإنَّ لذلك عواقبَ هي أحمدُ العواقبِ وأفضلُها، وليس للعبدِ أنفعُ من ذلك في دنياه قبل آخرته.

---

(١) هو: الزَّاهد أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرَّحمن بن عطاء المروزي، المشهور بالحافي، أخذ العلم عن كبار الأئمَّة، وقلَّ ما يروي من الأحاديث المسندة، توفي سنة (٢٢٧هـ)، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٤٦٩ وما بعدها).

(٢) ينظر: «معجم مقاييس اللُّغة» (٣/ ١٧٠-١٧١)، فقد ذكر معاني لفظ (شقّ).

(٣) ينظر: «لسان العرب» (٣/ ١٤٠)، فقد ذكر معنى المحادَّة، فقال: «المُحادَّة المعاداة والمخالفة والمنازعة، وهو (مُفاعلة) من الحدّ كأنّ كلَّ واحد منهما يجاوز حدّه إلى الآخر».

وأكثرُ الخلق إنَّما يكونون من الجانب الآخر، ولاسيَّما إذا قَوِيت الرغبةُ والرهبةُ؛ فهناك لا تكاد تجد أحدًا في الجانب الذي فيه الله ورسوله، بل يَعدُّه النَّاس ناقصَ العقلِ سيِّءَ الاختيار لنفسه، وربَّما نسبوه إلى الجنون، وذلك من مواريث أعداء الرُّسل فإنَّهم نسبوهم إلى الجنون لما كانوا في شقٍّ وجانبٍ والناسُ فى شقٍّ وجانب آخر.

ولكن من وطَّن نفسَه على ذلك؛ فإنَّه يحتاج إلى علمٍ راسخٍ بما جاء به الرسول يكون يقينًا لـه لا ريبَ عنده فيه، وإلى صبرٍ تامٍّ على معاداة مَن عاداه ولومةِ من لامه، ولا يَتِمُّ له ذلك إلَّا برغبةٍ قويَّةٍ في الله والدار الآخرة؛ بحيث تكون الآخرة أحبَّ إليه من الدُّنيا وآثرَ عنده منها، ويكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهُما.

وليس شيءٌ أصعبُ على الإنسان من ذلك في مبادئ الأمر؛ فإنَّ نفسَه وهواهُ وطبعهُ وشيطانهُ وإخوانهُ ومعاشريه من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل؛ فإذا خالفهم تَصدَّوا لحربه؛ فإن صبر وثبت جاءه العونُ من الله، وصار ذلك الصَّعبُ سهلًا، وذلك الألم لذَّةً، فإنَّ الربَّ شكورٌ؛ فلا بدَّ أن يُذِيقَه لذَّةَ تحيُّزِه إلى الله وإلى رسوله ويُرِيَه كرامةَ ذلك؛ فيشتدَّ به سرورُه وغبطتُهُ، ويبتهج به قلبه، ويظفر بقوَّته وفرحه وسروره، ويبقَى مَن كان محاربًا له على ذلك بين هائبٍ له ومسالمٍ له ومساعدٍ وتارك، ويَقوَى جندهُ، ويَضعُف جندُ العدوِّ.

ولا تستصعِب مخالفةَ الناس والتحيُّزَ إلى الله ورسولِه ولو كنتَ وحدَكَ؛ فإنَّ الله معك، وأنت بعينِه وكَلاءَتِه وحفظِه لكَ، وإنَّما امتحنَ يقينَك وصبرَكَ.

وأعظمُ الأعوانِ لكَ على هذا بعدَ عونِ الله التَّجرُّدِ من الطَّمعِ والفزعِ؛ فمتى تجرَّدتَ منهما هانَ عليكَ التَحيُّزُ إلى الله ورسولِه، وكنتَ دائمًا في الجانبِ الذي فيه الله ورسولُه.

ومتى قامَ بكَ الطَّمع والفزعُ فلا تطمَعْ في هذا الأمر، ولا تُحدِّثْ نفسَكَ به.

فإن قلتَ: فبأيِّ شيءٍ أستعينُ على التَّجرُّد من الطَّمعِ ومن الفزعِ؟

قلتُ: بالتوحيدِ، والتوكُّلِ، والثِّقةِ بالله، وعلْمِكَ بأنَّه لا يأتي بالحسناتِ إلَّا هو، ولا يذهبُ بالسِّيئاتِ إلَّا هو، وأنَّ الأمرَ كلَّه لله ليسَ لأحدٍ مع الله شيءٌ.



نصيحة

هلمَّ إلى الدُّخولِ على الله ومجاورتِه في دارِ السَّلامِ بلا نصبٍ ولا تَعبٍ ولا عناءٍ، بل من أقربِ الطُّرُقِ وأسهَلِهَا!

وذلكَ أنَّكَ في وقتٍ بينَ وقْتَينِ، وهو في الحقيقةِ عُمُرُكَ، وهو وقتُكَ الحاضِرُ بينَ ما مضى وما يُستقبَلُ:

فالذي مضى تُصْلِحُهُ بالتوبةِ والنَّدَمِ والاستِغْفارِ، وذلك شيءٌ لا تعبَ عليكَ فيه ولا نَصَبَ ولا معاناةَ عملٍ شاقٍّ، إنَّما هو عملُ قلبٍ.

وتَمْتَنِعُ فيما يُسْتَقْبَلُ من الذُّنوبِ، وامتناعُكَ تَرْكٌ وراحةٌ، ليس هو عملًا بالجوارحِ يَشُقُّ عليك معاناتُه، وإنَّما هو عَزْمٌ ونيَّةٌ جازمةٌ تُريحُ بَدَنَكَ وقلبَكَ وسرَّكَ.

فما مضى تُصْلِحُهُ بالتَّوبةِ، وما يُستقبل تُصلِحُه بالامتناعِ والعَزْمِ والنِّيَّةِ وليس للجوارحِ في هذين نَصَبٌ ولا تَعَبٌ، ولكن الشَّأن في عمرك، وهو وقتُكَ الذي بين الوقتين، فإن أضعتَه أضعتَ سعادتَك ونجاتَك، وإن حفظتَه مع إصلاح الوقتين اللَّذين قبله وبعده بما ذُكِرَ نجوتَ وفُزْتَ بالرَّاحة واللَّذَّةِ والنَّعيم، وحفظُهُ أشقُّ من إصلاح ما قبله وما بعده؛ فإنَّ حِفْظَهُ أن تُلْزِمَ نفسَكَ بما هو أولى بها وأنْفَعُ لها وأعظَمُ تحصيلًا لسعادتِها، وفي هذا تفاوت النَّاس أعظمَ تفاوتٍ.

فهي واللهِ أيامك الخالية التي تَجمع فيها الزَّادَ لمعادك؛ إمَّا إلى الجنَّة وإمَّا إلى النَّار: فإن اتَّخَذْتَ إليها[1] سبيلًا إلى ربِّكَ بلغتَ السَّعادةَ العُظمى والفوزَ الأكبر في هذه المدَّةِ اليسيرة الَّتي لا نسبةَ لها إلى الأبد، وإن آثرتَ الشَّهواتِ والرَّاحاتِ واللَّهو واللَّعب انقضتْ عنك بسرعةٍ، وأعْقَبَتْكَ الألمَ العظيمَ الدَّائم الذي مُقاساتُهُ ومعاناتُهُ أشقُّ وأصعبُ وأَدْوَمُ من معاناةِ الصَّبرِ عن محارم الله والصَّبرِ على طاعته ومخالفةِ الهوى لأجله.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة المجمع: (منها).

فَصْلٌ

علامة صحَّة الإرادة: أن يكونَ همُّ الـمُريدُ رِضَى ربِّه، واستعدادَهُ للقائِهِ، وحزنه على وقتٍ مرَّ في غيرِ مَرْضاتِه، وأسَفه على قُرْبِهِ والأُنْسِ به. وجماعُ ذلك أن يُصبحَ ويُمسي وليس له همٌّ غيرُه.



فصل

❁ إذا استغنى الناسُ بالدُّنيا فاستغنِ أنتَ بالله، وإذا فَرِحوا بالدُّنيا فافرح أنتَ بالله، وإذا أَنِسُوا بأحبابِهم فاجعلْ أُنْسَكَ بالله، وإذا تعرَّفوا إلى ملوكِهم وكُبَرائِهم وتقرَّبوا إليهم لينالوا بهم العِزَّ والرِّفعةَ؛ فتَعرَّفْ أنتَ إلى الله وتودَّدْ إليه؛ تنالُ بذلك غايةَ العزِّ والرِّفعةِ.

❁ قال بعضُ الزُّهَّاد: ما عَلِمْتُ أنَّ أحدًا سَمِعَ بالجنَّةِ والنَّارِ تأتي عليه ساعةٌ لا يطيعُ الله فيها بذكرٍ أو صلاةٍ أو قراءةٍ أو إحسانٍ. فقال له رجلٌ: إنِّي أُكثِرُ البُكاء. فقال: إنَّك إن تَضحَك وأنتَ مُقِرٌّ بخطيئتك خيرٌ من أن تبكيَ وأنتَ مُدِلٌّ بعملِكَ؛ إنَّ المُدِلَّ لا يصعدُ عملُهُ فوق رأسه. فقال: أوصني. فقال: دَعْ الدُّنيا لأهلِها كما تركوا هم الآخرةِ لأهلِها، وكن في الدُّنيا كالنَّحلةِ: إنْ أكَلَتْ أَكَلَتْ طيِّبًا، وإنْ أطْعَمَتْ أطْعَمَتْ طيِّبًا، وإنْ سَقَطَتْ على شيءٍ لم تكسِرْهُ ولم تَخدِشْهُ[١].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (٣٥١٦٧)، وأحمد في «الزهد» رقم (٥٠٢ شاهين)، وهنَّاد في «الزهد» رقم (٤٥٩ الفريوائي)، والدينوري المالكي في «المجالسة وجواهر العلم» (٥/ ١٨٥-١٨٦ مشهور)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧-٢٨ السعادة)، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ عن أحد الرهبان، ولفظه: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَاهِبٍ مِنَ الرُّهْبَانِ، فَقَالَ: يَا رَاهِبُ، كَيْفَ ذِكْرُكَ لِلْمَوْتِ؟ قَالَ: مَا أَرْفَعُ قَدَمًا، وَلَا أَضَعُ قَدَمًا، إِلَّا رَأَيْتُ أَنِّي قَدْ مِتُّ، قَالَ: فَكَيْفَ دَأْبُ نَشَاطِكَ فِي ذَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ؟ قَالَ: مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ أَحَدًا سَمِعَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ يَأْتِي عَلَيْهِ سَاعَةٌ لَا يُصَلِّي فِيهَا، قَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي لَأَقُومُ فِي صَلَاتِي، فَأَبْكِي حَتَّى يَنْبُتَ الْبَقْلُ مِنْ دُمُوعِ عَيْنِي، أَوْ: كَادَ يَنْبُتُ الْبَقْلُ مِنْ دُمُوعِ عَيْنِي، قَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: إِنَّكَ إِنْ تَضْحَكْ وَأَنْتَ مُعْتَرِفٌ لله عَزَّوَجَلَّ بِخَطِيئَتِكَ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَبْكِيَ وَأَنْتَ مُدِلٌّ بِعَمَلِكَ؛ فَإِنَّ صَلَاةَ الْمُدِلِّ لَا تَصْعَدُ فَوْقَهُ، قَالَ: أَوْصِنِي، قَالَ: أُوصِيكَ بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ لَا تُنَازِعَهَا أَهْلَهَا، وَأَنْ تَكُونَ كَالنَّحْلَةِ؛ إِنْ أَكَلَتْ أَكَلَتْ طَيِّبًا، وَإِنْ وَضَعَتْ وَضَعَتْ طَيِّبًا، وَإِنْ وَقَعَتْ عَلَى عُودٍ لَمْ تَضُرَّهُ وَلَمْ تَكْسِرْهُ، أُوصِيكَ بِالنُّصْحِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ نُصْحَ الْكَلْبِ لِأَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ يُجِيعُونَهُ وَيَطْرُدُونَهُ، وَيَأْبَى إِلَّا أَنْ يَحْفَظَهُمْ وَيَنْصَحَهُمْ».

فصل

الزُّهدُ أقسامٌ: زهدٌ في الحرام، وهو فرضٌ عين. وزهدٌ في الشُّبُهات، وهو بحسب مراتب الشُّبهة، فإن قُويتْ التحقتْ بالواجب، وإن ضَعُفَتْ كان مستَحبًّا. وزهدٌ في الفضول. وزهدٌ فيما لا يَعنِي من الكلامِ والنَّظرِ والسُّؤالِ واللِّقاءِ وغيرِه. وزهدٌ في النَّاس. وزهدٌ في النَّفسِ بحيثُ تهونُ عليه نفسُهُ في الله. وزهدٌ جامِعٌ لذلكَ كُلِّه وهو الزُّهدُ فيما سوى الله، وفي كلِّ ما شَغَلك عنه.

وأفضلُ الزّهدِ: إخفاءُ الزّهدِ.

وأصعبُهُ: الزّهدُ في الحظوظ.

والفرقُ بينَهُ وبين الوَرَعِ: أنَّ الزَّهدَ تركُ مالا ينفعُ في الآخرةِ، والورع تركُ ما يُخشى ضررُهُ في الآخرةِ.

والقلبُ المعلَّقُ بالشَّهواتِ لا يَصِحُّ له زهدٌ ولا ورعٌ.

❁ قال يحيى بن معاذ[1]: عجبتُ من ثلاثٍ: رجلٌ يُرائي بعملِهِ مخلوقًا مثلَهُ ويتركُ أن يعملَهُ لله، ورجلٌ يبخلُ بمالِهِ وربُّه يَستقرِضه منه فلا يُقرِضه منه شيئًا، ورجلٌ يَرغبُ في صحبة المخلوقين ومودَّتهم والله يدعوه إلى صُحبَتِهِ ومودَّتِهِ.



(١) هو: الواعظ يحيى بن معاذ الرازي، قال الذهبي: «له كلام جيد ومواعظ مشهورة»، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ١٥٩).

فائدة جليلة

قال سهل بن عبد الله[١]: تَرْكُ الأمرِ عندَ الله أعظمُ من ارتكاب النَّهي، لأنَّ آدم نُهِيَ عن أكْلِ الشَّجرةِ فأكَلَ منها فتابَ عليه، وإبليس أُمِرَ أن يَسْجُدَ لآدمَ فلم يَسْجُدْ فلم يَتُبْ عليه.

قلت: هذه مسألةٌ عظيمةٌ لها شأنٌ، وهي: أنَّ تَرْكَ الأوامرِ أعظمُ عندَ الله من ارتكاب المناهي، وذلك من وجوه عديدة:

أحدُها: ما ذكره سهلٌ من شأن آدم وعدوِّ الله إبليس.

الثاني: أنَّ ذنبَ ارتكاب النَّهي مصدره في الغالب الشَّهوة والحاجة، وذنبُ ترك الأمر مصدَرَهُ في الغالب الكِبْرُ والعزَّةُ، و«**لا يدخلُ الجنَّةَ من كان في قلبِهِ مِثقالُ ذرَّة من كِبْرٍ**»[٢]، ويدخلها مَن مات على التَّوحيد وإن زنى وسرق[٣].

الثالث: أنَّ فِعْلَ المأمورِ أحبُّ إلى الله من تركِ المنهيِّ، كما دلَّ على ذلك النُّصوصُ: كقوله ﷺ: «**أَحَبُّ الأَعمالِ إِلَى الله الصَّلاةُ عَلى وَقْتِها**»[٤].

---

(١) هو: الزاهد أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري، توفي سنة (٢٨٣)، قال الذهبي: «له كلمات نافعة، ومواعظ حسنة»، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٣٠-٣٣١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٤٧-٩١) و(١٤٨-٩١) و(١٤٩-٩١) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٣) أخرج البخاري برقم (٥٨٢٧، ٦٢٦٨)، ومسلم برقم (١٥٤-٩٤) واللفظ له، من حديث أبي ذرٍّ قال: «أتيت النبيَّ ﷺ وهو نائم، عليه ثوب أبيض ثمَّ أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فجلست إليه، فقال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لا إِلَهَ إلَّا الله، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**»، قلتُ: وإنْ زَنَى وإنْ سَرَقَ؟ قال: «**وَإِن زَنَى وَإنْ سَرَقَ**»، قلتُ: وإنْ زَنَى وإنْ سَرَقَ؟ قال: «**وَإنْ زَنَى وَإنْ سَرَقَ**» ثلاثًا، ثمَّ قال في الرَّابعة: «**على رغم أنف أبي ذر**»، قال فخرج أبو ذر وهو يقول: وإنْ رغمَ أنفُ أبي ذر».

(٤) أخرجه البخاري برقم (٥٢٧، ٥٩٧٠)، ومسلم برقم (١٣٩-٨٥) من حديث عبد الله بن مسعود.

وقوله: «أَلَا أُنَبِئُكُم بِخَيرِ أَعْمَالِكُم، وَأَزْكَاهَا عِندَ مَلِيكِكُمْ، وأَرْفَعِهَا في دَرَجَاتِكُم، وخَـير لَكـم مِن أن تَلْقَوا عَدُوَّكـم فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُم وَيَضْرِبُـوا أَعْنَاقَكُم»؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «ذِكْرُ الله»(١).

وقوله: «واعْلَمُوا أنَّ خَيرَ أَعْمَالِكُم الصَّلاةُ»(٢).

وغير ذلك من النصوص.

وتركُ المناهي عملٌ؛ فإنَّه كَفُّ النَّفسِ عن الفعل.

ولهذا علَّق سُبْحَانَهُ المحبَّةَ بفعلِ الأوامر؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤، ١٤٨]، [المائدة: ٩٣] وقوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وأمَّا في جانبِ المناهي فأكثرُ ما جاء النَّفيُّ للمحبَّةِ، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، [المائدة: ٨٧]، وقوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] ونظائره.

وأخبر في موضعٍ آخر أنَّه يكرهها ويسخطها؛ كقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٧٧) وابن ماجه برقم (٣٧٩٠) والإمام أحمد برقم (٢١٧٠٢) من حديث أبي الدرداء، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع الصغير» برقم (٢٦٢٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (٢٧٧)، والإمام أحمد برقم (٢٢٣٧٨، ٢٢٤٣٦) من حديث ثوبان، وصحَّحه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١١٥). وفي «إرواء الغليل» رقم (٤١٢)، وذكر له شواهد.

إذا عُرِفَ هذا؛ ففعلُ ما يحبُّه سُبْحَانَهُ مقصودٌ بالذَّات، ولهذا يُقدِّرُ ما يكرهَهُ ويَسخَطُه لإفضائه إلى ما يحبُّ؛ كما قدَّر المعاصيَ والكفرَ والفسوقَ لما ترتَّبَ على تقديرها مما يحبُّه من لوازمها؛ من الجهاد، واتخاذ الشُّهداء، وحصول التَّوبةِ من العبدِ والتضرُّع إليه والاستكانة، وإظهارِ عدلِه وعفوِه وانتقامه وعزِّه، وحصول الموالاة والمعاداة لأجله، وغير ذلك من الآثارِ التي وجودها بسبب تقديرِه لما يكرُهُ أحبُّ إليه من ارتفاعها بارتفاع أسبابها، وهو سُبْحَانَهُ لا يُقدِّرُ ما يُحِبُّ لإفضائه إلى حصول ما يكرهُهُ ويسخطُهُ كما يقدِّر ما يكرهُهُ لإفضائِهِ إلى ما يحبُّه، فعُلِمَ أنَّ فِعلَ ما يُحِبُّه أحبُّ إليه ممَّا يكرهه. يوضحه:

الوجه الرابع: أنَّ فعل المأمور مقصودٌ لذاتِه، وترك المنهيِّ مقصودٌ لتكميلِ فعل المأمور؛ فهو منهيٌّ عنه لأجل كونه يُخِلُّ بفعلِ المأمور أو يُضعِفه وينقصه؛ كما نبَّه سُبْحَانَهُ على ذلك في النَّهي عن الخَمْرِ والميسر بكونهما يَصُدَّانِ عن ذكرِ الله وعن الصَّلاة؛ فالمنهيَّاتُ قواطعُ وموانعُ صادَّةٌ عن فعل المأمورات أو عن كمالها؛ فالنَّهي عنها من باب المقصود لغيره، والأمر بالواجبات من باب المقصود لنفسه. يوضحه:

الوجه الخامس: أنَّ فعل المأمورات من باب حفظ قوَّة الإيمان وبقائها، وترك المنهيَّات من باب الحِمْية عمَّا يُشوِّش قوَّةَ الإيمان ويُخرِجها عن الاعتدال، وحفظ القوَّة مقدَّمٌ على الحمية؛ فإن القوَّة كلَّما قَوِيَتْ دفعت الموادَّ الفاسدة، وإذا ضَعُفَتْ غلبت المواد الفاسدة، فالحمية مرادةٌ لغيرها، وهو حفظ القوة وزيادتها وبقاؤها، ولهذا كلما قويتْ قوَّة الإيمان دفعت الموادَّ الرَّديئةَ ومنعَتْ من غلبتها وكثرتها بحسب القوَّةِ وضعفها، وإذا ضَعُفَتْ غلبَتِ الموادُّ الفاسدة.

فتأمَّل هذا الوجه.

الوجه السَّادس: أنَّ فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤهُ وزينتهُ وسرورهُ وقُرَّةُ عينه ولذَّتُه ونعيمه، وتركُ المنهيَّات بدون ذلك لا يُحصِّلُ له شيئًا من ذلك؛ فإنَّه لو تركَ جميع المنهيَّات، ولم يَأتِ بالإيمان والأعمال المأمورِ بها لم ينفعه ذلك التَّرْكُ شيئًا، وكان خالدًا مُخلَّدًا في النار. وهذا يتبيَّن بـ:

الوجه السَّابع: أنَّ مَن فعلَ المأموراتِ والمنهيَّاتِ؛ فهو: إمَّا ناجٍ مطلقًا[1] إن غلبتْ حسناتُه سيِّئاتِه، وإمَّا ناجٍ بعد أن يُؤخَذ منه الحقُّ ويُعاقَب على سيِّئاتِه، فمآلُهُ إلى النَّجاة، وذلك بفعل المأمور. ومَن تركَ المأمورات والمنهيَّات فهو هالِكٌ غير ناجٍ. ولا ينجو إلَّا بفعل المأمور، وهو التَّوحيد.

فإن قيل: فهو إنَّما هَلكَ بارتكاب المحظور، وهو الشِّرك.

قيل: يكفي في الهلاك تركُ نفسِ التَّوحيد المأمور به وإن لم يأتِ بضدٍّ وجوديٍّ من الشِّرك، بل متى خلا قلبُهُ من التوحيدِ رأسًا؛ فلم يُوحِّد اللهَ فهو هالكٌ، وإن لم يَعبُد معه غيرَه، فإذا انضافَ إليه عبادةُ غيره؛ عُذِّبَ على تركِ التَّوحيد المأمور به وفعلِ الشِّركِ المنهيِّ عنه. يوضِّحه:

الوجه الثامن: أنَّ المدعوَّ إلى الإيمان إذا قال: لا أُصدِّقُ ولا أكذِّبُ، ولا أُحِبُّ ولا أبغضُ ولا أعبدُه ولا أعبدُ غيره! كان كافرًا بمجرد التَّركِ والإعراض؛ بخلاف ما إذا قال: أنا أصدِّقُ الرَّسولَ وأحبُّه وأؤمنُ به وأفعل ما أمرني، ولكنَّ شهوتي وإرادتي وطبعي حاكمةٌ عليَّ لا تَدَعُني أتركُ ما نهاني عنه، وأنا أعلمُ أنَّه قد نهاني وكره لي فعل المنهي، ولكن لا صبرَ لي عنه! فهذا لا يُعَدُّ كافرًا بذلك ولا حكمُهُ حكم الأوَّل؛ فإنَّ هذا مطيعٌ من وجهٍ، وتاركُ المأمور جملةً لا يُعَدُّ مطيعًا بوجهٍ. يوضِّحُه:

---

(١) هكذا في الأصل، وسقطت كلمة (مطلقا) من طبعة (المجمع).

الوجه التَّاسـع: أنَّ الطَّاعةَ والمعصيةَ إنَّما تتعلَّق بالأمر أصلًا وبالنَّهي تبعًا؛ فالمطيعُ ممتثلُ المأمور، والعاصي تاركُ المأمور:

قال تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ [التحريم: ٦].

وقال موسى لأخيه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٢ - ٩٣]

وقال عمرو بن العاص عند موته: أنا الذي أمَرْتَني فعصيتُ، ولكن لا إله إلا أنت(١).

وقال الشاعرُ:

أمَرْتُكَ أمْرًا جازِما فَعَصَيْتَني(٢)

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ٣٩ رواية نعيم)، ومن طريقه ابنُ أبي الدنيا في «المحتضرين» (ص: ٢٠١ رمضان يوسف) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ أَبَاهُ قَالَ حَيْثُ احْتُضِرَ: «اللَّهُمَّ أَمَرْتَنَا بِأُمُورٍ، وَنَهَيْتَ عَنْ أُمُورٍ، تَرَكْنَا كَثِيرًا مِمَّا أَمَرْتَ، وَوَقَعْنَا فِي كَثِيرٍ مِمَّا نَهَيْتَ، اللَّهُمَّ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. ثُمَّ أَخَذَ بِإِبْهَامِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُهَلِّلُ حَتَّى فَاضَ». وإسناده صحيح.
وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٩٦ عطا) في كلام طويل، بلفظ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا فَرَكِبْنَا، وَنَهَيْتَنَا فَأَضَعْنَا، فَلا بَرِيءَ فَأَعْتَذِرُ وَلا عَزِيزَ فَأَنْتَصِرُ وَلَكِنْ لا إِلَهَ إلا الله. مَا زَالَ يَقُولُهَا حتى مات». وإسناده صحيح.

(٢) وهو قول حصين بن المنذر الرقاشي ليزيد بن المهلب وتمامه: فأَصْبَحْتَ مَسلُوبَ الإمارَةِ نادِمًا، كما «وفيات الأعيان» (٦/ ٢٩٠ إحسان)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص: ٥٧٦ شمس الدين) -إلا أنه جاء فيهما بلفظ: «حازمًا»-، و«تفسير الطبري» (١٧/ ١٥٢ الرسالة).
وذكره المؤلف في «مدارج السَّالكين» (١/ ٣٦١) بتمامه ولم ينسبه.
ونسبه القاضي أبو يعلي في كتابه «العدة» (١/ ٢٥٢ المباركي) للحباب بن المنذر ولا يصحُّ، والله أعلم.
وذكره الجلال المحلِّي في شرحه لـ«جمع الجوامع» (١/ ٣٦٩)، فقال: قال عمرو بن العاص لمعاوية:
امرتك امرًا جازمًا فعصيتني ... وكان من التوفيق قتل ابن هاشم

والمقصودُ من إرسالِ الرُّسُل طاعةُ المرسِل، ولا تحصلُ إلَّا بامتثالِ أوامرِهِ، واجتنابُ المناهي من تمام امتثال الأوامر ولوازمه، ولهذا لو اجتنبَ المناهي ولم يفعل ما أُمِرَ به لم يكن مطيعًا وكان عاصيًا؛ بخلافِ ما لو أتى بالمأموراتِ وارتكب المناهي؛ فإنَّه وإن عُدَّ عاصيًا مذنِبًا؛ فإنَّه مطيعٌ بامتثال الأمر عاصٍ بارتكاب النهي؛ بخلاف تارك الأمر؛ فإنَّه لا يُعَدُّ مطيعًا باجتناب المنهيَّات خاصَّةً.

الوجه العاشر: إنَّ امتثال الأمر عبوديَّةٌ وتقرُّبٌ وخدمةٌ، وتلك العبادة التي خُلِقَ لأجلها الخلقُ؛ كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فأخبر سُبْحَانَهُ أنَّه إنَّما خلقهم للعبادة، وكذلك إنَّما أرسلَ إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه؛ فالعبادة هي الغايةُ التي خُلِقوا لها، ولم يُخلَقوا لمجرَّد التَّرك؛ فإنّه أمرٌ عدميٌّ لا كمال فيه من حيثُ هو عدمٌ؛ بخلاف امتثال المأمور؛ فإنَّه أمرٌ وجوديٌّ مطلوبُ الحصول. وهذا يتبيَّن بـ:

الوجه الحادي عشر: وهو أنَّ المطلوب بالنهي عدم الفعل، وهو أمرٌ عدميٌّ، والمطلوبُ بالأمر إيجادُ فعل، وهو أمرٌ وجوديٌّ، فمتعلَّقُ الأمر الإيجاد، ومتعلَّق النَّهي الإعدام أو العدم، وهو أمرٌ لا كمال فيه؛ إلَّا إذا تضمَّن أمرًا وجوديًا؛ فإنَّ العدم - من حيثُ هو عدمٌ - لا كمالَ فيه ولا مصلحةَ؛ إلَّا إذا تضمَّن أمرًا وجوديًا مطلقًا، وذلك الأمر الوجوديُّ مطلوبٌ مأمورٌ به، فعادتْ حقيقةُ النهي إلى الأمر، وأنَّ المطلوب به ما في ضمن النهي من الأمر الوجوديِّ المطلوب به. وهذا يتَّضح بـ:

الوجه الثاني عشر: وهو أنَّ الناس اختلفوا في المطلوب بالنهي على أقوال:

أحدُها: أنَّ المطلوب به كفُّ النفس عن الفعلِ وحبسُها عنه. وهو أمرٌ وجوديٌّ. قالوا: لأنَّ التكليفَ إنَّما يتعلق بالمقدورِ، والعدمُ المحضُ غيرُ مقدورٍ. وهذا قولُ الجمهور.

وقـال أبو هاشـم[1] وغـيرُهُ: بل المطلوب عـدمُ الفعل، ولهذا يحصـل المقصود من بقائِه على العدم، وإن لم يَخطُرْ بباله الفعلُ، فضلًا أن يقصدَ الكفَّ عنه، ولو كان المطلوبُ الكـفَّ؛ لـكان عاصيًا إذا لم يأتِ به، ولأنَّ النَّاس يمدحون بعـدم فعل القبيح من لم يَخْطُر ببالـه فعلُـه والكفُّ عنه. وهذا أحـدُ قولي القاضي أبي بكر، ولأجله التـزم أنَّ عدم الفعل مقـدورٌ للعبـد وداخلٌ تحت الكسـب؛ قال: والمقصود بالنهي الإبقـاء على العدم الأصلي وهو مقدورٌ.

وقالتْ طائِفةٌ: المطلوب بالنهي فعلُ الضِّدِّ؛ فإنَّه هو المقدور وهو المقصودُ للنَّاهي؛ فإنَّه إنَّما نهاهُ عن الفاحشةِ طلبًا للعفَّةِ وهي المأمور بها، ونهاه عن الظُّلم طلبًا للعدل المأمور بـه، وعن الكذب طلبًا للصِّدق المأمور به، وهكـذا جميع المنهيَّات. فعند هؤلاء أنَّ حقيقة النَّهي الطَّلبُ لضدِّ المنهيِّ عنه، فعاد الأمر إلى أنَّ الطَّلب إنَّما تعلَّقَ بفعل المأمور.

والتَّحقيقُ أنَّ المطلوب نوعان:

❁ **مطلوب لنفسه**، وهو المأمور به.

❁ **ومطلوبٌ إعدامه لمضادَّته المأمورَ به**، وهو المنهي عنه؛ لما فيه من المفسدةِ المضادَّةِ للمأمور به. فإذا لم يَخْطُرْ ببال المكلَّف، ولا دعتْهُ نفسهُ إليه، بل استمرَّ على العدم الأصلي؛ لم يُثَـبْ عـلى تركـه. وإن خطرَ بباله، وكفَّ نفسـه عنه لله، وتركه اختيـارًا؛ أثيب على كفِّ نفسـه وامتناعـه؛ فإنَّه فعل وجوديٌّ، والثَّـواب إنَّما يقع على الأمر الوجـوديِّ دون العدم المحض. وإن تركه مع عزمِه الجازم على فعله، لكن تركه عجزًا؛ فهذا وإن لم يُعاقَب عقوبةَ الفاعل، لكن يُعاقَب على عزمه وإرادته الجازمة التي إنَّما تخلَّف مرادُها عجزًا.

---

(١) هو: المعتزلي عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب أبو هاشم الجبائي توفي سنة (٣٢١هـ)، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٦٣-٦٤).
وحكى قول أبي هاشم الآمدي في «الإحكام» (١/ ١٤٧).

وقد دلَّت على ذلك النُّصوص الكثيرة؛ فلا يُلتفت إلى ما خالفها:

كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقوله في كاتم الشهادة: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

وقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا تَواجَهَ المسْلِمَانِ بسَيفِهِمَا فالقَاتِلُ والمقْتُولُ في النّار**». قالوا: هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟! قال: «**إنَّه أرادَ قَتْلَ صَاحِبِه**»(١).

وقوله في الحديث الآخر: «**وَرَجُل قَالَ: لو أنَّ لي مَالًا لَعمِلْتُ بعمَلِ فُلانٍ؛ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، وَهُمَا في الوِزرِ سَوَاءٌ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٠٨٣)، ومسلم برقم (١٤ - ٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأخرجه البخاري أيضًا برقم (٣١، ٦٨٧٥) بلفظ: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه».

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٢٥)، وأحمد في مسنده برقم (١٨٠٣١) من حديث أبي كبشة الأنماري أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ**» قَالَ: «**مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ الله عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ الله عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا**»، «**وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ**» قَالَ: «**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ، عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ**».

والحديث صحَّحه الشيخ الألباني كما في «صحيح الجامع الصغير» برقم (٣٠٢٤).

وقـول من قـال: «إنَّ المطلوب بالنهي فعل الضِّدِّ» ليـس كذلك؛ فإنَّ المقصود عدم الفعـل والتلبس بالضِّديـن[١]؛ فإنَّ مـا لا يتمُّ الواجـب إلَّا به فهو غير مقصـود بالقصدِ الأوَّل، وإن كان المقصـود بالقصـد الأوَّل المأمور الَّذي نهي عـمَّا يمنعه ويضعفه؛ فالمنهيُّ عنه مطلوبٌ إعدامه طلبَ الوسـائل والذَّرائع، والمأمور به مطلوبٌ إيجاده طلبَ المقاصد والغايات.

وقـولُ أبي هاشـم: «إنَّ تـاركَ القبائح يُحمَـدُ، وإن لم يخطر بباله كـفُّ النَّفس»، فإن أراد بحمـده أنَّـه لا يُذَمَّ فصحيحٌ، وإن أراد أنَّه يُثنى عليه بذلك ويجب[٢] عليه ويسـتحقُّ الثـوابَ فغيرُ صحيح؛ فإنَّ الناس لا يَحمَدون المجبـوب على تركِ الزِّنا ولا الأخرس على عدم الغيبة والسَّبِّ، وإنَّما يَحمدون القادر الممتنع عن قدرةٍ وداعٍ إلى الفعل.

وقـولُ القـاضي: «الإبقاءُ على العدم الأصـلي مقدورٌ»[٣]، فإن أراد بـه كَفَّ النَّفس ومنعها فصحيحٌ، وإن أراد مجرَّدَ العدم فليس كذلك، وهذا يتبين بـ:

الوجه الثالث عشـر: وهو أنَّ الأمر بالشيء نهيٌ عن ضدِّه من طريق اللُّزوم العقلي لا القصـدِ الطَّلبـي؛ فإنَّ الآمر إنما مقصوده فعل المأمور؛ فـإذا كان من لوازِمه تركُ الضدِّ صـارَ تركه مقصودًا لغيره، وهذا هو الصَّواب في مسـألةِ الأمـر بالشيء؛ هل هو نهيٌ عن ضـدِّه أم لا؟ فهـو نهيٌ عنـه من جهة اللُّزوم لا من جهة القصـد والطَّلب. وكذلك النهي عن الشـيء؛ مقصود الناهي بالقصد الأوَّل الانتهاءُ عن المنهي عنه، وكونه مشتغلًا بضدِّه جاء من جهة اللُّزوم العقليِّ، لكن إنَّما نُهيَ عمَّا يُضادُّ ما أُمِرَ به كما تقدم، فكان المأمور به هو المقصود بالقصد الأوَّل في الموضعين.

---

(١) هكذا في الأصل. وفي طبعة (المجمع): (بالضد).

(٢) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (ويحمد).

(٣) انظر: «التحبير شرح التحرير» للمرداوي (٣/ ١١٦٦).

وحرف المسألة: أنَّ طلب الشَّيء طلبٌ له بالذَّات ولما هو من ضرورته باللّزوم، والنهي عن الشيء طلبٌ لتركه بالذَّات ولفعل ما هو من ضرورة التَّركِ باللُّزوم، والمطلوب في الموضعين فعلٌ وكفٌّ، وكلاهما أمرٌ وجوديٌّ.

الوجه الرابع عشر: أنَّ الأمر والنهي في باب الطلب نظيرُ النفي والإثبات في باب الخبر، والمدحُ والثناءُ لا يحصلان بالنفي المحض إن لم يتضمَّن ثبوتًا؛ فإنَّ النَّفيَ كاسمه عدمٌ لا كمالَ فيه ولا مدحَ، فإذا تضمَّنَ ثبوتًا صحَّ المدحُ به، كنفي النِّسيان المستلزم لكمال العلم وبيانه، ونفي اللُّغوب والإعياء والتَّعب المستلزم لكمال القوَّة والقدرة، ونفي السِّنَة والنَّوم المستلزم لكمال الحياة القيومية، ونفي الولد والصاحبة المستلزم لكمال الغنى والملك والرُّبوبية، ونفي الشريك والوليِّ والشفيع بدون الإذن المستلزم لكمال التوحيد والتفرُّد بالكمال والآلهية والملك، ونفي الظلم المتضمن لكمال العدل، ونفي إدراك الإبصار له المتضمن لعظمته، وأنَّه أجلُّ من أن يُدرَك وإن رأته الأبصار، وإلَّا فليس في كونه لا يرى مدح بوجه من الوجوه، فإن العدم المحض كذلك.

وإذا عُرف هذا؛ فالمنهيُّ عنه إن لم يتضمَّن أمرًا وجوديًا ثبوتيًّا لم يُمدَح بتركه، ولم يُستحقَّ الثواب والثناء بمجرَّد الترك؛ كما لا يستحقُّ المدح والثناء بمجرَّد الوصف العدميِّ.

الوجه الخامس عشر: أنَّ الله سُبْحَانَهُ جعلَ جزاءَ المأمورات عشرةَ أمثالِ فعلِها، وجزاءُ المنهيَّاتِ مثلٌ واحدٌ، وهذا يدلُّ على أنَّ فعل ما أمر به أحبُّ إليه مِن تَرك ما نهى عنه، ولو كان الأمرُ بالعكسِ لكانت السَّيِّئةُ بعشرةٍ والحسنةُ بواحدةٍ أو تساويَا.

الوجه السادس عشر: أنَّ المنهيَّ عنه المقصودُ إعدامُه وأنْ لا يدخل في الوجودِ، سواءٌ نوى ذلك أو لم يَنْوِه، وسواءٌ خطر ببالِه أو لم يخطر؛ فالمقصود أن لا يكون، وأمَّا المأمورُ به فالمقصودُ كونه وإيجاده والتقرُّبُ به نيَّةً وفعلًا.

وسرُّ المسألة: أنَّ وجود ما طلب إيجادَهُ أحبُّ إليه من عَدَمِ ما طلبَ إعدامَه، وعدم ما أحبَّه أكره إليه من وجودِ ما يُبْغِضُهُ، فمحبَّتُه لفعلِ ما أمرَ به أعظمُ من كراهتِه لفعلِ ما نهى عنه. يوضحُه:

الوجه السَّابع عشر: أنَّ فعل ما يُحِبُّه والإعانة عليه وجزاءه وما يترتَّبُ عليهِ مِنَ المدحِ والثَّناءِ مِن رحمتِهِ، وفِعلَ ما يكرهه وجزاءه وما يترتَّبُ عليه من الذَّمِّ والألمِ والعقابِ من غضبِه، ورحمتُه سابقةٌ على غضبِه غالبةٌ له، وكلُّ ما كانَ من صفةِ الرَّحمة فهو غالبٌ لما كان من صفةِ الغضب؛ فإنَّه سُبْحَانَهُ لا يكونُ إلَّا رحيمًا، ورحمتُهُ من لوازمِ ذاتِه؛ كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه، فيستحيلُ أن يكونَ على خلافِ ذلك، وليس كذلك غضبه، فإنَّه ليس من لوازمِ ذاتِه؛ ولا يكون غضبانَ دائمًا غضبًا لا يُتَصَوَّرُ انفكاكُه، بل يقولُ رُسلُه وأعلمُ الخلق به يوم القيامة: «**إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليومَ غَضبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ**»[1]، ورحمتُه وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ، وغَضَبُه لم يَسَعْ كلَّ شيءٍ، وهو سبحانه كَتبَ على نفسِه الرَّحمَةَ، ولم يكتُب على نفسِه الغضب، ووسِع كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا ولم يَسَعْ كلَّ شيءٍ غضبًا وانتقامًا؛ فالرَّحمةُ وما كان بها ولوازِمُها وآثارُها غالبةٌ على الغضب وما كان منه وآثاره؛ فوجودُ ما كان بالرَّحمةِ أحبُّ إليه من وجودِ ما كان من لوازمِ الغضب، ولهذا كانت الرَّحمةُ أحبَّ إليه من العذاب، والعفوُ أحبَّ إليه من الانتقام؛ فوجود محبوبه أحبُّ إليه من فواتِ مكروهه، ولا سِيَّما إذا كان في فواتِ مكروهِهِ فواتُ ما يحبُّه من لوازمِه؛ فإنَّه يكره فوات تلك اللَّوازم المحبوبة كما يكرهُ وجودَ ذلكَ الملزوم المكروه.

الوجهُ الثامن عشر: أنَّ آثار ما يكرهُهُ - وهو المنهيَّاتُ - أسرعُ زوالًا بما يُحِبُّه من زوالِ آثار ما يحبُّه بما يكرهُه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧١٢)، ومسلم برقم (٤٢٧-١٩٤) من حديث أبي هريرة الطويل في يوم المحشر وسؤال الناس الأنبياء بأن يشفعوا لهم عند الله تَعَالَىٰ.

فآثارُ كراهتِهِ سريعةُ الزَّوال، وقد يُزيلُها سبحانُه بالعفو والتَّجاوز، وتزولُ بالتَّوبةِ، والاستغفار، والأعمالِ الصالحة، والمصائبِ المُكفِّرة، والشَّفاعة، والحسناتُ يُذْهِبْنَ السَّيِّئات، ولو بلغتْ ذنوبُ العبدِ عَنانَ السَّماءِ، ثمَّ استغفرَهُ غفرَ له، ولو لقيَهُ بِقُرابِ الأرض خطايا، ثم لقيَهُ لا يُشرِكُ به شيئًا؛ لأتاهُ بقُرابها مغفرة[1]، وهو سُبْحَانَهُ يَغفرُ الذنوب - وإن تعاظمت - ولا يُبالي، فيُبْطِلُها ويبطلُ آثارها بأدنى سعي من العبد وتوبةٍ نصوح وندمٍ على ما فعل، وما ذاك إلَّا لوجود ما يُحِبُّه من توبةِ العبدِ وطاعتِهِ وتوحيدِه، فدلَّ على أنَّ وجود ذلك أحبُّ إليه وأرضى له. يوضِّحه:

الوجهُ التاسع عشر: وهو أنَّه سبحانه قدَّر ما يُبْغِضُهُ ويكرهُهُ من المنهيَّاتِ لما يترتَّب عليها مما يحبُّه ويفرحُ به من المأمورات.

فإنَّه سُبْحَانَهُ أفرحُ بتوبةِ عبده من الواجد الفاقد والعقيم الوالد والظمآن الوارد، وقد ضربَ رسولُ الله لفرحِهِ بتوبةِ العبد مثلًا ليس في المفروح به أبلغُ منه[2]، وهذا الفرحُ إنَّما كان بفعلِ المأمور به، وهو التَّوبةُ، فقدَّر الذَّنب لما يترتَّبُ عليه من هذا الفرح العظيم الَّذي وجودُهُ أحبُّ إليه من فواتِه، ووجوده بدون لازمه ممتنع فدلَّ على أنَّ وجود ما يحبُّ أحبُّ إليه من فوات ما يكره.

---

(١) سبق تخريجه (ص: ١٣٥).

(٢) أخرج البخاري برقم (٦٣٠٨)، من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ: «**إنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ**» فَقَالَ بِهِ هَكَذَا، قَالَ أَبُو شِهَابٍ: بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ. ثم قال: «**للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الحَرُّ وَالعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللهُ، قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ**».

وأخرج مسلم برقم (١-٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة بلفظ: «**قال الله عَزَّوَجَلَّ: أنا عندَ ظنِّ عبدِي بي وأنا معه حيث ذكرني، واللهِ للهُ أفرحُ بتوبةِ عَبْدِهِ مِنْ أحدِكُمْ يجدُ ضالَّته بالفلاة، ومَن تقرَّبَ إليَّ شبرًا تقرَّبتُ إليه ذراعًا، ومَن تقرَّبَ إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ إليه باعًا، وإذا أقبلَ إليَّ يَمشِي أقبلْتُ إليه أهرولُ**».

وليس المُرادُ بذلك أنَّ كلَّ فردٍ من أفراد ما يحبُّ أحبُّ إليه من فوات كلِّ فردٍ مما يكرهُ، حتَّى تكون ركعتا الضُّحى أحبَّ إليه من فواتِ قتلِ المسلم، وإنَّما المرادُ أنَّ جنسِ فعل المأمورات أفضلُ من جنسِ تركِ المحظورات؛ كما إذا فُضِّلَ الذَّكرُ على الأنثى والإنسيُّ على الملك؛ فالمرادُ الجنسُ لا عمومُ الأعيانِ.

والمقصودُ أنَّ هذا الفرح الذي لا فرحَ يُشبِهُهُ بفعلِ مأمور التَّوبة يَدُلُّ على أنَّ هذا المأمور أحبُّ إليه من فواتِ المحظور الَّذي تفوتُ به التوبةُ وأثرُها ومُقتضاها.

فإن قيل: إنَّما فرح بالتَّوبةِ لأنَّها تَرْكٌ للمنهيِّ، فكان الفرحُ بالتَّرْكِ!

قيل: ليس كذلك؛ فإنَّ التَّركَ المحْض لا يُوجب هذا الفرحَ بل ولا الثَّواب ولا المدح، وليست التَّوبة تركًا، وإن كان التَّركُ من لوازمها، وإنَّما هي فعلٌ وجوديٌّ، يتضمَّنُ إقبالَ التَّائبِ على ربِّه وإنابتهُ إليه والتزامِ طاعتِه، ومن لوازم ذلك تَرْكُ ما نُهِيَ عنه، ولهذا قال تَعَالَى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]؛ فالتَّوبةُ رجوعٌ مما يكرهُ إلى ما يحبُّ، وليست مجرَّد التَّرْك؛ فإنَّ مَن تركَ الذَّنب تَرْكًا مُجرَّدًا ولم يرجع منه إلى ما يُحبُّهُ الربُّ تَعَالَى لم يكنْ تائبًا؛ فالتوبةُ رجوعٌ وإقبالٌ وإنابةٌ لا تركٌ محضٌ.

الوجه العشرون: أنَّ المأمور به إذا فاتَ فاتَتْ الحياةُ المطلوبةُ للعبدِ، وهي التي قال تَعَالَى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال في حقِّ الكفَّار: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢١]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠]. وأمَّا المنهيُّ عنه فإذا وُجِدَ فغايتُهُ أن يوجد المرضُ، وحياةٌ مع السَّقمِ خيرٌ من موتٍ.

فإن قيل: ومن المنهيِّ عنه ما يُوجِب الهلاك، وهو الشِّرْكُ.

قيل: الهلاكُ إنَّما حصلَ بعدمِ التَّوحيد المأمور به الَّذي به الحياةُ، فلـمَّا فُقِدَ حصلَ الهلاكُ؛ فما هلكَ إلَّا مِن عدم إتيانه بالمأمور به.

وهذا: وجهٌ حادٍ وعشرون في المسألة: وهو أنَّ في المأمورات ما يُوجِب فواتُهُ الهلاكَ والشَّقاء الدَّائم، وليس في المنهيَّات ما يقتضي ذلك.

الوجهُ الثاني والعشرون: أنَّ فِعْلَ المأمور يقتضي تَرْكَ المنهيِّ عنه إذا فُعِلَ على وجهه من الإخلاص والمتابعة والنُّصح لله فيه؛ قال تعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ومجرَّدُ تَرْكِ المنهيِّ لا يقتضي فعل المأمور ولا يستلزمه.

الوجهُ الثالثُ والعشرون: أنَّ ما يحبُّه من المأمورات فهو متعلِّقٌ بصفاتِهِ، وما يكرهُهُ من الـمَنهياتِ فمتعلِّقٌ بمفعولاتِه.

وهذا وجهٌ دقيقٌ يحتاجُ إلى بيانٍ، فنقولُ:

المنهياتُ شرورٌ وتُفضي إلى الشُّرور، والمأموراتُ خيرٌ وتُفضي إلى الخيرات، والخيرُ بيديه سُبْحَانَهُ والشرُّ ليس إليه[1]؛ فإنَّ الشرَّ لا يدخلُ في صفاتِهِ ولا في أفعالِهِ ولا في

---

(١) ويدلُّ على ذلك ما أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (٢٠١ - ٧٧١) من حديث عليِّ بن أبي طالب عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، وَإِذَا رَكَعَ، قَالَ: «اللهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي»، وَإِذَا رَفَعَ، قَالَ: «اللهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ»، وَإِذَا سَجَدَ، قَالَ: «اللهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ =

أسـمائِهِ، وإنَّـما هو في المفعولات، مع أنَّـه شرٌّ بالإضافةِ والنسـبة إلى العبد، وإلاَّ من حيثُ إضافتهُ ونسبتهُ إلى الخالق سُبْحَانَهُ فليس بشـرٍّ من هذه الجهة.

فغايةُ ارتكاب المنهيِّ أن يوجب شرًّا بالإضافةِ إلى العبد مع أنَّه في نفسـه ليس بشرٍّ، وأمَّـا فواتُ المأمور فيفوتُ به الخيرُ الَّذي بفواتِهِ يحصُلُ ضدُّه من الشَّر، وكلما كان المأمورُ أحبَّ إلى الله سُبْحَانَهُ؛ كان الشرُّ الحاصلُ بفواتِهِ أعظم؛ كالتوحيد والإيمان.

وسرُّ هذه الوجوه: أنَّ المأمور[1] محبوبُهُ والمنهيَّ مكروهُهُ، ووقوعُ محبوبه أحبُّ إليه من فواتِ مكروهِهِ، وفواتُ محبوبه أكرهُ إليه من وقوع مكروهه.

والله أعلم.



= الخالقين»، ثُمَّ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**».

(١) هكذا في الأصل، وزاد محقق طبعة (المجمع) كلمة: (به).

فصل

مبنى الدِّين على قاعدتين: الذِّكر والشُّكر:

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال النبيُّ ﷺ لمعاذٍ: «**وَاللهِ إِنِّي لأُحبُّك؛ فَلَا تَنْسَ أَنْ تَقُولَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ! أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عبادَتِكَ**»[1].

وليس الـمُرادُ بالذِّكرِ مُجرَّدُ ذِكْرِ اللِّسان، بل الذكر القلبيّ واللسانيّ، وذكرُهُ يتضمَّن ذكرَ أسمائِهِ وصفاتِهِ، وذكرَ أمرِهِ ونهيِهِ وذِكْرَهُ بكلامه، وذلك يستلزمُ معرفتَهُ والإيمانَ به وبصفات كمالِهِ ونعوتِ جلالِهِ والثَّناء عليه بأنواعِ الـمَدْحِ، وذلك لا يتمُّ إلَّا بتوحيده.

فذكره الحقيقيُّ يستلزمُ ذلك كلَّه ويستلزمُ ذكر نعمِهِ وآلائِهِ وإحسانِهِ إلى خلقِهِ.

وأمَّا الشكرُ فهو القيامُ بطاعتِهِ والتقرُّبُ إليه بأنواعِ محابِّه ظاهرًا وباطنًا.

وهذانِ الأمرانِ هما جِمَاعُ الدِّين؛ فذكرُه مستلزمٌ لمعرفته، وشكره متضمِّنٌ لطاعته.

وهذان هما الغايةُ التي خَلقَ لأجلها الجنَّ والإنسَ والسموات والأرض، ووضعَ لأجلِها الثَّوابَ والعقابَ، وأنزلَ الكُتُبَ، وأرْسلَ الرُّسُلَ، وهي الحقُّ الذي به خُلِقَتِ السمواتُ والأرضُ وما بينهما، وضدُّها هو الباطلُ والعبثُ الذي يتعالى ويتقدَّسُ عنه، وهو ظنُّ أعدائه به.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥].

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٥٢٢)، والنسائي برقم (١٣٠٣) من حديث معاذ بن جبل، والحديث صحيح؛ صحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع الصغير» برقم (٧٩٦٩-٣٠٦٣).

وقال بعد ذكرِ آياتهِ في أوّل سورة يونس: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٥].

وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

[وقال]: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

فثبت بما ذُكِرَ أنَّ غايةَ الخلقِ والأمرِ أن يُذْكَرَ وأن يُشْكَرَ؛ يُذْكَر فلا يُنْسى، ويُشْكَر فلا يُكْفَر.

وهو سُبْحَانَهُ ذاكرٌ لمن ذكرهُ، شاكرٌ لمن شكرهُ؛ فذِكْرُه سببٌ لذِكرهِ، وشُكْرُهُ سببٌ لزيادته من فضله.

فالذِّكْرُ للقلب واللسان.

والشكرُ للقلبِ محبَّةً وإنابةً، وللِّسان ثناءً وحمدًا، وللجوارح طاعةً وخدمةً.



فصل

تكرَّر في القرآن جعْلُ الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سببَ الهداية والإضلال، فيقومُ بالقلبِ والجوارح أعمالٌ تقتضي الهُدى اقتضاء السَّببِ لمسبَّبه والمؤثِّر لأثره، وكذلك الضَّلالُ؛ فأعمالُ البرِّ تُثْمِرُ الهدى، وكلَّما ازداد منها ازداد هدًى، وأعمالُ الفجور بالضدِّ.

وذلك أنَّ الله سُبْحَانَهُ يُحِبُّ أعمال البرِّ فيجازي عليها بالهُدى والفلاح، ويُبْغِضُ أعمال الفجور ويُجازي عليها بالضَّلال والشَّقاءِ.

وأيضًا فإنَّه البَرُّ، ويحبُّ أهل البِرِّ، فيُقرِّبُ قلوبهم منه بحسَب ما قاموا به من البرِّ، ويُبْغِضُ الفجور وأهله؛ فيبعدُ قلوبهم منه بحسب ما اتَّصفوا به من الفجور.

فمن الأصل الأول: قوله تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ - ٢]

وهذا يتضمَّنُ أمرين:

أحدهما: أنَّه يَهدي به مَن اتَّقى مساخطَه قبل نزول الكتاب؛ فإنَّ النَّاس على اختلافِ مِلَلِهم ونِحلِهم قد استقرَّ عندهم أنَّ الله سُبْحَانَهُ يكره الظُّلم والفواحش والفساد في الأرض ويَمقُتُ فاعلَ ذلك، ويُحبُّ العدلَ والإحسان والجود والصِّدق والإصلاح في الأرض ويُحبُّ فاعل ذلك؛ فلما نزلَ الكتابُ أثابَ سُبْحَانَهُ أهل البرِّ بأنْ وَفَّقهم للإيمان به جزاءً لهم على برِّهم وطاعتِهم، وخَذَلَ أهلَ الفجورِ والفُحْشِ والظُّلم بأنْ حالَ بينهم وبين الاهتداء به.

والأمرُ الثاني: أنَّ العبد إذا آمن بالكتابِ واهتدى به مُجملًا وقَبِلَ أوامرَهُ وصدَّقَ بأخباره؛ كان ذلك سببًا لهدايةٍ أُخرى تحصُلُ له على التفصيل؛ فإنَّ الهداية لا نهاية لها، ولو بلغ العبدُ فيها ما بلغ؛ ففوقَ هدايتِه هدايةٌ أخرى، وفوق تلك الهداية هدايةٌ أخرى، إلى

غير غاية؛ فكلَّما اتَّقى العبدُ ربَّهُ ارتقى إلى هدايةٍ أخرى؛ فهو في مزيد هداية ما دام في مزيدٍ من التَّقوى، وكلَّما فوَّتَ حظًّا من التَّقوى فاته حظٌّ من الهداية بحسبه؛ فكلَّما اتَّقى زاد هداه؛ وكلَّما اهتدى زادت تقواه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ [يونس: ٩]؛ فهداهم أوَّلًا للإيمان، فلما آمنوا هداهم بالإيمان هدايةً بعد هدايةٍ.

ونظيرُ هذا قولُه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾ [مريم: ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]، ومن الفُرقان: ما يُعطيهم من النُّور الذي يُفرِّقون به بين الحقِّ والباطل، والنصر والعزِّ الذي يتمكنون به من إقامة الحقِّ وكسر الباطل؛ فُسِّرَ الفرقان بهذا وبهذا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [سبأ: ٩].

وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [لقمان: ٣١]، [إبراهيم: ٥]، [سبأ: ١٩]، [الشورى: ٣٣] في: سورة لقمان، وسورة إبراهيم، وسبأ، والشورى؛ فأخبرَ عن

آياتهِ المشهودة العيانية أنَّها إنَّما ينتفع بها أهلُ الصَّبر والشُّكر؛ كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنيـة أنَّها إنَّما ينتفع بها أهل التَّقوى والخَشية والإنابة ومن كان قصده اتِّباع رضوانه، وأنَّها إنَّما يتذكَّرُ بها مَن يخشاهُ سُبحَانَهُ؛ كما قال: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ - ٣].

وقال في الساعة: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وأمَّا مَن لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها؛ فلا تنفعه الآياتُ العيانيَّةُ ولا القرآنيَّةُ.

ولهذا لما ذكر سُبحَانَهُ في سورة هود عقوبات الأمم المكذِّبين للرُّسل وما حلَّ بهم في الدُّنيا من الخزي؛ قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، فأخبر أنَّ في عقوباته للمكذبين عِبرةً لمن خاف عذاب الآخرة، وأمَّا من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها؛ فلا يكون ذلك عِبرةً وآيةً في حقِّه، وإذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدَّهرِ الخير والشر والنعيم والبؤس والسعادة والشقاوةُ!! وربَّما أحال ذلك على أسبابٍ فلكيَّةٍ وقُوًى نفسانيَّة!!

وإنَّما كان الصَّبرُ والشُّكرُ سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات؛لأنَّ الإيمان ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفُهُ صبرٌ ونصفهُ شكرٌ؛ فعلى حسب صبرِ العبد وشكرهِ تكون قوَّةُ إيمانِه، وآياتُ الله إنَّما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتمُّ له الإيمان إلَّا بالصبرِ والشكرِ؛ فإنَّ رأسَ الشكرِ التوحيد، ورأسَ الصبرِ تركُ إجابة داعي الهوى؛ فإذا كان مشركًا مُتَّبعًا هواه لم يكن صابرًا ولا شكورًا، فلا تكون الآياتُ نافعةً له ولا مؤثِّرةً فيه إيمانًا.

❀❀❀

فصل

وأمَّا الأصل الثاني -وهو اقتضاءُ الفجور والكِبْر والكذب للضَّلال-، فكثيرٌ أيضًا في القرآن:

كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦ - ٢٧].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ [النساء: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فأخبر أنَّه عاقبهم على تخلُّفهم عن الإيمان لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه، بأنْ قلَّبَ أفئدتَهم وأبصارَهم وحال بينهم وبين الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلى ما فيه حياتُهم، ثم حذَّرهم من التَّخلُّف والتَّأخُّر عن الاستجابة الذي يكون سببًا لأنْ يحول بينهم وبين قلوبهم؛ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]؛ فأخبر سُبحانَهُ أنَّ كَسْبَهُم غطَّى على قلوبهم، وحال بينها وبين الإيمان بآياته، فقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١٣].

وقال تَعَالَىٰ في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ فجازاهم على نسيانهم له أنْ نَسِيَهُم فلم يذكُرْهُم بالهدى والرَّحمة، وأخبر أنَّه أنساهم أنفسَهم، فلم يطلبوا كمالها بالعلمِ النافع والعملِ الصالح، وهما الهُدى ودينُ الحق، فأنْساهم طلبَ ذلك ومحبَّته ومعرفتَه والحرصَ عليه عقوبةً لنسيانهم له.

وقال تَعَالَىٰ في حقِّهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۝١٦ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٦ - ١٧]، فجمعَ لهم بين اتِّباع الهوى والضَّلال الَّذي هو ثمرته وموجبه كما جمع للمهتدين بين التَّقوى والهدى.



فصل

وكما يَقرِنُ سُبحانَهُ بين الهُدى والتُّقى، والضَّلال والغيِّ، فكذلك يقرنُ بين الهُدى والرَّحمة، والضَّلال والشَّقاء:

فمن الأوَّل:

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وقال عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وقال أهل الكهف: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ١٠].

وقال: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

وقال: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، ثم أعادَ سُبحانَهُ ذكرَهُما فقال: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، وقد تنوَّعت عبارات السَّلف في تفسيرِ الفضلِ والرحمة، والصَّحيح أنَّهما الهدى والنعمة؛ ففضله هداه، ورحمتُه نعمتُه، ولذلك يقرن بين الهدى والنِّعمة.

كقوله في سورة الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]

ومن ذلك قوله لنبيه يُذكِّرُهُ بنعمهِ عليه: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]؛ فجمع له بين هدايتِه له وإنعامه عليه بإيوائِه وإغنائِه.

ومن ذلك قول نوح: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]

وقول شعيب: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ [هود: ٨٨].

وقال عن الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقال لرسوله: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ - ٣].

وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ [النور: ٢١]؛ ففضلُهُ هدايتُهُ، ورحمتُهُ إنعامُهُ وإحسانُهُ إليهم وبِرُّهُ بهم.

وقال: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]؛ والهُدى منعَهُ من الضلال، والرحمة منعتْهُ من الشقاء، وهذا هو الذي ذكره في أوّل السورة في قوله: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١ - ٢]، فجمعَ لهُ بين إنزالِ القرآن عليه ونفي الشقاء عنه؛ كما قال في آخرها في حقِّ أتباعه: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

فالهدى والفضلُ والنِّعمةُ والرَّحمةُ متلازماتٌ لا يَنفكُّ بعضُها عن بعض؛ كما أنَّ الضَّلال والشَّقاء متلازمان لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]، والسُّعُر: جمع سعيرٍ، وهو العذابُ الذي هو غايةُ الشَّقاء.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

وقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ومن هذا أنَّه سُبْحَانَهُ يجمعُ بين الهدى وانشراحِ الصدرِ والحياةِ الطَّيِّبةِ وبين الضَّلالِ وضيقِ الصَّدرِ والمعيشة الضَّنْك:

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وكذلك يجمعُ بين الهدى والإنابة وبين الضلالِ وقسوةِ القلب:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

❁ ❁ ❁

فصل

والهدى والرحمة وتوابعهما من الفضلِ والإنعام كلُّه من صفة العطاءِ، والإضلالُ والعذابُ وتوابعهما من صفةِ المنعِ، وهو سُبْحَانَهُ يُصرِّف خلقَه بين عطائِه ومنعِه، وذلك كلُّه صادرٌ عن حكمةٍ بالغةٍ ومُلكٍ تامٍّ وحمدٍ تامٍّ؛ فلا إله إلا الله.



فصل

إذا رأيتَ النفوسَ الـمُبطِلة الفارغة من الإرادة والطلب لهذا الشأن قد تشبَّث بها هذا العالم السُّفْليُّ وقد تشبَّثَتْ به؛ فكِلْها إليه؛ فإنَّه اللائقُ بها لفسادِ تركيبِها، ولا تَنقُشْ عليها ذلك؛ فإنَّه سريعُ الانحلال عنها، ويبقى تشبُّثُها به مع انقطاعه عنها عذابًا عليها بحسب ذلك التعلُّق، فتبقى شهوتُها وإرادتُها فيها؛ وقد حِيْلَ بينها وبين ما تشتهي على وجهٍ يئستْ معه من حصول شهوتِها ولذَّتِها.

فلو تصوَّرَ العاقلُ ما في ذلك من الألمِ والحسرةِ لبَادَرَ إلى قَطْعِ هذا التَّعلُّق كما يبادرُ إلى حَسْمِ موادِّ الفساد، ومع هذا فإنَّه ينالُ نصيبَه من ذلك؛ وقلبُه وهمُّه متعلِّقٌ بالمطلب الأعلى.

والله المستعان.



فصل

إيَّاكَ والكذبَ؛ فإنَّه يُفْسِدَ عليك تصوُّرَ المعلومات على ما هي عليه، ويُفسِد عليك تصويرَها وتعليمَها للنَّاس!

فإنَّ الكاذب يُصوِّرُ المعدومَ موجودًا والموجودَ معدومًا، والحقَّ باطلًا والباطلَ حقًّا، والخيرَ شرًّا والشَّرَّ خيرًا؛ فيفسُدُ عليه تصوُّرُه وعلمه عقوبةً له. ثمَّ يُصوِّر ذلك في نفس المخاطب المغترِّ به الرَّاكن إليه؛ فيُفسِدُ عليه تصوُّرَه وعلمه.

ونفسُ الكاذب مُعرِضةٌ عن الحقيقة الموجودة، نزَّاعةٌ إلى العدم، مُؤثِرةٌ للباطل.

وإذا فسدتْ عليه قوَّةُ تصوُّره وعلمه التي هي مبدأ كلِّ فعل إراديٍّ؛ فسدتْ عليه تلك الأفعالُ، وسَرى حكم الكذب إليها، فصار صدورُها عنه كصدور الكذب عن اللِّسان؛ فلا ينتفع بلسانِه ولا بأعمالِه.

ولهذا كان الكذبُ أساسَ الفجور؛ كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ وإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّار**»(١).

وأوَّلُ ما يَسرِي الكذبُ من النفس إلى اللِّسان فيُفسِدُه، ثمَّ يسري إلى الجوارح فيُفسِدُ عليها أعمالها كما أفسد على اللّسان أقواله، فيَعُمُّ الكذبُ أقوالَه وأعمالَه وأحوالَه، فيَستحكِمُ عليه الفسادُ ويترامى داؤُهُ إلى الهَلَكَةِ إن لم يتداركهُ الله بدواء الصِّدقِ يَقلَعُ تلك المادَّة من أصلها.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠٤٩) ومسلم (١٠٣- ٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**».

ولهذا كان أصل أعمالِ القلوب كلِّها الصدق، وأضدادُها من الرِّياء والعُجْب والكبر والفخر والخيلاء والبطرِ والأشر والعجز والكسلِ والجُبْنِ والمهانةِ وغيرها أصلها الكذبُ؛ فكلُّ عملٍ صالحٍ ظاهرٍ أو باطنٍ فمنشؤهُ الصدق، وكل عملٍ فاسدٍ ظاهرٍ أو باطنٍ فمنشؤهُ الكذبُ.

والله تَعَالَىٰ يعاقبُ الكذَّابَ بأن يُقعِده ويُثبِّطه عن مصالحه ومنافعه، ويُثيب الصادقَ بأن يوفِّقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته؛ فما استُجلبَتْ مصالحُ الدُّنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدُهما ومضارُّهما بمثل الكذب.

قال تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

وقال: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].



فصل

في قولـه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

في هذه الآية عدَّةُ حِكَم وأسرار ومصالح للعبد:

فـإنَّ العبـد إذا عَلِـمَ أنَّ المكروه قد يـأتي بالمحبـوب، والمحبوب قد يـأتي بالمكروه؛ لم يأمـنْ أنْ تُوافِيَه المضرَّةُ من جانب المسرَّة، ولم ييأس أن تأتيه المسـرَّة من جانب المضرَّة؛ لعدم علمه بالعواقب؛ فإنَّ الله يعلمُ منها ما لا يعلمهُ العبد؛ وأوجب له ذلك أمورًا:

منهـا: أنَّـه لا أنفعَ له مـن امتثـال الأمر، وإنْ شـقَّ عليـه في الابتـداء؛ لأنَّ عواقبه كلَّهـا خيراتٌ ومسرَّاتٌ ولذَّاتٌ وأفراح، وإن كرهتهُ نفسُـه؛ فهو خيرٌ لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضرُّ عليه من ارتكاب النهي، وإن هَوِيتْهُ نفسه ومالت إليه؛ فإنَّ عواقبَهُ كلَّها آلامٌ وأحزانٌ وشرورٌ ومصائبُ.

وخاصّةُ العقل تحمّلُ الألم اليسير لما يعقبه من اللَّذَّةِ العظيمة والخيرِ الكثير، واجتناب اللذَّةِ اليسيرة لما يعقبُهُ من الألم العظيم والشَّرِّ الطَّويل.

فنظـر الجاهل لا يُجاوِز المبـادئَ إلى غاياتها، والعاقلُ الكَيِّس دائـمًا ينظرُ إلى الغايات مـن وراء سُـتور مبادئهـا، فيرى ما وراء تلك السُّـتورِ من الغاياتِ المحمـودةِ والمذمومةِ، فـيرى المناهـيَ كطعامٍ لذيذٍ قد خُلِطَ فيه سُـمٌّ قاتلٌ؛ فكلما دعتْهُ لذَّتُـهُ إلى تناولِهِ نهاهُ ما فيه من السُّـمِّ، ويرى الأوامر كدواءٍ كريهِ المذاق مُفْضٍ إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهةُ مذاقِهِ عن تناوله أمرهُ نفعُه بالتناول.

ولكـنَّ هذا يحتـاج إلى فضل علم تُدرَكُ بـه الغاياتُ من مبادئِها، وقـوَّةِ صبر يُوطِّنُ به نفسَـه على تحمُّلِ مشـقَّة الطَّريق لما يُؤمِّلُ عند الغاية؛ فإذا فقدَ اليقينَ والصَّبر تعذَّر عليه

ذلك، وإذا قَوِيَ يقينُهُ وصبرُهُ هان عليه كلُّ مشـقَّةٍ يتحمَّلُها في طلبِ الخيرِ الدَّائم واللَّذَّة الدَّائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنَّها تقتضي من العبدِ التَّفويضَ إلى من يعلم عواقبَ الأمور، والرِّضى بما يختارُهُ له ويقضيه له؛ لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنهـا: أنَّـه لا يَقـترِحُ على ربِّه ولا يختارُ عليه ولا يسـأله ما ليس له بـه علمٌ، فلعلَّ مضرَّتَه وهلاكَهُ فيه وهو لا يعلم، فلا يختارُ على ربِّه شيئًا بل يسألهُ حُسْنَ الاختيار له، وأن يُرضيَه بما يختاره، فلا أنفعَ له من ذلك.

ومنهـا: أنَّـه إذا فَـوَّضَ إلى ربِّه ورَضِيَ بما يختـارَهُ له؛ أمدَّه فيما يختاره لـه بالقوَّةِ عليه والعزيمـةِ والصَّـبر، وصَرَفَ عنه الآفاتِ التي هي عُرضة اختيارِ العبد لنفسـه، وأراه من حُسْنِ عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنهـا: أنَّـه يُريحـه مـن الأفـكار الـمُتعِبة في أنـواع الاختيـارات، ويُفـرِّغ قلبَه من التقديـرات والتدبـيرات التي يَصعـد منه في عقبةٍ وينزلُ في أخـرى، ومع هذا فلا خروجَ له عما قُدِّر عليه؛ فلو رَضِيَ باختيارِ الله أصابه القدر وهو محمودٌ مشـكورٌ ملطوفٌ به فيه، وإلَّا جرى عليه القدرُ وهو مذمومٌ غيرُ ملطوفٍ به فيه؛ لأنَّه مع اختياره لنفسه.

ومتى صحَّ تفويضُهُ ورضاه اكتنفَه في المقدور العطفُ عليه واللُّطفُ به، فيصيرُ بين عطفِهِ ولطفِهِ؛ فعطفهُ يَقِيْه ما يحذره، ولطفُهُ يُهوِّنُ عليه ما قدَّرَهُ.

إذا نَفَـذَ القـدرُ في العبـد كان مـن أعظمِ أسـباب نفـوذِهِ تحيُّلُـهُ في ردِّه؛ فـلا أنفعَ له مـن الاستسـلام وإلقاءِ نفسِـه بين يدي القـدر طريحًا كالميتة؛ فـإنَّ السَّـبُعَ لا يرضى بأكلِ الجِيَفِ.

فصل

لا ينتفعُ بنعمةِ الله بالإيمان والعلم إلا من عرفَ نفسه، ووقف بها عند قدرِها، ولم يَتجاوزهُ إلى ما ليس له، ولم يَتَعَدَّ طورَه، ولم يقل: هذا لي، وتيقَّن أنَّه لله ومن الله وبالله، فهو المانُّ به ابتداءً وإدامةً بلا سبب من العبد ولا استحقاقٍ منه، فتُذِلُّه نِعمُ الله عليه، وتَكْسِره كسرةَ من لا يرى لنفسه ولا فيها خيرًا البتة، وأنَّ الخيرَ الذي وصل إليه فهو لله وبه ومنه، فتُحدِثُ له النِّعمُ ذلًّا وانكسارًا عجيبًا لا يُعبَّرُ عنه؛ فكلَّما جدَّد لهُ نعمةً ازداد له ذُلًّا وانكسارًا وخشوعًا ومحبَّةً وخوفًا ورجاءً.

وهذا نتيجةُ علمين شريفين:

❁ علمُهُ بربهِ وكماله وبرِّه وغناه وجُوده وإحسانه ورحمته، وأنَّ الخيرَ كلَّه في يديه، وهو ملكه؛ يُؤتي منه من يشاءُ ويمنعُ منه من يشاءُ، وله الحمدُ على هذا. وهذا أكملُ حمدٍ وأتمُّهُ.

❁ وعلمُه بنفسِهِ، ووقوفه على حدِّها وقدرِها ونقصِها وظلمِها وجهلِها، وأنَّها لا خيرَ فيها البتة، ولا لها ولا بها ولا منها، وأنَّها ليس لها من ذاتِها إلّا العدم؛ فكذلك من صفاتها وكمالِها ليس لها إلَّا العدم الذي لا شيءَ أحقرُ منه ولا أنقص؛ فما فيها من الخير تابعٌ لوجودها الذي ليس إليها ولا بها.

فإذا صار هذان العِلمانِ صبغة لها لا صبغة على لسانِها؛ علمتْ حينئذ أنَّ الحمد كلَّه لله، والأمر كلَّه له، والخير كلَّه في يديه، وأنَّه هو الـمُستَحقُّ للحمد والثناء والمدح دونها، وأنَّها هي أولى بالذمِّ والعيب واللَّوم. ومن فاته التحقُّقُ بهذين العلمين تلوَّنتْ به أقواله وأعماله وأحواله وتَخبَّطتْ عليه، ولم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصل له إلى الله. فإيصالُ العبدِ بتحقيق هاتين المعرفتين علمًا وحالًا، وانقطاعُهُ بفواتها.

وهـذا معنـى قولهم: من عرفَ نفسه عَـرفَ ربَّـه[١]؛ فإنَّه من عرف نفسـه بالجهلِ والظُّلْـم والعيـبِ والنقائصِ والحاجةِ والفقرِ والذُّلِّ والمسـكنةِ والعـدمِ؛ عرف ربَّه بضدِّ ذلـك، فوقف بنفسـه عند قدرها ولم يَتعدَّ بها طورَها، وأثنى عـلى ربِّه ببعض ما هو أهله، وانصرفـتْ قوَّة حُبِّهِ وخشـيتِهِ ورجائـهِ وإنابتِهِ وتوكُّله إليه وحـدَه، وكان أحبَّ شيءٍ إليه وأخوفَ شيء عنده وأرجاه له، وهذا هو حقيقةُ العبوديَّة. والله المستعانُ.

ويُحكـى أنَّ بعـضَ الحكماء كتب على بابِ بيته: إنه لـن يَنتفع بحكمتنا إلَّا من عرف نفسَـه ووقف بها عند قدرهـا؛ فمن كان كذلك فليدخُـلْ، وإلَّا فليرجِعْ حتى يكون بهذه الصفة.

---

(١) نُسِبَ هذا القول حديثًا للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يصحُّ، وليس له إسناد أصلًا، قال السخاوي في «المقاصد الحسـنة» (ص: ٦٥٧الخشت): «قال أبو المظفر ابن السمعاني في الكلام على التحسين والتقبيح العقلي مـن «القواطـع» أنه لا يُعرف مرفوعًا، وإنما يُحكى عن يحيى بن معاذ الرازي؛ يعني من قوله، وكذا قال النوويُّ: إنه ليس بثابت»، وقال الألبانيُّ في «الضعيفة رقم (٦٦): «لا أصل له». قال شـيخ الإسـلام ابنُ تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣٤٩): (وبعض الناس يروي هذا عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس هذا من كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا هو في شيء من كتب الحديث، ولا يُعرف له إسناد. ولكن يُروى في بعـض الكتـب المتقدِّمة إن صحَّ: «يا إنسـان اعرف نفسـك تعرف ربَّك». وهذا الكلام سـواء كان معنـاه صحيحًـا أو فاسـدًا لا يمكن الاحتجاج بلفظـه؛ فإنه لم يثبت عن قائلٍ معصوم. لكن إن فسـِّر بمعنى صحيح عُرِف صحَّة ذلك المعنى، سواء دلَّ عليه هذا اللفظ أو لم يدلَّ).

وقـال ابن القيم في «مدارج السـالكين» (١/ ٤٢٧): (هكذا حال العبد ملقًى بين الله وبين أعدائه من شـياطين الإنس والجنِّ فإن حماه منهم وكفَّهم عنه لم يجدوا إليه سـبيلًا، وإن تخلَّى عنه ووكله إلى نفسـه طرفة عين لم ينقسـم عليهم بل هو نصيب من ظفر به منهم وفي هذا المشـهد يعرف نفسه حقًّا، ويعرف ربَّه، وهذا أحد التَّأويلات للكلام المشـهور: من عرف نفسـه عرف ربه، وليس هذا حديثًا عن رسول الله، إنما هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ أيضًا: يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك)، ثم ذكر لهذا الأثر ثلاثة تأويلات صحيحة.

وذكره ابنُ عربيٍّ الصوفي في كتابه «الفتوحات المكِّية» (٣/ ٤١٢) وشرحه على معنى باطل غير المعاني التي ذكرها ابن القيم، فقال: (مَن عرف نفسه عرف ربَّه، فيعلم أنَّه الحق، فيخرج العارف المؤمن الحقّ بولايته، التى أعطاه الله من ظلمة الغيب إلى نور الشهود، فيشهد ما كان غيبًا له، فيعطيه كونه مشهودًا).

فصل

الصبرُ عن(١) الشَّهوةِ أسهلُ من الصَّبرِ على ما تُوجِبُهُ الشَّهوةُ؛ فإنها إمَّا أن توجب ألـمًا وعقوبةً، وإمَّا أن تقطع لذَّةً أكملَ منها، وإمَّا أن تُضيِّع وقتًا إضاعتُهُ حسرةٌ وندامةٌ، وإمَّا أن تَثْلم عِرضًا توفيرُهُ أنفعُ للعبد من ثَلْمِه، وإمَّا أن تُذهِبَ مالًا بقاؤُهُ خيرٌ له من ذهابِهِ، وإمَّا أن تضع قدرًا وجاهًا قيامُهُ خيرٌ من وضعه، وإمَّا أن تَسْلُب نعمةً بقاؤها ألذُّ وأطيبُ من قضاء الشَّهوة، وإمَّا أن تُطرِّق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدُها قبل ذلك، وإمَّا أن تَجلِبَ همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقاربُ لذَّةَ الشَّهوة، وإمَّا أن تُنْسِيَ علمًا ذِكرُه ألذُّ من نيل الشَّهوة، وإمَّا أن تُشمِّت عدوًّا وتُحزن وليًّا، وإمَّا أن تقطع الطَّريقَ على نعمةٍ مقبلةٍ، وإمَّا أن تُحدِثَ عيبًا يبقى صفةً لا تزولُ، فإنَّ الأعمال تُورِثُ الصِّفاتِ والأخلاقَ.



(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (على).

فصل

للأخلاقِ حدٌّ متى جاوزتْه صارت عُدوانًا، ومتى قصَّرتْ عنه كان نقصًا ومهانةً.

فللغضب حدٌّ، وهو الشَّجاعةُ المحمودةُ والأَنفةُ من الرَّذائلِ والنقائص، وهذا كماله. فإذا جاوز حدَّه تعدَّى صاحبُه وجار، وإن نقصَ عنه جبُن ولم يأنَفْ من الرَّذائل.

وللحرص حدٌّ، وهو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها. فمتى نقص من ذلك كان مهانةً وإضاعةً، ومتى زاد عليه كان شَرَهًا ورغبةً فيما لا تُحمَد الرغبةُ فيه.

وللحسد حدٌّ، وهو المنافسةُ في طلبِ الكمال والأنفةُ أن يتقدَّم عليه نظيرُه. فمتى تعدَّى ذلك صار بغيًا وظلمًا يتمنَّى معه زوالَ النعمة عن المحسودِ ويَحرِصُ على إيذائه، ومتى نقصَ عن ذلك كان دَناءةً وضعفَ همَّةٍ وصِغَرَ نفس.

قال النبيُّ ﷺ: «**لَا حَسَدَ إلَّا في اثنتين: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ في الحَقِّ. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بهَا ويُعلِّمُهَا النَّاسَ**»[(١)]، فهذا حسدُ منافسةٍ يُطالبُ الحاسدُ به نفسَه أن يكون مثل المحسود، لا حسد مَهانةٍ يتمنَّى به زوالَ النِّعمة عن المحسود.

وللشهوة حدٌّ، وهو راحةُ القلب والعقل من كَدِّ الطَّاعةِ واكتساب الفضائلِ، والاستعانة بقضائها على ذلك فمتى زادت على ذلك صارت نَهْمةً وشَبَقًا والتحقَ صاحبُها بدرجة الحيوانات، ومتى نقصتْ عنه ولم يكن فراغًا في طلبِ الكمالِ والفضلِ كانت ضعفًا وعجزًا ومهانةً.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٣، ١٤٠٩، ٧١٤١، ٧٣١٧)، ومسلم برقم (٢٦٨-٨١٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه البخاري برقم (٧٥٢٩)، ومسلم برقم (٢٦٦-٨١٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه البخاري برقم (٥٠٢٦، ٧٢٣٢، ٧٥٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وللرَّاحة حدٌّ، وهو إجمامُ النَّفس والقُوى المدرِكة والفعَّالة للاستعداد للطَّاعة واكتساب الفضائل وتوفُّرها على ذلك، بحيثُ لا يُضعِفُها الكدُّ والتعبُ ويضعفُ أثرها. فمتى زاد على ذلك صار توانيًا وكسلًا وإضاعةً وفات به أكثرُ مصالح العبد، ومتى نقص عنه صار مُضرًّا بالقُوى مُوهِنًا لها، وربَّما انقطع به؛ كالـمُنبتِّ الذي لا أرْضًا قطع ولا ظهرًا أبْقى.

والجود له حدٌّ بين طرفين؛ فمتى جاوز حدَّه صار إسرافًا وتبذيرًا، ومتى نقصَ عنه كان بُخلًا وتقتيرًا.

وللشَّجاعةِ حدٌّ؛ متى جاوزته صارت تهوُّرًا، ومتى نقصتْ عنه صارتْ جُبنًا وخَورًا. وحدُّها الإقدام في مواضع الإقدام والإحجامُ في مواضعِ الإحجام؛ كما قال معاويةُ لعمرو بن العاص: أعياني أن أعرفَ شجاعًا أنتَ أم جبانًا، تُقدِمُ حتى أقول: من أشجع الناس، وتَجبُن حتى أقول: من أجبن الناس؟! فقال:

شُجاعٌ إذا ما أمْكنتْنَيَ فُرْصةٌ ... فإن لم تكن لي فُرْصةٌ فجَبانُ[1]

والغيرةُ لها حدٌّ؛ إذا جاوزته صارتْ تهمةً وظنًّا سيِّئًا بالبريء، وإن قصَّرتْ عنه كانت تغافلًا ومبادئ دياثةٍ.

وللتَّواضع حدٌّ؛ إذا جاوزه كان ذُلًّا ومهانةً، ومن قصَّر عنه انحرف إلى الكبر والفخر.

---

(١) جاء في «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٢٥٤ الكتب العلمية) أنَّ عمرو بن العاص هو الذي سأل معاوية فذكر له معاوية البيت، وذكره الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٢/ ٢٨٤) فقال: حدثنا أبو الفضل العباس بن الفضل الربعي، أو غيره قال:
«قيل لمعاوية بن أبي سفيان: إنَّا نراك تقدَّم حتى نقول: يُقتل، وتتأخر حتى نقول: لا يرجع، فقال: أتقدَّم ما كان غنمًا، وأتأخَّر ما كان التأخر حزمًا». قال الخرائطيُّ: وقال بعض الشعراء:

شجاع إذا ما امكنتنيَ فرصة ... وإن لم تكن لي فرصة فجبان

ومن طريقه ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٩/ ١٨٩).

وللعزِّ حدٌّ؛ إذا جاوزهُ كان كبرًا وخُلُقًا مذمومًا، وإن قصَّرَ عنه انحرف إلى الذُّلِّ والمهانة.

وضابط هذا كُلِّه العدلُ، وهو الأخذُ بالوسطِ الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناءُ مصالح الدُّنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلَّا به؛ فإنَّه متى خرج بعضُ أخلاطِه عن العدلِ وجاوزه أو نقصَ عنه ذهبَ من صحته وقوته بحسب ذلك، وكذلك الأفعال الطبيعيَّةُ كالنومِ والسَّهرِ والأكلِ والشربِ والجماعِ والحركةِ والرياضةِ والخُلوةِ والمخالطةِ وغير ذلك؛ إذا كانت وسطًا بين الطرفين المذمومين كانت عدلًا، وإن انحرفتْ إلى أحدهما كانت نقصًا وأثمرتْ نقصًا.

فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي؛ فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو داخلٌ فيها.

قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧].

فأعدلُ الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفةً وفعلًا.

وبالله التوفيقُ.

❁ ❁ ❁

فصل

قال أبو الدَّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا حبَّذا نومُ الأكياس وفِطْرُهم؛ كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم؛ والذَّرَّةُ من صاحب تقوى أفضلُ من أمثال الجبال عبادةً من الـمُغترِّين[1]؟!

وهذا من جواهر الكلام وأدلِّه على كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم في كلِّ خير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

فاعلـمْ أنَّ العبـدَ إنَّما يَقطع منـازلَ السَّـير إلى الله بقلبه وهمَّته لا ببدنِـه، والتَّقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح.

قال تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**التّقوَى هَاهُنَا**» وأشار إلى صدره[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في كتاب «الزهد» (ص: ١٣٧)، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (ص: ٣٤ السورس)، وأبـو نعيـم في «الحلية» (١/ ٢١١)، من طريق أبي سـعيد الكندي عمّن أخبره عـن أبي الدرداء بلفظ: «يـا حبَّذا نـومُ الأكياس وإفطارهم، كيف يغبنون سـهر الحمقى وصيامهـم، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترِّين».
وفي إسناد هـذا الأثر انقطاع ظاهرٌ بين أبي سـعيد الكندي و أبي الدرداء،وذكـره الغزالي في «الإحياء» مرفوعًـا إلى النبـيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعلَّـق عليه الحافظ العراقـي في «تخريج أحاديث إحيـاء علوم الدين» (٥/ ٢٠٦٣العاصمـة)، فقـال: «أخرجه ابـن أبي الدنيا في كتاب (اليقين) من قـول أبي الدرداء بنحوه وفيه انقطاع، وفي بعض الروايات: أبي الورد، موضع أبي الدرداء، ولم أجده مرفوعًا».

(٢) أخرجه مسلم برقم (٣٢-٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**لَا تَحاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يبِعْ بعضُكم على بَيعِ بَعض، وكونُوا عِبادَ الله إخْوَانًا، المسْلِمُ أخُو المسْلِمِ، لا يَظْلِمُه ولا يخذلُه، ولا يحْقِرُه التَّقْوَى هَاهُنَا**»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، «**بِحَسْبِ امرِئٍ مِنَ الشّرِّ أنْ يحْقِرَ أخَاهُ المسْلِمَ، كُلُّ المسْلِمِ عَلَى المسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُه، وَمَالُه، وعِرْضُهُ**».

فالكَيِّسُ يَقطعُ من المسافة بصحَّة العزيمة وعلوِّ الهمَّةِ وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل أضعافَ أضعافِ ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التَّعب الكثير والسَّفر المُشِقّ؛ فإنَّ العزيمة والمحبَّة تُذهِب المشقَّة، وتُطيِّب السَّيرَ، والتَّقدُّمُ والسَّبقُ إلى الله سُبْحَانَهُ إنَّما هو بالهمم وصدق الرَّغبة والعزيمة، فيتقدَّمُ صاحبُ الهمَّة مع سكونه صاحبَ العمل الكثير بمراحل؛ فإنْ ساواه في هِمتِّه تقدَّم عليه بعمله.

وهذا موضعٌ يحتاجُ إلى تفصيل يوافق فيه الإسلام والإحسان:

فأكمل الهدي هديُ رسول الله، وكان موفِّيًا كلَّ واحدٍ منهما حقَّه؛ فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله يقومُ حتى تَرِمَ قدماهُ[1]، ويصوم حتَّى يُقال: لا يُفطِرُ[2]، ويجاهدُ في سبيل الله، ويُخالِط أصحابه ولا يَحتجِبُ عنهم، ولا يترك شيئًا من النَّوافل والأوراد لتلك الواردات التي تَعجزُ عن حملها قُوى البشر.

والله تَعَالَىٰ أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم وحقائق الإيمان على بواطنهم، ولا يقبل واحدًا منهما إلَّا بصاحبه وقرينه.

وفي «المسند» مرفوعًا: **«الإِسْلَامُ عَلَانِيَةٌ، والإيْمَانُ في القَلْبِ»**[3].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١) من حديث المغيرة بلفظ: «إِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ -أو ساقاه-، فيقال له، فيقول: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا».

(٢) أخرجه البخاري برقم (١١٤١، ١٩٧٢) من حديث أنس، وأخرجه أيضًا برقم (١٩٦٩)، ومسلم برقم (١٧٥- ١١٥٦) من حديث عائشة، وأخرجه أيضًا برقم (١٩٧١)، ومسلم برقم (١٧٨- ١١٥٧) من حديث عبد الله بن عباس.

(٣) برقم (١٢٣٨١)، وأخرجه ابن أبي شيبة أيضًا برقم (٣٠٩٥٥) من طريق علي بن مسعدة عن قتادة عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: **«الإِسْلَامُ عَلَانِيَةٌ وَالإِيمَانُ فِي القَلْبِ»**، ثم يشير بيده إلى صدره ويقول: **«التَّقْوَى هَاهُنَا التَّقْوَى هَاهُنَا»**.

وتفرَّد علي بن مسعدة بهذا الحديث، ومع أنَّه صدوق، إلَّا أنَّ له أوهامًا كما قال ابن حجر في «تقريب التَّهذيب» (ص: ٤٠٥)؛ ولذلك قال البخاري: «فيه نظر»، كما نقل العقيلي عنه في «الضعفاء الكبير» =

فكل إسلام ظاهرٍ لا يَنفُذُ صاحبُه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون معه شيءٌ من الإيمان الباطن، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظَّاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت؛ فلو تمزَّق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبَّدْ بالأمرِ وظاهر الشَّرع لم يُنْجِهِ ذلك من النَّار؛ كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقةُ الإيمان لم يُنجِه ذلك من النار.

وإذا عُرف هذا فالصادقون السائرون إلى الله والدار الآخرة قسمان:

قسمٌ صَرَفوا ما فضلَ من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل البدنيَّة وجعلوها دأبهم؛ من غيرِ حرصٍ منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها، وإن لم يكونوا خالين من أصلها، لكنَّ هِمَمَهم مصروفةٌ إلى الاستكثار من الأعمال.

وقسمٌ صرفوا ما فضَلَ عن الفرائض والسنن إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم وعكوفها على الله وحده والجمعية عليه وحفظ الخواطر والإرادات معه، وجعلوه قوة تعبُّدهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة والخوف والرجاء والتوكُّل والإنابة، ورأوا أنَّ أيسر نصيبٍ من الواردات التي تَرِدُ على قلوبهم من الله أحبُّ إليهم من كثير من التطوعات البدنيَّة؛ فإذا حصل لأحدهم جمعيةٌ ووارِدُ أُنسٍ أو حبٍّ أو اشتياقٍ أو انكسارٍ وذُلٍّ؛ لم يَستبدلْ به شيئًا سواه البتة؛ إلاَّ أنْ يجيء الأمرُ، فيُبادر إليه بذلك الوارد إن أمكنه، وإلَّا بادرَ إلى الأمر ولو ذهب الوارد، فإذا جاءت النَّوافل فهاهنا معتركُ التَّردُّد؛ فإن أمكن القيام إليها به فذاك، وإلَّا نظرَ في الأرجح والأحبِّ إلى الله؛ هل هو القيامُ إلى تلك النَّافلة

= (٣/ ٢٥٠)، وقال ابن حبَّان في «المجروحين» (٢/ ١١١): «كان مِمَّن يخطئ على قلَّةِ روايته وينفرد بما لا يُتابع عليه فاستحقَّ ترك الاحتجاج به بما لا يوافق الثِّقات من الأخبار»، وقال ابن عديٍّ في «الكامل» (٦/ ٣٥٤): «ولعلي بن مسعدة غير ما ذكرتُ عن قتادة، وكلُّها غير محفوظة».

وعلى هذا فالحديث منكر؛ لتفرُّد علي بن مسعدة بلفظ: «**الإسلام علانية والإيمان في القلب**»، ولذلك حكم الشيخ الألباني على هذا الحديث بأنه منكر، كما في «السلسلة الضعيفة» برقم (٦٩٠٦).

ولو ذهب وارِدُهُ كإغاثةِ الملهوفِ وإرشادِ ضالٍّ وجَبْر مكسورٍ واستفادة إيمانٍ ونحو ذلك؛ فهاهنا ينبغي تقديم النَّافلة الرَّاجحة، ومتى قدَّمها لله رغبةً فيه وتقرُّبًا إليه فإنَّه يَرِدُ عليه ما فات من وارِدِهِ أقوى مما كان في وقتٍ آخر، وإن كان الواردُ أرجحَ من النافلةِ فالحزمُ له الاستمرارُ في وارِدِهِ حتَّى يتوارى عنه؛ فإنَّه يفوتُ والنافلةُ لا تفوت. وهذا موضعٌ يحتاجُ إلى فضل فقهٍ في الطريق ومراتب الأعمال وتقديم الأهمِّ منها فالأهمِّ. والله الموفقُ لذلك، لا إله غيره ولا ربَّ سواهُ.



فَصْلٌ

أصلُ الأخلاق المذمومة كلِّها الكِبْرُ والمهانة والدَّناءةُ.

وأصلُ الأخلاق المحمودة كلِّها الخشوعُ وعلوُّ الهمَّة.

فالفخرُ والبطرُ والأشرُ والعُجْبُ والحسدُ والبغيُ والخُيَلاءُ والظُّلمُ والقسوةُ والتَّجبُّرُ والإعراضُ وإباءُ قبول النَّصيحة والاستئثارُ وطلبُ العلوِّ وحبُّ الجاه والرِّئاسة وأن يُحمَد بما لم يفعل وأمثالُ ذلك؛ كلُّها ناشئةٌ من الكِبْر.

وأمَّا الكذبُ والخِسَّةُ والخيانةُ والرِّياءُ والمكرُ والخديعةُ والطمعُ والفزعُ والجُبْنُ والبخلُ والعجزُ والكسلُ والذُّلُّ لغير الله واستبدالُ الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ ونحوُ ذلك[1] من المهانةِ والدَّناءةِ وصغرِ النفسِ.

وأمَّا الأخلاقُ الفاضلةُ؛ كالصبرِ والشجاعةِ والعدلِ والمروءةِ والعفَّةِ والصِّيانةِ والجودِ والحلمِ والعفوِ والصَّفْحِ والاحتمالِ والإيثارِ وعزَّة النفس عن الدَّناءات والتواضع والقناعة والصِّدق والإخلاص والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضلَ والتغافُل عن زلَّات الناس وترك الانشغال بما لا يَعنِيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك؛ فكلُّها ناشئةٌ عن الخُشوع وعلوِّ الهمة.

والله سُبْحَانَهُ أخبر عن الأرض بأنَّها تكونُ خاشعةً، ثم يَنزِلُ عليها الماء، فتهتزُّ وتربو وتأخذُ زينتها وبهجتها؛ فكذلك المخلوق منها إذا أصابهُ حظُّه من التوفيق.

وأمَّا النارُ فطبعُها العلوُّ والإفسادُ، ثم تخمُدُ فتصيرُ أحقَر شيءٍ وأذلَّهُ، وكذلك المخلوقُ منها؛ فهي دائمًا بين العلوِّ إذا هاجت واضطربت، وبين الخِسَّة والدَّناءة إذا خَمَدتْ وسكنتْ.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (فكلُّها).

والأخـلاق المذمومـةُ تابعـةٌ للنَّـار والـمخلـوق منها، والأخـلاقُ الفاضلـةُ تابعةٌ للأرض والمخلوق منها؛ فمن عَلتْ همَّتُهُ وخشَـعتْ نفسُـه اتَّصف بكلِّ خلق جميل، ومن دَنَتْ همَّته وطغَتْ نفسه اتَّصف بكلِّ خلق رذيل.



فَصْلٌ

المطلبُ الأعلى موقوفٌ حصولُه على همَّةٍ عاليةٍ ونيَّةٍ صحيحةٍ؛ فمن فقدهما تعذَّر عليه الوصولُ إليه.

فإنَّ الهمَّة إذا كانت عاليةً تعلَّقتْ به وحده دون غيره، وإذا كانت النِّيَّةُ صحيحةً سلك العبدُ الطريقَ الموصلة إليه؛ فالنِّيَّة تُفرد له الطَّريقَ، والهمَّةُ تُفرد له المطلوبَ؛ فإذا توحَّدَ مطلوبه والطَّريق الموصلة إليه كان الوصولُ غايتَه.

وإذا كانت همَّتُهُ سافلةً تعلَّقتْ بالسُّفليات ولم تتعلَّق بالمطلب الأعلى، وإذا كانت النيَّةُ غيرَ صحيحة كانت طريقُهُ غير موصلةٍ إليه.

فمدارُ الشَّأن على همَّة العبد ونيَّتِه، وهما مطلوبُهُ وطريقُهُ، ولا يتمُّ له إلَّا بتركِ ثلاثة أشياء:

العوائد والرسوم والأوضاع التي أحدثَها الناس.

الثاني: هجرُ العوائق التي تعوقه عن إفراد مطلوبه وطريقة وقطعها.

الثالث: قطعُ علائق القلب التي تحول بينه وبين تجريد التَّعلُّق بالمطلوب.

والفرق بينهما أنَّ العوائق هي الحوادث الخارجيَّة، والعلائق هي التَّعلُّقات القلبيَّة بالمباحات ونحوها.

وأصل ذلك ترك الفضول التي تَشْغَلُ عن المقصود من الطَّعام والشراب والمنام والخلطة؛ فيأخذُ من ذلك ما يُعِينه على طلبه، ويرفض منه ما يقطعه عنه أو يُضعِفُ طلبَه.

والله المستعانُ.

فَصْلٌ

من كلام عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

۞ قال رجلٌ عنده: ما أُحِبُّ أن أكون من أصحاب اليمين، أُحِبُّ أن أكون من المقرَّبين! فقال عبد الله: لكن هاهنا رجلٌ ودَّ أنه إذا مات لم يُبْعَثْ. يعني: نفسَه(١).

۞ وخرج ذات يوم، فاتَّبَعهُ ناسٌ، فقال لهم: ألكُم حاجةٌ؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك. قال: ارجِعوا؛ فإنَّه ذِلَّةٌ للتَّابع، وفتنةٌ للمتبوع(٢).

۞ وقال: لو تعلمون مني ما أعلمُ من نفسي لحَثَوتُم على رأسي التراب(٣).

۞ وقال: حبَّذا المكروهانِ: الموتُ والفقرُ. وأيمُ الله إنْ هو إلَّا الغِنَى والفقرُ، وما أبالي بأيِّهما بُلِيتُ، أرجو الله في كلِّ واحدٍ منهما: إن كان الغنى إنَّ فيه لَلعطف، وإن كان الفقرُ إنَّ فيه لَلصَّبر(٤).

۞ وقال: إنَّكم في ممرِّ اللَّيل والنَّهار؛ في آجالٍ منقوصةٍ وأعمالٍ محفوظةٍ، والموتُ يأتي بغتةً، فمن زرع خيرًا فيُوشِكُ أن يَحصُد رغبةً، ومن زرع شرًّا فيوشكُ أن يَحصُد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في كتاب «الزهد» (ص: ١٥٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٣)، من طريق مجالد أخبرني عامر عن مسروق قال: قال رجل عند عبد الله: ما أحبُّ أن أكون من أصحاب اليمين، أكون من المقرَّبين أحبُّ إليَّ، فقال: «لكن هاهنا رجل ودَّ أنه إذا مات لم يبعث»، يعني: نفسه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (٢٦٨٣٩)، وفي إسناده انقطاع.

(٣) أخرجه أبو داود في «الزهد» (ص: ١٤٤ غنيم). وأبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (١/ ١٣٣ السعادة). وبنحوه الحاكم في «المستدرك» رقم (٥٣٨٢).

(٤) أخرجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» (١/ ١٩٩ الأعظمي)، ووكيع في «الزهد» (ص: ٣٥٨-٣٥٩ الفريوائي)، والإمام أحمد في كتاب «الزهد» أيضًا (ص: ١٥٦)، وهناد في «الزهد» رقم (٦٠٥ الفريوائي)، والطبراني في «الكبير» برقم (٨٥٠٥ الندوي)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٢ السعادة)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٩٥٠٥)، من طريق المسعودي، عن علي بن بذيمة، عن قيس بن حبتر، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١/ ١٥٥): «فيه المسعودي، وقد اختلط».

ندامـةً، ولـكلِّ زارعٍ مثل ما زرع؛ لا يسـبقُ بطيءٌ بحظِّـه، ولا يُدرِكُ حريـصٌ ما لم يُقدَّر لـه؛ مَـن أُعطيَ خيرًا فالله أعطاهُ، ومَن وُقيَ شرًّا فالله وقاهُ. المتَّقون سـادةٌ، والفقهاءُ قادةٌ، ومجالستُهم زيادة(١).

❁ إنَّـما هما اثنتـان: الهدْيُ والكلام؛ فأفضلُ الـكلام كلامُ الله، وأفضَلُ الهدي هديُ محمَّـد، وشرُّ الأمور مُحدثاتُهـا، وكلُّ مُحدَثَةٍ بدعة؛ فلا يَطولَنَّ عليكـم الأمدُ، ولا يُلهينَّكُمُ الأملُ؛ فإنَّ كلَّ ما هو آت قريبٌ، ألا وإنَّ البعيد ما ليس آتيًا. ألا وإنَّ الشَّقيَّ من شَقِيَ في بطنِ أمِّه، وإنَّ السَّعيد مَن وُعِظَ بغيره. ألا وإنّ قتال المسلم كُفْرٌ، وسبابُهُ فُسوقٌ. ولا يَحلُّ لمسـلم أن يَهجُرَ أخاهُ فوق ثلاثة أيام، حتَّى يُسـلِّم عليه إذا لقيهُ، ويُجيبهُ إذا دعاهُ، ويعوده إذا مرض. ألا وإنَّ شرَّ الرَّوايا روايا الكذب. ألا وإنَّ الكذب لا يصلُحُ منه جدٌّ ولا هزلٌ ولا أن يَعِـدَ الرَّجلُ صَبيَّهُ شـيئًا ثـم لا يُنْجِزُهُ. ألا وإنّ الكذب يهـدي للفجور، والفجورُ يهدي إلى النار، والصدق يهدي إلى البر، والبرُّ يهدي إلى الجنة، وإنه يُقالُ للصادق: صدق وبرَّ، ويقالُ للكاذب: كذب وفجر، وإنَّ محمَّدًا ﷺ حدَّثنا أنَّ الرَّجل ليَصدُق حتى يُكتَبَ عند الله صدِّيقًا، ويكذبُ حتَّى يُكتَب عند الله كذَّابًا(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص: ١٣٣ شاهين)، وابن أبي الدنيا في «الزهد» (ص: ١٨٢ دار ابن كثير)، والطبراني في «الكبير» برقم (٨٥٥٣ حمدي السلفي)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٤)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن» (ص: ٢٩٥ الأعظمي).

ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٣/ ١٥٢ الندوي) عن علي عن النبي ﷺ بلفظ: «**الأنبياء قادة، والفقهاء سادة، ومجالستهم زيادة، وأنتم في ممر الليل والنهار على آجال منقوصة، وأعمال محفوظـة، والمـوت يأتيكم بغتة، فمن يزرع خيرًا يحصد رغبة، ومن يزرع شـرًّا يحصد ندامة**». ثم قال البيهقي: «وقد روينا هذا عن عبد الله بن مسعود، ومن قوله غير مرفوع وهو المحفوظ».

وذكره الملا علي القاري في كتابه «المصنوع» (ص: ٦١)، وقال: «موضوع على ما في (الخلاصة)». وقال الألبانيُّ في «الضعيفة» رقم (٤٢): «موضوع».

(٢) أخرجه عبد الرّزاق في «مصنَّفه» برقم (٢٠٠٧٦)، والطبراني في «الكبير» برقم (٨٥١٨)، وفي «الأوسط» برقم (٧٨٧١)، والبغوي في «شرح السنة» برقم (٣٥٧٥)، من طرق عن ابن مسعود موقوفًا.

=

﴿ إنَّ أصدق الحديث كتابُ الله، وأوثق العُرى كلمةُ التَّقوى، وخيرَ الملل ملَّةُ إبراهيم، وأحسن السُّنن سُنَّةُ محمد ﷺ، وخير الهدي هديُ الأنبياء، وأشرف الحديث ذكرُ الله، وخيرُ القصص القرآنُ، وخير الأمور عواقبها، وشرُّ الأمور مُحدثاتها، وما قلَّ وكفى خيرٌ مما كَثُرَ وألهى،ونفسٌ تُنْجيها خيرٌ من إمارة لا تُحْصِيها، وشرُّ المعذرة حين يَحضرُ الموتُ، وشرُّ الندامة ندامةُ يوم القيامة، وشرُّ الضَّلالة الضَّلالةُ بعد الهُدى، وخيرُ الغنى غنى النَّفس، وخيرُ الزَّاد التَّقوى، وخيرُ ما أُلقيَ في القلب اليقينُ، والرَّيبُ من الكفر، وشرُّ العمى عمى القلب، والخمر جماعُ الإثم، والنّساءُ حبائلُ الشيطان، والشبابُ شعبةٌ من الجنون، والنَّوْحُ من عمل الجاهلية، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا دُبُرًا ولا يذكر الله إلا هُجرًا، وأعظم الخطايا الكذبُ، ومن يعفُ يَعفُ الله عنه، ومن يَكظِم الغيظَ يأجُرْهُ الله، ومن يَغفِرْ يغفر الله له، ومن يصبر على الرَّزيَّة يُعْقِبْه الله، وشرُّ المكاسب كسبُ الرِّبا، وشرُّ المآكل مالُ اليتيم، وإنَّما يكفي أحدكم ما قنِعتْ به نفسُه، وإنَّما يصيرُ إلى أربعةِ أذرع، والأمر إلى آخره، وملاكُ العمل خواتمُه، وأشرف الموت قتلُ الشُّهداءِ، ومن يَستكبِر يَضَعْه الله، ومن يَعصِ الله يُطعِ الشيطانَ[1].

= وأخرجه ابن ماجه برقم (٤٦)، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: وذكره، وفي سنده مجهول كما في «الضعيفة» للألباني (١٣/ ٧١١ تحت رقم ٦٣٢٣)، ولذا أورده في «ضعيف سنن ابن ماجه»، وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» برقم (١٢٢٤)، والدَّارميُّ مختصرًا برقم (٢٢٧١)، من طريق إدريس الأودي، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود مرفوعًا، وهو ضعيف، لأنَّ أبا إسحاق - وهو: عمرو بن عبد الله السَّبيعي - مدلِّس وكان اختلط. وإدريس الأودي لا يُعرف أنه روى قبل الاختلاط. ولذلك ضعَّفه الشيخ الألبانيُّ كما في «السلسلة الضعيفة» برقم (٦٣٢٣).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (٣٥٦٩٤)، وهنَّاد في كتاب «الزهد» (١/ ٢٨٦)، وأبو داود في «الزهد» (ص: ١٧٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٨).
وروي من حديث أبي الدرداء مرفوعًا أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في «الأمثال» (ص: ٩٣)، وابن عساكر في «معجم الشيوخ» (١/ ٣٤٢)، وضعَّفه الشيخ الألباني كما في «السلسلة الضعيفة» برقم (٢٠٥٩).

* ينبغي لحامل القرآن أن يُعرفَ بليله إذا النَّاسُ نائمون، وبنهاره إذا النَّاس مفطرون، وبحزنه إذا النَّاس يفرحون، وببكائه إذا النَّاس يضحكون، وبصَمْتِه إذا النَّاس يخوضون، وبخشوعه إذا النَّاس يختالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا سكينًا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غافلًا ولا سخَّابًا ولا صَيَّاحًا ولا حديدًا(١).

* مَن تطاول تعظُّمًا حَطَّهُ الله، ومَن تَواضع تخشُّعًا رفعه الله.

* وَإِنَّ للمَلَكِ لَمَّةً وللشيطان لَمَّةً: فلَمَّةُ الملك إيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحقّ؛ فإذا رأيتم ذلك فاحمدوا الله. ولَمَّةُ الشَّيطان إيعادٌ بالشَّرِّ وتكذيبٌ بالحقِّ؛ فإذا رأيتُم ذلك فتعوَّذوا بالله(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة برقم (٣٦٧٣٤)، والإمام أحمد في كتاب «الزهد» (ص: ١٦٢)، وأبو داود في كتاب «الزهد»(ص: ١٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٠).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٢٩ شاهين) من طريق المسيب بن رافع عن عامر بن عبدة أبي إياس البجلي عن ابن مسعود، بطوله، ومن هذه الطريق رواه ابن المبارك في كتاب «الزهد» (١/ ٥٠٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٩٦)، مختصرًا، كلٌّ روى بعضًا منه. وإسناده صحيح.

وأخرج الشطر الأول منه ابنُ أبي شيبة برقم (٣٥٢٩٩ الرشد) من طريق شعبة عن عاصم عن أبي رزين عن ابن مسعود، ولفظه: «**مَنْ يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَاءِ يُرَاءِ اللهُ بِهِ، وَمَنْ تَوَاضَعَ تَخَشُّعًا رَفَعَهُ اللهُ، وَمَنْ تَعَظَّمَ تَطَاوُلًا وَضَعَهُ اللهُ**».

وأخرج الشطر الأخير منه عبدُ الرزاق في «التفسير» (١/ ٣٧٣ الكتب العلمية)، والطبريُّ في «التفسير» (٥/ ٦-٨)، وأبو داود في «الزهد» (١٦٤)، من طرق عن عطاء بن السائب عن مرَّة عن ابن مسعود به نحوه. وإسناده حسن.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٥٣٢) من طريق حماد بن زيد عن عطاء بن السائب به، في كلام طويل.

وأخرجه الترمذي برقم (٢٩٨٨)، والنسائي في «الكبرى» برقم (١٠٩٨٥)، وابن حبان برقم (٩٩٧) من طريق أبي الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن مسعود مرفوعًا. وصحَّحه =

❁ إنَّ النَّاس قد أَحْسنوا القَولَ؛ فمَن وافق قولُه فعلَه فذاك الذي أصابَ حظَّه، ومن خالف قولُهُ فعلَه فذاكَ إنَّما يُوبِّخُ نفسَه[1].

❁ إنِّي لأُبغِضُ الرَّجلَ أن أراهُ فارغًا ليس في شيءٍ من عمل الدُّنيا ولا عمل الآخرة[2].

❁ ومن لم تأمره الصَّلاةُ بالمعروف وتَنْهَه عن المنكر لم يزددْ بها من الله بعدًا[3].

❁ من اليقين أنْ لا تُرضي الناسَ بسخطِ الله، ولا تَحْمد أحدًا على رزق الله، ولا تلوم أحدًا على ما لم يُؤتِك الله؛ فإنَّ رزقَ الله لا يسوقه حرصُ حريصٍ، ولا يَرُدُّهُ كراهةُ كارهٍ. وإنَّ الله بقسطه وحلمه وعدله جعل الرَّوحَ والفرحَ في اليقين والرضى، وجعل الهَمَّ والحزنَ في الشكِّ والسخط[4].

= الألبانيُّ «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٢/ ٣١٤).

(١) أخرجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» (١/ ٢٥)، ووكيع في كتاب «الزهد» (ص: ١٣٢)، وكذا الإمام أحمد في كتاب «الزهد» (ص: ١٦٠)، وأبو داود في كتاب «الزهد» (ص: ١٩١).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٣١ شاهين)، و ابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (٣٥٧٠٥)، ووكيع في كتاب «الزهد» (ص: ١٨٧)، وأبو داود في كتاب «الزهد» (ص: ١٨٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٠)، واللفظ لأحمد، ولفظه عند البقية: **«إِني لأَمْقُتُ الرَّجُلَ أنْ أَرَاه فَارِغًا ليسَ في شيءٍ من عَمَلِ الدُّنيَا، وَلَا عَمَلِ الآخِرَةِ»**.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في كتاب «الزهد» (ص: ١٥٩)، والطبراني في «الكبير» رقم (٨٥٤٣ حمدي السلفي) والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٩٩٤)، وأبو داود في «الزهد» (ص: ١٣٥ غنيم)، وروي مرفوعًا، ولا يصح؛ كما في «السلسلة الضعيفة» للشيخ الألباني برقم (٢).

(٤) أخرجه هنَّاد في كتاب «الزهد» (١/ ٣٠٤ الفريوائي)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» برقم (٩٤)، وفي «اليقين» برقم (٣١)، وابن الأعرابي في «معجمه» (٢/ ٧٣٥)، والطبراني في «الكبير» برقم (١٠٣٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٣٨٤) رقم (٢٠٥).

وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٢١ السعادة)، والطبراني في «الكبير» رقم (١٠٥١٤ حمدي السلفي)، من حديث ابن مسعود مرفوعًا إلى النبيِّ ﷺ ولا يصح، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧١ القدسي): «فِيهِ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ الْعُمَرِيُّ، وَاتُّهِمَ بِالْوَضْعِ».

=

❁ ما دُمتَ في صلاة فأنت تَقْرَعُ بابَ الملك، ومن يَقْرَعْ بابَ الملك يُفتَحْ له[١].

❁ إنِّي لأحسبُ الرجل ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها[٢].

❁ كونوا ينابيعَ العلم، مصابيحَ الهُدى، أحلاسَ البيوت، سُرُجَ اللَّيل، جُدُدَ القلوب، خُلقانَ الثياب، تُعرفون في السَّماء وتَخْفَون على أهل الأرض[٣].

❁ إنَّ للقلوب شهوةً وإدبارًا؛ فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودَعُوها عند فترتها وإدبارها[٤].

❁ ليس العلم بكثرة الرِّواية، ولكن العلم الخشية[٥].

=

وروي من حديث أبي سعيد الخدري، وحكم عليه الشيخ الألباني بالوضع، انظر: «السلسلة الضعيفة» برقم (١٤٨٢).

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٧الأعظمي)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣/ ٤٧) رقم (٤٧٣٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٢٢٣) رقم (٨٣٥٥)، وأبو داود في «الزهد» برقم (١٤٤)، والطبراني (٩/ ٢٠٥ رقم ٨٩٩٦، ٨٩٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٠السعادة)، والبيهقي في «الكبرى» (٢/ ٦٤٨)، وفي «الشعب» برقم (٢٨٧٩) و(٢٨٨٠).

(٢) أخرجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» (١/ ٢٨)، ووكيع في «الزهد» برقم (٢٦٩)، والإمام أحمد في كتاب «الزهد» (ص: ١٥٦)، وأبو خيثمة في كتاب «العلم» (ص: ٣١)، والدارمي برقم (٣٨٨ الداراني)، وأبو داود في «الزهد» برقم (١٦٩)، والطبراني (٩/ ١٨٩ برقم ٨٩٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣١)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن» برقم (٤٨٧).

(٣) أخرجه الدارمي (١/ ٩٢) من طريق محمد بن عون، عن إبراهيم بن عيسى، عن عبد الله بن مسعود، ومحمد بن عون متروك، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (ص: ٣٩)، من طريق عامر ابن يساف، عن يحيى بن أبي كثير، عن ابن مسعود. وسنده منقطع.
وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٧)، عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) أخرجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» (١/ ٤٦٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٤)، من طريق مسعر عن معن قال: قال عبد الله: «إنَّ هذه القلوب شهوة وإقبالًا، وإن لها فترة وإدبارًا، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها».

(٥) أخرجه الإمام أحمد في كتاب «الزهد» (ص: ١٥٨)، وأبو داود في «الزهد» (١٧٢)، والطبراني

=

❁ إنَّكم ترون الكافر من أصحِّ النَّاس جسمًا وأمرضهم[١] قلبًا، وتَلْقون المؤمنَ من أصحِّ النَّاس قلبًا وأمرضهم[٢] جسمًا. واللهِ لو مرضتْ قلوبكم وصحتْ أجسامُكم لكنتُمْ أهونَ على الله من الجُعْلَان[٣].

❁ لا يَبلغُ العبدُ حقيقةَ الإيمان حتى يَحُلَّ بذِرْوته، ولا يَحُلُّ بذروته حتى يكون الفقرُ أحبَّ إليه من الغنى والتواضعُ أحبَّ إليه من الشرف، وحتى يكون حامدُه وذامُّه عنده سواء[٤].

❁ وإنَّ الرجل ليخرُجُ من بيته ومعه دينه فيرجعُ وما معه منه شيءٌ؛ يأتي الرجل، ولا يملك له ولا نفسه ضَرًّا ولا نفعًا، فيُقسِمُ له بالله إنَّك لذَيْتَ وذَيْتَ، فيرجع وما حُبِيَ من حاجته بشيءٍ، وبسخط الله عليه[٥].

= (٩/ ١٠٢ رقم ٨٥٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣١)، والبيهقي في «المدخل» برقم (٤٨٦)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٤٠٠ الزهيري).

(١) في الأصل (أمرضه)، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) في الأصل (أمرضه)، والصحيح ما أثبتناه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في كتاب «الزُّهد» (ص: ١٦٣)، وهناد في «الزهد» (١/ ٢٤٧ الفريوائي)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٥).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في كتاب «الزهد» (ص: ١٥٨)، ومن طريقه أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٢)، بلفظ: ««**لَا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، والتواضع أحب إليه من الشرف، وحتى يكون حامده وذامُّه عنده سواءً**»، قال: ففسَّرها أصحاب عبد الله؛ قالوا: حتى يكون الفقر في الحلال أحبَّ إليه من الغنى في الحرام، وحتى يكون التواضع في طاعة الله أحبَّ إليه من الشرف في معصية الله، وحتى يكون حامده وذامُّه في الحق سواءً».

(٥) أخرجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» (١/ ١٢٩ الأعظمي)، وهناد في كتاب «الزهد» أيضًا (٢/ ٥٥٥ الفريوائي)، وأخرجه أيضًا الخلال في كتاب «السنة» (٥/ ١٥، ٣٦-٣٧ الزهراني)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٣٧) رقم (٨٣٤٨). وقال: «صحيح على شرط الشيخين».

❁ لو سَخِرتُ من كلبٍ لخشيتُ أن أُحوَّل كلبًا[١].

❁ الإثم حَوازُّ القلوب[٢].

❁ ما كان من نظرة فإنَّ للشيطان فيها مطمعًا[٣].

❁ مع كلِّ فرحةٍ تَرْحةٌ، وما مُلِئَ بيتٌ حبرةً إلَّا مُلِئ عَبرةً[٤].

❁ ما منكم إلَّا ضيفٌ، ومالُه عاريةٌ، فالضيف مرتحلٌ، والعارية مؤدَّاةٌ إلى أهلها[٥].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٥٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٣٢١ الحوت)، وهناد في كتاب «الزهد» (٢/ ٥٧٠) واللفظ له.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (٨٧٤٨)، بلفظ: «**إنَّ الإثمَ حَوَّاز القُلوب، فما حَزَّ في قلبِ أحدِكم شيء؛ فليَدَعْهُ**». وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٢٦١٣).

(٣) أخرجه هكذا أبو حاتم في كتاب «الزهد» (٥١)، وأخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (٨٧٤٩) بلفظ: «**ما كان من نظرة فللشيطان فيها مطمع، والإثم حواز القلوب**»، وكذا أخرجه هناد في كتاب «الزهد» (٢/ ٤٦٥). وانظر «السِّلسلة الصحيحة» رقم (٢٦١٣).

(٤) أخرجه وكيع في «الزهد» (٥٠٧)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٦٣)، وأبو داود في «الزهد» (ص: ١٤٨)، من طريق أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود. وسنده صحيح.

وأخرجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» (١/ ٣٤٧) من طريق سفيان وشعبة، ووكيع في «الزهد» برقم (٥٠٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (٣٥٧١٦) من طريق سفيان وحده، عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص به مختصرًا بلفظ: «مع كل فرحة ترحة». وسنده صحيح أيضًا.

وروِيَ مرفوعًا إلى النبي ﷺ فقد أخرج ابن الأعرابي في «معجمه» (٢/ ٦٦٠)، وأبو الشيخ في «الأقران» (ص: ٥٤ السعدني)، والخطيب في «تاريخه» (٣/ ٣٣٢ العلمية)، من طريق مسروق عن حفص بن غياث عن الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ.

ومسروق هو ابن المرزبان، قال أبو حاتم: ليس بالقوي، كما في «ديوان الضعفاء» للذهبي (ص: ٣٨٥ حماد الأنصاري)، وقد خالف الأئمَّة الذين رووه موقوفًا كشعبة وسفيان وإسرائيل، ولهذا فإن الحديث باطل لا يصحُّ مرفوعًا، وإنما هو موقوف. والله أعلم، وضعَّف الحديث مرفوعًا الشيخ الألباني كما في «السلسلة الضعيفة» برقم (١٨٥٥).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (٣٥٦٩٩)، والإمام أحمد في كتاب «الزهد» (ص: ١٦٣)، =

❁ يكون في آخر الزمان أقوامٌ أفضلُ أعمالهم التلاوُمُ بينهم، يُسمَّون الأنتانَ[(١)].

❁ إذا أحبَّ الرجل أن يُنصِف من نفسه؛ فليأتِ إلى الناس الذي يُحِب أن يؤتى إليه[(٢)].

❁ الحقُّ ثقيل مريءٌ، والباطلُ خفيفٌ وبيءٌ، رُبَّ شهوةٍ تُورِثُ حزنًا طويلا[(٣)].

= وأبو داود في كتاب «الزهد» (ص: ١٩١)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» برقم (١٧٣ ابن حزم)، والطبراني برقم (٨٥٣٣ حمدي)، والبيهقي في «شعب الإيمان» برقم (١٠١٦٠)، من طريق الضحاك، عن عبد الله بن مسعود.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١/ ١٢٥)، وقال: «الضَّحَّاك لم يدرك ابن مسعود، وفيه ضعف».

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «الزهد» (ص: ١٩٤)، من طريق هاشم بن القاسم، عن أبي سعيد المؤدب، عن مالك بن مغول، قال: قال عبد الله: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ، أَوْ يَكُونُ فِي آخِرِ النَّاسِ زَمَانٌ أَفْضَلُ أَعْمَالِهِمْ بَيْنَهُمُ التَّلَاوُمُ، يُسَمَّوْنَ الْأَنْتَانُ». وفي سنده انقطاع.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» برقم (٣٥٧٠٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٣/ ٤٦٥)، من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن خيثمة عن عبد الله. ولفظ ابن أبي شيبة: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْصِفَ الله مِنْ نَفْسِهِ؛ فَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»**. وعند البيهقي: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْصِفَ النَّاسَ»** الحَدِيثَ.

وأخرجه أبو داود في «الزهد» (ص: ١٣٢ غنيم)، من طريق أبي عوانة عن الأعمش عن خيثمة عن الأسود عن عبد الله به.

(٣) أخرجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» (١/ ٩٨ الأعظمي)، والمعافى بن عمران الموصلي في كتاب «الزهد» (ص: ١١٤)، هناد في كتاب «الزهد» (١/ ٢٨٧)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٤)، وكذا الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٤٢٨-٤٢٩)، كلهم من طريق موسى ابن عبيدة الربذي، عن أبي عمرو المديني، عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وموسى بن عبيدة ضعيف كما في «التقريب»، وأبو عمرو المديني لم أعرفه.

وأخرجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» (١/ ٢٩١) عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: **«إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ، وَهُوَ مَعَ ثِقَلِهِ مَرِيءٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ، وَهُوَ مَعَ خِفَّتِهِ وَبِيءٌ، وَتَرْكَ الْخَطِيئَةِ أَيْسَرُ - أَوْ قَالَ خَيْرٌ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ - وَرُبَّ شَهْوَةِ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَوِيلًا»**.

إلا أنه من رواية أبي جناب الكلبي عنه، قال ابن حجر في «التقريب»: ضعفوه؛ لكثرة تدليسه.

❁ ما على وجه الأرض شيءٌ أحوجُ إلى طول سَجْنٍ من لسان[1].

❁ إذا ظهر الزِّنى والرِّبا في قريةٍ أُذِنَ بهلاكها[2].

❁ من استطاعَ منكم أن يجعل كنزَه في السماء حيثُ لا يأكله السوسُ، ولا تناله السُّرَّاق؛ فليَفْعَلْ، فإنَّ قَلْبَ الرجل مع كنزه[3].

❁ لا يُقلِّدنَّ أحدُكم دينَه رجلًا؛ فإنْ آمن آمنَ، وإن كفر كفرَ، وإن كنتم لا بدَّ مقتدين فاقتدوا بالميت؛ فإنَّ الحي لا تُؤمَن عليه الفتنة[4].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٢٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (٢٧٠٣٠)، وهناد في «الزهد» (٢/ ٥٣٢)، وأبو داود في «الزهد» برقم (١٤٩)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (ص: ٢٦)، و«الصمت» لابن أبي الدنيا برقم (١٦)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١٤٩)، من طريق يزيد بن حيان، عن عنبس بن عقبة، عن عبد الله بن مسعود.
وهذا إسناد صحيح.

(٢) أخرجه ابنُ أبي الدنيا في «العقوبات» برقم (٩)، بسند صحيح إلى عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه به. وأخرجه الطبرانيُّ في «المعجم الكبير» برقم (١٠١٧٦) بلفظ: «لم يهلك أهل نبوَّة قط حتى يظهر الزنى والربا». وَفِيهِ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الْأَحْوَلُ، وَهُوَ ضَعِيفٌ. انظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي (٤/ ١١٨).
وأخرجه الإمام أحمد برقم (٣٨٠٩)، وأبو يعلى برقم (٤٩٨١) ومن طريقه ابن حبان في صحيحه برقم (٤٤١٠) من طريق شريك بن عبد الله النخعي، عن سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود عن أبيه مرفوعًا بلفظ: «**لعن الله آكل الربا، وموكله، وشاهديه، وكاتبه**». قال: وقال: «**ما ظهر في قوم الزنى والربا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله** عَزَّوَجَلَّ».
هذا لفظ أبي يعلى والإمام أحمد، واقتصر ابن حبان على الجزء الأخير من الحديث.
وهذا الإسناد ضعيف؛ لضعف شريك بن عبد الله النخعي، لكن للحديث شواهد يرتقي بها للحسن لغيره، ولذلك حسَّنه لغيره الشيخ الألبانيُّ كما في «التعليقات الحسان» (٦/ ٤١٦) برقم (٤٣٩٣).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» برقم (٦٣٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (٣٥٦٦٤)، وأبو داود في كتاب «الزهد» (ص: ١٧٩)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٩٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٥)، والبيهقي في «الشعب» برقم (١٠١٥٥، ١٠١٥٦)، من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن أخيه أشعث بن أبي خالد، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أبو داود في «الزهد» (ص: ١٤٠ غنيم)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١٥٢)، وعنه أبو نعيم في =

❁ لا يكن أحدكم إمَّعةً! قالوا: وما الإمَّعةُ[(١)]؟ قال: يقول: أنا مع الناس؛ إن اهتَدوا اهتديتُ، وإن ضلُّوا ضللتُ، ألا لِيوطِّنْ أحدُكم نفسَه على أنه إن كفر الناسُ لا يكفر[(٢)].

❁ وقال له رجلٌ: علِّمني كلماتٍ جوامعَ نوافعَ! فقال: اعبُدِ الله لا تشرك به شيئًا، وزُلْ مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبلْ منه، وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن جاءك بالباطل فارْدُدْ عليه، وإن كان حبيبًا قريبًا[(٣)].

= «الحلية» (١/ ١٣٦)، وأبو طاهر المخلص في «المخلصيات» (٢/ ٣١١)، من طرق عن الأعمش، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الأحوص، قال: سمعت عبد الله بن مسعود، فذكره. واللفظ للطبراني. قال أبو داود: رواه أبو معاوية، وشجاع بن الوليد، ورواه شيبان، وشعبة بن عمارة، عن أبي الأحوص، عن عبد الله. اهـ. والأثر صحيح.

(١) جاء تفسير (الإمَّعة) عن ابن مسعود، فقد أخرج أبو داود في كتاب «الزهد» (ص: ١٤٥) من طريق طرفة المسلي قال: قال عبد الله: «ائتوا الأمر من تدبر، ولا يكونن أحدكم إمعة»، قالوا: وما الإمعة؟ قال: «الذي يجري بكل ريح».

ولذلك قال الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٥/ ٤٠٩): (ولم نجد في تأويل الإمعة شيئًا أعلى مما رويناه عن ابن مسعود، وقد ذكر لنا ذلك علي بن عبد العزيز، عن أبي عبيد في حديث عبد الله، قال: «الإمَّعة الذي يقول: أنا مع الناس»، يعني يتابع كل أحد على رأيه، ولا يثبت على شيء، فكان هذا ما وصفنا منه للذي يكون كذلك، لا وصف فيه للذي يجرُّه إلى ذلك، والقوم بلغتهم، والله الموفِّق).

(٢) أخرجه هكذا الطبراني في «الكبير» برقم (٨٦٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٧).

ورواه ابن بطَّة العكبري في «الإبانة» (١/ ١٩٤) بلفظ: «**لَيوطِّنَنَّ المرءُ نفسَه على أنَّه إنْ كفرَ مَن في الأرض جميعًا لم يكفر، ولا يكوننَّ أحدُكم إمَّعةً**»، قيل: ومَا الإمَّعة؟ قال: «**الَّذي يقول: أنا مع النَّاس؛ إنَّه لا إسوة في الشَّرِّ**».

وأخرج الترمذي برقم (٢٠٠٧) من حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا**».

وضعَّفه الألباني كما في «ضعيف الجامع الصغير» برقم (٦٢٧١)

(٣) أخرجه هكذا أبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (ص: ٧٤ مروان العطية)، والبغوي في «مسند ابن الجعد» (ص: ٣٢٦ حيدر)، والطبراني في «الكبير» برقم (٨٥٣٧ السلفي)، وأبو نعيم في =

❁ يُؤتـى بالعبـد يـوم القيامة، فيقـالُ له: أدِّ أمانتـك! فيقول: يا ربِّ! مـن أين وقد ذهبـت الدُّنيا؟ فتُمثَّل على هيئتها يوم أخذَها في قعـر جهنَّم، فيَنزِل فيأخذها فيضعُها على عاتقه فيصعد بها، حتَّى إذا ظنَّ أنَّه خارج بها هَوتْ وهوى في أثرها أبدَ الآبدين[(١)].

❁ اطلـبْ قلبـك في ثلاثـة مواطـن: عنـد سماع القـرآن، وفي مجالِـس الذِّكـر، وفي أوقـات الخلـوة؛ فإن لم تجدهُ في هذه المواطن فسَـلِ الله أن يَمُنَّ عليـك بقلبٍ؛ فإنَّه لا قلبَ لك[(٢)].

= «الحلية» (١/ ١٣٤).

وأخرجـه ابن أبي شـيبة في «مصنفه» برقـم (٣٠٩٢٨، ٣٠٩٣٠) بلفظ: أتى ابن مسـعود رجل فقال: علمني كلمات جوامع نوافع، قال: «**تعبد الله، ولا تشرك به شيئًا وتزول مع القرآن حيث زال**».

(١) أخرجـه ابـن المنذر في «تفسـيره» (٢/ ٧٦١ المآثر)، وابـن أبي حاتم في «التفسـير» (٣/ ٩٨٥الطيب)، والدينوري في «المجالسـة» (١٧٠١ مشـهور)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٠)، والبيهقي في «السـنن الكـبرى» (٦/ ٢٨٨)، وفي «الشـعب» (٤٨٨٥ الرشـد)، من طريقين، عن عبد الله بن السَّـائب، عن زاذان، عن ابن مسعود بلفظ: «**الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ يُكَفِّرُ كُلَّ ذَنْبٍ، إِلَّا الْأَمَانَةَ، يُؤْتَى بِصَاحِبِهَا وَإِنْ كَانَ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقَالُ لَهُ: أَدِّ أَمَانَتَكَ، فَيَقُولُ: رَبِّ، ذَهَبَتِ الدُّنْيَا فَمِنْ أَيْنَ أُؤَدِّيهَا؟ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْهَاوِيَةِ، حَتَّى إِذَا أُتِيَ بِهِ إِلَى قَرَارِ الْهَاوِيَةِ مُثِّلَ لَهُ أَمَانَتُهُ كَيَوْمِ دُفِعَتْ إِلَيْهِ، فَيَحْمِلُهَا عَلَى رَقَبَتِهِ يَصْعَدُ بِهَا فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا هَوَتْ وَهَوَى فِي إِثْرِهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ**، وقرأ عبد الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]». وذكر عبد الله بن الإمام أحمد، كما في «الترغيب والترهيب» للمنذري (٤/ ٤ الكتب العلمية)؛ أنه سأل أباه عنه، فقال: «إسناده جيد».

وأخرجـه الطـبريُّ في «تفسـيره» (٢٠/ ٣٤٠)، وابـن أبي حاتـم (٣/ ٩٨٥)، والطـبراني في «الكبـير» (١٠/ ٢١٩)، والخرائطي في «مكارم الأخـلاق» (ص٦٩ البحيري)، وابـن أبي الدنيا في «الأهوال» (ص: ٢٠٦السيد)، من طريق إسحاق الأزرق، عن شريك، عن الأعمش، عن عبد الله بن السائب، عـن زاذان، عـن ابن مسـعود مرفوعًا، وهذا الإسـناد ضعيـف؛ لضعف شريك بن عبـد الله القاضي، وقـد خالـف في روايته عن الأعمش هذه رواية سـفيان الثوري، ولذلك ضعَّفه الألباني في «السلسـلة الضعيفة» برقم (٤٠٧١).

والصحيح أنه موقوف من كلام عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) لم أجده.

قال الجنيدُ: دخلتُ على شابٍّ فسألني عن التوبة؟ فأجبتُه، فسألني عن حقيقتها؟ فقلتُ: أن تَنصِبَ ذنبَك بين عينيك حتَّى يأتيك الموتُ. فقال لي: مه! ما هذا حقيقةَ التَّوبة، فقلتُ له: فما حقيقةُ التَّوبة عندك يا فتى؟! قال: أن تَنسَى ذنبك. وتركني ومضى. [فقال رجلٌ:] فكيف هو عندك يا أبا القاسم؟ فقلت: القولُ ما قال الفتى. قال: كيف؟ قلتُ: إذا كنتُ معه في حال، ثم نقلني من حال الجفاء إلى حال الوفاء؛ فذكري للجفاء في حال الوفاء جفاء[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) ذكره أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٧٤) بلفظ: «دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ هَمًّا فَقُلْتُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ أَرَى عَلَيْكَ هَمًّا فَقَالَ: السَّاعَةَ دَقَّ عَلَيَّ دَاقٌّ الْبَابَ فَقُلْتُ: ادْخُلْ، فَدَخَلَ عَلَيَّ شَابٌّ فِي حُدُودِ الْإِرَادَةِ فَسَأَلَنِي عَنْ مَعْنَى التَّوْبَةِ، فَأَخْبَرْتُهُ وَسَأَلَنِي عَنْ شَرْطِ التَّوْبَةِ، فَأَنْبَأْتُهُ فَقَالَ: هَذَا مَعْنَى التَّوْبَةِ وَهَذَا شَرْطُهَا، فَمَا حَقِيقَتُهَا؟ فَقُلْتُ: حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ عِنْدَكُمْ أَنْ لَا تَنْسَى مَا مِنْ أَجْلِهِ كَانَتِ التَّوْبَةُ فَقَالَ: لَيْسَ هُوَ كَذَلِكَ عِنْدَنَا، فَقُلْتُ لَهُ: فَمَا حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَ: حَقِيقَةَ التَّوْبَةِ أَلَا تَذْكُرَ مَا مِنْ أَجْلِهِ كَانَتِ التَّوْبَةُ، وَأَنَا أُفَكِّرُ فِي كَلَامِهِ، قَالَ الْجُنَيْدُ: فَقُلْتُ: مَا أَحْسَنَ مَا قَالَ، قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا جُنَيْدُ، وَمَا مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ؟ فَقَالَ: يَا أُسْتَاذُ إِذَا كُنْتُ مَعَكَ فِي حَالِ الْجَفَاءِ وَنَقَلْتَنِي مِنْ حَالِ الْجَفَاءِ إِلَى حَالِ الصَّفَاءِ فَذِكْرِي لِلْجَفَاءِ فِي حَالِ الصَّفَاءِ غَفْلَةٌ، قَالَ: وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا آخَرَ فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ هَمًّا فَقُلْتُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ أَرَاكَ مَشْغُولَ الْقَلْبِ، فَقَالَ: أَمْسِ كُنْتُ فِي الْجَامِعِ فَوَقَفَ عَلَيَّ شَابٌّ وَقَالَ لِي: أَيُّهَا الشَّيْخُ، أَيَعْلَمُ الْعَبْدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ قَبِلَهُ؟ فَقُلْتُ: لَا يَعْلَمُ، فَقَالَ: بَلَى يَعْلَمُ، وَقَالَ لِي ثَانِيًا: بَلَى يَعْلَمُ، فَقُلْتُ لَهُ: فَمِنْ أَيْنَ يَعْلَمُ؟ قَالَ: إِذَا رَأَيْتُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ عَصَمَنِي مِنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَوَفَّقَنِي لِكُلِّ طَاعَةٍ عَلِمْتُ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ قَبِلَنِي».

فصل

لا يجتمع الإخلاصُ في القلب ومحبةُ المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلاَّ كما يجتمع الماءُ والنارُ والضبُّ والحوتُ.

فإذا حدَّثتْك نفسُك بطلب الإخلاص فأقبِلْ على الطَّمعِ أوَّلًا فاذبحْه بسكين اليأس، وأقبِلْ على المدح والثَّناء فازهد فيهما زهدَ عُشَّاق الدُّنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبحُ الطَّمع والزُّهدُ في الثَّناء والمدح؛ سَهُلَ عليك الإخلاص.

فإن قلتَ: وما الَّذي يُسهِّل عليَّ ذبحَ الطَّمع والزُّهدَ في الثناء والمدح؟

قلت: أمَّا ذبح الطَّمع فيُسهِّله عليك علمُك يقينًا أنَّه ليس من شيء يُطمَع فيه إلَّا وبيد الله وحده خزائنُهُ؛ لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبدَ منها شيئًا سواهُ.

وأمَّا الزُّهدُ في الثَّناء والمدح فيُسهِّلُه عليك علمُك أنَّه ليس أحدٌ ينفعُ مدحُه وَيزيْن، ويَضرُّ ذمُّه ويَشينُ إلَّا الله وحدَه، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إنَّ مدحي زَينٌ وذَمِّي شَينٌ. فقال: «**ذلك الله** عَزَّوَجَلَّ[1]». فازهد في مدح من لا يَزينُك مدحه وفي ذمٍّ من لا يَشنيك ذمُّهُ، وارغبْ في مدح مَن كلُّ الزَّين في مدحه وكلُّ الشَّين في ذمِّه.

ولن تقدر على ذلك إلَّا بالصَّبر واليقين؛ فمتى فقدتَ الصَّبر واليقين كنتَ كمَن أراد السَّفر في البحر في غير مركب.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٢٦٧) من حديث البراء بن عازب: في قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، قال فقام رجل فقال: يا رسول الله إن حمدي زين وإن ذمي شين، فقال النبي ﷺ: «**ذاك الله** عَزَّوَجَلَّ».
وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» برقم (١٥٩٩١، ٢٧٢٠٣) من حديث الأقرع بن حابس.
والحديث صحَّحه الشيخ الألباني كما في «صحيح الترمذي» برقم (٢٦٠٥).

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]



فصل

لذَّةُ كل أحد على حسب قدره وهمَّته وشرفِ نفسه:

فأشرفُ النَّاس نفسًا وأعلاهم همَّةً وأرفعهم قدرًا مَن لذَّتُهُ في معرفة الله ومحبَّته والشوق إلى لقائه والتَّودُّد إليه بما يحبُّه ويرضاه؛ فلذَّتُه في إقباله عليه وعكوف همَّته عليه. ودون ذلك مراتبُ لا يُحصيها إلَّا الله، حتَّى تنتهيَ إلى مَن لذَّتُهُ في أخسِّ الأشياء مِن القاذورات والفواحش في كلِّ شيءٍ من الكلام والفِعال والأشغال؛ فلو عُرض عليه ما يلتذُّ به الأوَّلُ لم تَسمَحْ نفسُه بقبوله ولا الالتفات إليه وربَّما تألَّمتْ من ذلك؛ كما أنَّ الأوَّل إذا عُرِض عليه ما يلتذُّ به هذا لم تسمَحْ نفسه به ولم تلتفتْ إليه ونفرتْ نفسه منه.

وأكمل النَّاس لذَّةً من جُمِع له بين لذَّة القلب والرُّوح ولذَّة البدن؛ فهو يتناول لذَّاته المباحة على وجهٍ لا ينقُصُ حظّه مِن الدَّار الآخرة، ولا يقطع عليه لـذَّةَ المعرفة والمحبَّة والأنس بربِّه؛ فهذا ممن قال تعالى فيه: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأبخسُهم حظًّا من اللَّذة مَن تناولها على وجهٍ يحولُ بينه وبين لذَّات الآخرة، فيكون ممَّن يقال لهم يوم استيفاء اللَّذَّاتِ: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فهؤلاء تمتَّعوا بالطَّيِّبات، وأولئك تمتَّعوا بالطَّيِّبات. وافترقوا في وجه التَّمتُّع: فأولئك تمتَّعوا بها على الوجه الذي أُذِنَ لهم فيه، فجُمِعَ لهم بين لذَّة الدُّنيا والآخرة. وهؤلاء تمتَّعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشَّهوة، وسواءٌ أُذن لهم فيه أم لا، فانقطعت عنهم لـذَّةُ الدُّنيا وفاتتهم لذَّة الآخرة؛ فلا لذَّةُ الدُّنيا دامتْ لهم ولا لذَّةُ الآخرة حصلتْ لهم.

فمن أحبَّ اللَّذة ودوامها والعيشَ الطَّيب فليجعلْ لذَّة الدُّنيا موصلًا له إلى لذة الآخرة؛ بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله وإرادته وعبادته، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوَّة على طلبه، لا بحكم مجرَّد الشَّهوة والهوى. وإنْ كان ممَّن زُوِيَتْ عنه لذَّاتُ الدُّنيا وطيِّباتُها فليجعل ما نُقِصَ منها زيادةً في لذَّة الآخرة، ويُجِمَّ نفسَه ها هنا بالتَّرك ليستوفيها كاملةً هناك.

فطيباتُ الدنيا ولذَّاتُها نِعمَ العونُ لمن صحَّ طلبه لله والدَّار الآخرة وكانت همَّتُه لما هناك، وبئسَ القاطعُ لمن كانت هي مقصوده وهمته وحولها يُدَندِن. وفواتُها في الدُّنيا نعم العونُ لطالب الله والدَّار الآخرة، وبئسَ القاطع للنَّازِعِ من الله والدَّار الآخرة.

فمن أخذ منافع الدُّنيا على وجهٍ لا ينقص حظَّه من الآخرة ظَفِرَ بهما جميعًا، وإلَّا خَسِرَهما جميعًا.

❁ سبحان الله ربِّ العالمين!

لو لم يكن في تركِ الذُّنوب والمعاصي إلَّا إقامةُ المروءة، وصونُ العِرض، وحفظُ الجاه، وصيانةُ المال الَّذي جعله الله قِوامًا لمصالح الدُّنيا والآخرة، ومحبَّةُ الخلق، وجوازُ القول بينهم، وصلاحُ المعاش، وراحةُ البدن، وقوَّةُ القلب، وطيبُ النفس، ونعيمُ القلب، وانشراحُ الصدر، والأمنُ من مخاوفِ الفُسَّاق والفُجَّار، وقلَّةُ الهمِّ والغمِّ والحزن، وعزُّ النفس عن احتمال الذُّلِّ، وصونُ نور القلب أن تُطفئهُ ظلمةُ المعصية، وحصول المخرج له ممَّا ضاق على الفسَّاقِ والفجَّارِ، وتيسر الرزق عليه من حيث لا يحتسبُ، وتيسير ما عَسُرَ على أربابِ الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطَّاعات عليه، وتيسير العلم، والثَّناء الحسن في الناسِ، وكثرة الدُّعاء له، والحلاوةُ التي يكتسبها وجهه، والمهابةُ التي تُلقى له في قلوب النَّاس، وانتصارُهم وحميتُهم له إذا أُوذي وظُلِم، وذبُّهم عن عِرْضِه إذا اغتابه مغتابٌ، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقُربُ الملائكة منه،

وبعدُ شياطين الإنس والجنِّ منه، وتنافس النَّاس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودَّته وصحبته، وعدم خوفه من الموت بل يفرح به لقدومه على ربِّه ولقائه له ومصيره إليه، وصِغَرُ الدُّنيا في قلبه، وكِبَرُ الآخرة عنده، وحرصُهُ على الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوقُ حلاوة الطاعة، ووجدُ حلاوة الإيمان، ودعاءُ حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرحُ الكاتبين به ودعاؤُهم له كلَّ وقتٍ، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبَّة الله له وإقباله عليه وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبةَ له إلى فرحِه وسروره بالمعصية بوجهٍ من الوجوه، فهذه بعضُ آثار ترك المعاصي في الدُّنيا.

فإذا مات تلقَّتْهُ الملائكةُ بالبُشرى من ربِّه بالجنة، وبأنَّه لا خوف عليه ولا حُزْن، وينتقلُ من سجن الدُّنيا وضيقها إلى روضةٍ من رياض الجنَّة ينعم فيها إلى يوم القيامة.

فإذا كان يومُ القيامة كان النَّاسُ في الحرِّ والعرَقِ، وهو في ظلِّ العرش.

فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين.

و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

❁❁❁

فَصْلٌ

ذكر ابنُ سعد في «الطبقات» عن عمر بن عبد العزيز: أنَّه كان إذا خطب على المنبرِ، فخاف على نفسه العُجْبَ قطعهُ، وإذا كتب كتابًا، فخاف فيه العُجْبَ مزَّقه، ويقولُ: اللهمَّ! إنِّي أعوذُ بك من شرِّ نفسي(١).

اعلم أنَّ العبد إذا شرعَ في قولٍ أو عملٍ؛ يبتغي فيه مرضاة الله، مطالعًا فيه منَّةَ الله عليه به وتوفيقَهُ له فيه، وأنَّه بالله لا بنفسِه ولا بمعرفتِه وفكرِه وحولِه وقوَّتِه، بل هو بالذي أنشأ له اللِّسانَ والقلبَ والعينَ والأُذنَ، فالَّذي منَّ عليه بذلك هو الذي منَّ عليه بالقول والفعل؛ فإذا لم يَغِبْ ذلك عن ملاحظته ونظر قلبه لم يَحضُره العُجْبُ الذي أصلُهُ رؤيةُ نفسه وغَيبَتُهُ عن شهود مِنَّة ربِّه وتوفيقه وإعانته.

فإذا غابَ عن تلك الملاحظة وَثَبَتِ النَّفسُ وقامت في مقام الدَّعوى، فوقع العُجب، ففسد عليه القولُ والعملُ: فتارةً يُحال بينه وبين تمامه ويُقطَع عليه، ويكون ذلك رحمةً به، حتَّى لا يغيب عن مشاهدة المنَّة والتَّوفيق، وتارةً يتمُّ له، ولكن لا يكون له ثمرةٌ، وإنْ أثمَر أثمرَ ثمرةً ضعيفةً غير محصِّلةٍ للمقصود، وتارةً يكون ضررُه عليه أعظمَ من انتفاعه، ويتولَّدُ له منه مفاسد شتَّى بحسب غَيبته عن ملاحظة التَّوفيق والمنَّة ورؤيته نفسَه، وأنَّ القول والفعل به.

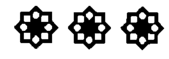
ومن هذا الموضع يُصلِحُ الله سُبْحَانَهُ أقوالَ عبده وأعماله ويُعظِم له ثمرتَها أو يُفسِدُها عليه ويمنعه ثمرتها؛ فلا شيءَ أفسدُ للأعمال من العُجْب ورؤية النفس.

---

(١) لم أجد هذا النص في «الطبقات الكبرى»، وإنَّما وجدت نصًّا قريبًا منه وهو قوله: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، عن الضحاك قال: رأيتُ عمرَ بن عبد العزيز ذهبَ به الكلامُ وهو على المنبر، ثمَّ رجع، فقال: أستغفر الله، أستغفر الله. (٥/ ٣٣٢ إحسان عباس)، برقم (٦٥٠٢).

فـإذا أراد الله بعبده خيرًا أشـهده منَّتَـه وتوفيقه وإعانتَه له في كلِّ مـا يقوله ويفعله، فلا يُعجَب به، ثم أشـهده تقصيره فيه، وأنَّه لا يرضى لربِّه به، فيتوب إليه منه ويسـتغفره ويسـتحيي أن يطلب عليه أجرًا، وإذا لم يُشـهِده ذلك، وغيَّبه عنه، فرأى نفسـه في العمل، ورآه بعين الكمال والرضى، لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضى والمحبَّة.

فالعارفُ يعمل العمل لوجهه، مشـاهدًا فيه منَّته وفضلهُ وتوفيقه، معتذرًا منه إليه، مستحييًا منه إذ لم يُوفِّه حقَّهُ، والجاهل يعمل العمل لحظِّه وهواهُ، ناظرًا فيه إلى نفسهِ، يمُنُّ به على ربِّه، راضيًا بعمله، فهذا لونٌ وذاك لونٌ آخرُ.



فَصْلٌ

الوصول إلى المطلوب موقوف على هَجْر العوائد وقطع العوائق والعلائق:

فالعوائدُ: السكونُ إلى الدَّعَةِ والرَّاحة وما أَلِفهُ الناس واعتادوهُ من الرسومِ والأوضاع، التي جعلوها بمنزلةِ الشَّرع المتَّبع، بل هي عندهم أعظم من الشرعِ؛ فإنَّهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع، وربما كفّروه أو بدّعوه وضلّلوه أو هجروه وعاقبوه لمخالفةِ تلك الرسوم، وأماتوا لها السُّنن، ونصبوها أندادًا للرَّسول يُوالون عليها ويُعادون؛ فالمعروفُ عندهم ما وافقها والمنكر ما خالفها.

وهذه الأوضاعُ والرسومُ قد استولتْ على طوائفِ بني آدم من الملوك والولاة والفقهاء والصوفيَّة والفقراء والمطوِّعين والعامَّة؛ فرُبِّي فيها الصغير، ونشأ عليها الكبير، واتُّخِذت سننًا، بل هي أعظم عند أصحابها من السُّننِ، الواقفُ معها محبوسٌ، والمتقيِّدُ بها منقطعٌ، عمَّ بها الـمُصابُ، وهُجِرَ لأجلها السُّنَّة والكتاب، من استنصر بها فهو عند الله مخذولٌ، ومن اقتدى بها دون كتاب الله وسنةِ رسوله فهو عند الله غيرُ مقبول.

وهذه أعظم الحُجُب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله.



فَصْلٌ

وأمَّا العوائقُ فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها؛ فإنَّها تعُوق القلبَ عن سيرِه إلى الله وتقطع عليه طريقَه.

وهي ثلاثة أمورٍ: شركٌ، وبدعةٌ، ومعصيةٌ؛ فيزولُ عائقُ الشّرك بتجريد التوحيد، وعائقُ البدعة بتحقيق السُّنَّة، وعائقُ المعصية بتصحيح التَّوبة.

وهذه العوائق لا تتبيَّنُ للعبد حتَّى يأخذ في أُهبة السَّفر ويتحقَّقَ بالسَّير إلى الله والدَّار والآخرة؛ فحينئذٍ تظهر له هذه العوائقُ ويُحِسُّ بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرُّده للسَّفر، وإلَّا فما دام قاعدًا لا تظهرُ له كوامنُها وقواطعُها.



فَصْلٌ

وأما العلائقُ فهي كلُّ ما تعلَّق به القلب دون الله ورسوله من ملاذِّ الدُّنيا وشهواتها ورئاساتها وصحبة النَّاس والتَّعلُّق بهم.

ولا سبيل له إلى قطعِ هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلَّا بقوَّة التعلُّق بالمطلبِ الأعلى، وإلَّا فقطعُها عليه بدونِ تعلُّقه بمطلوبه ممتنعٌ؛ فإنَّ النَّفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلَّا لمحبوبٍ هو أحبُّ إليها منه وآثرُ عندها منه، وكلَّما قوي تعلُّقُه بمطلوبِه ضعُفَ تعلُّقه بغيره، وكذا بالعكس، والتعلُّقُ بالمطلوبِ هو شدَّةُ الرَّغبة فيه، وذلك على قدرِ معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه.



فَصْلٌ

لما كمَّل الرسولُ ﷺ مقامَ الافتقار إلى الله سُبْحَانَهُ أحوجَ الخلائقَ كلَّهم إليه في الدُّنيا والآخرة:

أمَّا حاجتهم إليه في الدُّنيا فأشدُّ من حاجتِهم إلى الطَّعامِ والشَّرابِ والنَّفَس الذي به حياةُ أبدانهم.

وأمَّا حاجتهم إليه في الآخرةِ فإنهم يستشفعون بالرُّسل إلى الله حتى يُرِيحَهم من ضيقِ مقامهم؛ فكلُّهم يتأخَّر عن الشَّفاعةِ، فيشفع لهم(١)، وهو الذي يَستفتحُ لهم باب الجنَّة(٢).



---

(١) حديث الشفاعة أخرجه البخاري برقم (٤٧١٢)، ومسلم برقم (٣٢٧-١٩٤) من حديث أبي هريرة، وأخرجه البخاري أيضًا برقم (٤٤٧٦، ٧٥١٠)، ومسلم برقم (٣٢٢-١٩٣) و(٣٢٦-١٩٣) من حديث أنس بن مالك.

(٢) أخرج مسلم في «صحيحه» برقم (٣٣٣-١٩٧) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«آتِي بَابَ الجنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»**.

فصل

من علامات السعادة والفلاح: أنَّ العبد كلَّما زِيدَ في علمِه زيد في تواضعه ورحمته، وكلَّما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره، وكلَّما زيد في عمره نقصَ من حرصِه، وكلَّما زيد في مالـِه زيد في سـخائِه وبذلِـه، وكلَّما زيد في قدرِه وجاهِه زيـد في قُربِه من النَّاس وقضاءِ حوائجهم والتواضع لهم.

وعلاماتُ الشَّقاوة: أنَّه كلَّما زيد في علمِه زيد في كِبْرِه وتِيْهِه، وكلَّما زيد في عملِه زيد في فخرِه واحتقارِه للنَّاسِ وحسـن ظنِّه بنفسِـه، وكلَّما زيد في عمرِه زيد في حرصِه، وكلَّما زيد في مالِه زيد في بخلِه وإمساكِه، وكلَّما زيد في قدرِه وجاهِه زيد في كبرِه وتيهِه.

وهـذه الأمـورُ ابتلاءٌ مـن الله وامتحانٌ يَبْتَلي بها عبادَه فيَسـعَدُ بها أقوامٌ ويشـقى بها أقوامٌ.

وكذلـك الكراماتُ امتحانٌ وابتلاءٌ كالملك والسُّـلطان والمـال؛ قال تَعَالَىٰ عن نبيِّه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

فالنِّعم ابتلاءٌ من الله وامتحانٌ يظهر بها شـكر الشُّكور وكفر الكفور؛ كما أنَّ المحن بلوى منه سبحانه؛ فهو يبتلي بالنعمِ كما يبتلي بالمصائبِ.

قـال تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]؛ أي: ليـسَ كلُّ مَـن وسَّـعتُ عليـه وأكرمتُـه ونعَّمته يكون ذلك إكرامًا منِّي له، ولا كلُّ مَـن ضيَّقتُ عليه رزقه وأبليتُه يكون ذلك إهانةً مني له.

فَصْلٌ

مَن أراد علوَّ بنيانِهِ فعليه بتوثيقِ أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به؛ فإنَّ علوَّ البنيان على قدرِ توثيق الأساس وإحكامه.

فالأعمال والدَّرجات بنيانٌ، وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقًا حمَلَ البنيانَ واعتلى عليه، وإذا تهدَّم شيءٌ من البنيانِ سهُل تداركُه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفعْ البنيانُ ولم يثبتْ، وإذا تهدَّم شيءٌ من الأساسِ سقط البنيانُ أو كاد.

فالعارف همَّته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهلُ يرفع في البناءِ عن غير أساس؛ فلا يلبث بنيانه أن يسقط.

قال تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٩].

فالأساسُ لبناءِ الأعمال كالقوَّة لبدن الإنسان؛ فإذا كانت القوَّة قويَّةً حملت البدنَ ودفعتْ عنه كثيرًا من الآفات، وإذا كانت القوَّة ضعيفةً ضعُف حملُها للبدنِ وكانت الآفاتُ إليه أسرع شيءٍ.

فاحملْ بنيانَك على قوَّة أساس الإيمان؛ فإذا تشعَّثَ شيءٌ من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهلَ عليك من خرابِ الأساس.

وهذا الأساس أمران: صحَّةُ المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته، والثاني: تجريدُ الانقياد له ولرسولِه دون ما سواه، فهذا أوثق أساسٍ أسَّس العبدُ عليه بنيانَه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء.

فأحْكِـم الأسـاسَ، واحفظ القوَّة، ودُمْ عـلى الحِمْية، واسـتفرغْ إذا زاد بك الخلط، والقصـدَ القصدَ وقد بلغتَ المراد، وإلَّا فما دامت القوَّةُ ضعيفةً والمادَّةُ الفاسـدة موجودةً والاستفراغُ معدومًا:

فـاقْـرَ الـسَّـلامَ على الحـيـاةِ فإنَّها قـد آذنـتْـك بـسـرعـةِ الـتَّـوْديـعِ(١)

فـإذا كمـلَ البناءُ؛ فبيِّضْه بحسـنِ الخلق والإحسـان إلى النَّاس، ثُمَّ حُطْهُ بسُـورٍ من الحـذر لا يقتحمه عدوٌّ ولا تبدو منه العورة، ثم أرْخِ السُّـتورَ عـلى أبوابه، ثم أَقْفِلِ البابَ الأعظم بالسَّـكوتِ عما تخشـى عاقبته، ثم رَكِّبْ له مفتاحًا من ذكر الله به تفتحه وتغلقه؛ فـإن فتحتَ فتحتَ بالمفتـاحِ، وإن أغلقتَ الباب أغلقتَه به، فتكون حينئذٍ قد بنيتَ حِصنًا تحصَّنتَ فيه من أعدائِك؛ إذا طاف به العدوُّ لم يجد منه مدخلًا، فييأس منك.

ثـمَّ تعاهـدْ بنـاءَ الحصن كلَّ وقت؛ فـإنَّ العـدو إذا لم يطمع في الدُّخـولِ من البابِ نَقَبَ عليك النُّقوبَ من بعيد بمعاول الذُّنوب، فإن أهملتَ أمرهُ وصل إليك النَّقبُ؛ فإذا العـدوُّ معك في داخل الحصن، فيصعُـب عليك إخراجه، وتكون معه على ثلاث خلال: إمَّا أن يغلبك على الحصن ويستوليَ عليه، وإمَّا أن يُساكنَك فيه، وإمَّا أن يَشغلك بمقابلتِه عن تمام مصلحتك وتعود إلى سَـدِّ النَّقب ولَمِّ شَـعَثِ الحصن، وإذا دخلَ نقبُه إليك نالك منه ثلاث آفات: إفسـادُ الحصـن، والإغارةُ على حواصلِه وذخائـرِه، ودلالة السُّرَّاق من بني جنسه على عورته، فلا يزال يُبلَى منه بغارة بعد غارة حتى يُضعِفوا قواه ويُوهِنوا عزمَه فيتخلَّى عن الحصن ويُخلِّي بينهم وبينه.

وهذه حالُ أكثر النُّفوس مع هذا العدوِّ، ولهذا تراهم يُسخِطون ربَّهم برضى أنفسهم بـل برضى مخلـوقٍ مثلهم لا يملك لهـم ضرًّا ولا نفعًا، ويُضيِّعون كسـبَ الدِّين بكسـبِ الأمـوال، ويُهلِكون أنفسَـهم بـما لا يبقى لهم، ويحرصـون على الدُّنيا وقـد أدبرت عنهم،

(١) لم أجده عند غير المصنف.

ويزهـدون في الآخرة وقد هَجَمتْ عليهم، ويُخالفون ربَّهم باتِّباع أهوائهم، ويتَّكلون على الحيـاة ولا يذكرون الموت، ويذكرون شـهواتهم وحظوظهم وينسـون ما عهد الله إليهم، ويهتمُّون بما ضَمِنَه الله لهم ولا يهتمُّون بما أمرهم به، ويَفرحون بالدُّنيا ويَحزنون على فواتِ حظهم منها ولا يَحزنون على فواتِ الجنَّة وما فيها، ولا يَفرحون بالإيمانِ فرحهم بالدِّرهم والدِّينار، ويُفسِدون حقَّهم بباطلهم وهداهم بضلالهم، ومعروفَهم بمنكرِهِم، ويَلبِسون إيمانَهـم بظنونهم، ويَخلِطُـون حلالَهم بحرامِهِم، ويـتردَّدون في حيرةِ آرائهـم وأفكارهم، ويتركون هدى الله الذي أهداه إليهم.

ومن العجب أنَّ هذا العدوَّ يَستعمل صاحبَ الحصن في هدم حصنه بيديه!!



فَصْلٌ

أركان الكفر أربعةٌ: الكِبْرُ، والحسدُ، والغضبُ، والشَّهوةُ؛ فالكبرُ يمنعه الانقيادَ، والحسدُ يمنعه قبولَ النصيحة وبذلها، والغضبُ يمنعه العدلَ، والشّهوةُ تمنعه التفرُّغَ للعبادةِ.

فإذا انهدمَ ركنُ الكبر سَهُلَ عليه الانقياد، وإذا انهدم ركنُ الحسد سهل عليه قبول النُّصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم رُكن الشَّهوة سهل عليه الصَّبرُ والعفافُ والعبادةُ.

وزوال الجبال عن أماكنِها أيسر من زوالِ هذه الأربعة عمَّن بُلِيَ بها، ولا سيَّما إذا صارت هيئاتٍ راسخةً وملكاتٍ وصفاتٍ ثابتةً، فإنَّه لا يَستقيم له معها عملٌ البتَّة، ولا تزكو نفسُه مع قيامها بها، وكلَّما اجتهدَ في العملِ أفسدته عليه هذه الأربعة، وكلّ الآفات متولِّدةٌ منها، وإذا استحكمتْ في القلبِ؛ أرتْه الباطلَ في صورةِ الحقِّ والحقَّ في صورةِ الباطل، والمعروفَ في صورةِ المنكرِ والمنكرَ في صورةِ المعروف، وقَرَّبتْ منه الدُّنيا وبعَّدتْ منه الآخرة.

وإذا تأمَّلتَ كفرَ الأمم رأيتَه ناشئًا منها، وعليها يقع العذابُ، وتكون خِفَّتُهُ وشدَّتُهُ بحسبِ خفَّتها وشدَّتها؛ فمَن فتحَها على نفسِه فتحَ عليه أبوابَ الشُّرور كلَّها عاجلًا وآجلًا، ومن أغلقَها على نفسِه أغلقَ عنه أبوابَ الشرور؛ فإنها تمنع الانقياد والإخلاص والتَّوبة والإنابة وقبول الحقّ ونصيحة المسلمين والتواضع لله ولخلقِه.

ومنشأ هذه الأربعة من جهلِه بربِّه وجهله بنفسِه؛ فإنه لو عرفَ ربَّه بصفاتِ الكمال ونعوت الجلال، وعرف نفسَه بالنقائصِ والآفاتِ؛ لم يتكبرْ ولم يغضبْ لها ولم يحسُدْ أحدًا على ما أتاه الله؛ فإنَّ الحسد في الحقيقةِ نوعٌ من معاداةِ الله؛ فإنَّه يكره نعمة الله على عبدِهِ

وقـد أحبها الله؛ ويحبّ زوالَها عنـه والله يكره ذلك؛ فهو مضادٌّ لله في قضائِه وقدرِه ومحبتِه وكراهتِه؛ ولذلك كان إبليس عدوَّه حقيقة؛ لأنَّ ذنبه كان عن كِبْر وحسد.

فقَلْعُ هاتين الصِّفتَين بمعرفةِ الله وتوحيده والرِّضى به وعنه والإنابة إليه.

وقَلْع الغضب بمعرفةِ النَّفس وأنَّها لا تَستحقُّ أن يغضب لها وينتقم لها؛ فإنَّ ذلك إيثارٌ لها بالرضى والغضب على خالقها وفاطرها، وأعظم ما تدفع به هذه الآفة أن يعوِّدَها أن تَغضَب له سُبْحَانَهُ وترضى له؛ فكلَّما دخلها شيءٌ من الغضب والرضى له خرجَ منها مقابله من الغضبِ والرِّضى لها، وكذا بالعكس.

أمَّا الشَّهوةُ فدواؤها صحَّة العلم والمعرفة بأنَّ إعطاءها شهواتها أعظمُ أسباب حرمانها إيَّاها ومنعها منها، وحِمْيتها أعظم أسباب اتِّصالها إليها؛ فكلَّما فتحتَ عليها بابَ الشهوات كنتَ ساعيًا في حرمانها إيَّاها، وكلَّما أغلقتَ عنها ذلك الباب كنتَ ساعيًا في إيصالها إليها على أكمل الوجوه.

فالغضب مثل السَّبُع؛ إذا أفلتَه صاحبُه بدأ بأكلهَ، والشَّهوة مثل النَّار، إذا أضرمها صاحبها بدأتْ بإحراقه، والكِبْر بمنزلة منازعة الملك ملكه؛ فإن لم يُهلِكْك طردَك عنه، والحسد بمنزلةِ معاداة مَن هو أقدر منك.

والذي يَغلِبُ شهوتَه وغضبَه يَفْرَقُ الشَّيطانُ من ظِلِّه، ومن تَغلِبه شهوتُه وغضبُه يَفرَقُ من خياله.

❁ ❁ ❁

فَصْلٌ

عظيم النفع

الجُهَّالُ بالله وأسمائِه وصفاتِه، المعطِّلون لحقائقها؛ يُبغِّضون اللهَ إلى خلقِه، ويقطعون عليهم طريقَ محبَّته والتَّودُّدِ إليه بطاعتِه من حيث لا يعلمون.

ونحن نذكر من ذلك أمثلةً تَحتذي عليها:

فمنها: أنَّهم يُقرِّرون في نفوس الضُّعفاء أنَّ الله سُبْحَانَهُ لا تَنفع معه طاعةٌ وإن طالَ زمانها وبالغَ العبدُ وأتى بها بظاهرِه وباطنِه، وأنَّ العبد ليسَ على ثقةٍ ولا أمنٍ مِن مَكره، بل شأنه سُبْحَانَهُ أن يأخذ المطيع المتَّقيَ من المحرابِ إلى الماخورِ، ومن التَّوحيد والمسبحة إلى الشِّركِ والمزمارِ، ويقلِّب قلبه من الإيمانِ الخالص إلى الكفرِ.

ويروون في ذلك آثارًا صحيحة لم يفهموها، وباطلةً لم يَقُلْها المعصوم، ويزعمون أنَّ هذا حقيقة التَّوحيد، ويتلون على ذلك قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ويُقيمون إبليسَ حجَّةً لهم على هذه المعرفة، وأنَّه كان طاووس الملائكة، وأنَّه لم يتركْ في السَّماءِ رقعة ولا في الأرضِ بقعة إلَّا وله فيها سجدة أو ركعة، لكن جَنَى عليه جاني القدر وسَطَا عليه الحكم، فقلبَ عينَه الطيبة وجعلها أخبثَ شيء، حتى قال بعض عارفيهم: إنَّك ينبغي أن تخاف الله كما تخاف الأسدَ الذي يَثِبُ عليك بغير جُرمٍ منك ولا ذنبٍ أتيتَه إليه!! ويَحتجُّون بقول النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أحدَكم ليعملُ بعَمَلِ أهْلِ الجنَّة حتَّى ما يَكُونُ بينَه وبينَها إلَّا ذراعٌ، فيَسبِقُ عليه الكِتابُ، فيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار، فَيَدْخُلُهَا**»(١)، ويروون عن بعض

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤)، ومسلم برقم (١-٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السَّلف: أكبر الكبائر: الأمن من مكر الله، والقنوطُ من رحمةِ الله[1]، وذكرَ الإمام أحمدُ عن عون بن عبد الله أو غيره؛ أنَّه سمعَ رجلًا يدعو: اللهمَّ! لا تُؤمِّني مكرَك! فأنكر ذلك وقال: قُلْ: اللَّهم! لا تجعلني ممَّن يأمن مكرَك[2].

وبنَوا هذا على أصلهم الباطل، وهو إنكارُ الحكمة والتَّعليل والأسباب، وأنَّ الله لا يفعل لحكمةٍ ولا بسبب، وإنَّما يفعل بمشيئةٍ مجرَّدةٍ من الحكمةِ والتَّعليلِ والسَّببِ؛ فلا يفعل لشيءٍ ولا بشيءٍ، وأنَّه يجوز عليه أن يعذِّبَ أهلَ طاعته أشدَّ العذاب، ويُنعِّم أعداءه وأهل معصيته بجزيلِ الثَّواب، وأنَّ الأمرين بالنِّسبة إليه سواءٌ، ولا يُعلَم امتناعُ ذلك إلَّا بخبرٍ من الصَّادقِ أنَّه لا يفعله، فحينئذٍ يُعلَم امتناعُهُ؛ لوقوعِ الخبر بأنَّه لا يكون، لا لأنَّه في نفسِه باطلٌ وظلمٌ؛ فإنَّ الظُّلم في نفسِه مستحيلٌ؛ فإنَّه غير ممكن، بل هو بمنزلةِ جعل الجسم الواحد في مكانين في آنٍ واحدٍ، والجمع بين الليل والنَّهار في ساعةٍ واحدةٍ، وجعل الشَّيء موجودًا ومعدومًا معًا في آنٍ واحدٍ؛ فهذا حقيقةُ الظُّلم عندهم.

فإذا رجعَ العامل إلى نفسِه قال: مَن لا يَستقرُّ له أمرٌ، ولا يُؤمَن له مكرٌ، كيف يوثَق بالتَّقرُّبِ إليه؟! وكيف يُعوَّلُ على طاعتِه واتِّباع أوامره؟! وليس لنا سوى هذه المدَّة اليسيرة؛ فإذا هجرنا فيها اللَّذَّات، وتركنا الشَّهوات، وتكلَّفنا أثقال العبادات، وكُنَّا مع

---

(١) روي من قول عبد الله بن مسعود وابن عبَّاس وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أمَّا عن ابن مسعود فقد أخرجه معمر في «جامعه» (١٩٧٠١ - مصنف عبد الرزاق)، والطبراني في «معجمه» برقم (٨٦٩٥)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٦٤٨-٦٥٠).

وأما عن ابن عبَّاس فقد أخرجه النحَّاس في «معاني القرآن» (٦/ ٣٢٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٠٢٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٤٦١).

وأما عن عليٍّ فقد أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٤/ ٣٦٧).

(٢) روى أحمد في «الزهد» (ص: ١٩٥ شاهين)، قال حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، عَنْ إِسْحَاقَ، عَنْ مُطَرِّفٍ أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ لَا تُنْسِنِي ذِكْرَكَ، وَلَا تُؤَمِّنِّي مَكْرَكَ». وَلَكِنْ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا تُنْسِنِي ذِكْرَكَ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ آمَنَ مَكْرَكَ حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ تُؤَمِّنِّي».

ذلك على غير ثقةٍ منه، أن يقلب علينا الإيمان كفرًا والتَّوحيد شركًا والطاعة معصيةً والبِرَّ فجورًا ويُديم علينا العقوبات؛ كنا خاسرين في الدنيا والآخرة!!

فإذا استحكم هذا الاعتقاد في قلوبهم وتخمَّر في نفوسهم؛ صاروا إذا أُمِروا بالطَّاعاتِ وهَجْر اللَّذَّات بمنزلةِ إنسان جعلَ يقولُ لولدهِ: معلمُك إن كتبتَ وأحسنتَ وتأدَّبتَ ولم تَعصهْ ربّما أقامَ لك حجَّةً وعاقبك، وإن كسلتَ وبطلتَ وتعطَّلتَ وتركتَ ما أمرك به ربَّما قرَّبك وأكرمك! فيُودِعُ بهذا القول قلبَ الصَّبي ما لا يثق بعده إلى وعيدِ المعلِّم على الإساءةِ ولا وعدِه على الإحسانِ! وإن كَبُرَ الصَّبيُّ وصلح للمعاملاتِ والمناصبِ قال له: هذا سلطان بلدنا؛ يأخذُ اللِّصَّ من الحبسِ فيجعله وزيرًا أميرًا، ويأخذ الكيِّسَ المحسن لشغلِه فيُخلِّدُهُ الحبسَ ويقتله ويصلبه! فإذا قال له ذلك أوحشه من سلطانه، وجعله على غير ثقَة من وعدِه ووعيدِه، وأزال محبتّه من قلبِه، وجعله يخافه مخافةَ الظَّالم الذي يأخذ المحسنَ بالعقوبةِ والبريء بالعذابِ، فأفلسَ هذا المسكينُ من اعتقادِ كون الأعمال نافعة أو ضارَّة؛ فلا بفعل الخير يستأنس ولا بفعلِ الشَّرّ يستوحش.

وهل في التَّنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا؟!

ولو اجتهد الملاحدة على تبغيضِ الدِّين والتَّنفير عن الله لما أَتوا بأكثر من هذا؟!

وصاحب هذه الطَّريقة يظنّ أنَّه يُقرِّر التَّوحيدَ والقَدر ويردُّ على أهلِ البدع وينصر الدِّين، ولعَمْر اللهِ العدوُّ العاقلُ أقلُّ ضررًا من الصَّديق الجاهل.

وكتبُ الله المنزلة كلُّها ورسلُه كلُّهم شاهدةٌ بضدِّ ذلك، ولا سيَّما القرآن؛ فلو سَلَكَ الدعاة المسلكَ الذي دعا الله ورسوله به النَّاسَ إليه لصلحَ العالمُ صلاحًا لا فساد معه.

فالله سُبْحَانَهُ أخبرَ وهو الصادقُ الوفيُّ أنَّه إنَّما يُعامل النَّاسَ بكسبِهم، ويُجازيهم بأعمالِهم، ولا يَخاف المحسنُ لديه ظلمًا ولا هَضْمًا، ولا يخاف بخسًا ولا رَهَقًا،

ولا يُضيِّع عملَ محسن أبدًا، ولا يُضيِّع على العبدِ مثقالَ ذرةٍ ولا يظلمها ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وإن كان مثقالَ حبَّةٍ مِن خَردلٍ جازاه بها ولا يُضيِّعها عليه، وأنَّه يجزي بالسَّيئةِ مثلها ويُحبِطها بالتَّوبةِ والنَّدمِ والاستغفارِ والحسناتِ والمصائبِ، ويَجْزي بالحسنةِ عشرَ أمثالها ويُضاعفها إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وهو الَّذي أصلح الفاسدين، وأقبلَ بقلوبِ المعرضين، وتابَ على المذنبين، وهَدى الضَّالين، وأنقذَ الهالكين، وعلَّم الجاهلين، وبصَّر المتحيرين، وذكَّر الغافلين، وآوى الشَّاردين، وإذا أوقع عقابًا أوقعه بعد شدَّة التَّمرُّد والعتوّ عليه ودعوة العبد إلى الرُّجوعِ إليه والإقرار بربوبيَّته وحقِّه مرَّة بعد مرَّة، حتى إذا أَيِسَ من استجابتِه والإقرار بربوبيَّته ووحدانيَّته؛ أخذه ببعض كفره وعتوِّه وتمرُّده؛ بحيث يَعذِرُ العبدُ من نفسِه ويعترف بأنَّه سُبۡحَانَهُ لم يظلمهْ وأنَّه هو الظَّالم لنفسِه.

كما قال تَعَالَىٰ عن أهلِ النَّار: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

وقال عمَّن أهلكهم في الدُّنيا: إنَّهم لما رأوا آياته وأحسُّوا حصيدًا بعذابِه قالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤-١٥].

وقال أصحابُ الجنَّة التي أفسدها عليهم لـمَّا رأوها قالوا: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩].

قال الحسن[١]: لقد دخلوا النَّار وإنَّ حمدهُ لفي قلوبهم، ما وجدوا عليه حجَّةً ولا سبيلا[٢].

---

(١) هو: الإمام أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، وهو ثقة حجَّة، إلَّا فيما دلَّس فيه فليس بحجَّة، توفي سنة (١١٠هـ)، انظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ٥٧).

(٢) انظر: «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٤٩٧).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]؛ فهذه الجُملة في موضعِ الحال؛ أي قُطِع دابرهم حالَ كونه سُبْحَانَهُ محمودًا على ذلك، فقُطِعَ دابرُهم قطعًا مصاحبًا لحمدِه، فهو قطعٌ وإهلاكٌ يُحمَد عليه الرَّبُّ تعالى لكمالِ حكمتهِ وعدلهِ ووَضْعِه العقوبةَ في موضعها الَّذي لا يليق به غيرها، فوضعها في الموضعِ الذي يقول من علمِ الحال: لا تليق العقوبة إلَّا بهذا المحلِّ، ولا يليق به إلَّا العقوبة.

ولهذا قال عقيب إخباره عن الحكم بين عباده ومصير أهل السَّعادة إلى الجنَّةِ وأهل الشَّقاء إلى النَّار: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، فحذفَ فاعل القول إشعارًا بالعمومِ وأنَّ الكون كلَّه قال: الحمد لله رب العالمين، لما شاهدوا من حكمةِ الحقِّ وعدلِه وفضلِه، ولهذا قال في حقِّ أهل النار: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢]، كأنَّ الكون كلَّه يقول ذلك، حتى تقولُه أعضاؤهم وأرواحهم وأرضهم وسماؤُهم.

وهو سُبْحَانَهُ يخبر أنَّه إذا أهلك أعداءه أنجى أولياءه، ولا يَعمُّهم بالهلاكِ بمحضِ المشيئة.

ولما سأله نوح نجاةَ ابنه أخبر أنَّه يُغرِقه بسوء عمله وكفرِه، ولم يقل: إنِّي أُغرِقه بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سببٍ ولا ذنبٍ(١).

وقد ضَمِنَ سُبْحَانَهُ زيادةَ الهداية للمجاهدين في سبيلِه ولم يُخبر أنَّه يُضِلّهم ويُبطِل سعيَهم، وكذلك ضَمِنَ زيادة الهداية للمتَّقين الَّذين يتَّبعون رضوانَه، وأخبر أنَّه لا يُضِلُّ إلَّا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه، وأنَّه إنَّما يُضِلُّ من آثر الضَّلال واختاره على الهدى، فيطبع حينئذٍ على سمعِه وقلبِه، وأنَّه يُقلِّبُ قلبَ من لم يرضَ بهداه إذا جاءه

---

(١) يشير إلى قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

ولم يؤمـنْ به ودفعه وردَّه، فيقلبُ فـؤادَه وبصرَه عقوبةً له على ردِّه ودفعِه لما تحقَّقه وعَرفه وأنَّـه سُبْحَانَهُ لـو عَلِمَ في تلك المحـالِّ التي حكم عليها بالضَّلالِ والشَّـقاءِ خـيرًا لأفهمَها وهداهـا، ولكنَّهـا لا تَصلُـح لنعمته ولا تليق بهـا كرامته؛ وقـد أزاح سُبْحَانَهُ العللَ وأقام الحجـجَ ومَكَّن من أسبابِ الهداية، وأنَّه لا يُضِلُّ إلَّا الفاسـقين والظَّالمين، ولا يطبع إلَّا عـلى قلوبِ المعتدين، ولا يُركِـسُ في الفتنةِ إلَّا المنافقين بكسـبهم، وأن الرَّيْنَ الَّذي غطَّى بـه قلوبَ الكفَّار هو عين كسـبهم وأعمالهم؛ كما قـال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقـال عن أعدائِه من اليهودِ: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وأخـبرَ أنَّـه لا يُضِلُّ من هداه حتَّى يُبيِّن له ما يتقِّي، فيختار لشـقوتِه وسـوء طبيعتـه الضَّـلالَ على الهـدى والغيَّ على الرَّشـاد ويكون مع نفسِـه وشـيطانِه وعدوِّ ربِّه عليه.

وأمَّـا المكـر الذي وصفَ به نفسَـه فهـو مجازاتُهُ للماكريـن بأوليائِه ورسـلِه، فيقابل مكرهـم السّيئَ بمكره الحسـن، فيكون المكر منهـم أقبحَ شيءٍ، ومنه أحسـن شيءٍ؛ لأنَّه عـدلٌ ومجازاةٌ، وكذلـك المخادعة منه جزاءٌ على مخادعةِ رسـلِه وأوليائِه، فلا أحسـنَ من تلك المخادعة والمكر.

وأمَّـا كـون الرَّجل «**يعمل بعملِ أهـل الجنَّة حتى ما يكون بينـه وبينها إلَّا ذراعٌ فيَسبِقُ عليه الكتاب**»؛ فإنَّ هذا عمل أهل الجنَّة فيما يظهر للنَّاس، ولو كان عملًا صالحًا مقبولًا للجنَّةِ قد أحبَّه الله ورضيه لم يُبطِله عليه.

وقولـه: «**لم يبـقَ بينه وبينها إلَّا ذراعٌ**» يُشـكِل عـلى هذا التَّأويل، فيقـال: لما كان العمـل بآخـرِه وخاتمتِه؛ لم يصبر هذا العامل على عملـه حتَّى يتمَّ له، بل كان فيه آفةٌ كامنةٌ ونكتةٌ خُذِلَ بها في آخر عمره، فخانتْه تلك الآفةُ والدَّاهيةُ الباطنة في وقتِ الحاجةِ، فرجع

إلى مُوجبها، وعملتْ عملها، ولو لم يكن هناك غشٌّ وآفةٌ لم يقلِّبْ الله إيمانه لقد أورده[١] مع صدقِه فيه وإخلاصِه بغير سببٍ منه يقتضي إفسادَه عليه، والله يعلم من سائرِ[٢] العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض.

وأمَّا شأنُ إبليس فإنَّ الله سُبْحَانَهُ قال للملائكةِ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠]؛ فالرّبُّ تَعَالَىٰ كان يعلم ما في قلب إبليس مِن الكُفر والكِبْر والحَسد ما لا تعلمه الملائكة، فلمَّا أُمِروا بالسّجودِ ظهرَ ما في قلوبهِم مِن الطَّاعةِ والمحبّةِ والخشيةِ والانقيادِ فبادروا إلى الامتثالِ، وظهرَ ما في قلبِّ عدوِّه من الكِبْر والغشِّ والحسد، فـ ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٣٤].

وأمَّا خوفُ أوليائِه من مكرهِ فحقٌّ، فإنَّهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهِم وخطاياهم فيصيرون إلى الشَّقاءِ، فخوفهم من ذنوبهِم، ورجاؤهم لرحمته.

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]، إنَّما هو في حقِّ الفجَّار والكفَّار، ومعنى الآية: فلا يَعصِي ويأمنُ مُقابلةَ الله له على مكرِ السّيئات بمكرِه به ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

والذي يخافه العارفون باللهِ مِن مكرِه:

أن يؤخّر عنهم عذاب الأفعال، فيحصل منهم نوع اغترارٍ، فيأنسوا بالذُّنوب، فيجيئهم العذابُ على غِرَّةٍ وفترة.

وأمرٌ آخر: وهو أن يغفلوا عنه ويَنسَوا ذكره، فيتخلَّى عنهم إذا تخلَّوا عن ذكرهِ وطاعتِه، فيُسرِعُ إليهم البلاءُ والفتنة، فيكون مَكْرُهُ بهم تخلّيه عنهم.

---

(١) هكذا في الأصل، وذكر محقّق طبعة (المجمع) أنَّ فيها تحريفًا، وأنَّ الصَّحيح: (كفرًا وردةً)، وهو محتمل.

(٢) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (سرائر).

وأمرٌ آخرُ: أن يعلم من ذنوبهِم وعيوبهِم ما لا يعلمونه من نفوسـهِم، فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون.

وأمرٌ آخرُ: أن يمتحنَهم ويبتليَهم بما لا صبر لهم عليه، فيُفتنون به، وذلك مكرٌ.



فَصْل

❁ السَّنَةُ شجرةٌ، والشُّهور فروعُها، والأيام أغصانها، والسَّاعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمن كانتْ أنفاسه في طاعته فثمرة شجرته طيِّبةٌ، ومن كانتْ في معصيةٍ فثمرته حنظلٌ، وإنَّما يكون الجَدَادُ يوم المعاد؛ فعند الجَدَاد يتبيّنُ حلوُ الثِّمار من مُرّها.

❁ والإخلاصُ والتَّوحيدُ شجرةٌ في القلبِ؛ فروعها الأعمال، وثمرها طيب الحياة في الدُّنيا والنَّعيم المقيم في الآخرةِ، وكما أنَّ ثمار الجنَّة لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ، فثمرة التَّوحيد والإخلاص في الدُّنيا كذلك.

❁ والشِّركُ والكذبُ والرِّياءُ شجرةٌ في القلبِ؛ ثمرها في الدُّنيا الخوفُ والهَمُّ والغمُّ وضيق الصدر وظلمةُ القلب؛ وثمرها في الآخرة الزقُّوم والعذابُ المقيم.

وقد ذكر الله هاتين الشَّجرتين في سورةِ إبراهيم(١).



(١) قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

فصل

إذا بلغَ العبدُ أُعطيَ عهدَه الذي عَهِدَه إليه خالقه ومالكه.

فإذا أخذَ عهدَه بقوَّةٍ وقبولٍ وعزمٍ على تنفيذِ ما فيه؛ صَلُحَ للمراتبِ والمناصبِ التي يصلُح لها الـمُوفونَ بعهودِهم.

فإذا هزَّ نفسَه عندَ أخذِ العهدِ وانتخاها وقال: قد أُهِّلتُ لعهدِ ربِّي؛ فمنْ أولى بقبولِه وفَهمِه وتنفيذِه مني؟! فَحَرصَ أوَّلًا على فَهمِ عهدِه وتدبُّرِه وتعرفه وصايا سيِّده له، ثم وطَّنَ نفسَه على امتثالِ ما في عهدِه والعمل به وتنفيذه حسبما تضمَّنه عهده، فأبصرَ بقلبِه حقيقةَ العهد وما تضمَّنَه، فاستحدثَ همَّة أخرى وعزيمةً غير العزيمة الَّتي كانَ فيها وقت الصِّبا قبل وصول العهد، فاستقالَ من ظلمةِ غِرَّةِ الصِّبا والانقياد للعادة والمنشإ، وصبرَ على شرفِ الهمَّة، وهتكَ سترَ الظُّلمةِ إلى نورِ اليقين، فأدركَ بقدرِ صبره وصدق اجتهاده ما وهبه الله له من فضله. فأوَّلُ مراتب سعادته أن تكون له أذنٌ واعيةٌ وقلبٌ يَعقِلُ ما تَعِيْه الأذُن.

فإذا سمع، وعقلَ، واستبانتْ له الجادَّة، ورأى عليها تلك الأعلامَ، ورأى أكثر النَّاس منحرفين عنها يمينًا وشمالًا، فلزمها، ولم ينحرفْ مع المنحرفين، الذين كان سببُ انحرافهم عدمَ قبول العهد، أو قبلوه بكُرهٍ ولم يأخذوه بقوَّةٍ ولا عزيمةٍ ولا حدَّثوا أنفسَهم بفهمِهِ وتدبّرِهِ والعمل بما فيه وتنفيذ وصاياه، بل عُرِضَ عليهم العهدُ ومعهم ضَراوة الصِّبا ودين العادة وما ألِفوا عليه الآباء والأمَّهات، فتلقَّوا العهدَ تلقِّيَ من هو مكتفٍ بما وجدَ عليه آباءَه وسلفه وعادتهم، لا تلقّيَ من يجمع همَّه وقلبه على فهمِ العهد والعمل به، حتَّى كأنَّ ذلك العهد أتاه وحده وقيل له: تأمَّلْ ما فيه ثمَّ اعملْ بموجبِه! فإذا لم يتلقَّ عهدَه هذا التّلقيَ أخلَدَ إلى سيرةِ القرابة وما استمرت عليه عادة أهله وأصحابه وجيرانه

وأهـل بلده! فإن عَلَتْ همَّته أخلد إلى ما عليه سـلفه ومن تقدَّمـه من غير التفاتٍ إلى تدبُّرِ العهد وفهمه، فرضيَ لنفسـهِ أن يكون دينه دينَ العادة! فإذا شـامَه الشَّـيطان، ورأى هذا مبلـغَ همَّتـه وعزيمته؛ رماه بالعصبيَّـةِ والحميَّةِ للآباءِ وسـلفه، وزيَّن لـه أنَّ هذا هو الحقّ ومـا خالفـه باطلٌ، ومثَّل له الهـدى في صورةِ الضَّـلال والضَّلالَ في صـورةِ الهدى بتلكَ العصبيَّـة والحميَّـة الَّتي أُسِّسـتْ على غـير علم، فرِضـاه أن يكون مع عشـيرته وقومه له ما لهم وعليه ما عليهم، فخُذِل عن الهدى، وولَّاه الله ما تولَّى؛ فلو جاءَه كلُّ هدى يخالف قومَه وعشيرته لم يَره إلَّا ضلالة.

وإذا كانـت همَّتـهُ أعلى من ذلك ونفسـه أشرفَ وقدره أعلى أقبلَ عـلى حفظِ عهده وفهمـه وتدبُّره، وعلم أنَّ لصاحب العهد شـأنًا ليس كشـأن غيره، فأخذَ نفسـه بمعرفتِه من نفسِ العهد، فوجدَه قد تعرَّف إليه وعرَّفه نفسَـه وصفاتِه وأسماءه وأفعاله وأحكامه، فعـرف مـن ذلك العهد: قيُّومًا بنفسـهِ مقيـمًا لغيره، غنيًّا عن كلِّ ما سـواه وكلُّ ما سـواه فقـيرٌ إليه، مستوٍ على عرشـهِ فوق جميع خلقه، يرى ويسـمع، ويـرضى ويغضب، ويحبُّ ويبغضُ، ويدبِّر أمر مملكته وهو فوق عرشه متكلِّمٌ آمرٌ ناهٍ، يُرسل رسله إلى أقطارِ مملكتِه بكلامِه الذي يُسـمِعه من يشـاء من خلقه، وأنَّه قائمٌ بالقسـطِ مُجازٍ بالإحسان والإساءة، وأنَّه حليمٌ غفورٌ شـكورٌ جوادٌ محسـنٌ، موصوفٌ بكلِّ كمال، منزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، وأنَّه لا مِثلَ له، ويشهدُ حكمته في تدبيرِ مملكته، وكيف يقدِّر مقاديره بمشيئةٍ غير مضادَّةٍ لعدلـهِ وحكمتهِ، وتظاهر عنده العقل والشَّرع والفطرة فصدَّق كلٌّ منهما صاحبيه، وفَهِمَ عن الله سُبْحَانَهُ ما وصفَ به نفسه في كتابِه من حقائقِ أسمائه التي بها نزل الكتاب وبها نطقَ ولها أثبتَ وحقَّقَ وبها تعرَّفَ إلى عبادهِ حتى أقرَّتْ به العقولُ وشهدتْ به الفِطرُ.

فـإذا عرفَ بقلبهِ وتيقَّنَ صفاتِ صاحب العهـد أشرقَتْ أنوارها على قلبِه فصارتْ كالمعاينة له:

فرأى حينئذٍ تعلُّقَها بالخلقِ والأمرِ وارتباطهما بها وسريانَ آثارهما في العالم الحسي والعالم الروحي.

ورأى تصرُّفها في الخلائقِ؛ كيف عمَّتْ وخصَّتْ وقرَّبتْ وأبعدتْ وأعطتْ ومنعتْ، فشاهد بقلبهِ مواقع عدله سُبْحَانَهُ وقسطه وفضله ورحمته، واجتمع له الإيمان بلزوم حجَّته مع نفوذ أقضيته، وكمال قدرته مع كمال عدله وحكمته، ونهاية علوِّه على جميع خلقه مع إحاطته ومعيَّته، وعظمته وجلاله وكبريائه وبطشه وانتقامه مع رحمته وبرِّه ولطفه وجُودِه وعفوه وحلمه.

ورأى لزومَ الحجَّة مع قهر المقادير الَّتي لا خروجَ لمخلوقٍ عنها، وكيف اصطحاب الصِّفات وتوافقُها وشهادة بعضها لبعضٍ، وانعطاف الحكمة التي هي نهايةٌ وغايةٌ على المقاديرِ التي هي أوَّلٌ وبدايةٌ، ورجوع فروعها إلى أصولها ومبادئها إلى غاياتها، حتى كأنَّه يشاهد مبادئَ الحكمة وتأسيس القضايا على وفقِ الحكمة والعدل والمصلحة والرَّحمة والإحسان، لا تَخرجُ قضيَّة عن ذلك إلى انقضاءِ الأكوان وانفصال الأحكام يوم الفصل بين العباد، وظهور عدله وحكمته وصدق رسله وما أخبرت به عنه لجميعِ الخليقة؛ إنسِها وجنِّها مؤمنها وكافرها، وحينئذٍ يتبيَّنُ من صفاتِ جلالهِ ونعوت كماله للخلق ما لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك، حتَّى إنَّ أعرفَ خلقه بِه في الدُّنيا يُثني عليه يومئذٍ من صفاتِ كمالِه ونعوتِ جلاله ما لم يكن يُحسِنه في الدُّنيا، وكما يظهر ذلك لخلقِه تظهر لهم الأسباب التي بها زاغ الزائغون وضلَّ الضَّالون وانقطع المنقطعون، فيكون الفرق بين العلم يومئذٍ بحقائقِ الأسماء والصفات والعلم بها في الدنيا، كالفرق بين العلم بالجنَّةِ والنَّارِ ومشاهدتهما وأعظم من ذلك.

وكذلك يُفهمُ من العهدِ: كيف اقتضتْ أسماؤه وصفاته لوجودِ النُّبوَّةِ والشَّرائعِ وأنْ لا يَترك خلقه سُدًى، وكيف اقتضتْ ما تضمَّنتْه من الأوامرِ والنَّواهي، وكيف

اقتضتْ وقوعَ الثَّواب والعقاب والمعاد، وأنَّ ذلك من موجباتِ أسمائِه وصفاتِه؛ بحيث يُنزَّهُ عما زعم أعداؤُهُ من إنكارِ ذلك.

ويرى شمولَ القدرة وإحاطتها بجميعِ الكائنات حتى لا يَشِذَّ عنها مثقال ذرَّةٍ، ويرى أنَّه لو كان معه إلهٌ آخرُ لفسدَ هذا العالم، فكانت تفسد السَّموات والأرض ومن فيهن، وأنَّه سُبْحَانَهُ لو جازَ عليه النَّوم أو الموت لتدكدكَ هذا العالم بأسْرِه ولم يثبتْ طرفةَ عين.

ويرى مع ذلك الإسلام والإيمان اللَّذين تعبَّد الله بهما جميعَ عباده؛ كيف انبعاثهما من الصِّفاتِ المقدَّسة، وكيف اقتضيا الثَّوابَ والعقاب عاجلًا وآجلًا.

ويرى مع ذلك أنَّه لا يستقيم قبولُ هذا العهد والتزامُه لمن جحدَ صفاتِه وأنكر علوَّه على خلقِه وتكلُّمه بكتبِه وعهودِه؛ كما لا يستقيم قبوله لمن أنكر حقيقةَ سمعه وبصره وحياته وإرادته وقدرته، وأنَّ هؤلاء هم الَّذين ردُّوا عهدَه وأبَوا قبولَه، وأنَّ من قبله منهم لم يقبله بجميع ما فيه.

وبالله التوفيق.



فصل

خُلِقَ بدنُ ابنِ آدمَ من الأرضِ وروحُه من ملكوتِ السماء، وقَرَنَ بينهما:

فإذا أجاعَ بدنَه وأسهرَه وأقامَه في الخدمةِ وجدتْ روحُه خِفَّةً وراحةً، فتاقتْ إلى الموضعِ الذي خُلقتْ منه، واشتاقتْ إلى عالمها العلويِّ.

وإذا أشبَعه ونعَّمه ونوَّمه واشتغلَ بخدمتِه وراحتِه أخلدَ البدنُ إلى الموضعِ الَّذي خُلِقَ منه، فانجذبتْ الرُّوحُ معه، فصارتْ في السِّجن؛ فلولا أنَّها أَلِفتْ السِّجنَ لاستغاثتْ من ألمِ مفارقتِها وانقطاعِها عن عالمها الذي خُلِقتْ منه كما يستغيثُ المعذَّبُ.

وبالجملةِ فكلَّما خفَّ البدنُ لطُفَتِ الرُّوحُ وخفَّتْ وطلبتْ عالمها العلويَّ، وكلَّما ثَقُلَ وأخلدَ إلى الشَّهواتِ والرَّاحةِ ثقلتِ الرُّوحُ وهبطتْ من عالمها وصارتْ أرضيّةً سُفليّةً.

فترى الرّجلَ روحُه في الرّفيقِ الأعلى وبدنُه عندك، فيكون نائمًا على فراشِه وروحُه عندَ سدرةِ المنتهى تجولُ حولَ العرش.

وآخرُ واقفٌ في الخدمةِ ببدنِه وروحُه في السُّفلِ تجولُ حولَ السُّفلِيَّاتِ.

فإذا فارقت الروحُ البدنَ التحقت برفيقِها الأعلى أو الأدنى؛ فعند الرَّفيقِ الأعلى كلُّ قُرَّةِ عينٍ وكلُّ نعيمٍ وسرورٍ وبهجةٍ ولذَّةٍ وحياةٍ طيِّبةٍ، وعندَ الرَّفيقِ الأسفلِ كلُّ همٍّ وغمٍّ وضيقٍ وحزنٍ وحياةٍ نَكِدَةٍ ومعيشةٍ ضَنْكٍ.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً﴾ [طه: ١٢٤]؛ فذِكْرُه: كلامُه الَّذي أنزلَه على رسوله، والإعراضُ عنه: تركُ تدبُّره والعملُ به، **والمعيشةُ الضَّنك:**

فأكثرُ ما جاءَ في التَّفسير أنَّها عذابُ القبر، قاله ابن مسعود[١]، وأبو هريرة[٢]، وأبو سعيد الخدري[٣]، وابن عبَّاس[٤]، وفيه حديث مرفوع[٥].

وأصلُ **الضَّنكِ في اللُّغة**: الضِّيقُ والشِّدةُ، وكلُّ ما ضاقَ فهو ضَنْكٌ، يُقال: منزِلٌ ضَنكٌ وعيشٌ ضنك[٦]، فهذه المعيشةُ الضَّنكُ في مقابلةِ التَّوسيع على النَّفسِ والبدنِ بالشَّهواتِ واللَّذَّاتِ والرَّاحةِ، فإنَّ النَّفسَ كلَّما وسَّعتَ عليها ضيَّقتَ على القلبِ حتى

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ١٩٨)، وهنَّاد في «الزهد» (١/ ٢١٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٦٠٠ ابن القيم)، والطبراني في «الكبير» (٩١٤٣)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (ص٦٠ الفرقان)، وعبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٥/ ٦٠٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره»، (١٦/ ١٩٧) وهناد في «الزهد» (١/ ٢١٤).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٣٨٠)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ١٩٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٨٣٧)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (ص٦٠).

(٤) الذي ورد عن ابن عبَّاس بأنه (الشَّقاء) كما أخرج ذلك ابن أبي حاتم في «تفسيره» برقم (١٤٤٣١)، وأخرج أيضًا برقم (١٤٤٣٢) بأنه «بشدَّة عليه في النَّار»، وأخرج أيضًا برقم (١٤٤٣٣) بأنه: «**كلُّ مالٍ أعطيته عبدًا من عبادي قلَّ أو كثر لا يطيعني فيه، فلا خير، وهو الضَّنك في المعيشة**».

(٥) أخرجه ابن حبَّان في «صحيحه» برقم (٣١١٩)، والحاكم في «المستدرك» برقم (١٤٠٥)، من طريق حماد بن سلمة عن محمَّد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] قال: «**عذاب القبر**».

وحسَّنه الشيخ الألباني في «التَّعليقات الحسان» (٥/ ١٠١)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٢١٧).

وأخرج أيضًا برقم (٣١٢٢) من حديث عمرو بن الحارث أن أبا السمح حدثه عن ابن حجيرة: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ المُؤمِنَ في قَبْرِهِ لَفِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَيُرْحَبُ لَهُ قَبْرُهُ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ أَتَدْرُونَ فِيمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، أَتَدْرُونَ مَا الْمَعِيشَةُ الضَّنْكَةُ؟** قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**عَذَابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّينًا، أَتَدْرُونَ مَا التِّنِّينُ؟ سَبْعُونَ حَيَّةً، لِكُلِّ حَيَّةٍ سَبْعُ رُءُوسٍ يِلْسَعُونَهُ، وَيَخْدِشُونَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**».

وحسَّنه الشيخ الألباني في «التَّعليقات الحسان» (٥/ ١٠٣).

(٦) ينظر: «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٣٧٤)، و«لسان العرب» (١٠/ ٤٦٢).

تصيرَ معيشةً ضنكًا، وكلَّما ضيَّقتَ عليها وسَّعت على القلبِ حتى ينشرحَ وينفسحَ؛ فضنكُ المعيشةِ في الدُّنيا بموجب التَّقوى سعتُها في البرزخِ والآخرة، وسعةُ المعيشةِ في الدُّنيا بحكمِ الهوى ضنكُها في البرزخِ والآخرةِ.

فآثِرْ أحسنَ المعيشتَينِ وأطيبَهما وأدومَهما، وأشْقِ البدنَ بنعيمِ الروحِ، ولا تُشْقِ الروحَ بنعيمِ البدن، فإنَّ نعيمَ الرُّوحِ وشقاءَها أعظمُ وأدومُ، ونعيمُ البدنِ وشقاؤُه أقصرُ وأهونُ.

والله المستعان(١).

---

(١) ذكر ابن القيِّم في كتابه «الجواب الكافي» (ص: ١٢٠)، أنَّ الضَّنك يشمل الدنيا والبرزخ، واستدلَّ على ذلك بأنَّ سياق الآية دالٌّ على العموم فيشملهما جميعًا فقال: «وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعمُّ منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإنَّ عمومها من حيث المعنى، فإنَّه سبحانه رتَّب المعيشة الضَّنك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعَّم في الدُّنيا بأصناف النّعم، ففي قلبه من الوحشة والذُّلِّ والحسرات التي تقطع القلوب، والأماني البَاطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنَّما يواريه عنه سكرات الشَّهوات والعشق وحبّ الدّنيا والرّياسة، وإن لم ينضمَّ إلى ذلك سكر الخمر، فسكر هذه الأمورأعظم من سكر الخمر، فإنَّه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحبّ الدّنيا لا يصحو صاحبه إلَّا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات، فالمعيشة الضَّنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده، ولا تقرّ العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئنّ النّفس إلّا بإلهها ومعبودها الذي هو حقّ، وكلُّ معبود سواه باطل، فمن قرَّت عينه بالله قرَّت به كلُّ عين، ومن لم تقرَّ عينه بالله تقطَّعت نفسه على الدنيا حسرات، والله ﷻ إنَّما جعل الحياة الطَّيبة لمن آمن به وعمل صالحًا، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وذكر ذلك أيضًا في «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٣)، مع أنَّه ذكر في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٣)، أنه عذاب القبر وذكر الأدلة الكثيرة على ذلك، ولا تعارض بينهما والله أعلم، وذلك أن الأصل في الآية عذاب القبر كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتفسير السلف، وهذا لا يمنع أن يشمل الضنك الحياة الدنيا أيضًا بسبب الإعراض عن هدى الله تَعَالَىٰ الذي أنزله على رسوله ﷺ.

فَصْل

العـارفُ لا يأمـر النَّاسَ بتركِ الدُّنيـا؛ فإنَّهم لا يقدِرون على تركهـا، ولكن يأمرهم بـتركِ الذُّنوب مع إقامتهم على دنياهم، فترك الدُّنيا فضيلةٌ وترك الذَّنوب فريضةٌ، فكيف يُؤمَر بالفضيلةِ من لم يُقِم الفريضة؟!

فـإنْ صعُـب عليهم ترك الذُّنوب؛ فاجتهـدْ أن تحبّب الله إليهم بذكـرِ آلائِه وإنعامِه وإحسـانِه وصفـاتِ كمالِه ونعوتِ جلالِه؛ فـإنَّ القلوب مفطورةٌ على محبَّتِـه؛ فإذا تعلَّقتْ بحبِّه هانَ عليها ترك الذُّنوب والاستقلال منها والإصرار عليها.

وقد قال يحيى بن معاذ: طلبُ العاقلِ للدُّنيا خيرٌ من تركِ الجاهل لها[1].

العارفُ يدعو النَّاسَ إلى الله من دنياهم فتسـهُلُ عليهم الإجابة، والزَّاهدُ يدعوهم إلى الله بـتركِ الدُّنيا فتشُـقُّ عليهـم الإجابة؛ فإنَّ الفطام عن الثَّدي الَّذي ما عقلَ الإنسـانُ نفسَـه إلَّا وهـو يرتضع منه شـديد، ولكن تخيّرْ مـن المرضعاتِ أزكاهـنَّ وأفضلهنَّ؛ فإنَّ للَّبـن تأثيرًا في طبيعة المرتضع، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمقِ الولد، وأنفع الرّضاعة مـا كان مـن المجاعةِ، فـإن قوِيتَ على مرارة الفطـام، وإلا فارتضِعْ بقدر؛ فإن من البَشَـم ما يقتل.



(١) أخرجه السُّلمي في «طبقات الصُّوفيَّة» (ص: ١٠١ عطا).

فصل

❁ بين رعايةِ الحقوق مع الضرّ ورعايتها مع العافية بونٌ بعيدٌ.

❁ «إِنَّ عَبْدِي كُلَّ عَبْدِيَ الَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُلاَقٍ قِرْنَهُ»[1].

❁ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]

❁ ليسَ العجبُ من صحيحٍ فارغ واقفٍ مع الخدمة، إنَّما العجبُ من ضعيفٍ سقيمٍ تَعتَوِره الأشغال وتختلف عليه الأحوال وقلبه واقفٌ في الخدمةِ غير متخلِّفٍ بما يقدر عليه.

❁❁❁

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٨٠)، من طريق الوليد بن مسلم عن عفير بن معدان أنه سمع أبا دوس اليحصبي يحدث عن ابن عائذ اليحصبي عن عمارة بن زعكرة، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ليس إسناده بالقوي ولا نعرف لعمارة بن زعكرة عن النبي ﷺ إلَّا هذا الحديث الواحد، ومعنى قوله: «وهو ملاق قرنه» إنما يعني: عند القتال، يعني: أن يذكر الله في تلك السَّاعة.

والحديث ضعيف لضعف عُفير بن معدان، كما قال الحافظ ابنُ حجر في «التقريب» (ص: ٣٩٣)، وأحاديثه غير محفوظة كما قال ابنُ عدي في «الكامل» (٧/ ١٠٠)، ويضاف إلى ذلك أنَّ الوليد بن مسلم كثير التدليس، ولهذا ضعَّف الشيخ الألباني هذا الحديث كما في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» برقم (٣١٣٥).

وأمَّا عمارة بن زعكرة فهو له صحبة لكن الإسناد إليه لا يصحُّ، كما قال البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٤٩٤).

فَصْلٌ

معرفةُ الله سُبْحَانَهُ نوعان:

(١) معرفةُ إقرارٍ، وهي: التي اشترك فيها النَّاس؛ البرُّ والفاجر، والمطيع والعاصي.

والثاني: معرفةٌ تُوجِب الحياءَ منه والمحبّة له وتعلُّق القلب به والشَّوق إلى لقائِه وخشيته والإنابةِ إليه والأنسِ به والفرار من الخلق إليه، وهذه هي المعرفة الخاصَّة الجارية على لسانِ القوم، وتفاوتهم فيها لا يُحصيه إلَّا الذي عرَّفَهم بنفسِه وكشفَ لقلوبهم من معرفتِه ما أخفاه عن سواهم، وكلٌّ أشارَ إلى هذهِ المعرفة بحسب مقامه وما كُشِفَ له منها، وقد قال أعرفُ الخلق به: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[٢]، وأخبرَ أنَّه سُبْحَانَهُ يفتح عليه يوم القيامة من محامدِه بما لا يحسنه الآن[٣].

ولهذه المعرفة بابان واسعان:

باب التَّفكُّر والتَّأمُّل في آياتِ القرآن كلِّها، والفهم الخاصّ عن الله ورسوله.

والباب الثاني: التفكُّر في آياتِه المشهودةِ، وتأمُّل حكمتِه فيها وقدرتِه ولطفِه وإحسانِه وعدلِه وقيامِه بالقسطِ على خلقِه.

وجِماعُ ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها وتفرُّده بذلك وتعلُّقها بالخلق والأمر؛ فيكون فقيهًا في أوامرِه ونواهيه، فقيهًا في قضائِه وقدرِه، فقيهًا في أسمائِه وصفاتِه، فقيهًا في الحكمِ الدِّيني الشَّرعي والحكم الكوني القدري، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

---

(١) هذا هو النوع الأول، وليس في الأصل كلمة (الأول)، مع أنها موجودة في طبعة (المجمع).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٢-٤٨٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بلفظ: فقدتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلةً من الفراش، فالتمستُه فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِن سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِن عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيكَ أَنتَ كَمَا أَثْنَيتَ عَلَى نَفسِكَ**».

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٧١٢)، ومسلم برقم (٣٢٧- ١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فصل

الدَّراهِمُ أربعةٌ: درهمٌ اكتُسِبَ بطاعة الله وأُخرِجَ في حقِّ الله؛ فذاك خير الدَّراهم، ودرهمٌ اكتُسِب بمعصيةِ الله وأُخرج في معصيةِ الله؛ فذاك شرُّ الدَّراهم، ودرهمٌ اكتُسِب بأذى مسلم وأُخرج في أذى مسلم؛ فهو كذلك، ودرهمٌ اكتُسِب بمباح وأُنفق في شهوةٍ مباحةٍ؛ فذاك لا له ولا عليه.

هذه أصول الدَّراهم، ويَتفرَّعُ عليها دراهمُ أُخر؛ منها: درهم اكتُسِب بحقٍّ وأُنفِق في باطل، ودرهم اكتُسِب بباطلٍ وأُنفِق في حقٍّ، فإنفاقه كفارته، ودرهمٌ اكتُسِب من شبهة؛ فكفَّارته أن يُنفق في طاعةٍ.

وكما يتعلَّق الثَّواب والعقاب والمدح والذَّمُّ بإخراجِ الدِّرهم؛ فكذلك يتعلَّق باكتسابِه.

وكذلك يُسأَل عنه مستخرجه ومصروفه؛ من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه[1]؟



(١) أخرج الترمذي برقم (٢٤١٦) من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ: «**لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**».
وأخرجه أيضًا برقم (٢٤١٧) من حديث أبي برزة الأسلمي.
وحديث أبي برزة صحَّحه الشيخ الألباني، وحسن حديث ابن مسعود، كما في «صحيح سنن الترمذي».
وانظر «السلسلة الصحيحة» حديث رقم (٩٤٦).

فَصْلٌ

المواساةُ للمؤمنين أنواعٌ: مواساةٌ بالمالِ، ومواساةٌ بالجاهِ، ومواساةٌ بالبدنِ والخدمةِ، ومواساةٌ بالنَّصيحةِ والإرشادِ، ومواساةٌ بالدُّعاء والاستغفارِ لهم، ومواساةٌ بالتَّوجُّعِ لهم.

وعلى قدرِ الإيمان تكون هذه المواساة؛ فكلَّما ضَعُفَ الإيمان ضعفت المواساةُ، وكلَّما قويَ قويتْ.

وكان رسول الله ﷺ أعظمَ النَّاسِ مواساةً لأصحابهِ بذلك كلِّه؛ فلأتباعه من المواساةِ بحسبِ اتِّباعهم له.

ودخلوا على بِشر الحافيّ في يومٍ شديد البردِ، وقد تجرَّد، وهو يَنتفِضُ، فقالوا: ما هذا يا أبا نصر؟ فقال: ذكرتُ الفقراء وبردَهم، وليس لي ما أواسيهم به، فأحببتُ أن أواسيَهم في بردِهم[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) ذكره الطرطوشي في «سراج الملوك» (ص: ٩٢) فقال: «وقال بعض الرواة: دخلت على بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تعرَّى من الثِّياب، فقلتُ: يا أبا نصر، النَّاس يزيدون الثياب في مثل هذا اليوم وأنت تنقص؟ فقال: ذكرتُ الفقراءَ وما هم فيه ولم يكن لي ما أواسيهم، فأردت أن أوافقهم بنفسي في مقاساةِ البرد!».

فَصْل

الجهـلُ بالطَّريـقِ وآفاتها و المقصـودِ يُوجِب التَّعـبَ الكثير مع الفائـدة القليلة؛ فإنَّ صاحبَّـه إمَّـا أن يجتهدَ في نافلـةٍ مع إضاعة الفرض، أو في عمل بالجـوارح لم يواطئه عمل القلب، أو عمل بالباطن و الظَّاهر لم يتقيَّدْ بالإقتداء، أو همَّةٍ إلى عملٍ لم ترق بصاحبِها إلى ملاحظـةِ المقصـود، أو عمـل لم يتحرَّزْ من آفاته المفسـدة له حال العمـل وبعده، أو عملٍ غفلَ فيه عن مشـاهدة المنَّة فلم يتجرَّد عن مشـاركةِ النَّفس فيه، أو عمل لم يشـهدْ تقصيرهُ فيـه فيقـوم بعده في مقام الاعتـذار منه، أو عمل لم يُوفِّه حقَّه من النُّصح والإحسـان وهو يظنُّ أنَّه وفَّاه؛ فهذا كلّه ممَّا ينقص الثَّمرة مع كثرة التَّعب. والله الموفِّق.



فَصْلٌ

إذا عـزِم العبدُ عـلى السَّـفرِ إلى الله تَعَالَىٰ وإرادته عرضَـتْ له الخـوادع والقواطع، فينخدع أوَّلًا بالشَّـهواتِ والرِّئاساتِ والملاذِّ والمناكحِ والملابسِ، فإن وقف معها انقطع، وإن رَفضهـا ولم يقفْ معها وصدق في طلبه ابتُلِيَ بوطءِ عقبه وتقبيلِ يده والتَّوسـعةِ له في المجلس والإشارة إليه بالدُّعاءِ ورجاء بركته ونحو ذلك، فإن وقفَ معه انقطعَ به عن الله وكان حظّه منه، وإن قطعهُ ولم يقفْ معه ابتُلِيَ بالكراماتِ والكشـوفاتِ، فإن وقف معها انقطـع بَهـا عن الله وكانت حظُّه، وإن لم يقفْ معها ابتُـلِيَ بالتَّجريدِ والتَّخلي ولذَّةِ الجمعية وعـزَّةِ الوحدة والفراغِ من الدُّنيا، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصودِ، وإن لم يقف معـه وسـارَ ناظـرًا إلى مراد الله منه ومـا يحبّه منه؛ بحيـث يكون عبده الموقـوف على محابِّهِ ومراضيه أين كانت وكيف كانت؛ تعبَ بها أو اسـتراح، تنعَّم أو تألَّم، أخرجتْه إلى النَّاسِ أو عزلتْه عنهم، لا يختار لنفسِه غيرَ ما يختاره له وليُّه وسيِّدُه، واقفٌ مع أمرِهِ ينفِّذه بحسبِ الإمكان، ونفسـه عنده أهونُ عليه أن يُقدِّم راحتَها ولذَّتها على مرضاةِ سيِّده وأمرِه؛ فهذا هو العبد الَّذي قد وصلَ ونفذَ ولم يقطعْه عن سيِّدِه شيءٌ البتةَ. وبالله التَّوفيق.



فصل

النِّعَمُ ثلاثةٌ: نعمةٌ حاصلةٌ يعلمُ بها العبد، ونعمةٌ منتظرةٌ يرجوها، ونعمةٌ هو فيها لا يَشعُر بها.

فإذا أرادَ الله إتمام نعمته على عبدِه عرَّفَه نعمتَه الحاضرة وأعطاه من شكرِه قيدًا يُقيِّدُها به حتَّى لا تَشرُد؛ فإنَّها تَشرُد بالمعصيةِ وتُقيَّدُ بالشُّكرِ، ووفَّقَه لعملٍ يستجلبُ به النِّعمة المنتظرة، وبصَّرهُ بالطُّرقِ التي تسُدُّها وتقطع طريقها ووفَّقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافتْ إليه على أتمِّ الوجوه، وعرَّفه النِّعمَ التي هو فيها فلا يشعر بها.

ويُحكى أنَّ أعرابيًّا دخلَ على الرَّشيدِ، فقال: أمير المؤمنين! ثبَّتَ الله عليك النِّعمَ التي أنت فيها بإدامةِ شكرها، وحقَّق لك النِّعمَ التي ترجوها بحسنِ الظنِّ به ودوام طاعته، وعرَّفك النِّعمَ التي أنت فيها ولا تَعرِفها لتشكرها، فأعجبه ذلك منه وقال: ما أحسنَ تقسيمَه!



قاعدة جليلة

مبدأُ كلّ علمٍ نظريّ وعملٍ اختياريٍّ هو الخواطر والأفكار؛ فإنَّها تُوجِب التَّصوُّرات، والتَّصوُّرات تدعو إلى الإراداتِ، والإرادات تقتضي وقوعَ الفعل، وكثرةُ تكراره تعطي العادة.

فصلاحُ هذه المراتب بصَلاحِ الخواطر والأفكار، وفسادُها بفسادها.

فصلاحُ الخواطر بأن تكونَ مراقِبةً لوليّها وإلهها، صاعدةً إليه، دائرةً على مرضاتِه ومحابِّه، فإنَّه سُبْحَانَهُ بهِ كلُّ صلاح، ومن عنده كلُّ هدى، ومِن توفيقه كلُّ رشدٍ، ومِن تولّيه لعبدِه كلُّ حفظ، ومِن تولّيه وإعراضه عنه كلُّ ضلالٍ وشقاءٍ.

فيظفر العبد بكلّ خير وهدًى ورشد بقدرِ إثبات عين فكرته في آلائِه ونعمِه وتوحيدِه وطرق معرفته وطرق عبوديَّته، وإنزاله إيَّاه حاضرًا معه مُشاهدًا له ناظرًا إليه رقيبًا عليه مُطَّلعًا على خواطرِه وإرادتِه وهمِّه؛ فحينئذٍ يَستحيي منه ويُجِلُّه أن يُطلِعَه منه على عورةٍ يكره أن يَطَّلِعَ عليها مخلوقٌ مثلُه أو يرى في نفسِه خاطرًا يَمقُته عليه.

فمتى أنزلَ ربَّه هذه المنزلةَ منه رفَعَهُ وقرَّبهُ منه وأكرَمَهُ واجتباه ووالاه، وبقدر ذلك يَبعُد عن الأوساخِ والدَّناءاتِ والخواطرِ الرَّديئة والأفكارِ الدَّنيئة، كما أنَّه كلَّما بَعُدَ منه وأعرضَ عنه قَرُب من الأوساخِ والدَّناءاتِ والأقذار، ويُقطَع عن جميعِ الكمالات ويتَّصل بجميعِ النَّقائص.

فالإنسان خيرُ المخلوقات إذا تقرَّب من بارئِه والتزم أوامرَه ونواهيَه وعمِلَ بمرضاتِه وآثره على هواهُ، وشرُّ المخلوقات إذا تباعد عنه ولم يتحرَّكْ قلبُه لقربِه وطاعتِه وابتغاءِ مرضاته؛ فمتى اختار التَّقرُّبَ إليه وآثره على نفسِه وهواه فقد حكَّم قلبَه وعقلَه

وإيمانَه على نفسـهِ وشيطانِه، وحكَّم رشدَه على غيِّه وهداه على هواه، ومتى اختار التَّباعدَ منه فقد حكَّم نفسَه وهواه وشيطانه على عقلِه وقلبِه ورشدِه.

واعلـم أنَّ الخطراتِ والوسـاوسَ تـُؤدِّي متعلّقاتُهـا إلى الفكـرِ، فيأخذهـا الفِكـر فيؤدِّيهـا إلى التَّذكُّـر، فيأخذهـا الذِّكـر فيؤدِّيهـا إلى الإرادةِ، فتأخذهـا الإرادة فتؤدِّيها إلى الجوارحِ والعملِ، فتسـتحكم فتصير عادة، فردُّها من مبادئها أسهلُ من قطعها بعد قوَّتها وتمامها.

ومعلـومٌ أنَّه لم يُعطَ الإنسـانُ إماتةَ الخواطر ولا القوَّةَ عـلى قطعها؛ فإنَّها تهجُم عليه هجـومَ النَّفس؛ إلَّا أنَّ قوةَ الإيمان والعقل تُعينُهَ على قَبول أحسـنها ورضاه به ومسـاكنته لـه، وعـلى دَفع أقبحها وكراهتـه له نفرته منه؛ كما قال الصَّحابة: يا رسـول الله! إنَّ أحدنا يجـد في نفسِـه مـا لَأن يَحترِقَ حتى يصير حُمَمةً أحـبُّ إليه من أن يتكلَّم بـه؟ فقال: «**أَوَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**». قالوا: نعم. قال: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»[1]. وفي لفظٍ: «**الحمدُ للهِ الَّذي رَدَّ كَيدَهُ إلى الوَسْوَسَةِ**»[2].

وفيه قولان:

أحدهما: أنَّ ردَّه وكراهتَه صريح الإيمان.

والثانـي: أنَّ وجودَهُ وإلقاء الشَّيطان له في النَّفس صريـح الإيمان؛ فإنَّه إنَّما ألقاهُ في النَّفس طلبًا لمعارضة الإيمان وإزالته به.

---

(١) أخرجـه مسـلم برقـم (٢٠٩-١٣٢) من حديـث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بلفظ: «جـاء ناس من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فسـألوه: إنا نجد في أنفسـنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلَّم به، قال: «**وَقَدْ وَجَدتُمُوه؟**»، قالوا: نعم، قال: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**».

(٢) أخرجـه أبـو داود برقـم (٥١١٢)، والإمـام أحمـد برقـم (٢٠٩٧، ٣١٦١) مـن حديـث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وإسناد الحديث صحيح، ولذلك صحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».



وقـد خلق الله سُبْحَانَهُ النَّفس شبيهةً بالرَّحـى الدَّائرة التي لا تَسـكُن ولا بدَّ لها من شيءٍ تطحنـه؛ فـإن[١] وُضع فيها حَبٌّ طحنتْـه، وإن وُضع فيها تـرابٌ أو حصى طحنتْه، فالأفـكارُ والخواطـرُ التـي تَجـول في النَّفسِ هـي بمنزلةِ الحَـبِّ الذي يوضـع في الرَّحى، ولا تبقـى تلـك الرَّحـى معطَّلةً قـطُّ، بل لا بدَّ لها مـن شيءٍ يوضع فيها؛ فمـن النَّاس مَن تطحـن رحـاه حَبًّا يخرج دقيقًا ينفع به نفسَـه وغيرَه، وأكثرهم يطحـن رملًا وحصًى وتِبْنًا ونحو ذلك؛ فإذا جاء وقت العَجْن والخَبْز تبيَّن له حقيقةُ طحينه.



(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (فإذا).

فَصْلٌ

فـإذا دفعتَ الخاطرَ الواردَ عليكَ اندفعَ عنك ما بعده، وإنْ قبلتَه صارَ فكرًا جوّالًا، فاستخدم الإرادةَ، فتساعدتْ هي والفكرُ على استخدامِ الجوارحِ؛ فإنْ تعذَّرَ استخدامُها رجعَا إلى القلبِ بالـمُنَى والشَّهوةِ وتوجُّهِهِ إلى جهةِ المراد.

ومـن المعلـومِ أنَّ إصلاحَ الخواطرِ أسـهلُ من إصلاحِ الأفكار، وإصـلاحُ الأفكارِ أسهلُ من إصلاحِ الإراداتِ، وإصلاحُ الإراداتِ أسهلُ من تدارُكِ فسادِ العمل، وتداركُه أسهلُ من قطع العوائِدِ.

فأنفـعُ الـدَّواءِ أن تُشْـغلَ نفسـكَ بالفكْـرِ فيـما يَعنيـكَ دونَ مـالا يَعنيـك؛ فالفكرُ فيما لا يَعني بابُ كلِّ شرٍّ، ومن فكَّرَ فيما لا يَعنيه فاتَه ما يَعنيه، واشـتغلَ عن أنفعِ الأشـياءِ له بما لا منفعةَ له فيه.

فالفكـرُ والخواطِـرُ والإرادةُ والهمَّـةُ أحـقُّ شيءٍ بإصلاحِـه من نفسِـكَ؛ فـإنَّ هذه خاصَّتُك وحقيقتُك التي تَبتَعِدُ بها أو تَقرُبُ من إلهكَ ومعبودِكَ، الَّذي لا سـعادةَ لك إلَّا في قُربِه ورضاه عنك، وكلُّ الشَّقاء في بُعدكَ عنه وسُخطِهِ عليك.

ومَـنْ كان في خواطِـره ومجـالاتِ فكـرِهِ دنيئًـا خسيسًـا، لم يكنْ في سـائرِ أمـرِه إلَّا كذلك.

وإيَّـاك أن تُمكِّنَ الشَّـيطانَ مـن بيتِ أفكارِكَ وإرادتِكَ؛ فإنَّه يُفسِـدُها عليكَ فسـادًا يصعُـبُ تداركُـه، ويُلقي إليكَ أنواعَ الوسـاوسِ والأفـكار المضـرَّة، ويحـولُ بينكَ وبينَ الفكـرِ فيما ينفعُكَ، وأنت الَّذي أعنتَه على نفسِـكَ بتمكينِه مـن قلبِكَ وخواطِرِكَ فملكَها عليـك؛ فمثالُـك معه مثالُ صاحبِ رحًـى يطحنُ فيها جيِّدَ الحبوبِ، فأتاه شـخصٌ معه حِمْـلُ تـرابٍ وبَعْـرٍ وفَحْمٍ وغُثـاءٍ لَيطحَنَـهُ في طاحونَتِـه؛ فإن طـرده ولم يُمكِّنه مـن إلقاءِ

ما معه في الطَّاحونِ استمرَّ على طَحْنِ ما ينفعُه، وإن مكّنَهُ من إلقاءِ ذلك في الطَّاحونِ أفسدَ ما فيها من الحَبِّ وخرجَ الطَّحينُ كلُّه فاسدًا.

والذي يُلْقيه الشَّيطانُ في النَّفسِ لا يخرجُ عن الفكرِ فيما كان ودخلَ في الوجودِ لو كان على خلافِ ذلكَ، وفيما لم يكنْ لو كانَ كيفَ كانَ يكون، أو فيما لم يملكْ الفكرُ فيه من أنواعِ الفواحشِ والحرامِ، أو في خيالاتٍ وهميَّةٍ لاحقيقةَ لها، وإما[1] في باطلٍ، أو فيما لا سبيلَ إلى إدراكِه من أنواعِ ما طُويَ عنه علمُهُ، فيُلقِيه في تلكَ الخواطرِ التي لا يبلُغُ منها غايةً ولا يقفُ منها على نهايةٍ، فيجعلُ ذلك مجالَ فكرِه ومسرحَ وهمِه.

وجماعُ إصلاح ذلك: أن تشغَلَ فكركَ في بابِ العلومِ والتَّصوُّراتِ بمعرفةِ ما يلزمُكَ من التَّوحيدِ وحقوقِه، وفي الموتِ وما بعدَه إلى دخولِ الجنَّةِ والنَّارِ، وفي آفاتِ الأعمالِ وطرُقِ التَّحرُّزِ منها، وفي بابِ الإراداتِ والعُزُومِ أن تشغَلَ نفسَكَ بإرادةِ ما ينفعُكَ إرادتُه، وطرحِ إرادةِ ما يضرُّك إرادتُهُ.

وعندَ العارفين أنَّ تَمَنِّي الخيانة وإشغال الفكر والقلب بها أضرُّ على القلب من نفسِ الخيانة، ولا سيَّما إذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها، فإنَّ تمنّيها يَشغَلُ القلبَ بها ويملؤهُ منها ويجعلها همَّه ومرادهُ.

وأنت تجد في الشَّاهدِ: الملِكَ مِن البَشرِ إذا كان في بعضِ حاشيتِه وخَدَمِه من هو مُتمنٍّ لخيانتِه مشغول القلبِ والفكرِ بها ممتلئٌ منها، وهو مع ذلك في خدمتِه وقضاءِ أشغالِه؛ فإذا اطَّلع على سرِّه وقصدِه مَقَتَه غايةَ المقت، وأبغضَه، وقابله بما يستحقُّه، وكان أبغضَ إليه من رجلٍ بعيد عنه جَنى بعضَ الجناياتِ وقلبُه وسِرُّه مع الملك غير منطوٍ على تمنِّي الخيانة ومحبَّتها والحرص عليها؛ فالأوَّل يتركها عجزًا واشتغالًا بما هو فيه وقلبُهُ

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (إما).

ممتلئٌ بها، والثاني يفعلها وقلبه كارهٌ لها ليس فيهِ إضمارُ الخيانة ولا الإصرار عليها؛ فهذا أحسنُ حالًا وأسلمُ عاقبةً من الأوَّلِ.

وبالجملةِ فالقلبُ لا يخلو قطُّ مِن الفِكرِ: إمَّا في واجبِ آخرته ومصالِحِها، وإمَّا في مصالحِ دنياهُ ومعاشه، وإمَّا في الوساوسِ والأماني الباطلة والمقدَّرات المفروضة.

وقد تقدَّم أنَّ النَّفسَ مَثَلُها كمثل الرَّحى تدورُ بما يُلقى فيها؛ فإن ألقيتَ فيها حبًّا دارتْ به، وإن ألقيتَ فيها زجاجًا وحصًى وبعرًا دارت بِهِ، والله سبحانه هو قيِّم تلك الرَّحى ومالكُها ومُصرِّفُها، وقد أقام لها مَلَكًا يُلقِي فيها ما ينفعها فتدور به، وشيطانًا يلقي فيها ما يضرُّها فتدور به، فالملَك يلمُّ بها مرَّةً والشَّيطان يلمُّ بها مرَّة؛ فالحَبُّ الذي يُلقيهِ الملك إيعادٌ بالخيرِ وتصديقٌ بالوعدِ، والحَبُّ الذي يُلقيهِ الشَّيطان إيعادٌ بالشَّرِّ وتكذيبٌ بالوعدِ، والطَّحين على قدرِ الحبّ، وصاحب الحبّ المُضِرّ لا يتمكَّن مِن إلقائِه إلَّا إذا وجدَ الرَّحى فارغةً من الحبِّ النَّافع، وقيِّمها قد أهملها وأعرضَ عنها؛ فحينئذٍ يُبادِرُ إلى إلقاءِ ما معه فيها.

وبالجملةِ فقيِّمُ الرَّحى إذا تخلَّى عنها وعن إصلاحها وإلقاء الحبّ النَّافع فيها وجدَ العدوُّ السَّبيلَ إلى إفسادها وإرادتها بما معه.

وأصلُ صلاحِ هذه الرَّحى بالاشتغالِ بما يعنيك، وفسادها كلّه في الاشتغال بما لا يعنيك.

ومَا أحسن ما قال بعضُ العقلاء: لما وجدتُ أنواع الذَّخائر منصوبةً غرضًا للمتالف، ورأيتُ الزوالَ حاكمًا عليها مدركًا لها، انصرفتُ عن جميعها إلى ما لا يُنازِعِ فيه ذو الحِجَا أنَّه أنفعُ الذَّخائر وأفضلُ المكاسب وأربح المتاجر. والله المستعانُ.

* قال شقيق بن إبراهيم(١): أُغلِقَ بابُ التَّوفيق عن الخلقِ من ستة أشياء: اشتغالهم بالنِّعمةِ عن شُكرها، ورغبتهم في العلمِ وتركهم العمل، والمسارعة إلى الذَّنبِ وتأخير التَّوبة، والاغترار بصحبةِ الصَّالحين وترك الإقتداء بِفعالهم، وإدبار الدُّنيا عنهم وهم يتَّبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

قلتُ: وأصلُ ذلك عدمُ الرَّغبة والرَّهبة، وأصله ضعفُ اليقين، وأصلُه ضعفُ البصيرة، وأصلُهُ مهانة النَّفس ودناءتُها واستبدالُ الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، وإلَّا فلو كانت النَّفس شريفةً كبيرةً لم ترضَ بالدُّونِ.

فأصلُ الخيرِ كلّه - بتوفيق الله ومشيئته - شرفُ النَّفس ونُبلها وكِبَرها، وأصلُ الشَّرِّ خِسَّتها ودناءتها وصِغَرها.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠]؛ أي: أفلحَ مَن كبَّرها وكثَّرها ونَمَّاها بطاعةِ الله، وخابَ مَن صغَّرها وحقَّرها بمعاصي الله(٢).

فالنُّفوسُ الشَّريفةُ لا ترضى من الأشياءِ إلَّا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبةً، والنُّفوسُ الدَّنيئةُ تحومُ حولَ الدناءات وتقع عليها، كما يقع الذُّباب على الأقذارِ.

فالنَّفسُ الشَّريفةُ العليَّة لا ترضى بالظُّلمِ ولا بالفواحشِ ولا بالسَّرقةِ والخيانة؛ لأنَّها أكبر من ذلك وأجلُّ، والنَّفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضِّدِّ مِن ذلك.

فكلُّ نفسٍ تميلُ إلى ما يُناسبها ويُشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]؛ أي: على ما يُشاكله ويُناسبه؛ فهو يعمل على طريقتِه التي تُناسبُ

---

(١) هو: الزاهد أبو علي شقيق بن إبراهيم الأزدي البلخي توفي سنة (١٩٤هـ)، انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣١٣ وما بعدها).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٤٣-٤٤٤).

أخلاقَه وطبيعتَه، وكلُّ إنسانٍ يجري على طريقتِه ومذهبِه وعادتِه التي ألِفَها وجُبِل عليها؛ فالفاجر يعمل بما يُشبه طريقتَه من مقابلةِ النِّعم بالمعاصي والإعراض عن المنعِمِ، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شُكر المنعِم ومحبَّته والثَّناء عليه والتَّوَدُّدِ إليه والحياءِ منه والمراقبةِ له وتعظيمِه وإجلالِه.



فَصْلٌ

مَن لم يَعرِف نفسَه كيف يَعرِف خالقَه؟

فاعلم أنَّ الله تَعَالَى خلقَ في صدرِك بيتًا وهو القلبُ، ووضعَ في صدرِه عرشًا لمعرفتِه يَستوي عليه المثل الأعلى؛ فهو مستوٍ على عرشِه بذاتِه، بائنٌ من خلقِه، والمثلُ الأعلى من معرفتِه ومحبتِّه وتوحيدِه مستوٍ على سرير القلبِ، وعلى السَّرير بِساطٌ مِن الرِّضى، ووضعَ عن يمينِه وشمالِه مَرافقَ شرائعِه وأوامرِه، وفتحَ إليه بابًا مِن جنَّةِ رحمتِه والأُنْس به والشَّوق إلى لقائِه، وأمطره من وابلِ كلامِه ما أنبتَ فيه أصنافَ الرَّياحين والأشجار المثمرة من أنواعِ الطَّاعاتِ والتَّهليلِ والتَّسبيحِ والتحميدِ والتَّقديسِ، وجعلَ في وسطِ البستان شجرة معرفة؛ فهي ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥] مِنَ المحبَّةِ والإنابةِ والخشيةِ والفرحِ به والابتهاج بقربِه، وأجرى إلى تلك الشَّجرة ما يَسقِيها مِن تَدبُّرِ كلامِه وفهمِه والعملِ بوصاياه، وعلَّق في ذلك البيت قنديلًا أسرجَه بضياءِ معرفتِه والإيمانِ به وتوحيدِه؛ فهو يَستمِدُّ مِنْ ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]، ثمَّ أحاط عليهِ حائطًا يَمنعهُ من دخولِ الآفات والمفسدين ومن يُؤذي البستان؛ فلا يلحقهُ أذاهم، وأقامَ عليهِ حرسًا من الملائكةِ يحفظونه في يقظتِهِ ومنامِه، ثُمَّ أعلمَ صاحب البيت والبستان بالسَّاكنِ فيه؛ فهو دائمًا همُّه إصلاح السَّكن ولمُّ شَعَثِه ليرضاه السَّاكن منزلًا، وإذا أحسَّ بأدنى شعث في السَّكنِ بادرَ إلى إصلاحِهِ ولمِّه خشيةَ انتقال السَّاكن منه؛ فنِعمَ السَّاكن ونِعمَ[1] المَسكن.

فسبحانَ الله ربِّ العالمين! كم بين هذا البيت وبيتٍ قدْ استولى عليه الخرابُ وصارَ مأوى للحشراتِ والهوامِّ ومحلًّا لإلقاءِ الأنتان والقاذورات فيه؛ فمن أرادَ التَّخلي وقضاء

---

(١) سقطت كلمة (نِعمَ)، من طبعة (المجمع).

الحاجة وجدَ خربةً لا ساكنَ فيها ولا حافظَ لها، وهي مُعدَّة لقضاءِ الحاجة، مظلمة الأرجاء، منتنةُ الرَّائحة، قد عمَّها الخرابُ وملأتْها القاذوراتُ، فلا يأنس بها ولا ينزِل فيها إلَّا مَن يُناسبه سكَّناها من الحشراتِ والدِّيدانِ والهوامِّ؛ الشَّيطانُ جالسٌ على سريرِها، وعلى السَّريرِ بِساطٌ مِن الجهلِ، وتَخفِقُ فيه الأهواء، وعن يمينِه وشمالِه مَرافقُ الشَّهوات واتِّباعُ الهوى، وقد فُتحَ إليه بابٌ من حَقْلِ الخذلان والوحشة والرُّكونِ إلى الدُّنيا والطّمأنينة بها والزُّهد في الآخرةِ، وأُمطِرَ من وابلِ الجهل والهوى والشّرك والبِدَع وما أنبتَ فيه أصنافَ الشَّوكِ والحنظلِ والأشجارِ المثمرة بأنواعِ المعاصي والمخالفات، من الزَّوائدِ والتَّنديباتِ والنَّوادرِ والهزليَّاتِ والمضحكاتِ والأشعارِ الغزليَّات والخمريَّات التي تُهيِّج على ارتكابِ المحرَّمات وتُزهِّد في الطَّاعاتِ، وجُعِلَ في وسطِ الحقل شجرةُ الجهل به والإعراض عنه؛ فهي تُؤتي أُكلَها كلَّ حين من الفسوقِ والمعاصي واللَّهوِ واللَّعبِ والمجونِ والذَّهابِ مع كلِّ ريح واتِّباع كلِّ شهوة، ومن ثمرِها الهمومُ والغمومُ والأحزانُ والآلامُ، ولكنَّها متواريةٌ باشتغال النَّفس بلهوها ولعبها؛ فإذا أفاقتْ مِن سكرها أُحضرتْ كلَّ همٍّ وغمٍّ وحزنٍ وقلقٍ ومعيشة ضَنْك، وأُجرِيَ إلى تلك الشَّجرة ما يَسقيها من اتِّباع الهوى وطول الأمل والغرور، ثمَّ تُرِكَ ذلك البيتُ وظلماته وخراب حيطانه؛ بحيث لا يُمنَع منه مفسِدٌ ولا حيوانٌ ولا مؤذٍ ولا قذرٌ.

فسبحانَ خالقِ هذا البيت وذلك البيت!

فمَن عرَف قدرَ بيته وقدرَ السَّاكن فيه وقدرَ ما فيه من الكنوزِ والذَّخائرِ والآلاتِ، انتفع بحياتِه ونفسِه، ومَن جَهِل ذلك جَهِلَ نفسَه وأضاعَ سعادتَه.

وبالله التَّوفيق.

❁ [١] سُئِلَ سهل التستري: الرَّجلُ يأكلُ في اليوم أكلةً؟ قال: أكلُ الصِّدِّيقينَ، قيل له: فأكلتين؟ قال: أكلُ المؤمنين، قيل له: فثلاث أكلاتٍ؟ فقال: قل لأهلِه يبنوا له مِعلَفًا[٢].

❁ قال الأسود بن سالم[٣]: ركعتين[٤] أُصلِّيهما لله أحبُّ إليَّ من الجنَّةِ بما فيها، فقيل له: هذا خطأٌ، فقال: دعونا من كلامِكم؛ الجنَّةُ رضَى نفسي، والرَّكعتان رضَى ربي، ورضَى ربي أحبُّ إليَّ من رضَى نفسي[٥].

❁ العارفُ في الأرضِ ريحانةٌ من رياحين الجنَّة، إذا شمَّها المريد اشتاقتْ نفسُه إلى الجنَّةِ.

❁ قلبُ المحبِّ موضوعٌ بين جلالِ محبوبِه وجمالِه؛ فإذا لاحظَ جلالَه هابَهُ وعظَّمَهُ، وإذا لاحظَ جمالَه أحبَّه واشتاقَ إليه.

❁ ❁ ❁

(١) هكذا في الأصل من غير عنوان بـ (فصل) أو (فائدة) أوغير ذلك، وفي طبعة (المجمع) معنون بكلمة (فصل).

(٢) ذكره السُّلمي «الرسالة القشيرية» (١/ ١٧٢ جوامع الكلم).

(٣) هو: المتعبِّد الأسود بن سالم، ذكره ابن حبَّان في «الثقات» (٨/ ١٣٠)، ومن أقواله: «إذا رأيتَ الرجلَ يغْمِزُ ابن المباركِ فاتَّهِمْه على الإسلامِ». «تهذيب التهذيب» (٥/ ٣٣٨).

(٤) هكذا في الأصل بالنصب، ولعل الصواب (ركعتان).

(٥) ينظر: «صفة الصفوة» (١/ ٤٦٣ دار الحديث)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (٩/ ٣٢٦).

فَائِدَةٌ

مِـن الناسِ من يعرِفُ اللهَ بالجودِ والإفضالِ والإحسـانِ، ومنهم مَـن يعرِفُه بالعفوِ والحلمِ والتَّجاوزِ، ومنهم مَن يعرِفُه بالبطشِ والانتقامِ، ومنهم مَن يعرِفُه بالعلمِ والحكمةِ، ومنهـم من يعرِفُه بالعزَّةِ والكبرياءِ، ومنهـم من يعرِفُه بالرَّحمةِ والبرِّ واللطفِ، ومنهم من يعرِفُه بالقهرِ والملكِ، ومنهم من يعرِفُه بإجابةِ دعوتِه وإغاثةِ لهفتِه وقضاءِ حاجتِه.

وأعـمُّ هـؤلاء معرفةً: من عَرَفَه من كلامِه؛ فإنَّه يعـرِفُ ربًّا قد اجتمعتْ له صفاتُ الكمالِ ونعوتِ الجلالِ، منزَّهٌ عن المثالِ، بريءٌ من النَّقائصِ والعيوبِ، له كلُّ اسمٍ حسنٍ، وكلُّ وصـفِ كـمالٍ، فعَّالٌ لما يريد، فـوقَ كلِّ شيءٍ، ومع كلِّ شيءٍ، وقـادرٌ على كلِّ شيءٍ، ومقيمٌ لكلِّ شيءٍ، آمرٌ ناهٍ، متكلِّمٌ بكلماتِه الدِّينيَّةِ والكونيَّةِ، أكبرُ من كلِّ شيءٍ، وأجملُ من كلِّ شيءٍ، أرحمُ الرَّاحمين، وأقدرُ القادرين، وأحكمُ الحاكمين.

فالقـرآنُ أُنـزِلَ لتعريفِ عبادِه بـه، وبصراطِه الموصـلِ إليه، وبحالِ السَّـالكين بعد الوصولِ إليه.



فَائِدَة

من الآفاتِ الخفيَّةِ العامَّة أن يكون العبدُ في نعمةٍ أنعمَ الله بها عليه واختارها له، فيمَلُّها العبدُ ويطلب الانتقالَ منها إلى ما يزعمُ لجهلِه أنَّه خيرٌ له منها، وربُّه برحمتِه لا يُخرجُه من تلكَ النِّعمةِ ويعذرهُ بجهلِه وسوءِ اختيارِه لنفسِه، حتى إذا ضاقَ ذرعًا بتلك النِّعمةِ وسَخِطَها وتبرَّمَ بها واستحكمَ ملَلُه لها سلبه الله إيَّاها؛ فإذا انتقلَ إلى ما طلبَه ورأى التَّفاوتَ بين ما كانَ فيه وما صارَ إليه اشتدَّ قلقُه وندمُه وطلبَ العودةَ إلى ما كان فيه.

فإذا أراد اللهُ بعبدِه خيرًا ورشدًا أشهدَه أنَّ ما هو فيه نعمةٌ من نعمِه عليه ورضَّاهُ به وأوزعَه شكرَه عليه؛ فإذا حدَّثتْهُ نفسُه بالانتقالِ عنه استخارَ ربَّه استخارةَ جاهلٍ بمصلحتِه عاجزٍ عنها مفوِّضٍ إلى الله طالبٍ منه حسن اختيارِه له.

وليسَ على العبدِ أضرُّ من ملَلِه لنعَمِ الله؛ فإنَّه لا يراها نعمةً ولا يشكُرُه عليها ولا يفرحُ بها، بل يسخَطُها ويشكوها ويعدُّها مصيبةً، هذا وهي من أعظمِ نعمِ الله عليه.

فأكثرُ النَّاس أعداءُ نعَمِ الله عليهم، ولا يشعرون بفتحِ الله عليهم نِعَمَهُ، وهم مجتهدون في دفعِها وردِّها جهلًا وظلمًا؛ فكم سعتْ إلى أحدِهم من نعمةٍ وهو ساعٍ في ردِّها بجهده، وكم وصلتْ إليه وهو ساعٍ في دفعِها وزوالها بظلمِه وجهلِه!

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فليس للنِّعمِ أعدَى من نفسِ العبدِ؛ فهو مع عدوِّه ظهيرٌ على نفسِه، فعدوُّه يطرح النارَ في نعمه وهو ينفخُ فيها؛ فهو الذي مكَّنَه من طرحِ النَّارِ ثم أعانَه بالنفْخِ؛ فإذا اشتد ضِرامُها استغاثَ[١] الحريق، وكان غايتُه معاتبة الأقدار:

---

(١) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: (استغاث من الحريق).

وعـاجِـزُ الـرَّأي مِـضـيَـاعٌ لفُرصَـتِـه   حتَّـى إذا فاتَ أمرٌ عاتَبَ القَدَرَا[١]



(١) البيت لمحمد بن يسير الرياشي كما في «عيون الأخبار» (ص: ١٤، ١٩٢)، و«التذكرة الحمدونية» (ص: ٣٧٤)، وهو في «البيان والتبين» (ص: ٣٨٥) بلا نسبة، وكذا في «العقد الفريد» (١/ ٦٤)، ونسبه الثعالبي في «المنتحل» (ص: ٣٧) للخليل بن أحمد الفراهيدي، ونسبه في «معجم الشعراء» (ص: ٤٩٨ الكتب العلمية) ليحيى بن زياد بن عبد الله لكن بلفظ:

والـمـرءُ تـلـقَـاه مِـضـيَـاعًـا لِفُرصَتِه   حتـى إذا فـاتَ أمْـرٌ عَـاتَـبَ الـقَـدَرَا

فَصْلٌ

مِـن أعزِّ أنواع المعرفةِ: معرفـةُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ بالجمالِ، وهي معرفـةُ خواصِّ الخلقِ، وكلُّهم عَرَفَهُ بصفةٍ من صفاتِه، وأتمُّهم معرفةً مَنْ عرفَهُ بكمالِه وجلالِه وجمالِه سُبْحَانَهُ ليسَ كمثلِه شيءٌ في سائرِ صفاتِه.

ولـو فرضتَ الخلـقَ كلَّهم على أجملِهم صورةً، وكلُّهم على تلك الصورةِ، ونسبتَ جمالهـم الظَّاهـرِ والباطنِ إلى جمـالِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، لـكان أقلَّ من نسبةِ سراجٍ ضعيفٍ إلى قُرْصِ الشَّمسِ.

ويكفي في جماله: أنَّه لو كشفَ الحجابَ عن وجهِه لأحرقتْ سُبُحَاتُهُ ما انتهى إليه بصرُه مِن خلقِه[1].

ويكفـي في جمالِـه أنَّ كلَّ جمالٍ ظاهرٍ وباطنٍ في الدُّنيا والآخـرةِ فمن آثارِ صنعتِه؛ فما الظَّنُّ بمن صدرَ عنه هذا الجمال؟!

ويكفـي في جماله أنَّه لـه العزَّةَ جميعًا، والقوَّةَ جميعًا، والجودَ كلَّه، والإحسـانَ كلَّه، والعلـمَ كلَّه، والفضلَ كلَّه، ولِنورِ وجهِه أشرقَـتِ الظُّلماتِ؛ كما قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعاءِ الطَّائفِ: **«أعوذُ بنورِ وجهكَ الذي أشـرقتْ لـه الظُّلُماتُ، وصَلُحَ عليه أمرُ الدُّنيا والآخرة»**[2].

---

(١) أخرج مسلم برقم (٢٩٣-١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخمس كلمات فقال: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْـطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ** - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - **لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**».

وسُبُحات: بضـم السين والبـاء: هـي جـلال وجـه الله تَعَالَىٰ ونـوره. «غريـب الحديـث» لأبي عبيد (٣/ ١٧٣).

(٢) أخرجه الطبراني في «الدعاء» برقم (١٠٣٦) من طريق محمد بن إسـحاق عن هشـام بن عروة عن أبيه =

وقال عبد الله بن مسعود: ليسَ عندَ ربِّكم ليلٌ ولا نهارٌ، نورُ السَّمواتِ والأرضِ من نورِ وجهِه[(١)]، فهو سُبۡحَانَهُ نورُ السَّمواتِ والأرضِ، ويوم القيامة إذا جاء لفصلِ القضاء تُشرِقُ الأرضُ بنورِه.

ومن أسمائه الحسنى: الجميلُ، وفي الصحيح عنه: «**إنَّ الله جميلٌ يحِبُّ الجمال**»[(٢)].

= عن عبد الله بن جعفر، ومن طريق الطبراني أخرجه الضياء في «المختارة» (٢/ ٤٣٣)، وأخرجه ابن منده في «التوحيد» (١/ ٣٣٩)، وفي «الرد على الجهمية» (ص:٥٤)، من طريق ابن إسحاق أيضًا.

والحديث معلٌّ بعنعنة محمد بن إسحاق فإنه كثير التدليس؛ ولذلك ذكره ابن حجر في المرتبة الرابعة من مراتب المدلسين، وقال: «صدوق مشهور بالتدليس عن الضعفاء والمجهولين، وعن شر منهم وصفه بذلك أحمد والدارقطني وغيرهما». «تعريف أهل التقديس» (ص: ٥١).

ولذلك ضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» برقم (٢٩٣٣).

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (٨٧٩٤)، وأبو داود في «الزهد» (ص: ١٦٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٤٧٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١١١)، من طريق حماد بن سلمة عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز عن عبد الله بن مسعود. قال البيهقي: «رَاوِيهِ غَيْرُ مَعْرُوفٍ».

قلت: الحديث ضعيف؛ لعلَّتين:

الأولى: حال الزبير أبي عبد السلام وهو ابن جواتشير بصري، لم يرو عنه غير حماد بن سلمة، ذكره ابن حبَّان في «الثقات» (٦/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٣/ ٥٨٤) وسكت عنه ولم يذكره بجرح ولا تعديل، وذكره الدولابي في «الكنى» (٢/ ٨٧١ الفاريابي) وضعَّفه، وقال الدارقطني كما في «الضعفاء والمتروكين» لابن الجوزي (٣/ ٢٣٤ الكتب العلمية): «يحدث عَن أَيُّوب ابن عبد الله بن مكرز عَن ابْن مَسْعُود بالمنكرات».

الثانية: الانقطاع؛ بين الزبير وأيوب بن عبد الله، أشار إلى ذلك البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٤١٤ و٤١٩) و(٣/ ٤١٣).

تنبيه: وقع اسم شيخ الزبير أبي عبد السلام في رواية الطبراني هكذا: عبد الله بن مكرز أو عبيد الله بن مكرز، وهو خطأ؛ وصوابه: أيوب بن عبد الله بن مكرز، كما في المصادر الأخرى التي روت الأثر، وفي كتب التراجم والطبقات.

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٤٧-٩١) من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ: «**لا يَدخُلُ الجنَّة مَن كَانَ في** =

وجمالُه سُبْحَانَهُ على أربعِ مراتب:

جمالُ الذَّاتِ، وجمالُ الصِّفاتِ، وجمالُ الأفعالِ، وجمالُ الأسماءِ.

فأسماؤُه كلُّها حسنى، وصفاتُه كلُّها صفاتُ كمالٍ، وأفعالُه كلُّها حكمةٌ ومصلحةٌ وعدلٌ ورحمةٌ، وأمَّا جمالُ الذَّاتِ وما هو عليه فأمرٌ لا يُدركُه سواه ولا يعلمُه غيرُه، وليس عند المخلوقين منه إلَّا تعريفاتٌ تعرَّفَ بها إلى مَنْ أكرمه من عباده؛ فإنَّ ذلكَ الجمالَ مصونٌ عن الأغيارِ، محجوبٌ بستر الرِّداءِ والإزارِ؛ كما قالَ رسولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يحكي عنه: «**الكبرياءُ ردائي والعَظَمَةُ إزاري**»[(١)].

ولـمَّا كانت الكبرياءُ أعظمَ وأوسعَ كانت أحقَّ باسم الرِّداءِ؛ فإنَّه سُبْحَانَهُ الكبيرُ المتعال؛ فهو سُبْحَانَهُ العليُّ العظيم.

قال ابن عبَّاس: حجبَ الذَّاتَ بالصِّفاتِ، وحجبَ الصِّفات بالأفعالِ، فما ظنُّكَ بجمالٍ حُجِبَ بأوصافِ الكمالِ، وسُتِرَ بنعوتِ العظمةِ والجلالِ؟!

ومن هذا المعنى يُفهَمُ بعضُ معاني جمالِ ذاتِه؛ فإنَّ العبدَ يترقى من معرفةِ الأفعالِ إلى معرفةِ الصفاتِ، ومن معرفةِ الصفاتِ إلى معرفة الذاتِ؛ فإذا شاهدَ شيئًا

= **قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ**»، قال رجل: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حَسَنًا ونعلُه حسنةً، قال: «**إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطرُ الحقِّ وغَمطُ النَّاسِ**».

(١) أخرجه مسلم برقم (١٣٦ - ٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة بلفظ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**العِزُّ إزارُهُ، والكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُني عَذَّبْتُهُ**».

وأخرجه أبو داود برقم (٤٠٩٢) وابن ماجه برقم (٤١٧٤)، والإمام أحمد برقم (٧٣٨٢، ٨٨٩٤، ٩٣٥٩، ٩٥٠٨، ٩٧٠٣) وابن حبَّان في صحيحه برقم (٣٢٨)، وابن أبي شيبة برقم (٢٧١١١) من حديث أبي هريرة بلفظ: «**الكِبْرِيَاءُ رِدَائِى والعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِى وَاحِدًا مِنهُمَا قَذَفْتُهُ فى النَّارِ**».

وأخرجه ابن ماجه برقم (٤١٧٥) من حديث عبد الله بن عبَّاس.

والحديث صحَّحه الألباني في «صحيح الجامع الصَّغير» برقم (٧٧٦٠)، و«السِّلسلة الصَّحيحة» برقم (٥٤١).

مـن جمالِ الأفعالِ استدلَّ بـه على جمال الصفاتِ، ثمَّ استدلَّ بجمالِ الصفـاتِ على جمالِ الذاتِ.

ومن ها هنا يتبيَّنُ أنَّه سُبْحَانَهُ له الحمدُ كلُّه، وأنَّ أحدًا من خلقِه لا يُحصي ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسِه.

وأنَّه يستَحِقُّ أن يُعبَدَ لذاتِه، ويُحَبّ لذاتِه، ويُشكَر لذاتِه.

وأنَّه سُبْحَانَهُ يحبُّ نفسَه ويُثني على نفسِه ويحمد نفسَه، وأنَّ محبَّته لنفسِه وحمدَه لنفسِه وثناءَه على نفسِه وتوحيدَه لنفسِه هو في الحقيقةِ الحمدُ والثناءُ والحبُّ والتوحيدُ؛ فهو سُبْحَانَهُ كما أثنى على نفسِه وفوقَ ما يُثني به عليه خلقه، وهو سُبْحَانَهُ كما يُحِبُّ ذاتَه يحبُّ صفاتِه وأفعالَه، فكلُّ أفعالِه حسَنٌ محبوبٌ، وإن كان في مفعولاتِه ما يُبغِضُه ويكرهه؛ فليس في أفعالِه ما هو مكروهٌ مسخوطٌ، وليسَ في الوجودِ ما يُحَبُّ لذاتِه ويُحمَدُ لذاتِه إلَّا هو سُبْحَانَهُ، وكلُّ ما يُحَبُّ سواه؛ فإن كانت محبّته تابعةً لمحبتِّه سُبْحَانَهُ، بحيث يُحَبُّ لأجلِه فَمَحبتُّهُ صحيحةٌ، وإلَّا فهي محبَّةٌ باطلةٌ، وهذا هو حقيقةُ الإلهيَّة؛ فإنَّ الإله الحقّ هو الذي يُحَبُّ لذاتِه ويُحمَدُ لذاتِه؛ فكيف إذا انضاف إلى ذلك إحسانه وإنعامه وحلمه وتجاوزه وعفوه وبرّه ورحمته؟!

فعلى العبدِ أن يعلمَ أنَّه لا إلهَ إلَّا الله فيُحبّهُ ويحمدهُ لذاتِه وكمالِه، وأن يعلم أنَّه لا مُحسنٌ على الحقيقةِ بأصنافِ النِّعم الظَّاهرةِ والباطنةِ إلَّا هو، فيحبُّه لإحسانِه وإنعامِه ويحمدُه على ذلك؛ فيحبُّه من الوجهين جميعًا.

وكما أنَّه ليسَ كمثلِه شيءٌ؛ فليسَ كمحبتِّه محبَّةٌ.

والمحبَّةُ مع الخضوعِ هي العبوديَّةُ التي خُلِقَ الخلقُ لأجلِها؛ فإنَّها: غايةُ الحبِّ بغايةِ الذُّلِّ، ولا يصلحُ ذلك إلَّا له سُبْحَانَهُ، والإشراكُ به في هذا هو الشِّركُ الذي لا يَغفرُه الله ولا يقبَلُ لصاحبِه عملًا.

وحمدُه يتضمَّنُ أصلينِ: الإخبارُ بمحامدِه وصفاتِ كمالِه، والمحبَّةُ له عليها؛ فمن أخبَرَ بمحاسنِ غيره من غير محبَّةٍ له لم يكن حامدًا، ومن أحبَّهُ من غير إخبارٍ بمحاسنِه لم يكن حامدًا، حتى يجمَع الأمرين.

وهو سُبْحَانَهُ يحمدُ نفسَهُ بنفسِه، ويحمدُ نفسَهُ بما يُجريه على ألسنةِ الحامدينَ له من ملائكتِه وأنبيائِه ورسلِه وعبادِه المؤمنين؛ فهو الحامدُ لنفسِه بهذا وهذا؛ فإنَّ حَمدَهُم له بمشيئتِه وإذنِه وتكوينِه؛ فإنَّه هو الَّذي جعل الحامدَ حامدًا والمسلمَ مسلمًا والمصلِّيَ مصلِّيًا والتَّائبَ تائبًا؛ فمنه ابتدأت النِّعمُ وإليه انتهت، فابتدأتْ بحمدِه وانتهتْ إلى حمدِه، وهو الذي ألهمَ عبدَهُ التَّوبةَ وفرِحَ بها أعظمَ فرحٍ وهي من فضلِه وجودِه، وألهم عبدَه الطَّاعةَ وأعانَهُ عليها، ثمَّ أثابَه عليها وهي من فضلِه وجودِه.

وهو سُبْحَانَهُ غنيٌّ عن كلِّ ما سواه بكلِّ وجهٍ، وما سواهُ فقيرٌ إليه بكلِّ وجهٍ، والعبدُ مفتقرٌ إليه لذاتِه في الأسبابِ والغاياتِ؛ فإنَّ مالا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا ينفع.



فَصْلٌ

وقولُه في الحديثِ: «**إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالِ**»[(١)] يتناولُ: جمالَ الثيابِ المسؤولِ عنه في نفسِ الحديثِ، ويدخلُ فيه بطريقِ العمومِ الجمالُ من كلِّ شيءٍ.

كما في الحديث الآخر: «**إنَّ الله نظيفٌ يحبُّ النظافةَ**»[(٢)].

وفي الصحيح: «**إنَّ الله طَيِّبٌ لا يقبلُ إلَّا طيِّبًا**»[(٣)].

وفي السنن: «**الله يحبُّ أن يرى أثرَ نعمتِه على عبدِه**»[(٤)].

وفيها عن أبي الأحوص الجُشَمي[(٥)] قال: رآني النبي ﷺ وعليَّ أطمارٌ، فقالَ: «**هلْ لكَ من مالٍ؟**» قلتُ: نعم، قال: «**من أيِّ المال؟**» قلتُ: من كلِّ ما آتى الله من الإبلِ والشاءِ، قال: «**فلْتُرَ نعمتُه وكرامتُه عليك**»[(٦)].

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٧٩٩) من حديث عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، والحديث ضعيف لضعف خالد بن إلياس ويقال: ابن إياس، فقد قال فيه البخاري: «منكر الحديث»، كما في «التاريخ الأوسط» (٤/ ٦٨٢)، وقال الإمام أحمد: «متروك الحديث»، كما في «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٣/ ٣٢١).
ولذلك ضعَّف الحديث الشيخ الألباني كما في «ضعيف سنن الترمذي».

(٣) أخرجه مسلم برقم (٦٥-١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**أيُّها النَّاسُ إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المؤمنينَ بمَا أمَرَ به المرْسَلِينَ فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذكر الرَّجلَ يُطيلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيهِ إلَى السَّماءِ يا رَبِّ يا رَبِّ، وَمطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وغُذِيَ بالحرام فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ**».

(٤) أخرجه الترمذي برقم (٢٨١٩)، وأحمد في «المسند» رقم (٦٧٠٨)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، والحديث حسَّنه الألباني كما في «صحيح سنن الترمذي».

(٥) أي: عن أبيه، فكأنها ساقطة من الأصل.

(٦) أخرجه أبو داود برقم (٤٠٦٣)، والترمذي برقم (٢٠٠٦)، والنسائي برقم (٥٢٢٤، ٥٢٩٤)، =

فهـو سُبْحَانَهُ يحبُّ ظهورَ أثرِ نعمتِه عـلى عبدِه؛ فإنَّه من الجمالِ الَّذي يحبُّه، وذلك من شُـكرِه عـلى نِعَمِـه، وهو جمالٌ باطـنٌ؛ فيحبُّ أن يرى على عبـدِه الجمالَ الظَّاهـرَ بالنِّعمةِ، والجمالَ الباطنَ بالشُّكرِ عليها.

ولمحبَّتِـه سُبْحَانَهُ للجـمالِ أنـزلَ على عبـادِه لباسًـا وزينةً تُجمِّـلُ ظواهِرَهـم، وتقوًى تُجمِّـلُ بواطنَهـم، فقـال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقـالَ في أهلِ الجنـة ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١١ - ١٢]، فجمَّلَ وجوهَهم بالنظرةِ، وبواطِنَهم بالسُّرورِ، وأبدانَهم بالحريرِ.

وهـو سُبْحَانَهُ كما يحـبُّ الجمالَ في الأقوالِ والأفعالِ واللِّبـاسِ والهيئةِ، يُبغِضُ القبيحَ من الأقوالِ والأفعالِ والثِّيابِ والهيئةِ؛ فيبغضُ القبيحَ وأهلَه، ويحبُّ الجمالَ وأهلَه.

ولكنْ ضلَّ في هذا الموضوعِ فريقان:

فريقٌ قالوا: كلُّ ما خلقَه جميلٌ؛ فهو يحبُّ كلَّ ما خلقَه، ونحن نحبُّ جميعَ ما خلقَه؛ فلا نبغضُ منه شيئًا، قالوا: ومَن رأى الكائناتِ منه رآها كلَّها جميلةٌ، وأنشدَ منشدُهم:

وإذا رأيـتَ الـكـائـنـاتِ بعينِهم　　　فجميعُ ما يحوِي الوجودُ مَليحُ

واحتجـوا بقولـه تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، وقولـه: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ [الملك: ٣].

والعـارفُ عندهـم هو الـذي يُصرِّح بإطـلاقِ الجـمالِ ولا يرى في الوجـودِ قبيحًا، وهـؤلاء قـد عُدِمَتْ الغَيرَةُ لله من قلوبِهـم، والبغضُ في الله والمعاداةُ فيـه، وإنكارُ المنكرِ، والجهـادُ في سـبيله، وإقامةُ حدودِه، ويـرى جمالَ الصُّورِ من الذُّكـورِ والإناثِ من الجمالِ

= والإمـام أحمد برقـم (١٥٨٨٨، ١٥٨٨٩، ١٥٨٩١، ١٧٢٢٩)، وصححـه الشـيخ الألبـاني كـما في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٣٢٠).

الذي يحبُّه الله، فيتعبَّدون بفسقِهم، وربَّما غَلَا بعضُهم حتَّى يزعمَ أنَّ معبودَه يظهر في تلك الصُّورةِ ويحلُّ فيها! وإن كانَ اتحاديًّا قال: هي مظهرٌ من مظاهرِ الحقِّ، ويسمِّيها المظاهر الجمالية!!



فَصْلٌ

وقابلَهـم الفريقُ الثاني فقالـوا: قد ذَمَّ الله سُبحَانَهُ جمالَ الصُّورِ وتمـامَ القامةِ والخلقةِ فقـال عن المنافقـين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤]، أيْ: أموالًا ومناظرَ، قال الحسن: هو الصُّورَ[١].

وفي صحيـح مسـلم عنـه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن اللهَ لا ينظـرُ إلى صُورِكـم وأموالِكم، وإنَّما ينظُرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم**»[٢].

قالـوا: ومعلـومٌ أنَّـه لم ينفِ نظـرَ الإدراكِ، وإنَّما نفى نظـرَ المحبَّةِ، قالـوا: وقد حرَّمَ علينـا لباس الحرير والذَّهب وآنية الذَّهب والفضَّة، وذلك من أعظمِ جمالِ الدُّنيا، وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وفي الحديث: «**البَذاذةُ من الإيمانِ**»[٣].

وقد ذمَّ الله المسرفينَ، والسَّرفُ كما يكونُ في الطعامِ والشَّـرابِ يكون في اللِّباسِ.

وفصلُ النزاعِ أن يقال: الجمالُ في الصُّورَةِ واللِّباسِ والهيئةِ ثلاثة أنواعٍ:

منه ما يُحمَدُ، ومنه ما يُذَمُّ، ومنه مالا يتعلَّقُ به مدحٌ ولا ذمٌّ.

---

(١) انظر: «تفسير يحيى بن سلام» (١/ ٢٣٩ الكتب العلمية)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٤/ ٣٠٥)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٢٥٨ طيبة).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٣٤- ٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجـه ابن ماجه برقـم (٤١١٨)، والإمام أحمد برقم (٥٨) من حديث أبي أمامة الحارثي، والحديث في «صحيح الجامع الصغير» برقم (٥١٩٠).

وأخرجـه أبـو داود برقم (٤١٦١) من حديث محمد بن إسـحاق عن عبد الله بن أبي أمامة عن عبد الله ابن كعب عن أبي أمامة، وهذا إسناد ضعيف؛ لعنعنة محمد بن إسحاق؛ فإنه كثير التدليس.

وقـد أطال الشـيخ الألباني تخريج الحديث، وبيَّن الصواب في إسـناده في «السلسـلة الصحيحة» برقم (٣٤١)، فلينظر فإنَّه مهم.

فالمحمودُ منه ما كان لله، وأعانَ على طاعة الله، وتنفيذِ أوامرِه والاستجابةِ له، كما كان النبيُّ ﷺ: يتجمَّلُ للوفودِ[1]، وهو نظيرُ لباسِ آلةِ الحربِ للقتالِ، ولباسِ الحريرِ في الحربِ والخُيلاء فيه، فإنَّ ذلكَ محمودٌ إذا تضمَّنَ إعلاءَ كلمةِ الله ونصرَ دينِه وغيظَ عدوِّه.

والمذمومُ منه ما كانَ للدُّنيا والرِّئاسةِ والفخرِ والخيلاءِ، والتَّوسُّلِ إلى الشَّهواتِ، وأن يكون هو غايةُ العبدِ وأقصى مطلبه؛ فإنَّ كثيرًا من النفوسِ ليس لها همَّة في سوى ذلك.

وأمَّا مالا يُحمَدُ ولا يُذَمُّ هو ما خلا عن هذين القصدين وتجرَّدَ عن الوصفين.

والمقصودُ: أنَّ هذا الحديث الشَّريف مشتمِلٌ على أصلين عظيمين؛ فأوَّلُه معرفةٌ، وآخرُه سلوكٌ، فيُعرَفُ الله سُبحَانَهُ بالجمالِ الَّذي لا يماثِلُه فيه شيءٌ، ويُعبَدُ بالجمالِ الَّذي يحبُّه من الأقوالِ والأعمالِ والأخلاقِ، فيحبُّ من عبدِه أن يُجمِّلَ لسانَه بالصِّدقِ، وقلبه بالإخلاصِ والمحبَّةِ والإنابةِ والتَّوكُّلِ، وجوارحَه بالطَّاعةِ، وبدنَه بإظهارِ نعَمِهِ عليه في: لباسِه وتطهيرِه له من الأنجاسِ والأحداثِ والأوساخِ والشُّعورِ المكروهةِ والختانِ وتقليمِ الأظفارِ؛ فيعرفُه بصفاتِ الجمالِ ويتعرَّفُ إليه بالأفعالِ والأقوالِ والأخلاقِ الجميلةِ؛ فيعرفُه بالجمالِ الَّذي هو وصفُه، ويعبدُه بالجمالِ الَّذي هو شرعُه ودينُه، فجمعَ الحديثُ قاعدتين: المعرفةُ والسُّلوكِ.

---

(١) أخرج البخاري برقم (٨٨٦)، ومسلم برقم (٦- ٢٠٦٨) من حديث عبد الله بن عمر بلفظ: أن عمر ابن الخطاب رأى حلَّة سيراء عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله لو اشتريتَ هذه فلبستها للنَّاس يوم الجمعة، وللوفد إذا قدموا عليك، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذِهِ مَن لَا خَلَاقَ لَه فِي الآخِرَةِ**»، ثمَّ جاءت رسول الله ﷺ منها حُلل، فأعطى عمر منها حلَّة، فقال عمر: يا رسول الله، كسوتَنيها، وقد قلتَ في حلَّة عطارد ما قلت؟! فقال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لم أَكْسُكَهَا لِتَلْبَسَهَا**»، فكَسَاهَا عمرُ أخًا له مشركًا بمكَّة.

فَصْلٌ

ليسَ للعبدِ شيءٌ أنفع من صدقِه ربَّه في جميعِ أمورِه، مع صدقِ العزيمةِ فيَصدُقُه في عزمِه وفي فعلِه، قال تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

فسعادتُه في صدقِ العزيمةِ وصدقِ الفعل، فصدقُ العزيمةِ: جمعُهَا وجزمُها وعدمُ التَّرددِ فيها، بل تكون عزيمةً لا يشوبُها تردُّدٌ ولا تلوُّمٌ، فإذا صدقتْ عزيمتُه بقيَ عليه صدقُ الفعلِ، وهو استفراغُ الوسعِ وبذلُ الجهدِ فيه، وأنْ لا يتخلَّفَ عنه بشيءٍ من ظاهرِه وباطنِه، فعزيمةُ القصدِ تمنعُه من ضعفِ الإرادةِ والهمَّةِ، وصدقُ الفعلِ يمنعُه من الكسلِ والفُتُورِ.

ومَن صدَقَ اللهَ في جميعِ أموره صنعَ الله له فوقَ ما يصنعُ لغيرِه.

وهذا الصِّدقُ معنًى يلتئِمُ من صحَّةِ الإخلاصِ وصدقِ التَّوكُّلِ؛ فأصدقُ النَّاسِ مَنْ صحَّ إخلاصُهُ وتوكُّلُه.



فائدة جليلة في القدر

ربٌّ ذو إرادةٍ أمرَ عبدًا ذا إرادةٍ:

فإن وفَّقَهُ أرادَ من نفسِه أن يُعينَه ويُلهِمَه فعلَ ما أُمِرَ به.

وإن خَذَلَه وخلّاه وإرادتَه ونفسَه، وهو من هذه الحيثيَّةِ لا يختارُ إلَّا ما تهواه نفسُه وطبعُه؛ فهو من حيث هو إنسانٌ لا يريدُ إلَّا ذلك، ولذلكَ ذمَّه الله في كتابِه من هذه الحيثيَّةِ، ولم يمدحه إلَّا بأمرٍ زائدٍ على تلكَ الحيثيَّةِ، وهو كونُه مسلمًا ومؤمنًا وصابرًا ومحسنًا وشكورًا وتقيًّا وبَرًّا ونحو ذلك. وهذا أمرٌ زائدٌ على مجرَّدِ كونِه إنسانًا وإرادته صالحة، ولكن لا يكفي مجرَّدُ صلاحيَّتها إن لم تؤيَّد بقدرٍ زائدٍ على ذلك وهو التَّوفيقُ؛ كما أنَّه لا يكفي في الرُّؤيةِ مجرَّدُ صلاحيَّةِ العينِ للإدراكِ إن لم يحصلْ سببٌ آخر من النُّورِ المنفصلِ عنها.



فَصْلٌ

مـن أعظمِ الظُّلمِ والجهـلِ أن تطلُبَ التَّعظيمَ والتَّوقيرَ مـن الناسِ وقلبُك خالٍ من تعظيـمِ الله وتوقـيرِه، فإنَّـكَ تُوقِّـرُ المخلـوقَ وتُجلُّه أن يـراكَ في حالٍ لا تُوقِّـرُ الله أن يراكَ عليها.

قـال تَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، أيْ: لا تُعامِلُونَـه معاملةَ مَنْ تُوقِّرُونَه، والتوقيرُ: العَظَمَةُ[(١)]، ومنه قوله تَعَالَى: ﴿وَتُوَقِّـرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

قال الحسن: ما لكمْ لا تَعرفونَ لله حقًّا ولا تَشْكرُونَه[(٢)].

وقال مجاهد: لا تُبالُونَ عظمةَ ربِّكم[(٣)].

وقال ابن زيد: لا ترونَ لله طاعةً[(٤)].

وقال ابن عباس: لا تعرفونَ حقَّ عظمتِه[(٥)].

وهـذه الأقوالُ ترجعُ إلى معنىً واحدٍ وهو: أنَّهم لو عظَّموا الله وعَرَفَوا حقَّ عظَمَتِه وحَّدُوه وأطاعُوه وشَـكروه؛ فطاعتُه سُبْحَانَهُ اجتنابُ معاصيه والحياءُ منه بحسـبِ وقَارِهِ في القلـب، ولهذا قال بعضُ السَّـلفِ: ليعْظُمْ وقـارُ الله في قلبِ أحدِكُـم أن يذْكُرَه عندما يستحيي مـن ذكرِه فيَقْرِنَ اسـمه به، كـما تقول: قبَّـحَ الله الكلبَ والخنزيـرَ والنَّتنَ ونحو ذلك، فهذا من وَقَارِ الله[(٦)].

---

(١) وبه قال ابن عباس ومجاهد والضحاك، كما في «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٩٣).

(٢) «الدر المأثور» (١٤/ ٧٠٦).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٩٥).

(٤) المصدر نفسه (٢٣/ ٢٩٧).

(٥) المصدر نفسه (٢٣/ ٢٩٥).

(٦) أخرج ابـن المبارك في «الزهد» (١/ ٧١)، وابن أبي شـيبة في «المصنف» رقم (٣٥١٣٦ الحوت)، وابن =

ومن وقارِه: أن لا تعدلَ به شيئًا من خلقهِ، لا في اللَّفظِ بحيث تقول: والله وحياتك مالي إلَّا الله وأنت، وما شاءَ الله وشئتَ، ولا في الحُبِّ والتَّعظيمِ والإجلالِ، ولا في الطَّاعةِ فتطيعَ المخلوقَ في أمره ونهيه كما تطيع الله بل أعظم، كما عليه أكثرُ الظَّلمةِ والفجَرَةِ، ولا في الخوفِ والرَّجاءِ ويجعلُه أهونَ النَّاظرين إليه، ولا يستهين بحقِّه ويقول: هو مبنيٌّ على المسامحةِ، ولا يجعله على الفضلة ويقدّم حقَّ المخلوقِ عليه، ولا يكون الله ورسوله في حدٍّ وناحيةٍ والناس في ناحيةٍ وحدٍّ، فيكون في الحدِّ والشِّقِّ الذي فيه النَّاس دون الحدِّ والشِّقِّ الذي فيه الله ورسوله، ولا يعطي المخلوق في مخاطبتِه قلبَه ولبَّه، ويعطي الله في خدمتِه بدنَه ولسانَه دونَ قلبِه وروحِه، ولا يجعل مراد نفسه مقدَّمًا على مرادِ ربِّه.

فهذا كلُّه من عدمِ وقارِ الله في القلبِ، ومن كان كذلك فإنَّ الله لا يُلقي له في قلوبِ النَّاسِ وقارًا ولا هيبةً، بل يُسقِطُ وقارَه وهيبتَه من قلوبِهم، وإنْ وقَّروه مخافةَ شرِّه فذاكَ وقارُ بغضٍ لا وقارَ حبٍّ وتعظيمٍ.

ومن وقارِ الله أن يستحييَ من اطِّلاعِه على سرِّه وضميره فيرى فيه ما يكره.

ومن وقارِه أن يستحييَ منه في الخَلْوَةِ أعظم مما يستحيي من أكابرِ النَّاس.

والمقصود أنَّ من لا يوقِّرُ الله وكلامَه وما آتاه من العلمِ والحكمَةِ، كيف يطلبُ من النَّاسِ توقيرَه وتعظيمَه.

= أبي الدنيا في «الصمت» (ص: ٢٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٨)، عن مُطَرِّف قال: «لِيَعْظُمْ جَلَالُ اللهِ فِي صُدُورِكُمْ، فَلَا تَذْكُرُوهُ عِنْدَ مِثْلِ هَذَا: قَوْلُ أَحَدِكُمْ لِلْكَلْبِ، اللَّهُمَّ أَخْزِهِ، وَلِلْحِمَارِ وَالشَّاةِ». وإسناده صحيح.

وذكره الخطابي في «شأن الدعاء» (١/ ١٨ الدقاق) عن عونٍ فقال: «وقد روينا عن عونِ بنِ عبد الله، أنهُ كانَ يقولُ: «ليعظِّمْ أحدُكُم ربَّهُ، أن يذكرَ اسمَه في كلِّ شيء، حتَّى يقولَ: أخزَى اللهُ الكلبَ، وفعلَ اللهُ بِهِ كذا».

القرآنُ والعلمُ وكلامُ الرسولِ ﷺ صِلاتٌ من الحقِّ وتنبيهاتٌ وروادِعُ وزواجِرُ واردةٌ إليكَ، والشَّيبُ زاجِرٌ ورادِعٌ وموقِظٌ قائمٌ بك، فلا ما وردَ إليك وعظَكَ، ولا ما قامَ بكَ نصحَكَ، ومع هذا تطلبُ التَّوقيرَ والتعظيمَ من غيرِكَ!، فأنتَ كمصابٍ لم تؤثِّرْ فيه مصيبتُه وعظًا وانزجارًا، وهو يطلبُ من غيره أن يتَّعظَ وينزجرَ بالنظرِ إلى مُصابِه، فالضربُ لم يؤثِّرْ فيه زجرًا وهو يريدُ الانزجارَ ممن نظرَ إلى ضربِه!

منْ سَمِعَ بالمثُلَاتِ والعقوباتِ والآياتِ في حقِّ غيره ليسَ كمنْ رآها عيانًا في غيره، فكيفَ بمن وجدَها في نفسِه، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، فآياتُه في الآفاقِ مسموعةٌ معلومةٌ، وآياتُه في النفسِ مشهودةٌ مرئيَّةٌ، فعياذًا بالله من الخذلان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

والعاقلُ المؤيَّدُ بالتوفيقِ يعتبِرُ بدون هذا، ويُتَمِّم نقائصَ خلقتِه بفضائلَ أخلاقِه وأعمالِه، فكلَّما امتحِيَ من جُثمانِه أثرٌ زادَ إيمانُه، وكلَّما نقصَ من قُوَى بدنِه زادَ في قوَّةِ إيمانِه ويقينِه ورغبتِه في الله والدَّارِ الآخرة.

وإن لم يكنْ هكذا فالموتُ خيرٌ له؛ لأنَّه يقِفُ به على حدٍّ معيَّنٍ من الألمِ والفسادِ؛ بخلافِ العيوبِ والنقائص مع طولِ العمر؛ فإنَّها زيادةٌ في ألمِه وهمِّهِ وغمِّه وحسرتِه، وإنَّما حَسُنَ طولُ العمرِ ونفعَ ليحصل التَّذكُّر والاستدراك واغتنامِ الفرْصَةِ[1] والتوبةِ النصوح؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة المجمع: (الفرص).

فمـنْ لم يُورِثْـه التعمـيرُ وطولُ البقـاءِ إصلاحَ معايبِه وتـداركَ فارطِـه واغتنامَ بقية أنفاسِـه، فيعمـل عـلى حياةِ قلبهِ وحصـول النعيم المقيـم، وإلا فلا خيرَ لـه في حياتِه، فإنَّ العبدِ على جناحِ سَفرٍ إمَّا إلى الجنةِ وإمَّا إلى النارِ.

فإذا طالَ عُمُرُه وحَسُـنَ عملُه كانَ طولُ سـفرِه زيادةً له في حصولِ النعيمِ واللذَّةِ، فإنَّه كلَّما طالَ السـفرُ إليها كانت الصَّبابَةُ أجلَّ وأفضلَ، وإذا طالَ عُمُرُه وسـاءَ عملُه كانَ طولُ سـفرِه زيادةً في ألمِه وعذابِه ونزولًا له إلى أسـفل، فالمسافِرُ إمَّا صاعدٌ وإمَّا نازلٌ، وفي الحديـث المرفـوع: «**خيركم من طالَ عمُرُه، وحَسُـنَ عملُه، وشَـرُّكم من طالَ عمُرُه، وقَبُحَ عملُه**»[1].

فالطَّالـبُ الصـادقُ في طلبِـه كلَّما خَرِبَ شيءٌ مـن ذاتِه جعله عـمارةً لقلبِه وروحِه، وكلَّـما نقـصَ شيءٌ من دنياه جعلـه زيادةً في آخرتِه، وكلَّما مُنِعَ شـيئًا من لذَّاتِ دنياه جعله زيادةً في لذَّاتِ آخرتِه، وكلَّما ناله همٌّ أو حَزَنٌ أو غمٌّ جعله في أفراحِ آخرتِه؛ فنقصانُ بدنِه ودنيـاه ولذَّتِه وجاهِه ورئاسـتِه: إن زادَ في حصولِ ذلك وتوفيرِه عليه في معادِه كان رحمةً بـه وخـيرًا له، وإلَّا كان حرمانًا وعقوبةً على ذنـوبٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ أو تركِ واجبٍ ظاهرٍ أو باطنٍ، فإنَّ حرمانَ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ مرتَّبٌ على هذه الأربعةِ. وبالله التوفيق.

❁❁❁

---

(١) أخرج الترمذي برقم (٢٣٢٩)، والإمام أحمد برقم (١٧٦٨٠) من حديث عبد الله بن بسر، وأخرجه الترمـذي برقـم (٢٣٣٠)، والإمام أحمد برقم (٢٠٤١٥) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه بلفظ: أن رجلًا قال: يا رسـول الله أيُّ الناس خير؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمرُهُ، وَحَسُـنَ عَمَلُه**»، قال: فأيُّ النَّاس شرٌّ؟ قال: «**مَن طَالَ عُمرُهُ وَسَاءَ عَمَلُه**».

والحديث صحَّحه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» برقم (٥٦٠٧، ٥٦٠٨).

ولم أجد من خرج الحديث بلفظ المؤلف، فكأنما رواه بالمعنى، والله أعلم.

فَائِدَة

النـاسُ منـذ خُلِقوا لم يَزالوا مسـافرين، وليس لهم حَظٌّ عن رحالِهـم إلَّا في الجنَّةِ أو النَّارِ.

والعاقلُ يعلمُ أنَّ السَّـفرَ مبنيٌّ على المشـقَّةِ وركوبِ الأخطار، ومن المحالِ عادةً أن يُطلَـبَ فيـه نعيمٌ ولذَّةٌ وراحةٌ، إنَّما ذاك بعدَ انتهاءِ السَّـفرِ، ومن المعلـومِ أنَّ كلَّ وطأةِ قدمٍ أو كلَّ آنٍ من آناتِ السَّـفرِ غير واقفةٍ، ولا المكلَّفُ واقفٌ، وقد ثبتَ أنَّه مسـافرٌ على الحالِ التي يجبُ أن يكونَ المسافرُ عليها من تهيئَةِ الزَّادِ الموصلِ، وإذا نزلَ أو نامَ أو استراحَ فعلى قدمِ الاستعدادِ للسَّيرِ.



فَائِدَة

عند العارفينَ أنَّ الاشتغالَ بالمشاهدَةِ عن البرِّ في السَّيرِ وقوفٌ؛ لأنَّه في زمنِ المشاهدَةِ لو كان صاحبَ عملٍ ظاهرٍ أو باطنٍ أو ازديادٍ من معرفةٍ وإيمانٍ مفصَّلٍ كان أولى به، فإنَّ اللّطيفةَ الإنسانيَّةَ تحشَرُ على صورةِ عملِها ومعرفتِها وهمَّتِها وإرادتِها، والبدنُ يحشَرُ على صورةِ عملِه الحسنِ أو القبيحِ، وإذا انتقلتْ من هذه الدَّار شاهدتْ حقيقة ذلك.

وعلى قدرِ قُربِ قلبِكَ من الله تَبعُدُ من الأُنسِ بالناسِ ومساكنتِهم، وعلى قدرِ صيانتِكَ لسرِّكَ وإرادتِكَ يكونُ حفظُه، وملاكُ ذلكَ صحَّةُ التوحيدِ، ثم صحَّةُ العلمِ بالطريقِ، ثم صحَّةُ الإرادةِ، ثم صحَّةُ العملِ.

والحذرَ كلَّ الحذرِ من قصدِ الناسِ لكَ وإقبالِهم عليكَ، وأن يَعثُروا على موضعِ غرضِكَ؛ فإنَّها الآفةُ العُظمَى.



فَائِدَة

كلُّ ذي لُبٍّ يعلمُ أنَّه لا طريقَ للشَّيطانِ عليه إلَّا من ثلاثِ جهات:

أحدها: التزيُّدُ والإسرافُ، فيزيدُ على قدرِ الحاجةِ فتصيرُ فضلةً، وهي حظُّ الشَّيطانِ ومدخلُه إلى القلبِ، وطريقُ الاحترازِ[1] من إعطاءِ النفسِ تمامَ مطلوبِها من غذاءٍ أو نومٍ أو لذَّةٍ أو راحةٍ؛ فمتى أغلقتَ هذا البابَ حصلَ الأمانُ من دخولِ العدوِّ منه.

الثانية: الغفلةُ؛ فإنَّ الذَّاكرَ في حصنِ الذِّكرِ، فمتى غفلَ فتحَ بابَ الحصنِ، فولجَهُ العدوُّ، فيعسُرَ عليه أو يصعبُ إخراجُه.

الثالثة: تكلُّفُ مالا يعنيه من جميعِ الأشياء.



(١) **والمقصود**: وطريق الاحتراز من الشيطان الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها. والله أعلم.

فَائِدَة

طالبُ النفوذِ إلى الله والدَّارِ الآخرةِ، بل وإلى كلِّ علمٍ وصناعةٍ ورئاسةٍ بحيثُ يكونُ رأسًا في ذلكَ مقتدًى به فيه، يحتاجُ أنْ يكونَ شجاعًا مِقْدَامًا حاكمًا على وهمِه، غيْرَ مقهورٍ تحتَ سلطانِ تخيُّلِه، زاهدًا في كلِّ ما سوى مطلوبِه، عاشقًا لما توجَّه إليه، عارفًا بطريقِ الوصولِ إليه والطُّرُقِ القواطِعِ عنه، مِقْدامَ الهمّةِ، ثابتَ الجأشِ، لا يَثْنِيه عن مطلوبِه لومَ لائمٍ ولا عذلُ عاذلٍ، كثير السُّكونِ، دائم الفكرِ، غير مائلٍ مع لذَّةِ المدحِ ولا ألَمِ الذمِّ، قائما بما يحتاجُ إليه من أسبابِ معونتِه، لا تستفِزُّه المعارضَاتُ، شعارُه الصَّبْرُ، وراحتُه التعبُ، محبًّا لمكارمِ الأخلاقِ، حافظًا لوقتِه، لا يخالِطُ الناسَ إلَّا على حذرٍ كالطائرِ الذي يلتقطُ الحبَّ بينهم، قائمًا على نفسِه بالرَّغبةِ والرَّهبةِ، طامعًا في نتائجِ الاختصاصِ على بني جنسِه، غيرَ مرسلٍ شيئًا من حواسِّه عبثًا، ولا مسرِّحًا خواطرَه في مراتبِ الكون.

وملاكُ ذلكَ هجرُ العوائدِ وقطعُ العلائِقِ الحائلَةِ بينكَ وبين المطلوب.

وعندَ العوام أنَّ لزومَ الأدب مع الحجابِ خيرٌ من اطِّراحِ الأدب مع الكشفِ.



فَائِدَة

مـن الذَّاكريـن من يبتـدئُ بذكرِ اللسـان، وإنْ كانَ على غفلةٍ، ثمَّ لا يـزالُ فيه حتى يحضرَ قلبُه، فيتواطآ على الذِّكرِ.

ومنهم من لا يرى ذلكَ، ولا يبتدىءُ على غفلةٍ، بل يسكنُ حتى يحضرَ قلبُه، فيشرَعُ في الذِّكرِ بقلبِه؛ فإذا قويَ استتبعَ لسانَه فتواطآ جميعًا.

فالأوَّلُ ينتقلُ الذِّكرُ من لسانِه إلى قلبِه.

والثَّانـي ينتقـلُ من قلبِه إلى لسـانِه، من غيرِ أن يخلوَ قلبُه منه، بل يسـكنُ أوَّلًا حتى يحـسَّ بظهـورِ النَّاطقِ فيه، فإذا أحسَّ بذلـكَ نطقَ قلبُه، ثمَّ انتقلَ النُّطـقُ القلبيُّ إلى الذِّكرِ اللِّساني، ثمَّ يستغرقُ في ذلكَ حتَّى يجد كلَّ شيءٍ منه ذاكرًا.

وأفضـلُ الذّكرِ وأنفعُـه: ما واطأ فيه القلبُ اللِّسـانَ، وكانَ مـن الأذكارِ النبويَّةِ، وشهدَ الذَّاكرُ معانيه ومقاصدِه.



فصل

أنفعُ النَّاس لك: رجلٌ مكّنكَ من نفسِه حتى تزرعَ فيه خيرًا أو تصنعَ إليه معروفًا، فإنَّه نِعْمَ العونُ لكَ على منفعتِكَ وكمالِكَ؛ فانتفاعُكَ به في الحقيقةِ مثلُ انتفاعِه بكَ أو أكثر.

وأضرُّ النّاس عليك: مَن مكّنَ نفسَه منكَ حتَّى تعصيَ الله فيه، فإنَّه عونٌ لكَ على مضرَّتِكَ ونقصِكَ.



فصل

اللَّذَّةُ المحرَّمةُ ممزوجةٌ بالقُبحِ حالَ تناولِها، مثمرةٌ للألمِ بعدَ انقضائِها، فإذا اشتدَّتْ الدَّاعيةُ منكَ إليها، ففكِّرْ في انقطاعِها وبقاءِ قُبحِها وألمِها، ثمَّ وازنْ بينَ الأمرين؛ وانظر ما بينهما من التَّفاوتِ.

والتَّعبُ بالطَّاعةِ ممزوجٌ بالحسنِ، مثمِرٌ للَّذَّةِ والرَّاحةِ؛ فإذا ثقُلتْ على النَّفسِ، ففكِّرْ في انقطاعِ تعبِها وبقاءِ حُسنِها ولذَّتِها وسرورِها، ووازنْ بينَ الأمرين، وآثِرِ الرَّاجِحِ على المرجوحِ.

فإن تألَّمتَ بالسَّببِ فانظرْ إلى ما في المسبَّبِ من الفرحةِ والسُّرورِ واللَّذَّةِ، يَهُنْ عليك مُقاساتُه. وإن تألَّمْتَ بتركِ اللَّذَّةِ المحرَّمةِ فانظرْ إلى الألَمِ الَّذي يعقُبُه ووازنْ بينَ الألمين.

وخاصيةُ العقلِ تحصيلُ أعظمِ المنفعتَين بتفويتِ أدناهما، واحتمالُ أصغرِ الألمين لدفعِ أعلاهما.

وهذا يحتاجُ إلى عِلْمٍ بالأسبابِ ومقتضياتِها، وإلى عَقْلٍ يختارُ به الأولى والأنفعَ له منها؛ فمن وَفَرَ قسمُه من العقلِ والعلمِ اختارَ الأفضلَ وآثرَه، ومَن نقصَ حظُّه منهما أو من أحدِهما اختارَ خلافَه، ومن فكَّرَ في الدُّنيا والآخرةِ، عَلِمَ أنَّه لا ينالُ واحدًا منهما إلَّا بمشقَّةٍ، فليتحملْ المشقَّةَ لخيرهما وأبقاهما.

❁❁❁

فصل

لله علـى العبـدِ في كلِّ عضوٍ من أعضائِه أمرٌ، وله عليه فيه نهيٌ، وله فيه نِعمةٌ، وله به منفعةٌ ولذَّةٌ.

فإن قامَ لله في ذلكَ العضوِ بأمرِه، واجتنبَ فيه نهيَه، فقد أدَّى شُكرَ نعمتِه عليه فيه، وسعى في تكميلِ انتفاعِه ولذَّتِه به.

وإن عطّـلَ أمـرَ الله ونهيَه فيه، عطّلَه الله من انتفاعِـه بذلكَ العضو، وجعلَه من أكبرِ أسبابِ ألمِهِ ومضرَّتِه.

ولـه عليـه في كلِّ وقتٍ من أوقاتِـه عبوديةٌ تُقدِّمُه إليـه وتُقرِّبُه منه، فإن شَـغَلَ وقتَه بعبوديةِ الوقتِ تقدَّمَ إلى ربِّه، وإن شغلَه بهوى أو راحةٍ وبطالةٍ تأخَّر.

فالعبدُ لا يزالُ في تقدُّمٍ أو تأخُّرٍ ولا وقوفَ في الطَّريقِ البتةَ.

قال تَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المُدَّثِّر: ٣٧].



فَصْلٌ

أقامَ الله سُبْحَانَهُ هذا الخلقَ بينَ الأمرِ والنَّهي، والعطاءِ والمنعِ، فافترقوا فرقتين:

فرقةٌ قابلتْ أمرَه بالتَّركِ، ونهيَه بالارتكابِ، وعطاءَه بالغفلةِ عن الشُّكرِ، ومنعَه بالسّخطِ، وهؤلاء أعداؤُه، وفيهم من العداوةِ بحسبِ ما فيهم من ذلكَ.

وقسمٌ قالوا: إنَّما نحنُ عَبيدُكَ فإنْ أمرتَنا سارعنا إلى الإجابةِ، وإن نهيتَنا أمسكنَا نفوسَنا وكففناها عمَّا نهيتنا عنه، وإن أعطيتَنا حَمَدْناكَ وشكرناكَ، وإن منعتَنا تضرَّعنَا إليكَ وذكرناكَ.

فليسَ بين هؤلاء وبين الجنَّةِ إلَّا سَتْرُ الحياةِ الدُّنيا، فإذا مزَّقه عليهم الموتُ صاروا إلى النعيمِ المقيمِ وقرَّةِ الأعينِ، كما أنَّ أولئكَ ليس بينهم وبين النَّارِ إلَّا سَتْرُ الحياةِ فإذا مزَّقه الموتُ صاروا إلى الحسرةِ والألَمِ.

فإذا تصادمتْ جيوشُ الدُّنيا والآخرةِ في قلبكَ، وأردتَ أن تعلمَ من أيِّ الفريقينِ أنتَ، فانظرْ: مع مَنْ تَميلُ منهما، ومع مَنْ تقاتِلُ، إذ لا يُمكنكَ الوقوفُ بين الجيشين؛ فأنتَ مع أحدِهما لا محالةَ.

فالفريق الأوَّل: استغَشُّوا الهوى فخالَفُوه، واستنصحوا العقلَ فشاوروه، وفرَّغوا قلوبَهم للفكرِ فيما خُلِقوا له، وجوارحَهم للعملِ بما أُمِروا به، وأوقاتَهم لعمارتِها بما يَعمُر منازلَهم في الآخرةِ، واستظهروا على سُرعةِ الأجلِ بالمبادرةِ إلى الأعمالِ، وسكنوا الدُّنيا وقلوبُهم مسافرةٌ عنها، واستوطنوا الآخرةَ قبلَ انتقالِهم إليها، واهتمُّوا بالله وطاعته على قدرِ حاجتِهم إليها، وتزوَّدوا للآخرةِ على قدرِ مقامِهم فيها، فعجَّل لهم سُبْحَانَهُ من نعيمِ الجنَّةِ وروحِها أنْ آنسَهم بنفسِه، وأقبلَ بقلوبِهم إليه، وجمعها على محبَّتِه، وشوَّقهم إلى لقائِه، ونعَّمَهم بقربِه، وفرَّغ قلوبَهم ممَّا ملأَ قلوبَ غيرِهم من محبَّةِ الدُّنيا والهمِّ والحَزَنِ على

فوتها، والغمِّ من خوفِ ذهابِها، فاستلانوا ما استوعرَه المترَفُون، وأنِسُوا بما استوحشَ منه الجاهلون، صَحِبُوا الدُّنيا بأبدانِهم، والملأَ الأعلى بأرواحِهم.



فَصْلٌ

التوحيـدُ ألطفُ شيءٍ وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأدنى شيء يَخدِشُـه ويُدنِّسُـه ويُؤثِّرُ فيـه؛ فهو كأبيض ثـوبٍ يكون يُؤثِّر فيهِ أدنـى أثَر، وكالمرآة الصَّافية جـدًّا أدنى شيءٍ يؤثِّر فيها، ولهذا تُشَوِّشـه اللَّحظة واللَّفظة والشَّـهوة الخفيَّة؛ فإن بادرَ صاحبُه وقلعَ ذلك الأثرَ بضدِّه، وإلَّا استحكمَ وصار طبعًا يتعسَّر عليه قلعُهُ.

وهذه الآثار والطُّبوع الَّتي تحصُل فيه: منها ما يكون سريعَ الحصول سريعَ الزَّوال، ومنهـا مـا يكون سريـعَ الحصول بطيء الـزَّوال، ومنها مـا يكون بطـيء الحصول سريعَ الزَّوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزَّوال.

ولكـن مـن النَّـاسِ مَن يكونُ توحيـدُه كبيرًا عظيـمًا ينغَمِرُ فيه كثيرٌ مـن تلكَ الآثارِ ويسـتحيلُ فيه، بمنزلةِ الماءِ الكثيرِ الَّذي يخالطُه أدنى نجاسـةٍ أو وسَـخٍ، فيغتَرُّ به صاحبُ التوحيـدِ الذي هو دونَه، فيَخلِطُ توحيدَه الضَّعيـفَ بما خَلَطَ به صاحبُ التَّوحيدِ العظيمِ الكثيرِ توحيدَه، فيظهرُ تأثيرُه فيه ما لم يظهرْ في التَّوحيدِ الكثير.

وأيضًـا فـإنَّ المحلَّ الصَّافيَ جدًّا يظهرُ لصاحبِه مما يُدنِّسُـه مالا يظهر في المحلِّ الذي لم يبلغْ في الصَّفاءِ مبلغه، فيتداركه بالإزالةِ دونَ هذا؛ فإنَّه لا يشعر به.

وأيضًا فإنَّ قوَّةَ الإيمانِ والتوحيدِ إذا كانتْ قويَّةً جدًّا أحالتْ الموادَّ الرَّديئَةَ وقهرَتها، بخلافِ القوَّةِ الضَّعيفةِ.

وأيضًا فإنَّ صاحبَ المحاسنِ الكثيرةِ والغامرةِ للسِّيئاتِ يُسامَحُ بما لا يُسامَحُ به مَنْ أتى مثلَ تلكَ السَّيئاتِ وليستْ له مثل تلك المحاسنِ؛ كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع[1]

(١) البيت ذكره ابن الدمياطي في كتابه «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» (٢١/ ٨ تاريخ بغداد وذيوله)، =

وأيضًا فإنَّ صِدقَ الطَّلبِ وقوَّةَ الإرادةِ وكمالَ الانقيادِ يُحيلُ تلكَ العوارضَ والغواشيَ الغريبةَ إلى مقتضاه وموجبِه، كما أنَّ الكَذِبَ وفسادَ القَصْد وضَعْفَ الانقياد يُحيلُ الأقوالَ والأفعالَ الممدوحةَ إلى مقتضاه وموجبِه، كما يُشاهَد ذلكَ في الأخلاطِ الغالبةِ وإحالتِها لصالحِ الأغذيةِ إلى طبعِها.



= ونسبه لأبي البركات محمد بن أحمد بن زيد المنقري التكريتي المتوفى (٥٩٩هـ)، وذكر له قصيدة كان هذا البيت مِن ضمنها.

مع أني رأيت البيت في «ديوان» جمال الدين ابن نباتة المصري المتوفى (٧٦٨هـ)، (ص: ١٢٢٦)، حيث ذكره خلال قصيدته فقال:

دع من شفيعٍ صحبةً ما أذنبت ... واهنأ بمحبوب الجمال بديع

وإذا الحبيبُ أتى بذنبٍ واحدٍ ... جاءت محاسنه بألفِ شفيع

فَائِدَة

تَـركُ الشَّـهوات لله وإن أنجـى مِن عذابِ الله وأوجـبَ الفوزَ برحمتِـه؛ فذخائرُ اللهِ وكنوزُ البِرِّ ولَذَّة الأنس والشَّوق إليه والفرح والابتهاج به لا تحصُل في قلبٍ فيه غيره وإن كانَ مِـن أهـل العبادة والزُّهد والعلم؛ فإنَّ الله سـبحانه أبى أن يجعـلَ ذخائره في قلبٍ فيه سـواه وهمَّتُـه متعلِّقةٌ بغيره، وإنَّما يودع ذخائرَه في قلبٍ يـرى الفقر غنًى مع[1] الله والغنى فقرًا دون الله، والعزَّ ذلًّا دونه والذُّلَّ عزًّا معه، والنَّعيمَ عذابًا دونه والعذاب نعيمًا معه.

وبالجملة فلا يرى الحياةَ إلَّا به ومعه، والموتَ والألَمَ والهمَّ والغمَّ والحزنَ إذا لم يكن معه؛ فهذا له جنَّتان: جنَّةٌ في الدُّنيا معجَّلةٌ، وجنَّةٌ يوم القيامة.



(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (من).

فائدة

الإنابةُ: هي عُكوف القلبِ على الله عَزَّوَجَلَّ كاعتكافِ البدَن في المسجدِ لا يُفارِقه.

وحقيقـةُ ذلك عُكـوفُ القلبِ على محبَّتـِهِ، وذِكْرِهِ بالإجـلال والتَّعظيم، وعُكوفُ الجوارحِ على طاعتهِ بالإخلاصِ له والمتابعة لرسوله.

ومن لم يَعكُف قلبَه على الله وحده عكَف على التماثيلِ المتنوعة؛ كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

فاقتسـمَ هو وقومه حقيقة العكوف؛ فكان حظُّ قومه العكوفَ على التماثيلِ، وكان حظُّهُ العكوفَ على الرَّبِّ الجليل، والتماثيل جمعُ تمثال وهو: الصُّوَرُ الممثَّلة.

فتعلُّق القلب بغيرِ الله واشتغالِه بِهِ والرُّكونِ إليه عكوفٌ منه على التَّماثيلِ التي قامتْ بقلبِـه، وهو نظـير العكوف على تماثيلِ الأصنام، ولهذا كان شرك عُبَّاد الأصنام بالعكوفِ بقلوبِهِم وهممِهِم وإراداتِهِم على تماثيلهم.

فـإذا كان في القلـبِ تماثيلُ قـد ملكتْه واسـتعبدتْه بحيث يكونُ عاكفًـا عليها؛ فهو نظير عكوف الأصنام عليها[١]، ولهذا سـمّاه النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدًا لها ودعا عليه بالتَّعس والنَّكس، فقـال: «**تَعِسَ عَبْـدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عبـدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ وانتكَسْ، وإذا شِيْكَ فَلَا انتقش**»[٢].

❁ النَّاسُ في هذه الدَّار على جَنَاحِ سَـفرٍ كلّهم، وكلُّ مسـافرٍ فهو ظاعنٌ إلى مقصدِه ونازلٌ على من يُسَرُّ بالنزول عليه، وطالب الله والدَّار الآخرة إنَّما هو ظاعنٌ إلى اللهِ في حالِ سفرِه ونازلٌ عليه عندَ القدُّوم عليه؛ فهذه همَّته في سفرِه وفي انقضائِه.

---

(١) الظَّاهر أنَّ في هذه العبارة نقصًا، والصحيح: (فهو نظير عكوف عُبَّاد الأصنام عليها). والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾

[الفجر: ٢٧ - ٣٠]

وقالت امرأةُ فِرْعون: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]؛ فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكونَ في الجنَّةِ؛ فإنَّ الجار قبل الدار.

من كلام الشيخ علي:

قيلَ لي في نومٍ كاليقظة أو يقظةٍ كالنَّوم:

❁لا تُبدِ فاقةً إلى غيري فأضاعِفَها عليك، مكافأةً لخروجك عن حدِّك في عبوديَّتك.

❁ ابتليتُكَ بالفقرِ لتصير ذهبًا خالصًا، فلا تَزِيْفَنَّ بعد السَّبك.

❁ حكمتُ لك بالفَقرِ ولنفسي بالغنى؛ فإن وصلتَها بي وصلتُك بالغنى، وإن وصلتَها بغيري حسمتُ عنك موادَّ معونتي طردًا لك عن بابي.

❁ لا تركُنْ إلى شيءٍ دوننا، فإنّه وَبالٌ عليك وقاتلٌ لك: إن ركنتَ إلى العملِ رددناه عليك، وإن ركنتَ إلى المعرفةِ نكَّرناها عليك، وإن ركنتَ إلى الوَجْدِ استدرجناك فيه، وإن ركنتَ إلى العلم أوقفناك معه، وإن ركنتَ إلى المخلوقين وكَلْناك إليهم. ارْضَنا لك ربًّا، نرضَاك لنا عبدًا.

❁❁❁

فَائِدَة

الشَّهقةُ التي تَعرِض عند سماع القرآن أو غيره لها أسبابٌ:

أحدُها: أن يَلُوحَ له عند السَّماع درجةٌ ليست له، فيرتاح إليها، فتَحدُث له الشَّهقةُ؛ فهذه شَهقةُ شوقٍ.

وثانيها: أن يَلُوح له ذَنبٌ ارتكبه، فيشهَق خوفًا وحُزنًا على نفسِهِ، وهذه شهقةُ خشيةٍ.

وثالثها: أن يَلُوح له نقصٌ فيه لا يَقدِرُ على دفعه عنه، فيُحدِث له ذلك حزنًا، فيشهَق شهقةَ حزنٍ.

ورابعها: أن يَلُوحَ له كمالَ محبوبه، ويرى الطَّريق إليه مسدودةً عنه، فيُحدِثُ ذلك شهقةَ أسفٍ وحزنٍ.

وخامسُها: أن يكون قد توارى عنه محبوبُهُ، واشتغل بغيره، فذكَّره السَّماعُ محبوبَه، فلاح له جماله، ورأى الباب مفتوحًا والطريقَ ظاهرةً، فشهق فرحًا وسرورًا بما لاح له.

وبكلِّ حالٍ فسبب الشَّهقة قوَّةُ الوارد وضعف المحلِّ عن الاحتمال، والقوَّة أن يعملَ ذلك الوارد عمله داخلًا ولا يظهر عليه، وذلك أقوى له وأدوم؛ فإنَّه إذا أظهره ضعُفَ أثره وأوشكَ انقطاعُه.

هذا حكم الشَّهقة مِن الصَّادقِ؛ فإنَّ الشَّاهق إمّا صادقٌ وإمّا سارقٌ وإمّا منافقٌ.

❀❀❀

قاعدة نافعة

أصلُ الخيرِ والشَّرِ مِن قبل التَّفكُّر؛ فإنَّ الفِكرَ مبدأُ الإرادةِ والطَّلبِ والزُّهدِ والتَّركِ والحبِّ والبُغضِ.

وأنفعُ الفِكر الفِكرُ في مصالحِ المعادِ وفي طُرقِ اجتلابها، وفي دفعِ مفاسد المعاد وفي طُرقِ اجتنابها؛ فهذه أربعة أفكار هي أجلُّ الأفكار، ويليها أربعةٌ: فكرٌ في مصالحِ الدُّنيا وطرق تحصيلها، وفكرٌ في مفاسدِ الدُّنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثَّمانية دارت أفكار العقلاء.

ورأس القسم الأوَّل: الفكرُ في آلاءِ الله ونعمه، وأمره ونهيه، وطرُق العلم به وبأسمائِه وصفاتِه من كتابِه وسنَّة نبيِّه وما والاهما، وهذا الفكرُ يُثمِر لصاحبِه المحبَّةَ والمعرفةَ؛ فإذا فكَّر في الآخرةِ وشرفِها ودوامِها وفي الدُّنيا وخسَّتها وفنائها؛ أثمرَ له ذلك الرَّغبةَ في الآخرةِ والزُّهدَ في الدُّنيا، وكلَّما فكَّرَ في قِصَر الأمل وضيق الوقت أورثَه ذلك الجِدَّ والاجتهادَ وبَذْل الوسع في اغتنام الوقت، وهذه الأفكار تُعلي همتَّه، وتُحييها بعد موتها وسفولها، وتجعله في وادٍ والنَّاس في وادٍ.

وبإزاءِ هذه الأفكار الأفكارُ الرَّديئة التي تجُول في قلوبِ أكثر هذا الخلق:

كالفِكر[1] فيما لم يُكلَّفْ الفِكرَ فيه ولا أُعطيَ الإحاطةَ به من فضولِ العلم الذي لا ينفع؛ كالفِكر في كيفيَّة ذات الرَّبِّ وصفاتِه مما لا سبيلَ للعقولِ إلى إدراكهِ.

ومنها: الفِكرُ في الصِّناعاتِ الدَّقيقةِ التي لا تنفعُ بل تضرُّ؛ كالفِكر في الشّطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتَّصاوير.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (فالفكر).

ومنهـا: الفِكـرُ في العلـومِ التي لو كانت صحيحـة لم يُعطِ الفكرُ فيهـا النَّفسَ كمالًا ولا شرفًـا؛ كالفِكـر في دقائقِ المنطق والعلـم الرياضي والطَّبيعي وأكثر علوم الفلاسـفة، التي لو بلغ الإنسان غايتها لم يكمُلْ بذلك ولم يُزكِّ نفسه.

ومنهـا: الفِكرُ في الشَّـهوات واللَّذَّات وطُرق تحصيلها، وهـذا وإن كان للنَّفس فيه لذَّةٌ، لكن لا عاقبة له، ومضرَّتُه في عاقبةِ الدُّنيا قبلَ الآخرةِ أضعافُ مسرَّته.

ومنهـا: الفِكـرُ فيـما لم يكن لو كان كيـف كان يكون؛ كالفِكر فيما إذا صـار مَلِكًا أو وجـدَ كنزًا أو مَلَـكَ ضَيعةً ماذا يصنـع؟ وكيف يتصرَّف ويأخذ ويعطـي وينتقم؟ ونحو ذلك من أفكارِ السّفلِ.

ومنها: الفِكرُ في جزئياتِ أحوال النَّاس وماجراياتِهم ومَداخلِهم ومَخارجِهم وتوابع ذلك من فِكر النُّفوس المبطلة الفارغة من الله ورسوله والدَّار الآخرة.

ومنهـا: الفِكـرُ في دقائقِ الحِيَل والمكْـرِ التي يتوصَّل بها إلى أغراضـه وهواه؛ مباحةً كانت أو محرمةً.

ومنها: الفِكرُ في أنواعِ الشِّـعر وصُروفِـه وأفانينه في المدحِ والهجاءِ والغزلِ والمراثي ونحوها؛ فإنَّه يَشْغَلُ الإنسان عن الفكرِ فيما فيه سعادتُه وحياتُه الدَّائمة.

ومنهـا: الفِكرُ في المقدَّرات الذِّهنيَّة التـي لا وجود لها في الخارج ولا بالنَّاس حاجةٌ إليها البتَّة، وذلك موجودٌ في كلِّ علم، حتى في علمِ الفِقه والأصول والطِّبِّ.

فكلُّ هذه الأفكار مضرَّتُها أرجح من منفعتها، ويكفي في مضرتها شغْلُها عن الفكر فيما هو أولى به وأعوَدُ عليه بالنَّفع عاجلًا وآجلًا.

قاعدة [١]

❁ الطَّلبُ لِقاحُ الإيمان؛ فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمرا العملَ الصالح.

❁ وحُسنُ الظَّنِّ بالله لِقاحُ الافتقار والاضطرار إليه؛ فإذا اجتمعا أثمرا إجابةَ الدعاء.

❁ والخشيةُ لِقاحُ المحبَّةِ؛ فإذا اجتمعا أثمرا امتثالَ الأوامر واجتناب النَّواهي.

❁ والصَّبرُ لِقاحُ اليقين؛ فإذا اجتمعا أورثا الإمامةَ في الدِّين؛ قال تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجدة: ٢٤].

❁ وصِحَّةُ الاقتداء بالرَّسولِ لِقاحُ الإخلاص، فإذا اجتمعا أثمرا قَبولَ العملِ والاعتداد به.

❁ والعملُ لِقاحُ العلم؛ فإذا اجتمعا كان الفلاح والسَّعادة، وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يُفِدْ شيئًا.

❁ والحِلْمُ لِقاحُ العلم؛ فإذا اجتمعا حصلتْ سيادة الدُّنيا والآخرة، وحصلَ الانتفاع بعلمِ العالم، وإن انفرد أحدُهما عن صاحبه فاتَ النَّفع والانتفاع.

❁ والعزيمةُ لِقاحُ البصيرة؛ فإذا اجتمعا نالَ صاحبها خيرَ الدُّنيا والآخرة، وبلغتْ به همَّتُه من العلياءِ كلَّ مكانٍ؛ فتَخلُّف الكمالاتِ إمَّا من عدم البصيرة وإمَّا من عدم العزيمة.

❁ وحُسْنُ القَصْدِ لِقاحٌ لصحَّةِ الذِّهن؛ فإذا فُقِدا فُقِدَ الخيرُ كلُّه، وإذا اجتمعا أثمرا أنواع الخيرات.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (فصل).

❁ وصحَّـةُ الـرَّأي لِقـاحُ الشَّـجاعةِ؛ فـإذا اجتمعـا كان النَّـصرُ والظَّفَـرُ، وإن فُقِدا فالخُذلان والخَيبة، وإن وُجِدَ الرَّأي بلا شـجاعة فالجُبْنُ والعجزُ، وإن حصلت الشَّجاعة بلا رأي؛ فالتَّهوُّر والعطب.

❁ والصَّبرُ لِقاحُ البصيرةِ؛ فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما؛ قال الحسـن: إذا شـئتَ أن تـرى بصيرًا لا صبرَ له رأيته، وإذا شـئتَ أن تـرى صابرًا لا بصيرةَ له رأيته، فإذا رأيت صابرًا بصيرًا فذاك[١].

❁ والنصيحةُ لِقاحُ العَقْلِ، فكلَّما قَوِيَت النَّصيحةُ قويَ العقلُ واستنار.

❁ والتَّذكُّر والتَّفكُّر كلٌّ منهما لِقاحُ الآخر، إذا اجتمعا أنتجا الزُّهدَ في الدُّنيا والرَّغبة في الآخرة.

❁ والتَّقوى لِقاحُ التَّوكُّلِ؛ فإذا اجتمعا استقام القلب.

❁ ولِقـاحُ أخـذِ أُهبـة الاسـتعداد للِّقـاءِ قِصَرُ الأمـل؛ فـإذا اجتمعا فالخـير كلُّه في اجتماعهما، والشر في فرقتهما.

❁ ولِقاحُ الهمَّةِ العالية النِّية الصَّحيحة؛ فإذا اجتمعا بَلَغَ العبدُ غايةَ المراد.



(١) أخرج ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٦ الأعظمي)، ومن طريقه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (ص: ٥٧ رمضان يوسف)، قَالَ: أَخْبَرَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: «إِذَا شِئْتَ رَأَيْتَ بَصِيرًا لَا صَبْرَ لَهُ، فَإِذَا رَأَيْتَ بَصِيرًا ذَا صَبْرٍ فَهُنَالِكَ». وإسناده صحيح.

قاعدة

للعبدِ بين يدي الله موقفان: موقفٌ بين يديهِ في الصَّلاةِ، وموقفٌ بين يديه يومَ لقائه، فمن قامَ بحقِّ الموقف الأول هُوِّنَ عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يُوفِّه حقَّهُ شُدِّدَ عليه ذلك الموقف.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ۝٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦ - ٢٧].



قاعدة

اللَّذةُ من حيث هي مطلوبة للإنسانِ بل ولكلِّ حيٍّ، فلا تُذَمُّ من جهةِ كونها لذَّةً، وإنَّما تُذَمُّ ويكون تركها خيرًا من نيلها وأنفعَ إذا تضمَّنتْ فواتَ لذَّةٍ أعظمَ منها وأكملَ، أو أعقبتْ ألـمًا حصوله أعظم من أَلَمِ فواتها؛ فها هنا يظهر الفرق بين العاقل الفَطِنِ والأحمق الجاهل؛ فمتى عرف العقلُ التَّفاوتَ بين اللَّذَّتين والألمين، وأنَّه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر؛ هانَ عليه تركُ أدنى اللَّذتَين لتحصيلِ أعلاهما، واحتمالُ أيسرِ الألمينِ لدفع أعلاهما.

وإذا تقرَّرتْ هذه القاعدة فلذَّة الآخرة أعظم وأدومُ، ولذَّة الدُّنيا أصغر وأقصر، وكذلك أَلَمُ الآخرة وأَلَمُ الدُّنيا.

والمعوَّلُ في ذلك على الإيمان واليقين؛ فإذا قويَ اليقينُ وباشرَ القلب آثرَ الأعلى على الأدنى في جانب اللَّذة، واحتملَ الأَلَمَ الأسهلَ على الأصعب. والله المستعان.

❁ ❁ ❁



فَائِدَة

قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]:

جمعَ في هذا الدُّعاء بين: حقيقةِ التَّوحيد، وإظهارِ الفقر والفاقة إلى ربِّه، ووجود طعم المحبَّة في التملُّقِ له، والإقرار له بصفةِ الرَّحمة، وأنَّه أرحم الرَّاحمين، والتوسل إليه بصفاتِه سُبْحَانَهُ، وشدَّة حاجته هو وفقره.

ومتى وَجَدَ المُبتلى هذا كُشِفَتْ عنه بلواه.

وقد جُرِّبَ أنَّه مَن قالها سبع مراتٍ - ولا سيَّما مع هذه المعرفة- كَشَفَ الله ضرَّه.



فَائِدَة

قوله تَعَالَىٰ عن يوسف نبيه: إنَّه قال: ﴿وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]: جمعتْ هذهِ الدَّعوةُ: الإقرارَ بالتوحيدِ، والاستسلامَ للرَّبِّ، وإظهارَ الافتقار إليه، والبَراءةَ من موالاةِ غيره سُبْحَانَهُ، وكون الوفاة على الإسلامِ أجلَّ غايات العبد، وأنَّ ذلك بيدِ الله لا بيدِ العبد، والاعتراف بالمعادِ، وطلب مرافقة السُّعداء.



فائدة

قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]، متضمِّنٌ لكنزٍ من الكنوز، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ لا يُطلَب إلَّا ممّن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيدِه، وأنَّ طلبه مِن غيره طلبٌ ممّن ليس عنده ولا يَقدِرُ عليه.

وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، متضمنٌ لكنزٍ عظيمٍ، وهو أنَّ كلَّ مرادٍ إن لم يُرَدْ لأجلِه ويتّصلْ به وإلا[1] فهو مُضمحِلٌ منقطِعٌ؛ فإنَّه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلَّا إلى الذي انتهت إليهِ الأمور كلّها، فانتهت إلى خلقِه ومشيئتِه وحكمتِه وعلمِه؛ فهو غايةُ كلِّ مطلوبٍ، وكلُّ محبوبٍ لا يُحَبُّ لأجلِه فمحبتُّه عَناءٌ وعذابٌ، وكلُّ عملٍ لا يُراد لأجلِه فهو ضائعٌ وباطلٌ، وكلُّ قلبٍ لا يَصلُ إليه فهو شقيٌّ محجوبٌ عن سعادتِه وفلاحِه.

فاجتمع ما يُراد منه كلّه في قولِه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]، واجتمع ما يُراد له كلّه في قولِه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]؛ فليس وراءه سُبْحَانَهُ غاية تُطلَب، وليس دونه غايةٌ إليها المنتهى.

وتحت هذا سرٌّ عظيم من أسرارِ التوحيد، وهو أنَّ القلبَ لا يستقِرُّ ولا يطمئِنُّ ويَسكُنُ إلَّا بالوصولِ إليه، وكلُّ ما سواه مما يُحَبّ ويُراد فمرادٌ لغيرِه، وليس المراد المحبوب لذاتِه إلَّا واحدٌ إليه المنتهى، ويستحيلُ أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيلُ أن يكون ابتداءُ المخلوقات من اثنينِ.

فمن كان انتهاء محبتّه ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيرِه بطَلَ عليه ذلك، وزال عنه وفارقه أحوجَ ما كان إليه، ومَن كان انتهاء محبتّه ورغبته ورهبته وطلبه هو سُبْحَانَهُ ظَفِرَ بنعيمِه ولذَّته وبهجته وسعادته أبَدَ الآباد.

---

(١) ساقطة من طبعة (المجمع).

العبد دائمًا مُتقَلِّبٌ بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل؛ فهو محتاجٌ بل مضطرٌّ إلى العَون عند الأوامر وإلى اللُّطف عند النوازل، وعلى قدرِ قيامِه بالأوامرِ يحصلُ له مِن اللُّطفِ عند النَّوازل؛ فإن كمَّلَ القيام بالأوامرِ ظاهرًا وباطنًا نالَه اللُّطف ظاهرًا وباطنًا، وإن قام بصُوَرها دون حقائقها وبواطنها نالـه اللُّطف في الظَّاهرِ وقلَّ نصيبُه من اللُّطف في الباطنِ.

فإن قلت: وما اللُّطف الباطن؟

فهو ما يحصُلُ للقلبِ عند النَّوازل من السَّكينةِ والطُّمأنينةِ وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيَستخذِي بين يدي سيده ذليلًا له مُستكينًا ناظرًا إليه بقلبِهِ ساكنًا إليه بروحِه وسِرِّه، قد شَغَله مشاهدةُ لطفه به عن شدَّة ما هو فيه من الألم، وقد غيَّبهُ عن شهودِ ذلك معرفتُه بحُسنِ اختياره له وأنَّه عبدٌ محضٌ يُجرِي عليه سيِّدُه أحكامَه رضيَ أو سخط، فإن رضيَ نال الرضى، وإن سَخِطَ فحظُّه السخط.

فهذا اللُّطف الباطن ثمرة تِلك المعاملة الباطنة؛ يزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها.



فائدة جليلة

لا يزالُ العبدُ منقطعًا عن الله حتى تتَّصل إرادته ومحبَّته بوجهه الأعلى.

والمراد بهذا الاتِّصال: أن تُفضيَ المحبَّةُ إليه وتتعلَّق به وحده، فلا يَحجُبها شيءٌ دونه، وأن تتَّصل المعرفة بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ؛ فلا يَطمِسُ نورَها ظلمةُ التَّعطيل؛ كما لا يَطمِس نورَ المحبة ظلمةُ الشِّرك، وأن يتَّصل ذكره به سُبْحَانَهُ؛ فيزول بين الذَّاكر والمذكور حجابُ الغَفْلَة، والتفاتُه في حالِ الذِّكر إلى غير مذكوره؛ فحينئذٍ:

يتَّصلُ الذِّكر به.

ويتَّصلُ العمل بأوامرِه ونواهيِه؛ فيفعلُ الطَّاعة لأنَّه أُمِرَ بها وأحبّها، ويَترُك المناهيَ لكونِه نُهِيَ عنها وأبغَضَها؛ فهذا معنَى اتِّصال العمل بأمرِهِ ونهيِه، وحقيقته زوال العِلَلِ الباعثة على الفعلِ والتَّركِ من الأغراضِ والحظوظ العاجلة.

ويتَّصلُ التَّوكُّلُ والحبُّ به؛ بحيث يصير واثقًا به سُبْحَانَهُ، مطمئنًّا إليه، راضيًا بحُسنِ تدبيرِه له، غير متّهم له في حالٍ من الأحوالِ.

ويتَّصلُ فَقْرُه وفاقَتُه به سُبْحَانَهُ دون مَن سواه.

ويتَّصلُ خوفُه ورجاؤُه وفرحُه وسرورُه وابتهاجُه به وحدَه؛ فلا يخافُ غيره ولا يرجوه ولا يَفرَحُ به كلَّ الفرح ولا يُسَرُّ به غايةَ السُّرور، وإنْ نالَه بالمخلوقِ بعض الفرح والسُّرور؛ فليس الفرح التَّامُّ والسُّرورُ الكامل والابتهاج والنَّعيم وقرَّة العين وسكون القلب إلَّا به سُبْحَانَهُ، وما سواه إن أعانَ على هذا المطلوب فَرِحَ به وسُرَّ به، وإن حجَبَ عنه فهو بالحزنِ به والوحشةِ منه، واضطراب القلب بحصولِه أحقُّ منه بأن يفرحَ به، فلا فرحةَ ولا سرورَ إلَّا به أو بما أوصل إليه وأعان على مرضاتِه، وقد أخبر سُبْحَانَهُ

أنَّـه لا يُحِـبُّ الفرحين بالدُّنيا وزينتهـا[١]، وأمرَ بالفرحِ بفضلِه ورحمتِه[٢]، وهو الإسـلام والإيمان والقرآن؛ كما فسَّره الصَّحابة والتَّابعون[٣].

والـمقصود أنَّ من اتَّصلتْ له هذه الأمور بالله سُبْحَانَهُ فقد وصل، وإلَّا فهو مقطوعٌ عن ربِّه، متَّصلٌ بحظِّه ونفسِه، ملبَّسٌ عليه في معرفتِه وإرادتِه وسلوكِه.

❁ ❁ ❁

---

(١) وهـو قولـه تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القَصَصِ: ٧٦].

(٢) وهو قوله تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يُونُس: ٥٨].

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ١٩٤) وما بعدها.

قاعدة جليلة

فكَّرتُ في هذا الأمر؛ فإذا أصله:

أن تعلمَ أنَّ النِّعَمَ كلَّها مِنَ الله وحده؛ نِعَمُ الطَّاعاتِ، ونِعَمُ اللَّذَّاتِ، فترغبُ إليه أن يُلهمك ذكرَها ويُوزِعَك شكرَها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، وكما أنَّ تلك النِّعم منه ومِنْ مُجردِ فضله؛ فذِكرُها وشكرُها لا يُنال إلَّا بتوفيقِه.

والذُّنوبُ من خِذلانِهِ وتخلِّيهِ عن عبدِهِ وتَخليتِه بينه وبين نفسه، وإن لم يَكشفْ ذلك عن عبدِهِ فلا سبيلَ له إلى كشفِهِ عن نفسِهِ؛ فإذا هو مضطرٌّ إلى التَّضرُّعِ والابتهالِ إليه أن يدفعَ عنه أسبابها حتى لا تصدر منه، وإذا وقعتْ بحكمِ المقاديرِ ومُقتضى البشريَّة فهو مضطرٌّ إلى التَّضرُّعِ والدُّعاءِ أن يدفعَ عنه موجباتها وعقوباتها.

فلا ينفكُّ العبد عن ضرورته إلى هذه الأصولِ الثَّلاثة، ولا فلاحَ لهُ إلَّا بها: الشُّكر، وطلب العافية، والتَّوبة النَّصوح.

ثمَّ فكرتُ فإذا مدارُ ذلك على الرَّغبةِ والرَّهبةِ، وليسا بيدِ العبد، بل بيدِ مقلِّبِ القلوب ومصرِّفها كيف يشاء؛ فإن وفَّقَ عبدَه أقبلَ بقلبِهِ إليهِ، وملأهُ رغبةً ورهبةً، وإن خَذَلَه تركَه ونفسَه، ولم يأخذْ بقلبِهِ إليه، ولمْ يشأ له ذلك، وما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن.

ثُمَّ فكَّرتُ: هل للتَّوفيق والخذلان سببٌ؟ أم هما بمجرَّد المشيئة لا سببَ لهما؟ فإذا سببهما: أهليَّة المحلِّ وعدمها؛ فهو سُبْحَانَهُ خالق المحالِّ متفاوتةً في الاستعدادِ والقَبولِ أعظم تفاوت؛ فالجمادات لا تَقبل ما يقبله الحيوان، وكذلك النوعانِ كلُّ نوعٍ منهما

متفاوت في القبولِ؛ فالحيوان النَّاطق يقبل ما لا يقبله البهيم[1]، وهو متفاوت في القبولِ أعظم تفاوت، وكذلك الحيوان البهيم متفاوت في القبولِ، لكن ليس بين النوعِ الواحدِ من التفاوت كما بين النَّوع الإنساني.

فإذا كان المحلُّ قابلًا للنِّعمةِ بحيث يعرفها، ويعرفُ قدرها وخطرها، ويشكُر المنعِمَ بها، ويُثني عليه بها، ويُعظِّمُهُ عليها، ويعلم أنَّها من محضِ الجود وعينِ المنَّة من غير أن يكونَ هو مستحقًّا لها ولا هي له ولا به، وإنَّما هيَ لله وحدَه وبهِ وحده، فوحَّده بنعمتِه إخلاصًا، وصَرَفَها في محبَّتِه شُكرًا، وشهدها من محْضِ جوده منَّةً، وعَرَفَ قصوره وتقصيره في شُكرها عجزًا وضعفًا وتفريطًا، وعَلِمَ أنَّه إن أدامها عليه فذلك محضُ صدقته وفضله وإحسانه، وإن سَلَبَه إيَّاها فهو أهلٌ لذلكَ مستحقٌّ له، وكلَّما زادَه من نِعَمِه ازداد ذلًّا له وانكسارًا وخضوعًا بين يديه وقِيامًا بِشُكرِه وخشيةً له سبحانه أن يسلبه إيَّاها لعدم تَوْفِيَتِه شكرها، كما سَلَبَ نعمتَه عمَّن لم يعرفها ولم يَرْعَها حقَّ رعايتها.

فإن لم يشكرْ نعمته وقابلها بضدِّ ما يَلِيقُ أن يقابلَ به سَلَبَه إيَّاها ولا بدَّ.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وهُم الذين عرفوا قَدرَ النِّعمةِ وقَبِلُوها وأحبُّوها وأثنوا على المنعِم بها وأحبُّوه وقاموا بشكرِه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

❀ ❀ ❀

---

(١) هكذا في الأصل، وفي طبعة (المجمع): (لا يقبل مايقبله البهيم).

فصل

وسببُ الخِذْلَان عدمُ صلاحيةِ المحلّ وأهليته وقبوله للنِّعمَة؛ بحيث لو وافتْه النِّعَم لقال: هذا لي! وإنَّما أوتيتُه لأنِّي أهله ومستحقه!

كما قال تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]؛ أي على عِلْمٍ عَلِمَه اللهُ عندي أستحِقُّ به ذلك وأستوجِبُه واستأهِلُه، قال الفرَّاء: أي على فضلٍ عندي، أي كنتُ أهلَهُ ومستحقًا له إذ أُعطِيتُه(١)، وقال مقاتل: يقولُ على خيرٍ عَلِمَهُ الله عندي(٢)، وذكرَ عبدُ الله بن الحارث بن نوفل سليمانَ بن داود فيما أُوتيَ من الملك، ثم قرأ قوله تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، ولم يَقُل: هذا من كرامتي! ثُمَّ ذكرَ قارون وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨](٣)، يعني: أنَّ سُليمان رأى ما أوتيه من فضلِ الله عليه ومِنتهُ وأنَّه ابتُلِيَ به شكره، وقارون رأى ذلك من نفسِهِ واستحقاقِهِ.

وكذلكَ قولُهُ سُبۡحَانَهُۥ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]؛ أي: أنا أهله وحقيقٌ به؛ فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكِهِ!

والمؤمنُ يرى ذلك مُلْكًا لربِّهِ وفضلًا منه مَنَّ به على عبده من غير استحقاقٍ منه، بل صدقةً تَصدَّقَ بها على عبدِهِ وله أنْ لا يتصدَّقَ بها، فلو منعهُ إيَّاها، لم يكن قد منعهُ شيئًا هو له يستحقّه عليه.

فإذا لم يشهدْ ذلك رأى فيه أهلًا ومُستحقًّا، فأعجبتْهُ نفسهُ، وطغتْ بالنِّعمةِ، وعَلَتْ بها، واستطالَتْ على غيرها، فكان حَظُّها منها الفَرَح والفَخْر؛ كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا

---

(١) «معاني القرآن» (٢/ ٣٠٦).

(٢) «تفسير مقاتل بن سليمان» (٢/ ٥٠٦).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ٩٦ العمروي)، وذكره الواحدي في «التفسير البسيط» (١٧/ ٤٥٩).

ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩ - ١٠]؛ فذمَّـهُ باليـأسِ والكُفْرِ عند الامتحـان بالبـلاءِ، وبالفرحِ والفخرِ عند الابتلاء بالنَّعْماء، واستبدل بحمدِ الله وشُكْرِه والثنـاءِ عليه إذ كَشَـفَ عنه البلاءَ قولـه: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾، ولو أنَّـه قال: أذهبَ الله السَّيئاتِ عنِّي برحمتِهِ ومَنِّه لما ذُمَّ على ذلك، بل كان محمودًا عليه، ولكنَّه غَفَلَ عن الـمُنعِمِ بكشفِها ونَسَبَ الذَّهابَ إليها وفَرِحَ وافتخرَ.

فـإذا علـمَ الله سُبْحَانَهُ هـذا مـن قلـبِ عبـدٍ فذلـك مِـن أعظـم أسـباب خذلانـه وتخلِّيـه عنـه؛ فـإنَّ محلَّـه لا تناسـبهُ النِّعْمَـة المطلقـة التَّامَّـة، كـما قـال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ - ٢٣]، فأخـبرَ سُبْحَانَهُ أنَّ محلَّهـم غـير قابلٍ لنعمتِهِ، ومع عـدَمِ القبـول ففيهم مانعٌ آخر يمنع وصولها إليهم، وهـو تولِّيهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحقَّقوها.

وممَّـا ينبغـي أن يُعْلَمَ أنَّ أسـبابَ الخـذلان من بقـاءِ النَّفس على ما خُلِقـتْ عليه في الأصلِ وإهمالها وتخليتها؛ فأسـباب الخذلان منها وفيها، وأسـباب التَّوفيق من جَعْلِ الله سُبْحَانَهُ لهـا قابلـةً للنِّعْمَةِ؛ فأسـبابُ التَّوفيق منـه ومِن فضلِهِ، وهو الخالـق لهذه وهذه؛ كما خَلَـقَ أجـزاءَ الأرض؛ هـذه قابلةٌ للنَّبات وهذه غـير قابلة له، وخلق الشَّـجرَ؛ هذه تَقبلُ الثَّمـرة وهذه لا تقبلهـا، وخلقَ النَّحلةَ قابلةً لأنْ يخرجَ مِـن بُطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه، والزُّنبُور غير قابـلٍ لذلك، وخلـقَ الأرواحَ الطَّيِّبة قابلةً لذكرِهِ وشُكرِهِ ومحبَّتِه وإجلالِه وتعظيمِـه وتوحيـدِه ونصيحة عباده، وخلـق الأرواحَ الخبيثة غيرَ قابلـةٍ لذلك بل لضدِّهِ وهو الحكيم العليم[1].

---

(١) إلى هنا انتهى كتاب الفوائد، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

ملحق

قالَ شيخُ الإسلامِ بَحْرُ العُلومِ مُفتي الفِرَقِ أبو العبَّاس أحمد ابن تَيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَصْلٌ

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ١١].

وقال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال الله تعالى لـمَّا ذكرَ المُرتدَّ والمُكْرهَ بقولِه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٠٦] قال بعدَ ذلك: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

فالناسُ إذا أُرسِل إليهم الرُّسُل بينَ أمرين:

إمَّا أنْ يقولَ أحدُهم آمنَّا، وإمَّا أنْ لا يقولَ آمنَّا، بل يستمرُّ على عمل السَّيئات، فمن قال: آمنَّا امتحنه الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ وابتلاه وألبسه الابتلاء والاختبار ليبيِّن الصَّادق من الكاذب، ومَنْ لم يقُلْ آمنَّا فلا يحسب أنَّه يسبق الرَّبَّ لتجربته، فإنَّ أحدًا لن يُعجِزَ الله تَعَالَىٰ، هذه سنَّته تَعَالَىٰ يرسل الرُّسُلَ إلى الخلق فيكذِّبهم النَّاسُ ويؤذونهم قال تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

ومَنْ آمَنَ بالرُّسُلِ وأطاعهم عَادَوْهُ وآذَوْهُ فابتُلِيَ بما يُؤْلِمُه، وإن لم يُؤْمِنْ بهم عُوقِبَ فحصل ما يؤلمه أعظم وأدوم.

فلا بدَّ من حُصول الألَمِ لكلِّ نَفْسٍ سواء آمَنَتْ أَمْ كَفَرَتْ، لكنَّ المؤمِنَ يَحصَلُ له الألَمُ في الدُّنيا ابتداءً، ثمَّ تكون له العاقبة الدُّنيا والآخرة[1]، والكافر تَحصَلُ له النِّعْمَةُ ابتداءً ثم يَصير في الألَمِ.

سأل رجلٌ الشَّافعيَّ فقال: يا أبا عبد الله! أيُّما أفضل للرجل: أن يُمكَّن أو يُبْتَلى؟ فقال الشافعي: لا يُمكَّنُ حتى يُبْتَلى؛ فإنَّ الله ابْتَلَى نوحًا وإبراهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى ومُحَمَّدًا صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين؛ فلما صَبَرُوا مَكَّنهم؛ فلا يَظُنُّ أحدٌ أنَّه يَخْلُصُ من الألَمِ البتة!

وهذا أصلٌ عظيمٌ فينبغي للعاقل أن يَعْرِفَه، وهذا يَحْصُلُ لكلِّ أحدٍ؛ فإنَّ الإنسانَ مدنيٌّ بالطَّبْعِ، لا بُدَّ له من أن يعيشَ مع النَّاس، والنَّاسُ لهم إراداتٌ وتصوُّراتٌ يَطْلبون

---

(١) هكذا في الأصل، وفي ط: (ثم تكون له العاقبة والآخرة)، وهو خطأ.

منه أن يوافِقَهم عليها، وإن لم يوافِقُوهم آذَوْهُ وعَذَّبُوه، وإن وافَقَهم حَصَلَ له الأذى والعذاب، تارةً منهم، وتارةً من غيرهم.

ومن اخْتَبَرَ أحواله وأحوال النّاس وجَدَ من هذا شيئًا كثيرًا؛كقومٍ يريدون الفَواحِشَ والظُّلْم ولهم أقوالٌ باطِلَةٌ في الدِّين أو شِرْكٌ؛ فهم مُرْتَكِبون بعضَ ما ذكره الله من المحرَّماتِ في قوله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وهُمْ في مكانٍ مشتركٍ كدارٍ جامعةٍ أو خانٍ أو قيساريةٍ[١] أو مدرسةٍو رِبَاطٍ أو قَرْيَةٍ أو دَرْبٍ أو مدينةٍ فيها غيرهم، وهم[٢] لا يتمكَّنون مما لا يريدونه إلَّا بموافقة أولئك أو بسكوتهم عن الإنكار عليهم، فيطلبون من أولئك الموافقة أو السُّكوت؛ فإن وافقوهم أو سكتوا سَلِموا من شَرِّهم في الابتلاء، ثمَّ قد يتسلَّطون هم أنفُسهم على أولئك يُهينونهم ويُعاقبونهم أضعاف ما كانَ أولئك يخافونه ابتداءً، كمن يُطْلَبُ منه شهادةُ الزُّور أو الكلامُ في الدِّين في الباطلِ إمَّا في الخبر وإمَّا في الأمر، أو المعاونةُ على الفاحشة والظُّلم، فإن لم يُجِبهم آذَوْهُ وعادَوْهُ، وإن أجابهم فهم أنفُسُهم يتسلَّطون عليه، فيُهِينُونه ويُؤْذُونه أضعاف ما كان يخافه، وإلَّا عُذِّبَ بغيرهم.

فالواجب ما في حديث عائشة الذي بعثت به إلى معاوية، ويروى موقوفًا ومرفوعًا: «**مَن أرضى الله بسخط النَّاس كفاه الله مؤنة الناس**».

(وفي لفظ: رضي الله عنه وأرضى عنه الناس)، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُغنوا عنه من الله شيئًا». (وفي لفظ: عاد حامدُه من الناس ذامًّا)[٣].

---

(١) هكذا في الأصل، وفي ط: (قيسرية).

(٢) في الأصل: (هم)، وما أثبتناه هو الصواب.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وابن حبان (٢٧٧)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١٥٢٤)، وابن الأعرابي في «المعجم» (٢/ ٣٢٧)، والبيهقي في «الزهد الكبير» برقم (٨٨٦-٨٩٢)، والقضاعي في «مسند =

وهذا يجري فيمن يُعِين الملوكَ والرُّؤساءَ على أغراضِهم الفاسدة، وفيمن يُعِين أهلَ البِدَعِ المنتسبين إلى العِلْمِ والدِّين على بِدَعِهم.

فمَنْ هداه الله وأرْشَده امتنَعَ من فِعْلِ المحرَّم وصَبَرَ على أذاهم وعداوتِهم، ثمَّ تكون لـه العاقِبَةُ في الدُّنيا والآخرة، كما جرى للرُّسِلِ وأتباعهم مع مَنْ آذاهـم وعاداهم؛ مِثْلُ المهاجرين في هذه الأمَّة ومَنْ ابتُلِيَ من عُلمائِها وعُبَّادِها وتُجَّارِها وولاتِها.

وقـد يجوز في بعض الأمور إظْهَارُ الموافقَةِ وإبْطَـانُ المخالَفَةِ؛ كالمكْرَهِ على الكُفْرِ كما هـو مبسـوط في غير هذا الموضع، إذ المقصود هنا: أنَّه لا بـدَّ من الابتلاء بما يُؤْذِي النَّاسَ؛ فلا خلاص لأحدٍ ممَّا يُؤْذِيه البتة.

ولهذا ذكَرَ الله تَعَالَىٰ في غير موضع أنَّه لا بُدَّ أن يَبْتَلِيَ النَّاسَ، والابتلاء يكون بالسَّرَّاءِ والـضَّرَّاء، ولا بـدَّ أن يَبْتَلِيَ الإنسـانَ بما يَسُرُّه وبما يَسُوُؤه فهو محتـاجٌ إلى أن يكون صابرًا شكورًا.

قـال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقـال تَعَالَىٰ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقـال تَعَالَىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، هذا في آل عِمْران،

= الشـهاب» برقم (٤٤٧ و٤٩٩-٥٠١)، من طرق عن عائشـة مرفوعًا، بألفاظ متقاربة، وبمعناه، تامًّا ومختصرًا.

ورواه الترمـذي (٢٤١٤)، وأحمـد في «الزهـد» (٩١٠)، وأبـو داود في «الزهـد» (٣١٥)، والبغـوي في «الجعديـات» (١٥٩٣ عامـر حيدر)، ووكيع القـاضي في «أخبار القضـاة» (١/ ٣٨)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٨٩١)، وفي «الأسماء والصفات» (١٠٥٩)، عن عائشة موقوفًا.

والحديث صحَّحه الشيخ الألباني مرفوعًا في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٣١١).

وقد قال قبل ذلك في البقرة، فإنَّ البقرة نزل أكثرها قبل آل عمران ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وذلك لأنَّ النفسَ لا تَزْكُو وتَصْلُحُ حتى تُمَحَّص بالبَلاءِ؛ كالذَّهبِ الَّذي لا يَخْلُص جَيِّدُه من رَدِيئه حتى يُفْتَنَ في كِيرِ الامتحان؛ إذ كانت النَّفْسُ جاهِلَةً ظالِمَةً وهي مَنْشَأُ كلِّ شَرٍّ يحصل للعبد، فلا يَحْصُلُ له شَرٌّ إلَّا منها، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وقد ذكر عُقُوبَاتِ الأُمَمِ من آدمَ إلى آخر وقت، في كلِّ ذلك يقول: إنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم فهم الظَّالمون، لا المظلُومون، وأوَّلُ مَن اعترف بذلك أبواهم قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، وإبليس إنَّما اتَّبعه الغواة منهم كما قال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

والغيُّ: اتِّباعُ هَوى النَّفس.

وما زالَ السَّلفُ مُعْترفون[1] بذلك كقول أبي بَكْرٍ[2] وعُمَرَ[3] وابْنِ مَسْعودٍ[4]: أقول فيها برأبي فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنِّي ومن الشَّيطان والله ورسولُه بريئان منه.

وفي الحديث الإلهي حديث أبي ذر الَّذي يرويه الرَّسول عن ربِّه عَزَّوَجَلَّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[5].

وفي الحديث الصحيح حديث سَيِّد الِاسْتِغْفَارِ، يَقُولَ الْعَبْدُ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتَ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عليَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَها إذا أصْبَحَ موقنًا بها فماتَ من يَوْمِه دَخَلَ الجنَّة، ومَنْ قَالَها إذا أمْسَى موقنًا بها فَماتَ من لَيْلَته دَخَلَ الجنَّة**»[6].

---

(١) هكذا في الأصل، وفي ط: (معترفين).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة برقم (٣٢٢٥٥)، والدارمي في سننه برقم (٣٠١٥) واللفظ له، من طريق عاصم عن الشعبي قَالَ: سُئِلَ أَبُو بَكْرٍ، عَنِ الْكَلَالَةِ فَقَالَ: «إِنِّي سَأَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ كَانَ صَوَابًا فَمِنَ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ: أُرَاهُ مَا خَلَا الْوَالِدَ وَالْوَلَدَ» فَلَمَّا اسْتُخْلِفَ عُمَرُ، قَالَ: «إِنِّي لَأَسْتَحْيِي اللهَ أَنْ أَرُدَّ شَيْئًا قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ».

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» برقم (٢٠١٣٥).

(٤) أخرجه أبو داود برقم (٢١١٨)، والإمام أحمد برقم (٤٢٧٦، ١٨٤٦٠)، وابن حبان برقم (٤١٠٠)، والحديث صحَّحه الشَّيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٥) أخرجه مسلم برقم (٥٥- ٢٥٧٧)، وهو قطعة من حديث طويل.

(٦) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٦، ٦٣٢٣) من حديث شدَّاد بن أوس، بلفظ: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِى وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَىَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِى، اغْفِرْ لِى، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ**
=

وفي حديث أبي بكر الصديق من طريق أبي هريرة(١) وعبد الله بن عمرو(٢): أنَّ رَسولَ الله ﷺ عَلَّمَه ما يَقُولُه إذا أصْبَحَ وإذا أمْسَى وإذا أخذَ مَضْجَعَه: **«اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ وأن أقْتَرِفَ على نَفْسِي سُوءًا أو أجُرَّه إلى مُسلِمٍ، قُلْهُ: إذا أصْبَحتَ وإذا أمْسَيتَ وإذا أخَذْتَ مَضْجَعَكَ»**.

وكان النبي ﷺ يقول في خُطْبَتِه: **«الْحَمْد لِلهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»**(٣).

= **إِلَّا أَنْتَ. قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»**.

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٦٧)، والإمام أحمد برقم (٥١، ٧٩٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، وليس فيه قوله: (وأن أقترف سوءًا أو أجرَّه إلى مسلم).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» برقم (١٢٠٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد»، ولفظه: عن أبي راشد الحبراني: أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له: حدِّثنا بما سمعت من رسول الله ﷺ، فألقى إليَّ صحيفة فقال: هذا ما كتب لي النبيُّ ﷺ فنظرت فيها، فإذا فيها: إن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل النبيَّ ﷺ قال: يا رسول الله، علِّمني ما أقول إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ، فقال: يا أبا بكر، قل: **«اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ»**.

(٣) أخرجه أبو داود برقم (١٠٩٧، ٢١١٨)، والترمذي برقم (١٢٢٩)، والنسائي برقم (١٤٠٤، ٣٢٧٧)، وابن ماجه برقم (١٨٩٢)، والإمام أحمد برقم (٣٧٢٠، ٤١١٥)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه ابن ماجه برقم (١٨٩٣)، والإمام أحمد برقم (٢٧٤٩) من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والحديث قد خرَّجه مفصَّلًا الشيخ الألباني في كتابه (خطبة الحاجة) فقال (ص: ١٠): وردت هذه الخطبة المباركة عن ستة من الصحابة وهم عبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله ونبيط بن شريط وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وعن تابعي واحد هو الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**إنِّي آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عن النَّارِ وأنْتُم تَهافَتُون تَهافُتَ الفَرَاش**»[1].

شَبَّهَهُم بالفَرَاش لجَهْلِه وخِفةِ حركته، وهي صَغِيرَة النَّفسِ، فإنَّها جَاهِلَة سَرِيعَةُ الحَرَكَةِ.

وفي الحديث: «**مثل القلب مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة**»[2].

وفي حديث آخر: «**للقلب أشدُّ تقلُّبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٨٣)، ومسلم برقم (١٨ - ٢٢٤٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولفظ البخاري: إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدوابُّ التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون فيها.

وأخرجه مسلم برقم (١٩ - ٢٢٨٥) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي**».

وأخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (١٠٥١١) والقضاعي في «مسند الشهاب» برقم (١١٣١) من حديث ابن مسعود بلفظ قريب من لفظ المصنف بإسناد فيه ضعف ولفظه: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يُحَرِّمْ حُرْمَةً إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَطَّلِعُهَا مِنْكُمْ مُتَطَلِّعٌ، أَلَا وَإِنِّي مُمْسِكٌ بِحُجَزِكُمْ أَنْ لَا تَهَافَتُوا فِي النَّارِ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ وَالذُّبَابِ**».

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (٨٨) من طريق يزيد الرقاشي، عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى الأشعري بلفظ: «**مَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ الرِّيشَةِ، تُقَلِّبُهَا الرِّيَاحُ بِفَلَاةٍ**».

وأخرجه الإمام أحمد برقم (١٩٦٦١) من طريق عاصم الأحول، عن أبي كبشة قال: سمعت أبا موسى يقول على المنبر بلفظ: «**إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ**».

ورجح الدراقطني الرفع في الطريقين كما في «العلل» (٧/ ٢٤٧، ٢٥٥).

والحديث صحَّحه الشيخ الألباني كما في «ظلال الجنة» (ص: ٨٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد برقم (٢٣٨١٦) من طريق الفرج بن فضالة عن سليمان بن سليم عن المقداد بن الأسود قال: لا أقول في رجل خيرًا ولا شرًّا حتى أنظر ما يُختم له، يعني بعد شيء سمعته من النبيِّ =

ومَعْلومٌ سُرْعَةُ حركَةِ الرِّيشَةِ والقِدْرِ مع الجَهْلِ، ولهذا يُقال: لمن أطاعَ مَنْ يُغْويه أنَّه: استخَفه، قال عن فرعون إنَّه ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، فإنَّ الخَفيف لا يَثْبُتُ بل يَطِيشُ، وصَاحِبُ اليَقِينِ ثَابِتٌ يقال: أَيْقَنَ إذا كَانَ مسْتَقِرًّا.

واليَقِينُ استقرارُ الإيمانِ في القَلْبِ عِلْمًا وعَمَلًا، فقد يكون عِلْمُ العَبْدِ جَيِّدًا لكنَّ نَفسَهُ لا تَصْبِرُ عند المصَائِب بل تَطيش.

قال الحسن البصري: إذا شئتَ أن ترى بصيرًا لا صبرَ له رأيته، وإذا شئتَ أن ترى صابرًا لا بصيرةَ له رأيته، فإذا رأيتَ بصيرًا صابرًا فذاك[1].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]

ولهذا تشبَّه النَّفس بالنار في سرعة حركتها وإفسادها وغضبها وشهوتها من النار والشيطان من النار.

وفي السُّنن عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **«الْغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَالشَّيْطَانُ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ»**[2].

= ﷺ قيل: وما سمعتَ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اجْتَمَعَتْ غَلْيًا»**.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (١٦٩٨٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» برقم (١٢٣٠) من حديث المقداد بن الأسود أيضًا بلفظ: **«لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَسْرَعُ تَقَلُّبًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلْيًا»**.

وأخرجه أيضًا ابنُ المبارك في كتاب «الزهد» (١/ ٤٩٠) من حديث أبي الدرداء.

والحديث ذكر له الألباني طريقين موصولتين، وصحَّحه. انظر «السلسلة الصحيحة» برقم (١٧٧٢).

(١) أخرجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» (١/ ٦) بلفظ: **«إِذَا شِئْتَ رَأَيْتَ بَصِيرًا لَا صَبْرَ لَهُ، فَإِذَا رَأَيْتَ بَصِيرًا ذَا صَبْرٍ فَهُنَالِكَ»**.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٨٤)، والإمام أحمد برقم (١٧٩٨٥)، والحديث ضعيف، كما في «سلسلة =

وفي الحديث الآخر: «**الْغَضَبُ جَمْرَةٌ تَوَقَّدُ فِي جَوْفِ ابْنِ آدَمَ، أَلَا تَرَى إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ**»(١)، وهو غليان دم القلب لطلب الانتقام.

وفي الحديث المتَّفق على صحَّته: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**»(٢).

وفي الصحيحين: أن رجلين استبَّا عند النبيِّ ﷺ وقد اشتدَّ غضب أحدهما فقال النبيُّ ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»(٣).

وقد قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦]، وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩ - ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨].

❁ ❁ ❁

= الأحاديث الضعيفة» للشيخ الألباني برقم (٥٨٢).

(١) قطعة من حديث طويل أخرجه الترمذي برقم (٢١٩١)، والإمام أحمد برقم (١١١٤٣، ١١٥٨٧) من حديث أبي سعيد الخدري، والحديث ضعيف كما في «ضعيف سنن الترمذي» للشيخ الألباني.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٠٣٨، ٢٠٣٩، ٣٢٨١، ٧١٧١)، ومسلم برقم (٢٤- ٢١٧٥) من حديث علي بن الحسين عن صفيَّة زوج النبيِّ ﷺ.
وأخرجه مسلم برقم (٢٣-٢١٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦١١٥)، ومسلم برقم (١٠٩- ٢٦١٠) من حديث سليمان بن الصرد رضي الله عنه.

فهرس الموضوعات


مكتبة الصفوة
لخدمات الطباعة
٠٠٢٠٠١١٢٤٩٠٨٠٨٨